

قصص العرب

تأليف
محمد أحمد طه المولى
علي محمد البجاوي
محمد بن الفضل إبراهيم



المكتبة العربية
مستند - بيروت

قِصَصُ الْعَرَبِ

تأليف

محمّد أحمد جاد المولى - عليّ محمّد البجّاوي

محمّد أبو الفضل إبراهيم

المجلد الرابع

منشورات المكتبة العصرية

طيدا - بيروت

حقوق الطبع محفوظة للناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ — هذا هو الجزء الرابع من كتاب « قصص العرب » وهو الأخير أيضاً ؛ ويمتاز هذا الجزء عما سبقه من الأجزاء بأنه يجمع بين دفتيه طائفة كبيرة من القصص التي وضعها الكتاب من العرب قاصدين بها تصوير المجالس والأشخاص، والقصص التي نسبوها للطير والحيوان ، والتي حكوها عن شياطين الشر أو تخيلوها عن الجن ، واخترعوا لها من اللفظ الرشيق ما يفصح عن أغراضهم ، ومن القول الجزل ما يبلغ إرادتهم ؛ وسبيلهم في كل ما رَوَوْا الوضع والخيال . وبهذه المجموعة وما سبقها يتسقى في كتاب واحد نصيب حسن من أروع ما خلفه العرب من قصص تاريخي وموضوع ، وواقعي ومتخيل ، ويتم الفرص الذي قصدنا إليه من : « عرض شامل لحياة العرب : مدنياتهم وحضارتهم ، وعلومهم ومعارفهم ، وأديانهم وعقائدهم ، وذكر لعوائدهم وشمائلهم ، وما طبعوا عليه من كريم الغرائز وحنة الذكاء ، ثم ما كان للمرأة عندهم من سامى المكانة وعظيم المنزلة ، وما أثر عنهم من أخبار صوروا بها حبهم العفيف ، وغزلهم الرقيق ، وعشقهم الشريف . . . وما كان لهم من محاورات ومُسَاجَلات ، ومطايبات ومناقلات ، وما نقله الرواة من أحوال العامة والملوك ، وطرف القضاة والولاة ، وأخبار الأيام والحروب . . . »^(١) .

٢ - ولقد ظهرت الأجزاء السابقة من الكتاب ، فلقيت من ثناء الكتاب ، وإقبال القراء واحتفال الصحف والمجلات في العالم العربي جميعه ما جعلنا نزداد إيماناً وبقيناً بأن الحاجة إليه كانت ماسة ، وأنه سيسدّ في المكتبة العربية فراغاً كبيراً ؛ ولسنا نحاول في هذه الكلمة أن ننقل كل ما تحدّثوا به عن الكتاب ؛ ولكننا نُورد قُلّاً من كثر مما ذكروه مؤيِّداً للغاية التي قصدنا إليها :

قالت صحيفة الأهرام الغراء : « . . . وما من شك في أن عمل المؤلفين يتجاوز الجمع والطبع ، إلى التبويب وال ضبط والتحقيق ، وهو قبل هذا قائم على حسن الاختيار والدقة في النقل ، فهم شديداً الحرص على ألا تقع العين في كتابهم إلا على القصص المهدّبة ، والنوادر الرفيعة التي تحت على مكارم الأخلاق .

ولقد كان أكثر المربين يدعون إلى تهذيب الكتب القديمة ، وإبرائها من الأخبار والاشعار التي تنكرها الأخلاق الكريمة ؛ ولكن مؤرخي الأدب وعلماء اللغة لم يؤيدوا هذه الدعوة ؛ لأنهم يشفقون منها على تراثنا الأدبي وفاء لحق التاريخ ، واحتفاظاً للكتب القديمة بمقومات شخصيتها .

وظل الرأي حائراً بين المربين ورجال اللغة والأدب : الأولون يريدون ألا يقرأ الشباب العربي إلا المهدّب الرفيع ، والآخرون يحرصون على أن يبقى للكتب القديمة عناصر شخصيتها ، وتراثها التاريخي .

واليوم يظهر كتاب « قصص العرب » فيوفق بين الرأيين جميعاً ؛ فهو لا يمس تراثنا الأدبي بالتعديل والتغيير ، ولكنه في الوقت نفسه لا يحرم الشباب العربي فضل الانتفاع به والاتصال بماضيه ؛ فهو يترك الكتب القديمة كما هي : للعلماء والمؤرخين ، ويختار منها ما يهيج للشبيبة أن تقرأه ، فيعرضه عليهم في أسلوب مهذب .

فالآن نستطيع أن نُوجِّه الدعوة إلى الشباب ، لكي يتصلوا ببلقثهم ، ويتعرفوا إلى ماضيها بقراءة هذه المختارات المهدّبة ، التي عاجلت ما نشكوه من سقم وخشونة واضطراب ، وأعفتهم من بعض أخبارهم التي لا نرضى للشبان قراءتها...^(١) » .

وقالت صحيفة البلاغ في كلمتها عن الجزأين الأول والثاني : « ... يشتمل الجزءان اللذان صدرا من هذا الكتاب على خلاصة ما في نحو مائة مؤلف قديم من أروع أقاصيص العرب التي انحدرت عنهم مصوِّرة لجميع مظاهر حياتهم العامة .

وقد رتبت هذه الأقاصيص بعد تهذيبها ، وتأليف ماتنافر منها في أمهات المراجع إلى أقسام وأبواب في هذين الجزأين وماسوف يليهما ، حتى صارت في وضعها الجديد أقرب نسقاً واتصالاً إلى هيئة القاموس ، وانتظام موارده .

والحق أن هذه الطرائف المختارة ، والنوادر المنتقاة ، وهي مادة ما عند العرب من قصص كانت أحوجَ شيء منذ زمن بعيد إلى مثل هذا المعجم القصصي الذي اصطنعه المؤلفون لأروع مخلفات العرب...^(٢) » .

وقالت صحيفة الهاتف^(٣) :

« ... صدر في ظروف ملائمة جداً لتوجيه الأفكار إلى نفسيّة العرب الذاتية وجبيلتهم الطبيعية ، وصفاتهم الثابتة ، فكان كصورة ناطقة بما كان يتحلّى به العربي من الصفات النادرة ، وتصوير مجتمعه تصويراً صادقاً في كل حركاته وسكناته ؛ وهي صورة إن لم يكن لها إلا فائدة تنبيه الأمة العربية الحاضرة إلى ما كان يتّصف

(١) ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٩ .

(٢) ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٩ (من مقال للأستاذ أحمد صبري) .

(٣) تصدر في النجف ، ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ هـ .

به العربُ الأقدمون من شهامة وغيره وحمية ، لكننى ذلك نفعا في هذا الوقت الذى تنشر فيه الأمة العربية مجدّها ، وتحاول الاقتداء بما كان يتعلّى به العربى قديما من جمال الصفات ، وسمو الغايات ، لتبنى من كل ذلك وحدة روحية تحقق لها مطالبها المشروعة . . . »

٣ — هذا وقد لاحظ بعض الكتاب أننا لم نورد في كتابنا شيئا من القصص التى قامت عليها كتب ألف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة بن شداد ، وذات الهمة ، وأخبار ابن ذى يزن ، وغيرها مما يشبهها . . . وعذرنا في ذلك أن هذه القصص كتب قائمة بذاتها ، معروفة بأعيانها ، وكثير منها — كما أوردنا في مقدمة الكتاب — تافه الغرض ، مبهم القصد ، ردى اللغة والأسلوب . وإنما كان همنا أن نختار القصص الحسنة التى زخرت بها كتب الأدب القديمة ، واختفت تحت ركام من رداءة الطبع واضطراب النصوص ؛ ثم ما كان منها نبيل المقصد شريف الغاية جيد الأسلوب ، فكان من مجموعها « . . . معرض ثمين ، عرضت فيه أفانين جميلة من روائع البلاغة العربية ، وبدائع الأساليب ، وطرائف الصور الأدبية من جهة ؛ وعرضت فيه من جهة أخرى : ألواح جليلة مشرقة من حياة العرب فى شتى جهاتها وألوانها وصورها ، فبرز العرب فى هذا الكتاب أناسا أحياء يرؤحون ويفدون أمام عينيك بأخلاقهم وشمائلهم وسجاياهم ، بعاداتهم وتقاليدهم وشرائعهم ، بألوان معاشهم ومشاربهم ، بأحاسيسهم ومشاعرهم وأذواقهم ، وبكل ما تحفل به حياة العرب الأولين من مجالى الذهن والعقل والشعور . . . »^(١) .

وأخذ بعضهم علينا أيضا أننا لم نستوعب القصص التى تضمنت أيام العرب

(١) الهاتف ١٦ رجب سنة ١٣٥٨ هـ .

المشهورة ، وملاحهم الماثورة ؛ على كثرتها . والعذر في ذلك أننا حين عالجنا الاختيار من هذه الأيام وجدناها تضم في أثنائها كثيراً من الشر ، وتحمل في طياتها كثيراً من الحوادث ، وأنها مضطربة الروايات محرفة النصوص ، فهي لذلك تستأهل أن أن تُفرد بكتاب خاص . ونحن آخذون بحول الله في وضع هذا الكتاب ، ونأمل ألا يمضي كبير زمن حتى يكون في يد القراء إن شاء الله^(٢) .

وفي كل حال تتوجه إلى الله العلي الكبير شاكرين له ما وفقنا إليه من إتمام هذا الكتاب ضارعين إليه أن يسبغ عليه حسن القبول ؟

المؤلفون

صفر سنة ١٣٦٧
يناير سنة ١٩٤٨

(٢) هذا ما كتبناه في مقدمة الطبعة الأولى . ويسرنا أن نقول : إننا وفينا بوعدها ، فخرجنا كتاب « أيام العرب في الجاهلية » ، وكتاب « أيام العرب في الإسلام » وما بأيدي القراء .

مقدمة الطبعة الرابعة

هذا كتابنا « قصص العرب » تقدمه إلى أدباء العربية في طبعته الرابعة ، بعد أن نفذت طبعته الثالثة ، وازداد الأدباء إقبالاً على اقتنائه وتقديرأ له .

وكنا قد تلقينا رسائل من بعض أفاضل الأدباء يرغبون إلينا فيها أن نذل الطريق إلى قراءة الكتاب ؛ فنكثر من ضبط الكلمات ، وتزيد من شرح المفردات ، فعملنا على تحقيق رغبتهم ، وبذلنا غاية الجهد في تحريره وتحقيقه ، وزدنا في شرح كلماته وضبط أعلامه .

ونرجو أن يكون ذلك كفاء لما تلقيناه من رسائل الأدباء ، ولما تفضلت به صحف الشرق العربي من إشادة .

ونسأل الله أ به النفع بقدر ما بذلنا من جهد ، ورجونا من خير .

المؤلفون

رمضان سنة ١٠٣٨٢
فبراير سنة ١٩٦١

البَابُ الْأَوَّلُ

في القصص التي تصِفُ ما عقَدوه من مجالس
الطرب ، وحفَلات الغناء ، وما أثاروه من أسباب
المنافسة بين المُنَافِسِينَ ، قاصدين الترفيه عن النفوس ،
وجلاء الهم ، وتهذيب المشاعر ، وترقيق الوجدان .

١- الشُّعْرُ وَالْغِنَاءُ*

كان معاوية يُعَيِّبُ على عبد الله بن جعفر^(١) سماعَ الغناء ، فأقبل معاوية عامًا حاجبًا ؛ فنزل المدينة ، فمرَّ ليلةً بدار عبد الله بن جعفر ، فسمع عنده غناءً على أوتار ، فوقف ساعةً يستمع ، ثم مضى وهو يقول : أستغفر الله ، أستغفر الله !
فلما انصرف من آخر الليل مرَّ بداره أيضًا ، فإذا عبدُ الله قائمٌ يصلي ، فوقف ليسمع قراءته ، فقال : الحمد لله ، ثم مضى وهو يقول : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » .

فلما بلغ ابن جعفر ذلك أعدَّ له طعامًا ، ودعاه إلى منزله ، وأحضر ابن صياد المُنْفَى ، ثم تقدم إليه وهو يقول : إذا رأيت معاويةً واضعاً يده في الطعام ، فحركْ أوتارَكَ وغنَّ ؛ فلما وضع معاوية يدهُ في الطعام حرك ابنُ صياد أوتاره وغنى بشعر عدي بن زيد - وكان معاويةُ يحبُّ به :

يَا بُنَيَّ أَوْقَدْ نَارًا إِنَّ مَنْ تَهَوَّنَ قَدْ حَارَا^(٢)
رَبِّ نَارٍ رِيَّةً أَرْمُقُهَا تَقْضِمُ الْهِنْدِيَّ وَالْأَزَا^(٣)

* العقد الفريد : ٤ - ٩٨ ، الأغاني : ٢ - ١٤٧

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كان كريمًا جوادًا ، يحب البذل ويرتاح للطاء ، وأخباره في السكرم والسماع كثيرة ، توفي سنة ٩٠ هـ (٢) حار : ضل (٣) الغار : شجر طيب الريح ، وهو شجر البندرية .

عندها ظبيٌ يُؤجِّبها عاقِدٌ في الخصر زُناً^(١)

فأعجب معاويةَ غناؤه حتى قبضَ يده عن الطعام ، وجعل يضربُ برجله الأرض طَرَباً ؛ فقال له عبدُ الله بن جعفر : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان ، فهل ترى به بأساً ؟ قال : لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان .

(١) الزنار : ماعلى وسط النصارى والمجوس ، وقد روى هذا البيت في الأغاني :

عندها ظبي يؤثرها عاقِد في الجيد تقصارا

يؤثرها : يوقدها ويكثر حطبها . والتقصار : القلادة .

٢- قُلْ لِلْكَرَامِ يَا بَنِي آيِلِجُوا

بَيْنَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ فِي أَرْقَةِ الْمَدِينَةِ إِذْ سَمِعَ غَنَاءً ، فَأَصْنَى إِلَيْهِ ، فَإِذَا بِصَوْتِ
مُسَيَّبٍ رَقِيقٍ أَقْيَمَةٍ تَغْنَى :

قُلْ لِلْكَرَامِ يَا بَنِي آيِلِجُوا مَافِي التَّصَابِي عَلَى الْفَتَى حَرَجُ

فَنَزَلَ عَبْدُ اللَّهِ عَنْ دَابَّتِهِ : وَدَخَلَ عَلَى الْقَوْمِ بِلَا إِذْنٍ ؛ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامُوا إِلَيْهِ
إِجْلَالًا ، وَرَفَعُوا مَجْلِسَهُ ؛ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ ، فَقَالَ : يَا بَنِي عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ؛
دَخَلْتَ مَنْزِلَنَا بِلَا إِذْنٍ ، وَمَا كُنْتَ لِهَذَا بِخَلِيقٍ ؛ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : لَمْ أَدْخُلْ إِلَّا بِإِذْنِ .
قَالَ : وَمَنْ أَذْنُ لَكَ ؟ قَالَ : قَيْدَتُكَ هَذِهِ ، سَمِعْتُهَا تَقُولُ :

✽ قُلْ لِلْكَرَامِ يَا بَنِي آيِلِجُوا ... ✽

فَإِنْ كُنَّا كَرَامًا فَقَدْ أَذِنَ لَنَا ، وَإِنْ كُنَّا لُثَامًا خَرَجْنَا مَذْمُومِينَ ؛ فَضَحِكَ
صَاحِبُ الْمَنْزِلِ وَقَالَ : صَدَقْتَ ، جُمِلْتَ فِدَاكَ ! مَا أَنْتَ إِلَّا مِنْ أَكْرَمِ الْأَكْرَمِينَ .
ثُمَّ بَعَثَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَى جَارِيَةٍ مَرَّ جَوَارِيهِ ، فَقَالَ لَهَا : غَنِّي ، فَغَنَّتْ ؛ فَطَرَبَ
الْقَوْمُ ، وَطَرَبَ عَبْدُ اللَّهِ ، فَدَعَا بِثِيَابٍ وَطِيبٍ ؛ فَكَسَا الْقَوْمَ وَصَاحِبَ الْمَنْزِلِ ،
وَطِيبَهُمْ ، وَوَهَبَ لَهُ الْجَارِيَةَ ، وَقَالَ لَهُ : هَذِهِ أَحْذَقُ بِالْغَنَاءِ مِنْ جَارِيَتِكَ .

٣- عبد الله بن جعفر ضيف طويس *

كان عبد الله بن جعفر معه إخوان له في عَشِيَّةٍ من عَشَايَا الرِّبْعِ ، فراحَت عليهم السماء بمطرٍ جَوْدٍ^(١) ، فَأَسْأَلَ كُلُّ شَيْءٍ ، فَقَالَ عبد الله : هل لكم في العَقِيقِ^(٢) ؟ فركبوا دوابهم ، ثم اتَّهَوْا إليه ، فوقفوا على شاطئه ، وهو يرمي بالزَّبَدِ مثل مَدِّ الْفُرَاتِ . وإنهم لينظرون إذ هاجتِ السماء ، فقال عبد الله لأصحابه : ليس معنا جَنَّةٌ^(٣) نَسْتَجِنُ بها ، وهذه سماءُ خَلِيقَةٍ أَنْ تَبُلُ ثِيَابَنَا ، فهل لكم في منزل طُوَيْسٍ^(٤) فإنه قريب منا فنستكن فيه ويحدُّ ثَنَا وَيُضَحِّكُنَا - وطويس في النَّظَّارَةِ يسمع كلامَ عبد الله بن جعفر .

فقال له عبدُ الرحمن بن حسان بن ثابت : جُعِلَتْ فداك ! وما تريد من طويس عليه غضب الله ! هو يَشِينُ مَنْ عَرَفَهُ ! فقال له عبد الله : لا تقل ذلك فإنه مليح خَفِيفٌ لنا فيه أنس .

فلما استوفى طُوَيْسٌ كلامهم تعجَّلَ إلى منزله فقال لا مراة : ويحك ! قد جاءنا عبدُ الله بن جعفر سيِّدُ الناس ، فما عندك ؟ قالت : نذبحُ هذه العناق^(٥) - وكانت عندها عُنَيْقَةٌ قَدْ رَبَّيْتُهَا بِاللَّبَنِ - وَأَخْبَزْتُ خُبْزاً رُقَاقاً . فبادر فذبحها ، وَعَجَنَتْ هِيَ .

ثم خرج فتلَقَّاهُ مُقْبِلًا إليه ؛ فقال له طُوَيْسٌ : بأبي أنت وأُمِّي ! هذا المطرُ ،

* الأغاني : ٣ - ٣٢

(١) الجود : المطر الغزير ، أو مالا مطر فوقه (٢) العقيق : متزه أهل المدينة في أيام المطر والربيع (٣) الجنة : ما استترت به (٤) اسمه عيسى بن عبد الله ، وطويس لقب غلب عليه ، وهو أول من غنى في الإسلام ، وكان ظريفاً عالماً بأمر المدينة وأنساب أهلها . (٥) العناق : الأنثى من ولد المعز .

فهل لك في المنزل فنستكن فيه إلى أن تكف السماء ؟ قال : إياك أريد . قال :
فامضي يا سيدي على بركة الله . وجاء يمشي بين يديه حتى نزلوا ، فتحدّثوا حتى
أدرك الطعام ، فقال : بأبي أنت وأمي ! تكرموني إذا دخلت منزلي بأن تتعشى
عندي ؟ قال : هات ما عندك . فجاء بعنّاق سمينة ورقاق . فأكل وأكل القوم
حتى تملّثوا ^(١) ، فأعجبه طيب طعامه ؛ فلما غسلوا أيديهم قال : بأبي أنت وأمي !
أتمشي معك وأغنيك ؟ قال : افعل يا طويس ، فأخذ ملحفة فأتزر بها ، وأرعى
لها ذنبتين ، ثم أخذ المربع ^(٢) فتعشى ، وأنشأ يفتي :

يا خليلى نابي سهدي	لم تمّ عيني ولم تكدر
فشرابي ما أسيغ وما	أشكي ما بي إلى أحد
كيف تلحوني ^(٣) على رجل	آنس تلتذّه كيدي
مثل ضوء البدر طلعت	ليس بالزميلة النكد ^(٤)
من بني آل المفيرة لا	خامل نكس ولا ججد ^(٥)
نظرت يوما فلا نظرت	بمدّه عيني إلى أحد

فطرب القوم ، وقالوا : أحسنت والله يا طويس ! ثم قال : يا سيدي ؛ أتدري
لمن هذا الشعر ؟ قال : لا ، والله ما أدري لمن هو . إلا أني سمعت شعراً حسناً . قال :
هو لفارعة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت في عبد الرحمن بن الحارث بن هشام
الغزوي . فنكس القوم رؤوسهم ، وضرب عبد الرحمن برأسه على صدره ^(٦) ،
فلوشقت الأرض له لدخل فيها .

(١) تملّثوا : امتلأوا من كثرة الأكل (٢) المربع : آلة من آلات الطرب (٣) لاه
يلحوه : لاهه (٤) الزميلة : الجبان الضعيف (٥) النكس : الضعيف لا خير فيه . والججد :
القليل الخير (٦) ضرب برأسه على صدره : أطرق استعياها ونجلا ، وهو يريد بعبد الرحمن
عبد الرحمن بن حسان بن ثابت .

٤. سَقُونِي وَقَالُوا لَا تُفْنِ*

جلس عبدُ الله بن جعفر يوماً عند عبد الملك بن مروان ، فحدثه عن إقلال^(١) ابن أبي عتيق وكثرة عياله ؛ فأمره عبد الملك أن يبعث به إليه ، فأثاء ابن جعفر فأعلمه بما دار بينه وبين عبد الملك وبعثه إليه .

فدخل ابنُ عتيق على عبد الملك ؛ فوجده جالسا بين جاريتين قائمتين عليه تميسان^(٢) كغصنَي بَانٍ ، بيد كل جارية مروحة ، تروح بها عليه ، مكتوب بالذهب في المروحة الواحدة :

إِنِّي أَجْلِبُ الرِّياحَ وَبِي يَلْعَبُ الخَلِجُ
وَحِجَابٌ إِذَا الحَيِّدُ بُنِيَ الرَّاسَ لِلْقُبُلِ
وَعِياثٌ إِذَا النَّدِيمُ تَغَنَّى أَوْ ارْتَجَلَ

وفي المروحة الأخرى :

أَنَا فِي الكَفِّ لَطِيفُهُ مَسْكِنِي قَصْرُ الخَلِيفَةِ
أَنَا لَا أَصْلَحُ إِلَّا لظَرْفٍ أَوْ ظَرْفِهِ
أَوْ وَصِيفٍ حَسَنٍ الْقَدِّ شَبِيبِهِ بِالْوَصِيفَةِ

قال ابنُ أبي عتيق : فلما نظرتُ إلى الجاريتين هوَّنتا الدنيا عليَّ ، وأنستاني سوء حالي ، ثم قلت : إن كانتا من الإنس فما نساؤنا إلاَّ من البهائم ، فلما كُرتُ بصرى فيهما تذكرت الجنة ، فإذا تذكرت امرأتى - وكنت لها مُحِبًّا - تذكرت

* العقد الفريد : ٤ - ٩١

(١) فقر . (٢) تميسان : تنبخران .

النار ، وبدأ عبد الملك يتوجّع لى بما حكى له ابنُ جعفر عني ، ويخبرني بما لى عنده من جميل الرأي ؛ فأكذبتُ له كلّ ما حكاه له ابنُ جعفر عني ، ووصفت له نفسى بغايةِ المَلَا والجِدَّة^(١) ؛ فامتلاً عبد الملك سروراً بما ذكرت له وغماً بتكذيب ابن جعفر .

فلما عاد إليه ابنُ جعفر عاتبه عبد الملك على ما حكاه عني ، وأخبره بما حَلَّيْتُ^(٢) له نفسى ، فقال : كذب ، والله يا أمير المؤمنين ، وإنه أحوجُ أهل الحجاز إلى قليلِ فضلك ، فضلاً عن كثيره .

ثم خرج عَبْدُ اللَّهِ فلقيني ، فقال : ما حملك على أن كذبتني عند أمير المؤمنين ؟ قلت : أفكنت ترانى وقد أجلسنى بين شمس وقر ، ثم اتَّفَقَرُ^(٣) عنده ! لا والله ، ما رأيت ذلك لنفسى ، وإن رأيت لى .

فلما أعلم بذلك عَبْدُ اللَّهِ بن جعفر عبد الملك بن مروان قال : فالجاريَتان له . قال ابنُ أَبِي عَتِيق : فلما صارتا إلى زرتُ عبد الله بن جعفر فوجدته قد امتلاً فرحاً وهو يشربُ ، وبين يديه عُسٌّ^(٤) فيه عسل ممزوج بمسك وكافور ، فقال : مهيم^(٥) ؟ قلت : قد والله قبضتُ الجاريتين ، قال : فاشرب ، فتناولت العُسَّ ، فجرعت منه جرعة ، فقال لى : زِدْ ، فأيدتُ عليه ، فقال لجارية له عنده تُفَنِّيهِ : إن هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين فخذى فى نعتهما ، فحركت الجارية العود ثم غنت :

(١) المَلَا : سمة العيش . والجِدَّة : التقى (٢) حلى نفسه : وصف حالته (٣) تفأقر : أظهر الفقر (٤) العُس : القدح العظيم (٥) كلمة استفهام : أى ما حالك وما شأنك ؟ أو ما وراءك ؟ أو أحدث لك شىء ؟

عهدى بها في الحى قد جردت صفراء مثل المهرة الضامير
قد حَجَمَ^(١) الندى على نحرها في مشرق ذى بهجة ناضر
لو أسندت ميتاً إلى صدرها قام ولم ينقل إلى قابر^(٢)
حتى يقول الناس مما رأوا : يا عجباً للميت النـاشـر
فلما سمعتُ الأبيات طربت ، ثم تناولتُ العُس ، فشربت عللاً^(٣) بعد
نَهْل ، ورفعت عقيرتى أغنى :
سَقَوْنِي وقالوا : لا تُغْنِ ولو سَقَوْا جبال حُتَيْنِ ما سَقَوْنِي لَغْنَتِ

(١) حَجَمَ الندى : نُهِدَ (٢) قبره يقبره : دفنه ، أى إلى دافن (٣) العلل : الشرية الثانية ،
أو الشراب بعد الشراب تباعاً ، والنهل : الشراب الأول .

٥ - عبد الله بن جعفر عند جميلة*

جلست جميلة^(١) يوماً للوفادة عليها ، وجعلت على رءوس جواربها شعوراً
مُسَدَّه كالعناقيد إلى أعجازهن ، والبسْنهن أنواع الثياب المصبغة ، وَوَضَعَتْ فوق
الشعور التيجان ، وزَيَّنَّهن بأنواع الحلى .

ووجهت إلى عبد الله بن جعفر تستزيره ، وقالت لكاتب أملت عليه :
« بأبي أنت وأمي اقدرك يحلُّ عن رسالتي ، وكرمك يحتمل زلتى ، وذنبي
لا تقال عثرته ، ولا تُغفر حوبته^(٢) ؛ فإن صفحت فالصفح لكم معشر أهل
البيت يؤثر ، والخير والفضل كله فيكم مدَّخر ، ونحن العبيد وأنتم الموالى .
فطوبى لمن كان لكم مجاوراً ، وبِعزكم قاهراً ، وبضيائكم مُبصراً ! والويل لمن
جهل قدركم ، ولم يعرف ما أوجبهُ الله على هذا الخلق لكم ! فصغيركم كبير ،
بل لا صغير فيكم ، وكبيركم جليل ، بل الجلالة التى وهبها الله عز وجل للخلق
هى لكم ، ومقصورة عليكم ؛ وبالكتاب نسألك ، وبحق الرسول ندعوك - إن
كنت نشيطاً - لمجلس هيئاته لك ، لا يحسن إلا بك ، ولا يتم إلا معك ، ولا
يصلح أن ينقل عن موضعه ، ولا يسلك به عن طريقه » .

فلما قرأ عبد الله الكتاب قال : إنا لنعرف تعظيمها لنا ، وإكرامها لصغيرنا
وكبيرنا ، وقد علمت أنها قد آلت أليّة^(٣) ألا تغنى أحداً إلا فى منزلها . وقال

* الأغاني : ٨ - ٢٢٧

(١) هى جميلة مولاة بنى سليم ، كانت أصلاً من أصول الفناء ، وعنها أخذ معبد وابن عائشة
وحبابة وسلامة وغيرهم من الفنين والغنيات ، توفيت سنة ١٢٥ هـ تقريباً (٢) الحوبة : الإثم
(٣) آلت : أقسمت يمينا .

لرسول : والله قد كنتُ على الركوب إلى موضع كذا ، وكان في عزمي المرور بها ؛
فأما إذ وافق مُرادها فإني جاعلٌ بعد رجوعي طريقى عليها .

فلما صار إلى بابها أدخلَ بعضَ مَنْ كانَ معه إليها وصرفَ بعضهم . فنظر إلى
ذلكُ الحُسنِ البارِعِ والهيئةِ الباذةِ^(١) ، فأعجبه ووقعَ من نفسه ؛ فقال : يا جميلة ؛
لقد أتيتَ خيراً كثيراً ! ما أحسنَ ما صنعتِ ! فقالت : يا سيدي ؛ إن الجميلَ للجميلِ
يصلُحُ ، ولكَ هيأتُ هذا المجلسَ .

فجلسَ عبدُ الله بنُ جعفرٍ ، وقامت على رأسه ، وقامت الجوارى صفتين ؛ فاقسم
عليها فجلستَ غيرَ بعيدٍ . ثم قالت : يا سيدي ؛ ألا أغنيكَ ، فقال : بلى ! ففنتَ :

بنى شَيْبَةَ^(٢) الحمدِ الذي كانَ وجهُهُ يُضِيُّ ظلامَ الليلِ كالقمرِ البدرِ
كهُولِهِمْ خَيْرُ الكحولِ ونَسْلُهُمْ كنسلِ الملوكِ لا يَبُورُ ولا يَحْرِي^(٣)
أبوكم قُصَى كانَ يُدْعَى مُجَمِّمًا بهِ جَمَعَ اللهُ القَبَائِلَ من فِهرِ

فقال عبدُ الله : أحسنتِ يا جميلة ! باللهُ أعيدَ بهِ على ، فأعادته ؛ فجاء الصوتُ
أحسنَ من الارتجالِ . ثم دعت لكلَ جاريةٍ بعورٍ ، وأمرتهنَّ بالجلوسِ على
كراسي صغارٍ قد أعدتها لهنَّ ، فضربنَ ، وغنت عليهن هذا الصوتُ وغنى جواريهَا
على غنائها .

فلما ضربن جميعاً قال عبدُ الله : ما ظننتُ أنَّ مثلَ هذا يكونُ ! وإنه لَمِثٌّ
يفتِنُ القَلْبَ !

ثم دعا بـبغلته فركبها وانصرف إلى منزله - وقد كانت جميلةٌ أعدت طعاماً
كثيراً - فقال لأصحابه : تخلّفُوا للغداء فتغدّوا وانصرفوا مسرورين .

(١) الهيئة الباذة : الغالبة الفاتكة (٢) شيبَةُ الحمد : لقب عبد الطالب بن هاشم ، وهو جد عبد الله
ابن جعفر (٣) يبور : يهلك ، ويحرق : ينقص .

٦- بَيْتَانِ مِنَ الشُّعْرِ*

قال أبو عبيد : أتيتُ جميلةَ يوماً ، وقد ظننتُ أني سبقتُ الناسَ إليها ، فإذا مجلسها غاصتُ ؛ فسألتُها أن تعلمني شيئاً ، فقالت لي : إنَّ غيرك قد سبقك ، ولا يحملُ تقديمك على مَنْ سواك . فقلت : جُعِلْتُ فداك ! متى تفرُّغين ممن سبقني ؟ قالت : هو ذاك ، الحقُّ يسمعك ويسمعهم .

فبينما نحن كذلك إذ أقبل عبدُ الله بن جعفر - وإنه لأوَّلُ يومٍ رأيته وآخره ، وكنت صغيراً كيساً^(١) ، وكانت جميلةً شديدةَ الفرح - فقامت وقام الناس ، فتلقَّتهُ وقبلتْ رجليه ويديه ، وجلس في صدرِ المجلس على كَوْمٍ^(٢) لها ، وتحوَّقَّ^(٣) أصحابه حوله ، وأشارت إلى مَنْ عندها بالانصراف ، وتفرق الناس ، وغمرَني ألا أبرحَ ، فأقمتُ . وقالت : يا سيدي وسيد آبائي وموالي ؛ كيف نشطتَ إلى أن تنقل قدميك إلى أمِّك ؟ قال : يا جميلة ؛ قد علمتُ ما آليتِ على نفسك ألا تغني أحداً إلا في منزلك ، وأحببتُ الاستماع . قالت : جُعِلْتُ فداك ! فأنا أصبرُ إليك وأكفرُ . قال : لا أكلفُك ذلك ، وبلغني أنك تُغنين بيتين لاسرى القيس تجيدين الغناء فيهما ، وكان الله أنقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت . قالت : يا سيدي ، نعم ! فاندفعتُ تُغني ، فغنَّت بِمُودِها ؛ فما سمعتُ منها قبل ذلك ، ولا بعد إلى أن

* الأغاني : ٨ - ١٩٨

(١) كيس : عاقل (٢) الكوم : المواضع المشرفة ، واحدتها كومة (٣) تحوَّق القوم حوله : استداروا وأحاطوا به .

ماتت ، مثل ذلك الغناء ، فسبح عبد الله بن جعفر والقوم معه ، وهما :
ولما رأت أن الشربة همها وأن البياض من فرائصها دامي
تيممت العين التي عند ضارج بني عليها الظل ، عزمضها طامي^(١)

فلما فرغت قالت جميلة : أي سيدي ؟ أزيدك ؟ قال : حسبي . فقال بعض
من كان معه : بأبي جعلت فداك ! وكيف أنقذ الله من المسلمين جماعة بهذين
البيتين ؟ قال : نعم ، أقبل قوم من أهل اليمن ، يريدون النبي صلى الله عليه وسلم ؛
فضلوا الطريق ، ووقعوا على غيرها ، ومكثوا ثلاثاً لا يقدرّون على الماء ، وجعل
الرجل منهم يستذري^(٢) بني السمر والطلح يائساً من الحياة إذ أقبل راكب
على بعيره ، وأنشد بعض القوم هذين البيتين ، فقال :

ولما رأت أن الشربة همها وأن البياض من فرائصها دامي
تيممت العين التي عند ضارج بني عليها الظل عزمضها طامي

فقال الراكب : من يقول هذا ؟ قال : امرؤ القيس . قال : والله ما كذب ،
هذا ضارج عندكم ، وأشار لهم إليه ، فحبّوا على الركب فإذا ماء عذب ،
وإذا عليه العزمض والظل بني عليه ، فشربوا منه ريّهم ، وحملوا ما اكتفوا به
حتى بلغوا الماء .

(١) الضمير في رأت للعمر ، والشربة : مورد الماء الذي تشرب فيه الدواب ، وهما : طلبها ،
والفرصة : اللحم الذي بين الكنف والصدر ، وضارج : موضع في بلاد بني عبس ، والعزمض :
الطحلب ، وطام : عال مرتفع ، يريد أن الحر لما أرادت شربة الماء خافت على أنفسها من الرماة
وأن تدي فرائصها من سهامهم ، فعدلت إلى ضارج لعدم الرماة على العين التي فيها (٢) يستذري :

فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه وقالوا : يا رسول الله ! أحيانا الله عز وجل
بيتين من شعر امرئ القيس ، وأنشدوه الشعر . فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : ذلك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسى في الآخرة ، خامل
فيها ، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار . فكل استحسن الحديث .
ونهض عبد الله بن جعفر ، ونهض القوم معه ؛ فما رأيت مجلسا كان أحسن
من مجلسه .

٧- ماذا فعلت بزاهد متعبد*

قال الأصمعي : قدم عراقي بعدل^(١) من سُخَّرَ العراق إلى المدينة ، فباعها كلها إلا السود ؛ فشكا ذلك إلى الدارمي^(٢) ، وكان قد تنسك وترك الشعر ولزم المسجد ، فقال : ما تجمل لي على أن أحتال لك بحيلة حتى تبيعها كلها على حكمك ؟ قال : ماشئت ! فعمد الدارمي إلى ثياب نسكه ، فألقاها عنه ، وعاد إلى مثل شأنه الأول ، وقال شعراً رفعه إلى صديق له من المغنين ، فغنى به ، وكان الشعر :

قُلْ للمليحة في الخمار^(٣) الأسود ماذا فعلت بزاهد متعبد
فقد كان شمر للصلاة ثيابه حتى خطرت له بياب المسجد
رُدِّي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمد

فشاع هذا الفناء في المدينة ، وقالوا : قد رجع الدارمي ، وتمشق صاحبة الخمار الأسود ، فلم تبق مليحة بالمدينة إلا اشترت خماراً أسود ، وباع التاجر جميع ما كان معه ، فجعل إخوان الدارمي من النساء يلقون الدارمي فيقولون : ماذا صنعت ؟ فيقول : ستعلمون نبأه بعد حين ، فلما نفذ ما كان مع العراقي رجع الدارمي إلى نسكه ولبس ثيابه !

* المعقد الفريد : ٤ - ٩٦

(١) العدل : نصف الحمل (٢) هو ربيعة بن عامر ، واقبه مسكين ، ويصل نسبه إلى دارم بن مالك ، كان شاعراً شريفاً من سادات قومه ، وقد غلب شعره في مدح معاوية ، توفي سنة ٩٠ هـ .
(٣) الخمار : النصف ، وما تغطي به المرأة رأسها .

٨ - دُعَابَةُ ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ*

لما دخل المدينة عُثْمَانُ بْنُ حَيَّانَ الْمُرِّيَّ وَالْيَا^(١) عليها اجتمع الأشرافُ عليه من قريشٍ والأنصار ؛ فقالوا له : إنك لا تعملُ عملاً أجْدَى ولا أولى من تحريم الغناء والرثاء^(٢) ، ففعل وأجل أهلها ثلاثاً يخرجون فيها من المدينة .

فقدم ابنُ أبي عتيق^(٣) في الليلة الثالثة ؛ فخطَّ رحله بباب سلامة^(٤) ، وقال لها : بدأتُ بكِ قبل أن أصيرَ إلى منزلي ؛ فقالت : أو ماتدرى ما حدث ؟ وأخبرته الخبر ! فقال : أقيمى إلى السحر حتى ألقاهُ ! فقالت : إنا نخاف ألا تُغنى شيئاً ، وننكظ^(٥) . فقال : إنه لا بأسَ عليك !

ثم مضى إلى عُثْمَانَ فاستأذنَ عليه ، فأذنَ له وسلمَ عليه ، وذكر له غيبته ، وأنه جاء ليقضى حقه ، وقال له : إن من أفضلِ ماعملتَ تحريمَ الغناء والرثاء . قال : إن أهلكَ قد أشاروا علىّ بذلك . قال : فإنك قد وفَّقتَ ! ولكنى رسولُ امرأةٍ إليك تقول : قد كانت هذه صناعتى فتبَّنتُ إلى الله منها ، وأنا أسألكَ أيُّها الأميرُ ألا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال عُثْمَانُ : إذن أدعها لك ولكلامك . قال : لا يدعُك الناسُ ؛ ولكن

* الأغاني : ٨ - ٣٤١ ، الكامل : ١ - ٣٨٠ ، ذيل زهر الآداب : ٤٤

(١) دخل المدينة والياً للوليد بن عبد الملك سنة ٩٣ هـ (٢) الرثاء : يريد النياحة بالمرأى ، وفي رواية الأغاني غير ذلك (٣) هو عبد الله بن أبي عتيق بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق : كان من نساك قريش وظرفائهم ، وله أخبار طويلة طريفة (٤) سلامة الزرقاء : من مولدات المدينة ، وكانت أحسن الناس وجهاً وأعمى عقلاً ، وأجودهم حديثاً ، قرأت القرآن ، وروت الأشعار ، وأخذت الغناء من جيلة مولاة بنى سليم (٥) تنكظ : تنالنا شدة .

تدعو بها ونسمع كلامها ، وتنظر إليها ، فإن كانت ممن يُترك تركتها ، قال :
فأذع بها .

فأمرها ابنُ أبي عتيق ، فتخشعت ، وأخذتُ سُبْحَةً في يدها ، وصارت إليه ،
وحدثته ؛ فإذا هي من أعلم الناس بالناس ؛ فأعجب بها ، (بتدثته عن آباءه وأمورهم ،
ففسكه^(١)) لذلك ، فقال لها ابنُ أبي عتيق : اقرئي للأمير ؛ فقرأت له . فقال لها :
احدي للأمير ، فحركه حداؤها^(٢) . ثم قال لها : غيري^(٣) للأمير ؛ فجعل
يعجب بذلك عثمان ، فقال له ابنُ أبي عتيق : فكيف لو سمعتها في صناعتها !
فقال : قل لها فلتقل فأمرها ففعلت :

سَدَدُنْ خَصَاصَ^(٤) الخيم^(٥) لا دَخَلْنَهُ بِكُلِّ لَبَانٍ^(٦) واضِحٍ وجَبِينِ
فنزل عثمان بن حيان عن سريره ، حتى جلس بين يديها ، ثم قال : والله
ما مثلك يخرج عن المدينة !

فقال له ابنُ أبي عتيق : يقول الناس أذنَ لسلامة في المقام وأخرج غيرها ؛
فقال له عثمان : قد أذنتُ لهم جميعاً !

(١) فسكه لها : طابت نفسه (٢) الحداء : غناء خلف الإبل تنشط به (٣) التغير : ضرب
من النساء اتخذهن المتصوفة يتواجدون على أنقامه (٤) الخصاص : خروق واسعة في الخيم قدر الوجه ،
الواحدة خصاصة ، وهو يصف نساء تطلعن منها (٥) الخيم : أعواد تنصب في القميط ، وتعمل
لها عوارض ، وتظلل بالشجر ، فتكون أبرد من الأخبية (٦) اللبان : العود .

٩- لَحْنٌ لِّجَمِيلَةٍ*

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : حدثتني عَمَّتِي - وكانت أَسَنَ من أبي وعُمَرَّتْ بعده - قالت : كان السببُ في طلب أبيك الغناء والمواظبة عليه لحناً سمعه لجميلة في منزل يونس بن محمد الكاتب ، فأنصرف وهو كئيبٌ حزينٌ مهومٌ ، لم يَطْعَمْ^(١) ولم يُقْبَلْ علينا بوجهه كما كان يفعل . فسألتُه عن السبب فأمسك ، فألَحَّحْتُ عليه فانتَهَرَني ، وكان لي مُكْرِمًا ؛ ففضِيتُ وقتُ من ذلك المجلس إلى بيتٍ آخر ؛ فتتبعني وترضاني ، وقال لي : أحذُّك ولا كتمان منك ! عشقتُ صوتاً لامرأة قد ماتت ، فأنا بها وبصوتها هائمٌ ، إن لم يتدارَكْنِي الله منه برحمته . فقلت : أظنُّ أن الله يُحْيِي لك ميتاً ! قال : لا . قلت : فما نعليك قلبك بما لا يُعطاه أحد ! وأما عشقُك الصوت فهو أن تحذِّقَهُ وتُغَنِّيَهُ عشرَ مرارٍ ، فتَمَلُّهُ ويذهبَ عشقُك له ! فكأنه أَرعوى ورجع إلى نفسه ، وقام فقبل رأسي ويدي ورجلي ، وقال لي : فَرَجَّتْ عني ما كنتُ فيه من الكَرْبِ والفَمِّ ، ثم تَمَثَّلَ :

* حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُهْمِّ *

ولزم بيت يونس حتى حَذَقَ الصوتَ ، ولم يَمُكِّثْ إلا زمناً يسيراً حتى مات يونس ، وانضمَّ إلى سَيَّاطِ^(٢) ، وكان من أحذق أهل زمانه بالغناء وأحسنهم أداءً عَمَّنْ مَضَى .

* الأغاني : ٨ - ٢٢٠

(١) لم يطعمه : لم يتناول له الطعام (٢) اسمه عبد الله ، مكي من موالى خزاعة ، وهو أستاذ ابن جابر وإبراهيم الموصلي ، وكان مقدماً في الغناء ، رواية وصنعة ، مات في أيام الهادي .

قالت عمتي : فقات لإبراهيم : وما الصوتُ ؟ فأنشدني الشعر ولم يُحسن
أداء الغناء :

مِنَ الْبَكَرَاتِ عِرَاقِيَّةٌ تَسْمَى سُبَيْعَةَ أَطْرَيتُهَا
مِنَ آلِ بَكْرَةَ الْأَكْرَمِينَ خَصَصْتُ بِوُدِّي فَأَصْفَيْتُهَا
وَمِنْ حُبِّهَا زُرْتُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَأَسْخَطْتُ أَهْلِي وَأَرْضَيْتُهَا
أَمُوتُ إِذَا شَحَطْتُ دَارُهَا وَأَحْيَا إِذَا أَنَا لَا قَيْمًا
فَأَقْسِمُ لَوْ أَنَّ مَا بِي بِهَا وَكُنْتُ الطَّيِّبَ لِدَاوَيْتُهَا

قالت عمتي : هذا شعرٌ حسنٌ ، فكيف به إذا ما قُطِعَ ومُدِّدَ ! فامضتِ
الأيامُ والليالي حتى سمعتُ اللحنَ مؤدَّى ؛ فاخرق مسامعي شيء قطُّ أحسنُ منه ؛
ولقد أذكّرني بما يؤثّر من حسنِ صوتِ داودَ وجمالِ يوسف .

فبينما أنا يوماً جالسةٌ ، إذ طلع عليّ إبراهيمُ ضاحكاً مستبشراً ؛ يُقال لي :
ألا أحدٌ لك بعَجَب ؟ قلت : وما هو ؟ قال : إن لي شريكاً في عشق صوت جميلة !
قلت : وكيف ذلك ؟ قال : كنت عند سيّاط في يومنا هذا ، وأنا أغنّيهِ الصوت ،
وقد وقّفتُ فيه على شيء لم أكن أحكّمتهُ عن يونس ، وحضر عند سيّاط شيخٌ
نبيل ، فسبّح ^(١) على الصوت تشبيهاً طويلاً ؛ فظننت أنه فعل ذلك لاستحسانه
الصوت . فلما فرغتُ أنا وسيّاط من اللحن قال الشيخ : ما أعجب أمرَ هذا الشعر ،
وأحسن ما غنّي به ، وأحسن ما قال قائله !

فقلت له دون القوم : وما بلغ من العَجَب به ؟ قال : نعم ! حَبِطَتْ سُبَيْعَةُ

(١) سبح : قال : سبحات الله !

من ولد عبد الرحمن بن أبي بَكْرَةَ ، وكانت من أجل النساء ، فأبصرها عمر بن أبي ربيعة^(١) ، فلما انحدرت إلى العراق اتبعها يشيعها حتى بلغ معها موضعاً يقال له : الخوزنق . فقالت له : لو بلغت إلى أهلي ، وخطبتني لزواجك . فقال لها : ما كنت لأخلط تشييعي إياك بخطبة ، ولكن أرجع ثم آتيكم خاطباً ؛ فرجع ومرة بالمدينة ، فقال فيها :

من البكرات عراقية تُسَمَّى سُبَيْعَةَ أطريبتها

ثم أتى بيت جميلة ، فسألها أن تغني بهذا الشعر ففعلت . فأعجبه ما سمع من حسن غنائها وجودة تأليفها ؛ فحسن موقع ذلك منه ؛ فوجه إلى جارية له كانت تطلب الغناء أن تأتي جميلة ، وتأخذ الصوت منها ، فطارحتها إياه أياماً حتى حدقت ومهرت به . فلما رأى ذلك عمر قال : أرى أن تخرجي إلى سُبَيْعَةَ وتغنيها هذا الصوت وتبأفها رسالتي ؛ قالت : نعم ، جعلني الله فداك .

فأتتها فرحبت بها ، وأعلمتها الرسالة ، فحييت وأكرمت ، ثم غنتها فكادت تموت فرحاً وسروراً لحسن الغناء والشعر .

ثم عادت رسول عمر ، فأعلمته ما كان ، وقالت له : إنها خارجة في تلك السنة .

فلما كان أوان الحج استأذنت سُبَيْعَةَ أباه في الحج ، فأبى عليها ، وقال لها : قد حجبجت حججة الإسلام . قالت له : تلك الحجة هي التي أسهرتني ليلي ، وأطالت نهاري ، وتوقفتني إلى أن أعود وأزور البيت والقبر ؛ وإن أنت لم تأذن لي ميت كمدأ وعمأ .

(١) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة ، شاعر مشهور ، كان يفد على عبد الملك بن مروان فيكرمه ، وتوفي سنة ٩٣ هـ .

فلما رأى ذلك أبوها رقاً لها ، وقال : ليس يسعني منعها لِمَا أرى بها ؛ فأذن لها
ووافى عمرُ المدينة ليعرف خبرَها ؛ فلما قدمت علم بذلك ، وسألهما أن تأتي
منزل جميلة ، وقد سبقَ إليها عمرُ ، فأكرمتهما جميلة ، وسُرَّتْ بمكانها . فقالت لها
سُبَيْعة : جعلني الله فِدَاكِ ! أفلقتني وأسهرني صوتكِ بشعرِ عمرَ فيَّ ، فأسمعيني إياه .
قالت جميلة : وعَزَّازَةٌ لوجهكِ الجميل ! فغَنَّتْها الصوت ؛ فأغْمى عليها ساعةً
حتى رُش على وجهها الماء ، وثاب إليها عقلُها . ثم قالت : أعيدى عليَّ ، فأعادت
الصوت مراراً في كل مرة يُغَشَّى عليها .

ثم خرجت إلى مكة وخرج معها . فلما رجعت مرَّت بالمدينة وعمرُ معها ؛
فأنت جميلة فقالت لها : أعيدى عليَّ الصوتَ ففعلت ؛ وأقامت عليها ثلاثاً تسألها
أن تعيدَ الصوت ، فقالت لها جميلة : إني أريد أن أغنيك صوتاً فأسمعه . قالت :
هاتيه ياسيدتي ؛ فغَنَّتْها :

أبتِ المليحةُ أنْ تُوَاصِلَنِي وَأظُنُّ أَنِّي زَائِرٌ رَمْسِي ^(١)

لا خيرَ في الدنيا وزينتها مالمْ تُوَافِقْ نَفْسَهَا نَفْسِي

لا صَبْرَ لي عنها إذا حَمَرَتْ كالبدرِ أوقرنِ من الشمس

قالت سُبَيْعة : لولا أن الأول شعر عمر لقد مِتُّ هذا على كل شيء سمعته

فقال عمر : فإنه والله أحسنُ من ذلك ؛ فأما الشعر فلا . قالت جميلة :

صدقت والله !

١٠- في أيام الحج *

حجَّ عمرُ بنُ أبي ربيعةَ في عامٍ من الأعوام على نجيبٍ له ، مخضوبٍ بالحناء مشهَّر الرَّحْل بِقِرَابٍ ^(١) مُذْهَبٍ ^(٢) ، ومعه عُبيدُ بنُ سُريجٍ على بغلةٍ له شقراء ، ومعه غلامه جَنَادٌ ^(٣) ، يقودُ فرساً له أذمَّ أغرَّ مُحَجَّلًا وكان عمر بن أبي ربيعة يسميه « الكوكب » في عنقه طوق ذهب . ومع عمر جماعةٌ من حشمه وغلمانهم ومواليه ، وعليه حلة موشية يمانية وعلى ابن سُريج ثوبان هرويان ^(٤) مرتفعان ، فلم يمرُّوا بأحدٍ إلا عجبَ من حسن هيئتهم ، وكان عمرُ من أَعْظَرَ الناس وأحسنهم هيئة ، فخرجوا من مكة يوم التروية ^(٥) بعد العصر يريدون مِثْنَى .

فمروا بمنزل رجل من بني عبد مناف بمِثْنَى ، قد ضُرِبَتْ عليه فَسَاطِيطُهُ ^(٦) وخِيَمُهُ ، ووافى الموضعَ عمرُ فأبصر بنتاً للرجل قد خرجت من قُبَّتِهَا ، وسترجوارِهَا دون القبة لئلا يراها من مرٍّ ، فأشرف عمرُ على النجيب ، فنظر إليها ، وكانت من أحسن النساء وأجملهن ، فقال لها جوارِهَا : هذا عمرُ بن أبي ربيعة ، فرفعت رأسها

* الأغاني ١ : ٢٥٩

(١) القراب : جراب السيف . (٢) الإذهاب : الطلاء بالذهب (٣) في جناد يقول عمر :

فقلت، لجناد خذ السيف واشتمل
عليه برفق وارقب الشمس تغرب
وأسرج لي الدهماء واشعل بمطري
ولا تعلمن خلقاً من الناس مذهبي

(٤) ثوب هروى : منسوب إلى هراة (٥) يوم التروية : الثامن من ذي الحجة لأن الماء كان قليلاً يعني فكانوا يرتبون من الماء لما بعد (٦) الفسطاط : ضرب من الأبنية ، وجمعه فساطيط .

فنظرت إليه ، ثم سترتها جواربها وولّا يدها ^(١) عنه ، حتى دخلت ، ومضى عمر إلى منزله وفسأطيطه بمنى ، وقد نظر من الجارية إلى ما تيمه ، ومن جمالها إلى ما حيره ؛ فقال فيها :

نظرت إليها بالمحصب ^(٢) من منى	ولى نظرت - لولا التعرج - عارم ^(٣)
فقلت : أشمس أم مصايح بيعة ^(٤)	بدت لى خلف السجف أم أنت حالم
بعيدة مهوى ^(٥) القرط إما لنوفل	أبوها وإما عبد شمس وهاشم
ومدّ عليها السجف يوم لقيتها	على عجل تباعها والخوانم
فلم أستطعها غير أن قد بدّالنا	على الرغم منها كفتها والمعاصم
معاصم لم تضرب على البهم ^(٦) بالضحي	عصاها ووجّهه لم تلحه السام
نضير ترى فيه أساريع مائه ^(٧)	صبيح تغاديه الأكف النواجم
إذا ما دعت أترابها فاكتنفها	تمايّن أو مالت بهن المآكم ^(٨)
طابن الصبا حتى إذا ما أصبته	نزعن وهن المسلمات الطواليم

ثم قال لابن سريج : يا أبا يحيى ؛ إني تفكرت في رجوعنا مع العشيّة إلى مكة مع كثرة الزحام والغبار وجلبة الحاج ، فشغل على ؛ فهل لك أن نروح رواحاً طيباً معزلاً ، فنرى فيه من راح صادراً إلى المدينة من أهلها ، ونرى أهل العراق

(١) الوليدة : الأمة وجمعها ولائد (٢) المحصب : موضع رى الجار بمنى (٣) عارم : حاد
(٤) البيعة : كنيسة النصارى (٥) بعيدة مهوى القرط : كناية عن طول العنق (٦) البهم : جمع بهمة ، وهى الصغير من أولاد الضأن (٧) أساريع الماء : طرائفه ، والمراد أنه يترق فى ماء الشبّاب (٨) المآكم : جمع مأكمة وهى المعيزة .

والشام ، وتعلل^(١) في عثيتنا وليلتنا ونستريح ؟ قال : وأنتي ذلك يا أبا الخطاب ؟
قال : على كئيب أبي شحوة^(٢) ، المشرف على بطن يأجج^(٣) بين منى ومرف ،
فنبصر مرور الحاج بنا ونراهم ولا يرونا . قال ابن سريج : طيب والله ياسيدي .
فدعا بعض خدمه فقال : اذهبوا إلى الدار بمكة ، فاعملوا لنا سفرة^(٤) ،
واحملوها مع شراب إلى الكئيب ، حتى إذا أبردنا^(٥) ، ورَمِينَا الجِذْرَةَ^(٦)
صِرْنَا إليكم .

فصارا إليه فأكلا وشربا ، فلما انتشيا أخذ ابن سريج الدف فنقره ، وجعل
يننى ، وهم ينظرون إلى الحاج ، فلما أمسيا رفع ابن سريج صوته فغنى في الشعر الذي
قاله عمر ، فسمعه الرُّكبان فجعلوا يصيحون به : يا صاحب الصوت ؛ أما تتق الله
فقد حَبَسَتْ الناس عن مناسكهم ! فيسكت قليلا ، حتى إذا مضوا رفع صوته ، وقد
أخذ فيه الشراب : فيقف آخرون ، إلى أن مرَّت قطعة من الليل ؛ فوقف عليه
في الليل رجل على فرس عتيق^(٧) عربي مَرِح مُسْتَنّ^(٨) ، فهو كأنه تميل ، حتى
وقف بأصل الكئيب وثني رجله على قَرَبُوسٍ^(٩) سَرَجِيه ، ثم نادى : يا صاحب
الصوت ؛ أيسهل عليك أن ترُدَّ شيئاً مما سمعته ؟ قال : نعم ونعمة عين^(١٠) ،
فأيها تريد ؟ قال . تعيد عليّ^(١١) .

(١) تعلل : تنهى وتغفل (٢) موضع على خمسة أميال من مكة (٣) يأجج : موضع قرب
مكة (٤) السفرة : طعام يتخذ للمسافر (٥) أبردنا : دخلنا في آخر النهار (٦) الجذرة :
واحدة جرات الناسك وهي ثلاث جرات (٧) العتيق : الفرس الرائع لكريم (٨) يقال
استن الفرس ، جرى في نشاطه على سننه في جهة واحدة (٩) القربوس : قدم السرج ومؤخره
(١٠) أفعل ذلك لإنعاماً لعينك وإكراماً (١١) الشعر لقيس بن ذريح .

أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ مَالِكٌ كُلَّمَا نَعَبْتَ يَفْقَدَانِ عَلَى تَحُومٍ
أَيُّ الْبَيْنِ مِنْ عَفْرَاءٍ أَنْتَ مُخَبِّرِي عَدِمْتُكَ مِنْ طَيْرٍ فَأَنْتَ مَشُومٌ
فأعاده ، ثم قال له ابن سُرَيْج : ازدد إن شئت ، فقال : غَنَّنِي :

أَمْسَلَمْ ^(١) إني - يابن كل خليفة ويا فارس الهيجا ويا قمر الأرض -
شكرتك إن الشكر حَبْلٌ مِنَ الثَّقَى وما كل من أقرضته نعمة يقضي
ونوّهت لي باسمي وما كان خاملاً ولكن بعض الذكر أنبه من بعض
فغناء ، فقال له : الثالث ، ولا أستزيدك ، فقال : قل ماشئت ، فقال :
تغنيني ^(٢) :

يَا دَارُ أَقْوَتٍ ^(٣) بِالْجَزْعِ فَالْكُتْبِ ^(٤) بَيْنَ مَسِيلِ الْمَذِيبِ ^(٥) فَالْوَحْبِ ^(٦)
لَمْ تَتَقَنَّعْ بِفَضْلِ مِثْرَهَا دَعْدٌ وَلَمْ تُسَقِ دَعْدٌ فِي الْعَلْبِ
فغناء ، فقال له ابن سُرَيْج : أَبَقَيْتَ لَكَ حَاجَةٌ ؟ قال : نعم ، تنزل إلي
لأخاطبك شِفَاهًا بما أريد ، فقال له عمر : انزل إليه ، فنزل ، فقال له : لولا أني
أريدُ وَدَاعَ الْكُمْبَةِ وَقَدْ تَقَدَّمَنِي ثَقْلِي ^(٧) وَغُلْمَانِي لَأَطْلُتُ الْمَقَامَ مَعَكَ ، وَلَنَزَلْتُ

(١) يريد مسلمة بن عبد الملك . والشعر لأبي نخيلة الحماني (٢) نسب هذا الشعر في اللسان - مادة
(دعد) - لجرير وورد فيه كما يأتي :

يادار أقوت بجانب اللب	بين تلاع العقيق فالكتب
حيث استقرت نواحم فسقوا	صوب غمام مجلجل لب
لم تتلفع بفضل مثرها	دعد ولم تغد دعد بالعب

والتلفع : الاشتغال بالثوب كلبسة نساء الأعراب . والعلب : أقذاح من جلود ، الواحد علبة يحلب فيه
اللب ويشرب ، أي : ليست دعد هذه ممن تشتمل بثوبها وتشرب اللبن بالعلبة كنساء الأعراب
الشفيات ولكنهن من نشأ في نعمة ، وكسي أحسن كسوة (٣) أقوت الدار : خات . والجزع :
منطاف الوادي (٤) الكتب : موضع بديار طي (٥) المذيب - كزير : ماء ، أربعة مواضع
(٦) موضع (٧) الثقل : متاع المسافر .

عندكم : ولكنى أخافُ أن يَفْضَحَنِي الصبح ، ولو كان ثَقَلَى معى لما رَضِيتُ لك بالهُوَيْنَى ^(١) ، ولكن خُذْ حُلَّتِي هذه وخاتمى ولا تُخَدِّعْ عنهما ، فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار ، ثم قال له : بالله أنت ابن سُرَيْج ؟ قال : نعم ، قال : حياك الله . وهذا عمرُ بن أبي ربيعة ؟ قال : نعم ؛ قال : حياك الله يا أبا الخطاب ! فقال له : وأنت فحياك الله ! قد عرفتنا فعرِّفنا نفسك ، قال : لا يمكننى ذلك ، فغَضِبَ ابنُ سُرَيْج وقال : والله لو كنت يزيد بن عبد الملك لما زاد ، فقال له : أنا يزيد ابن عبد الملك ! فوثب إليه عُمرُ فأعظمه ، وابنُ سُرَيْج فقبَّلَ رُكابه ، ثم مضى يزيد إلى ثَقَلِهِ ، ودفع ابن سُرَيْج الحلة والخاتم إلى عمر فأعطاه إياهما ، وقال له : إن هَذَيْنِ بك أشبه منهما بى ، فأعطاه عمر ثلاثمائة دينار وغدا فيهما إلى المسجد ، فعرَّفهما الناس ، وجعلوا يتهجبون ويقولون : كأنهما والله حلة يزيد بن عبد الملك وخاتمه ، ثم يسألون عمر فيخبرهم أن يزيد بن عبد الملك كساه ذلك !

(١) الهوينى : الأهمون والأيسر .

١١- في وادي العقيق *

كان ابن عائشة^(١) من أحسن الناس غناء ، وأنهم فيه ، وأضيقتهم خلقاً :
إذا قيل له غنّ ، يقول : أو لمثلي يُقال هذا ؟ على عتق رقبة إن غنيت يومى هذا !
فإن غنّى وقيل له : أحسنت ، قال : ألمثلي يُقال أحسنت ؟ على عتق رقبة إن
غنيت سائر يومى هذا .

فلما كان في بعض الأيام سال وادي العقيق ، فجاء بالعجب ، فلم يبق بالمدينة
محبّاة ولا شابة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره ، وكان فيمن خرج ابن عائشة
المغنى ، وهو معتجر^(٢) بفضل ردائه ، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن
أبي طالب - وكان فيمن خرج إلى العقيق - وبين يديه أسودان كأنهما ساريتان
يمشيان بين يديه أمام دابّته ، فقال لهما : اذهبا إلى الرجل المعتجر بفضل ردائه
فخذَا بضبعيه^(٣) ، فإن فعل ما أمره به ، وإلا فاقدفا به في العقيق .

فمضيا والحسن يقفوهما ، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بضبعيه ، فقال :
من هذا ؟ فقال له الحسن : أنا هذا يابن عائشة ، قال : لبيك وسعديك ! وبأبي
أنت وأمي ! قال : اسمع مني ما أقول ، واعلم أنك مأسور في أيديهما ، فغنّ مائة
صوت أو يطرحاك في العقيق ، وإن لم يفعل ذلك لأقطعن أيديهما !

* العقد الفريد : ٤ - ١١٠

(١) هو محمد بن عائشة : من القدمين في صناعة الغناء ، ووضع الألحان في العصر الأموي ، توفي
نحو سنة ١٠٠ هـ (٢) الاعتجار : لف الهامة (٣) أخذ بضبعيه : أى بضديه .

فصاح ابنُ عائشة : يا وَيْلَاهُ ! واعظيم مُصِيبَتاه ! قال : دَعْ صياحَكَ ، وخُذْ فيما
ينفعنا . قال : اقترح ، وأَقِمْ مَنْ يَحْصِي ؛ وأقبل يغنى ، فترك الناسُ العقيق ؛ وأقبلوا
عليه ؛ فلما تَمَّتْ أصواته مائة كَبَّرَ الناسُ بلسان واحد تكبيرة واحدة ، ارتجَّتْ
لها أقطار المدينة ، وقالوا للحسن : صلى الله على رُوحك حيًّا وميتًا ! فما اجتمع لأهل
المدينة سرورٌ قط إلا بكم أهل البيت .

فقال له الحسن : إنما فعلتُ هذا بك يا ابنَ عائشة لأُخلاقَكَ الشكِسةَ ، قال له
ابن عائشة : والله ما مرّت على مصيبة أعظمُ منها .
فكان ابنُ عائشة بعد ذلك إذا قيل له : ما أَشَدُّ مامرَّ عليك ؟ قال :
يوم العقيق .

١٢- من أين صَبَّكَ اللهُ على*

خرج ابنُ عائشةَ من عند الوليد بن يزيد وقد غناه :

أَبَدَكَ مَعْقِلًا أَرْجُو وَحِصْنًا قَدْ أُعِينَنِي الْمَاعِيقُ وَالْحِصُونُ
فَأَطْرَبَهُ ؛ فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ وَبِمِثْلِ كَارَةِ الْقَصَّارِ^(١) كُسْوَةً .

فبينما ابنُ عائشةَ يسيرُ إذ نظر إليه رجلٌ من أهلِ وادى القرى كان يشتهى الغِنَاءَ ويشربُ النَبِيذَ ؛ فدنا من غلامه وقال : مَنْ هَذَا الرَّاكِبُ ؟ قال : ابنُ عائشةَ المغنى ، فدنا منه وقال : جُمِلْتُ فِدَاءُكَ ! أنت ابنُ عائشةَ أم المؤمنين ؟ قال : لا ، أنا مَوْلى لقريش ، وعائشةُ أُمى ، وحسبك هذا ، فلا عليك أن تُكْثِرَ ؛ قال : وما هذا الذى أراه بين يديك من المال والكسوة ؟ قال : غَنَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ صَوْتًا فَأَطْرَبْتُهُ فَأَمَرَ لِي بِهَذَا الْمَالِ وَهَذِهِ الْكُسْوَةُ . قال : جُمِلْتُ فِدَاءُكَ ؟ فهل تمنى علىّ بأن تُسَمِّعَنِي مَا أَسْمَعْتَهُ إِيَّاهُ ؟ فقال له : وَيَلَاكَ أُمِثْلِي يَكَلِّمُ بِمِثْلِ هَذَا فِي الطَّرِيقِ ! قال : فما أصنع ؟ قال : الحقنى بالباب .

وحرَّكَ ابنُ عائشةَ بَغْلَةً شَقْرَاءَ كَانَتْ تَحْتَهُ لِيَنْقَطَعَ عَنْهُ ، فَعَدَا مَعَهُ حَتَّى وَافِيََا الْبَابَ كَغَفَرَسَى رِهَانٍ ، وَدَخَلَ ابْنُ عَائِشَةَ فَكَثَّ طَوِيلًا طَمَعًا فِي أَنْ يَضْجُرَ فَيَنْصَرِفَ ؛ فَلَمْ يَفْعَلْ ؛ فَلَمَّا أَعْيَاهُ قَالَ لِفُغْلَامِهِ : أَدْخِلْهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ ، قَالَ لَهُ : وَيَلَاكَ ! مِنْ أَيْنَ صَبَّكَ اللهُ عَلَىّ ؟ قَالَ : أَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ وَادَى الْقَرَى ، أَشْتَهَى هَذَا

* الأغانى : ٢ - ٢٢٧

(١) كارة القصار : الثياب التى يجمعها ويحملها . والقصار : محوّر الثياب .

الفناء ؛ فقال له : هل لك فيما هو أنفع لك منه ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرفُ بها إلى أهلك ؛ فقال له : جُعِلَتْ فداءك ؟ والله إن لي لبُنيةَ ما في أذنِها - علم الله - حلقه من الورق فضلا عن الذهب ، وإن لي لزوجاً ، ما عليها - يشهدُ الله - قميصٌ ؛ ولو أعطيتني جميعَ ما أمر لك به أميرُ المؤمنين على هذه الخلة^(١) والفقراء الذين عرفْتُكها ؛ وأضعفتَ لي ذلك ، لكان الصوتُ أعجبَ إليّ - وكان ابنُ عائشة نائماً^(٢) لا يغني إلا خليفةَ أولدى قذِرٍ جليل من إخوانه - فتعجبَ ابنُ عائشة منه ورَّحه ودعاه بالأداة^(٣) - وكان يغني مرتجلاً - ففَنَاءَ الصوت ؛ فطرب له طرباً شديداً ، وجعل يحركُ رأسه حتى ظنَّ أن عُنُقَهُ سينتصف . ثم خرج من عنده .

وبلغ الخبرُ الوليدَ بنَ يزيد ، فسأل ابنَ عائشة عنه ، فجعل يغيبُ عن الحديث ؛ ثم جدَّ الوليد به فصدقه عنه . وأمر بطلبِ الرجل فطلبَ حتى أحضر ؛ ووصله صِلَةً سنِّيَّةً ، وجعله في ندمائه ، ووَكَّلَه بالسَّقَى ، فلم يَزَلْ معه حتى مات .

(١) الخلة : الحاجة والخصاصة (٢) من النيه ، وهو الصلف والكبر (٣) الأداة : آلة من آلات الفناء .

١٣- ارجع إلى عملك راشداً*

أتى رجلٌ من العراق المدينة في طلب جاريةٍ - وصفت له - قارئةٍ قَوَّالَةٍ ؛ فسأل عنها فوجدوها عند قاضي المدينة ، فاتاه وسأله أن يعرضها عليه ، فقال : يا عبد الله ، لقد أبعدت الشقة في طلب هذه الجارية فما رغبتك فيها ؟ قال : إنها تغني فتجيد ، فقال القاضي : ما علمت بهذا ، فألح عليه في عرضها ، فعرضت بحضرة مولاها القاضي !

فقال لما الفتى : هاتي ، ففنت :

إلى خالدٍ حتى أنحنَ بخالدٍ فنعَم الفتى يَرْجى ونعمَ المؤمل !
ففرح القاضي بجاريته ، وسرَّ بغنائها ، وغشيه من الطرب أمر عظيم ، وقال : هاتي شيئاً بأبي أنت ؛ ففنت :

أروح إلى القصَّاصِ^(١) كلَّ عشيةٍ أرجى ثواب الله في عدَدِ الخطأ
فزاد الطرب على القاضي ، ولم يدر ماذا يصنع ، فأخذ نعله فعلقها في أذنه ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يأخذ بطرف أذنه ، والنعل معلقة فيها ويقول : أهدوني إلى البيت الحرام ، فإنني بدنة^(٢) ! حتى أذمى أذنه !

فلما أمسكت أقبل على الفتى فقال : انصرف ! قد كُفّا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول ، فنحن الآن فيها أرغب . فانصرف الفتى .

* المسعودي : ٢ - ١٧٠

(١) القصَّاص : جمع قاص ، وكانوا يجلسون في صدر الإسلام في المساجد يفصلون ما في كتاب الله من قصص الأنبياء ، ابتغاء العبرة (٢) البدنة : من الإبل والبقر ما تهدي إلى مكة .

وبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ؛ فقال : قاتله الله ! لقد استرقه الطرب ، وأمر بصرفه عن عمله .

فلما صُرف قال : لو سمعها عمر لقال : اركبوني فإني مطية ! فبلغ ذلك عمر ، فأشخص^(١) القاضي والجارية ؛ فلما دخلا عليه ، قال : أعد ما قلت ! قال : نعم ! فأعاد ما قال ، فقال للجارية : قولي ؛ ففنت^(٢) :

كان لم يكن بين الحجون^(٣) إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى ! نحن كمنّا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العوثر
فما فرغت من الشعر حتى طرب عمر طرباً بيناً ، وأقبل يستعيدها ثلاثاً ،
وقد بلت دموعه لحيمته ، ثم أقبل على القاضي ، فقال : ارجع إلى عملك راشداً !

(١) أشخص : الشخص : السير من بلد إلى بلد (٢) قاتل البيت : عمرو بن الحارث بن مضا
ابن عمرو يتأسف على البيت (٣) الحجون : جبل بمكة .

١٤- الأحوص يَحْتالُ حتَّى تسمعَ سلامه غناء الغريض*

وجَّهَ يزيدُ^(١) بن عبد الملك إلى الأحوص في القُدوم عليه ، وكان الغريضُ^(٢) معه ، فقال له : اخرجْ معي حتَّى آخذَ لك جائزةَ أمير المؤمنين وتُمنِّيهِ ؛ فإنِّي لا أحملُ إليه شيئاً هو أحبُّ إليه منك ، فخرجا .

فلما قدم الأحوص على يزيد جلس له ودعا به ؛ فأنشده مدائح فاستحسنها ، وخرج من عنده ؛ فبعثتُ إليه سلامة جارية يزيد بلطف^(٣) . فأرسل إليها : إنَّ الغريضَ عندي قدَّمْتُ به هديةً إليك . فلما جاءها الجواب اشتاقت إلى الغريض وإلى الاستماع منه .

فلما دعاها أمير المؤمنين تمارضتُ وبعثتُ إلى الأحوص : إذا دعاك أمير المؤمنين فاحتلْ له في أن تذكر له الغريضَ .

فلما دعا يزيد الأحوص قال له يزيد : ويحك يا أحوص اهل سمعت شيئاً في طريقك تُطَرِّفُنَا به ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ مررت في بعض الطريق فسمعتُ صوتاً أعجبنى حُسْنُهُ وجودةُ شعره ؛ فوقفتُ حتَّى استقصيتُ خسيره ، فإذا هو الغريضُ ، وإذا هو يفتي بأحسن صوت وأشجاء .

* الأغاني : ٨ - ٣٤٤

(١) بويج يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، وكان صاحبُ هو وُلدات ، محباً لسماع الغناء . توفى سنة ١٠٥ هـ (١) اسمه عبد الملك ؛ والغريض لقبه ، أخذ الغناء عن ابن سريج ، وبرع فيه وفاقه (٢) اللطف : البر .

ألا هاج لتذكر لي سقاماً ونكس^(١) الداء والوجع الغراماً^(٢)
 سلامة إلهي هني ودائي وشرُّ الداء ما بطنَ العظاماً^(٣)
 فقلت له - ودمع العينين يجرى على الخدين أربعة سيجاماً^(٤) :
 عليك لها السلامُ فمن لصَبٍ يبيتُ الليلَ يَهْدِي مُستَهاماً

قال يزيد : ويلك يا أحوص ! أنا ذاك في هوى خليلتي ، وما كنت أحسب
 مثلَ هذا يتَّفِقُ ، وإن ذاك لما يزيد لها في قلبي . فما صنعتَ يا أحوص حين سمعتَ
 ذاك ؟ قال : سمعت ما لم أسمع يا أمير المؤمنين أحسن منه ، فما صبرتُ حتى
 أخرجت الغريض معي وأخفيت أمره ، وعلمتُ أن أمير المؤمنين يسألني عما رأيتُ
 في طريقى .

فقال له يزيد : ائتنى بالغريض ليلاً وأخفِ أمره ؛ فرجع الأحوص إلى منزله ،
 وبعث إلى سلامة بالخبر . فقالت للرسول : جُزيت خيراً . قد انتهت إلى كلِّ
 ما قلت ، وقد تلطفت وأحسننت .

فلما وَاَرَى الليلُ أهله بعث إلى الأحوص أن عَجَّلْ المجئُ إلى
 مع ضيفك .

فجاء الأحوص مع الغريض فدخلا عليه . فقال : غنَّني الصوت الذي أخبرني
 أنه سمعه منك - وكان الأحوص قد أخبر الغريض الخبرَ ، وإلا ذلك شعر قاله
 الأحوص يريد أن يحركه به على سلامة ، ويحتال للغريض في الدخول عليه -

(١) النكس : عود المرض بعد النقه (٢) الغرام : الملازم الشديد (٣) بطن : دخل .
 (٤) يريد الأعاطين والوقين للعينين .

فلما غنّاه الغريضة دمعت عَيْنُ يَزِيدَ ، وأمر بإحضار سلامة لحضرت ، وضربَ لها حجاباً فجلست ، وأعاد عليه الغريضة الصوت ؛ فقالت : أحسن والله يا أمير المؤمنين ، فاسمعه مني ، فأخذت العود فضربتُه وغنّت الصوت ، فكاد يَزِيدُ يطير فرحاً وسُروراً ، وقال : يا أحوص ؛ إنك لمُبارك ! يا غريضة ؛ غنّني في ليلتي هذا الصوت ، فلم يزل يفنّيه حتى قام يَزِيدُ وأمر لها بمال ، وبعثت سلامة إليهما بكسوة ولطف كثير .

١٥- غِنَاءٌ فِي خَتَانِ*

قال عبد الرحمن بن إبراهيم الخزومي : أرسلتني أمي وأنا غلام أسأل عطاء^(١) بن أبي رباح عن مسألة ، فوجدته في دارٍ يقال لها دار المعلي ، وعليه مِئخفةٌ مُعصِفةٌ ، وهو جالس على منبر ، وقد خُتِنَ ابنُه والطعام يوضع بين يديه ، وهو يأمرُ به أن يُفرَّق في الخلق ، فَهَوَّتْ مع الصبيان ألعب بالجوز حتى أكل القومُ وتفرَّقوا ، وبقي مع عطاء خاصته ، فقالوا : يا أبا محمد ، لو أذنت لنا ، فأرسلنا إلى الغريض وابن سريج ! فقال : ما شئتم . فأرسلوا إليهما ، فلما أتيا قاموا معهما ، وثبت عطاء في مجلسه فلم يدخل ، فدخلوا بهما بيتاً في الدار فغَنَّيَا وأنا أسمع ، فبدأ ابن سريج فنقر بالدُّفِّ ، وتغنى بشعر كثير :

بَيْتِي وَجَارَاتِي لِلَيْلَى كَأَنَّهَا	نِعَاجُ الْمَلَا ^(٢) تُحْدِي بَيْنَ الْأَبَاعِرُ
أُمْنَقَطِعْ يَاعِزُّ مَا كَانَ بَيْنَنَا	وَشَاجِرُنِي يَاعِزُّ فَيْكَ الشَّوَاغِرُ ^(٣)
إِذَا قِيلَ هَذَا بَيْتُ عِزَّةٍ قَادَنِي	إِلَيْهِ الْهَوَى وَاسْتَمَجَلْتَنِي الْبَوَادِرُ ^(٤)
أَصْدُ وَبِي مِثْلُ الْجُنُونِ لَكِي يَرَى	رَأْوَةَ الْخَلْمَا أَنِّي لِبَيْتِكَ هَاجِرُ
أَلَا لَيْتَ حَظِّي مِنْكَ يَاعِزُّ أَنْتِي	إِذَا بَنَتْ بَاعَ الصَّبْرِ لِي عَنْكَ تَاجِرُ

* الأغاني : ١ - ٢٧٨

(١) هو عطاء بن أسلم بن صفوان ، تابعي من أجلةاء الفقهاء ولد في اليمن ، ونشأ بمكة ، فكان مفتي أهلها ومحدثهم ، وتوفي فيها سنة ١١٥ هـ (٢) الملا : الصجراء (٣) الشواجر : جمع شاجر ؛ شجره عن الأمر : صرفه عنه (٤) البوادر : الدموع .

فكان القوم نزل عليهم الشبّات ، وأدركهم الفشي ، فكانوا كالأموات ،
ثم أصغوا إليه بأذانهم ، وشخصت إليه أعينهم ، وطالت أعناقهم . ثم غنى ابن
سُريج ووقع بالقضيب ، وأخذ الغريض الدّفّ ، فغنى بشعر الأخطل :

فقلتُ اصْبَحُونَا^(١) لا أبا لأبيكمُ وما وضعوا الأثقالَ إلا ليفعلُوا
وقلتُ : اقتلوها^(٢) عنكمُ بمزاجها فأكرمُ بها مقتولةً حين تُقتلُ
أناخوا فجرّوا شاصياتٍ^(٣) كأنها رجالٌ من السودان لم يتسرّبوا

فوالله ما رأيتهم تحركوا ولا نطقوا إلا مستمعين لما يقول .

ثم غنى الغريض بشعر آخر وهو :

هل تعرف الرسمَ والأطلالَ والدّمناً زِدْنَ الفؤاد على ما عندهُ حزناً
دارٌ لأسماءٍ إذ كانت تحلُّ بها وإذ ترى الوصلَ فيما بيننا حسناً
إذ تستبيكُ بمصقولٍ عوّارضه^(٤) ومقلتي جودري لم يمدُّ أن شدنا

ثم غنى الغريض في شعر عمر بن أبي ربيعة وهو قوله :

كني حزنًا أن تجمع الدارُ شملنا وأمشي قريباً لا أزوركِ كلشماً
دعي القلبَ لا يزددُ خيالاً مع الذي به منكٍ أو داري جواه المسكتاً
ومن كان لا يمدُّ هواء لسانه فقد حلّ في قلبي هوالٌ ونخماً
وليس بتزويقٍ^(٥) اللسان وصوغه ولكنّه قد خالط اللحمَ والدّمناً

(١) اصبحونا : ليتونا بالصبح ، وهو ما يشرب في الغداة إلى الغائلة (٢) قتل الحر :
مزجها بالماء . (٣) الشاصيات : الزقاق الملوّء الشائلة القوائم (٤) العوارض : الشاي ، أو
هي الأسنان التي تبدو من الفم عند الضحك (٥) التزويق : التحسين والتزيين .

قال الراوى : وما زالا يفتيان وعطاء يسمع على منبره ومكانه ، وربما رأيت
رأسه قد مال وشفتيه تتحركان حتى بلغت الشمس ، فقام يريد منزله ، فما سمع
السامعون شيئاً أحسن منهما ، وقد رفا أصواتهما ، وتغنيا .
ولما بلغت الشمس عطاء قام وهم على طريقةٍ واحدة في الغناء ، فاطلّع في كُوَّةِ
البيتِ ، فلما رآوه قالوا : يا أبا محمد ؛ أيهما أحسنُ غناءً ؟ قال : الرقيق الصوت .
يعنى ابنَ سُرَيْج !

١٦- يَضْطَرِبُ حِينَ سَمِعَ الْغِنَاءَ*

لَقِيَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَاحٍ ابْنَ سُرَيْجٍ ^(١) بَذَى طَوًى ^(٢) ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ مَصْبَغَةٌ ،
وَفِي يَدِهِ جَرَادَةٌ مُشْدُودَةُ الرَّجْلِ بِخَيْطٍ يَطِيرُهَا وَيَجْذِبُهَا بِهِ كُلَّمَا تَخَلَّفَتْ ، فَقَالَ لَهُ
عَطَاءُ : يَا فَتَانُ ؛ أَلَا تَكْفَى عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ ! كَفَى اللَّهُ النَّاسَ مَثَوْنَتَكَ . فَقَالَ
ابْنُ سُرَيْجٍ : وَمَا عَلَى النَّاسِ مِنْ تَلْوِينِي ثِيَابِي وَلَعِبِي بِجَرَادَتِي ؟ فَقَالَ لَهُ : تَفْتَنُهُمْ
بَأَخَانِيكَ الْخَبِيثَةِ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ سُرَيْجٍ : سَأَلْتُكَ بِحَقِّ مَنْ تَبِعْتَهُ مِنْ أَصْحَابِ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبِحَقِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَّا مَا سَمِعْتَ
مَنِي يَتَأَمَّنُ مِنَ الشَّعْرِ ، فَإِنْ سَمِعْتَ مِنِّي مُنْكَرًا أَمَرْتَنِي بِالْإِمْسَاكِ عَمَّا أَنَا عَلَيْهِ ، وَأَنَا
أَقْسَمُ بِاللَّهِ وَبِحَقِّ هَذِهِ الْبَيْتَةِ ^(٣) لَنْ أَمُرْتَنِي بَعْدَ اسْتِمَاعِكَ مِنِّي بِالْإِمْسَاكِ عَمَّا أَنَا عَلَيْهِ
لَأَفْعَلَنَّ ذَلِكَ .

فَأَطَاعَ ذَلِكَ عَطَاءُ فِي ابْنِ سُرَيْجٍ ، وَقَالَ : قُلْ ، فَاذْهَبْ بِنَفْسِي بِشَعْرِ

جَرِير :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِكَ غَادَرُوا وَشَلًّا ^(٤) بَعِينِكَ لَا يَزَالُ مَعِينًا ^(٥)

* الأغانى : ١ - ٥٦ ، نهاية الأرب : ٤ - ٢٤٥

(١) هو عبيد بن سريج ، كان من أحسن الناس غناء ، وهو أول من ضرب بالعود على الغناء
العربي بمكة ، انقطع إلى عبد الله بن جعفر ، ومات في خلافة هشام بن عبد الملك .

(٢) ذو طوى : موضع بمكة (٣) البنية : السكبة (٤) الوشل : الدمع الكثير .

(٥) المعين : الجارى السائل .

غِيْظُنَ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتِ مِنَ الْمَسْوِي وَلَقِينَا
فَلَمَّا سَمِعَ عَطَاءُ الْغَنَاءَ اضْطَرَبَ اضْطِرَابًا شَدِيدًا وَدَخَلَتْهُ أَرْيَحِيَّةٌ ، فَخَلَفَ إِلَّا يَكَلِّمُ
أَحَدًا بَقِيَّةَ يَوْمِهِ إِلَّا بِهَذَا الشَّعْرِ ، وَصَارَ إِلَى مَكَانِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَكَانَ
كُلُّ مَنْ يَأْتِيهِ سَائِلًا عَنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ أَوْ خَيْرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ ، لَا يَجِيبُهُ إِلَّا بِأَنْ
يَضْرِبَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى ، وَيَنْشُدَ هَذَا الشَّعْرَ حَتَّى صَلَّى الْمَغْرِبَ ، وَلَمْ يَعَاوِدْ
ابْنَ سُرَيْجٍ بَعْدَهَا وَلَا تَعَرَّضَ لَهُ .

١٧ - في قصر الوليد بن يزيد*

اشتاق الوليدُ بنُ يزيدٍ إلى مَعْبِدٍ^(١)، فوجهه إليه إلى المدينة فأخضر، وبلغ الوليدَ قدومه؛ فأمر ببركة بين يدي مجلسه فمُلئت ماء وردٍ قد خلط بمسك وزعفران، ثم فرش للوليد في داخل البيت على حافة البركة، وبُسط لمعبد مقابله على حافة البركة، ليس معها ثالث، وجيء بمعبد فرأى ستراً مُرخى ومجلس رجل واحد، فقال له الحجاب: يا معبد؛ سلم على أمير المؤمنين واجلس في هذا الموضع، فسلم فرد عليه الوليد السلام من خلف الستر؛ ثم قال له: حيّاك الله يا معبد! أتدرى لِمَ وجهت إليك؟ قال: الله أعلم وأمير المؤمنين. قال: ذكرتكَ فأحييتُ أن أسمع منك. قال معبد: أأغني ما حضر أم ما يقرحه أمير المؤمنين؟ قال: بل أغني:

ما زال يَعدُّو عليهم ريبٌ دهرٍمٌ حتى تفانوا وريبُ الدهرِ عداه
أبكي فراقهم عيني وأرقها إن التفرق للأحباب بكاه

فغناه، فافرج منه حتى رفع الجوارى السجف، ثم خرج الوليد فالتقى نفسه في البركة فغاص فيها، ثم خرج منها فاستقبله الجوارى بثياب غير الثياب الأولى، ثم شرب وصق معبداً، ثم قال له: أغني يا معبد:

ياربُّعُ مالك لا تُجيبُ متباً قد عاجَ نحوكَ زائراً ومسلماً

* الأغانى: ١ - ٣٠

(١) هو معبد بن وهب، فعل الفتن، وإمام أهل المدينة في الغناء. اشتغل في أول أمره بالتجارة، ورعى الغنم، واختلف إلى شبط الفارسي وسائب خاثر مولد عبد الله بن جعفر حتى اشتهر بالحدق وحسن الغناء وطيب الصوت، مات بدمشق في أيام الوليد بن يزيد.

(٤ - قصص - زابم)

جادتكَ كلُّ سحابةٍ هَطَّالةٍ حتى تُرى عن زهرةٍ مُتَبَسِّمَةٍ
لو كنتَ تَدْرِي مَنْ دعاكَ أَجبتَه وبكيتَ من حُرْقٍ عليه إِذَنْ دَمًا
فغناه ؛ وأقبلَ الجوارى فرَقَعْنَ السُّتْرَ ، وخرجَ الوليدُ فالتقى نفسه في البركة فغاص
فيها ثم خرج ، فلبس ثيابا غير تلك ، ثم شربَ وسقى معبداً ، ثم قال له : غننى .
فقال : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : غننى :

عَجِبْتُ لَمَّا رَأَيْتَنِي أَنْدَبُ الرِّبْعِ الْمُحِيلَا ^(١)
واقفاً في الدار أبكى لا أرى إلا الطلولا
كيفَ تَكِي لَنَاسٍ لا يَمْلَوْنَ الذَّمَّ مِيلَا ^(٢)
كَلَّمَا قُلْتُ اطْمَأْنَنْتُ دَارُهُمْ قَالُوا الرَّحِيلَا

فلما غناه رَمَى بنفسه في البركة ثم خرجَ فرَدُّوا عليه ثيابه ، ثم شربَ وسقى
معبداً ، ثم أَقبلَ عليه الوليدُ فقال له : يا معبد ؛ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَزِدَادَ عِنْدَ الْمُلُوكِ حُظْوَةً
فليَكُنْ أَسْرَارَهُمْ ، فقلت : ذلكَ مالا يَحْتَاجُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى إِبْصَائِي بِهِ ، فقال :
يا غلام ؛ احْمِلْ إِلَى مَعْبِدٍ عَشْرَةَ آلَافِ دِينَارٍ تُحَصِّلُ لَهُ فِي بَلَدِهِ ، وَالْفَى دِينَارٍ لِنَفَقَةِ
طَرِيقِهِ ، فَحُمِلَتْ إِلَيْهِ كُلُّهَا ، وَحُمِلَ عَلَى الْبَرِيدِ مِنْ وَقْتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ .

(١) المحيل : الذى أنت عليه أحوال فغيرته (٢) الذميل : السير اللين .

١٨- معبد في مكة*

قال معبد : غَنَيْتُ فَأَعْجِبْنِي غِنَائِي ، وَأَعْجِبَ النَّاسَ ، وَذَهَبَ لِي بِهِ صَيْتٌ^١
وَذِكْرٌ ، فَقُلْتُ : لَا تَيْنٌ مَكَّةَ فَلَا تَمَنَّ مِنَ الْمُغْنَيْنِ بِهَا ، وَلَا تُغْنِيَنَّهُمْ ، وَلَا تَعْرِفَنَّ^٢
إِلَيْهِمْ .

فابتعتُ حماراً ، فخرجتُ عليه إلى مكة ، فلما قدِمْتُهَا بعتُ حمارى ، وسألتُ
عن المغنّين : أين يجتمعون ؟ فقيل : بَقِيعَةَ عَمَّانَ^(١) ، في بيت فلان .

فجئتُ إلى منزله بالفلسِ^(٢) ، فقرعتُ الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت :
انظرُ عافاك الله ؛ فدنا وهو يسبحُ ويستعيزُ كأنه يخاف ، ففتح ، فقال : مَنْ أَنْتَ ؟
عافاك الله ؟ قلت : رجل من أهل المدينة . قال : فما حاجتك ؟ قلت : أنا رجل
أشتهى الغناء . وأزعم أنى أعرف منه شيئاً ، وقد بلغنى أن القوم يجتمعون عندك ،
وقد أحببت أن تُنزلنى في جانب منزلك وتخلطنّى بهم ، فإنه لا مثونة عليك
ولا عليهم .

فلوى^(٣) شيئاً ثم قال : انزل على بركة الله . فنقلت متاعى فنزلت في جانب
حُجْرَتِهِ .

ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد حتى اجتمعوا فأنكرونى ، وقالوا :

* الأغانى : ١ - ٥٧

(١) بَقِيعَةُ عَمَّانَ : اسم قرية بها مياه وزروع ونخيل قرب مكة (٢) الفلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت
بظلمة الصباح (٣) فلوى شيئاً : فتمكث قليلاً .

مَنْ هَذَا الرَّجُلُ ؟ قَالَ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ضَيْفٌ يَشْتَهِي الْغَنَاءَ ، وَيَطْرِبُ عَلَيْهِ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ مِنْهُ غَنَاءٌ وَلَا مَكْرُوهٌ . فَرَحَّبُوا بِهِ وَكَلَّمْتَهُمْ ، ثُمَّ انْبَسَطُوا وَشَرَبُوا وَغَنَّوْا ، فَجَعَلْتُ أُعْجَبُ بِغَنَائِهِمْ وَأُظْهِرُ ذَلِكَ لَهُمْ ، وَيَعْجِبُهُمْ مِنِّي حَتَّى أَقْنَأَ أَيَّامًا ، وَأَخَذْتُ مِنْ غَنَائِهِمْ - وَهُمْ لَا يَدْرُونَ - أَصْوَاتًا وَأَصْوَاتًا وَأَصْوَاتًا ؛ ثُمَّ قُلْتُ لِابْنِ مُرَيْجٍ : أُمْسِكْ عَلَى صَوْتِكَ :

قُلْ لِهَنْدٍ وَتَرْيَهَا ^(١) قَبْلَ شَحْطِ ^(٢) النَّوَى غَدَا
إِنْ تَجُودِي فَطَالَمَا بَتٌ لِيلى مُسَهَّدَا

قَالَ : أَوْ تَحْسَنُ شَيْئًا ؟ قُلْتُ : تَنْظُرُ ^(٣) ، وَعَسَى أَنْ أَصْنَعَ شَيْئًا ، وَانْدَفَعْتُ فِيهِ فَنَنْتِيهِ ؛ فَصَاحَ وَصَاحُوا ، وَقَالُوا : أَحَسَّنْتَ أَقَاتَكَ اللَّهُ ! قُلْتُ : فَأُمْسِكْ عَلَى صَوْتِ كَذَا ؛ فَأَمْسَكُوهُ عَلَى فَنَنْتِيهِ ؛ فَازْدَادُوا عَجَبًا وَصِيَا حَا ، فَمَا تَرَكْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ إِلَّا غَنِيَّتُهُ مِنْ غَنَائِهِ أَصْوَاتًا قَدْ تَخَيَّرْتُهَا ؛ فَصَاحُوا حَتَّى عُلَتْ أَصْوَاتُهُمْ ؛ وَهَرَفُوا بِي ^(٤) ، وَقَالُوا : لَأَنْتِ أَحْسَنُ بِأَدَاءِ غَنَائِنَا غَنَاءَ مِنَّا . قُلْتُ : فَأَمْسَكُوا عَلَى وَلَا تَضْحَكُوا ^(٥) بِي حَتَّى تَسْمَعُوا مِنْ غِنَائِي . فَأَمْسَكُوا عَلَى فَنَنْتِ صَوْتًا مِنْ غِنَائِي ، فَصَاحُوا بِي ، ثُمَّ غَنَيْتُهُمْ آخِرَ وَآخِرَ ؛ فَوَثَبُوا إِلَيَّ وَقَالُوا : نَخْلِفُ بِاللَّهِ إِنْ لَكَ لَصِيئًا وَاسْمًا وَذِكْرًا ، وَإِنْ لَكَ فِيهَا هُنَا لِسَهْمًا عَظِيمًا ، فَمَنْ أَنْتِ ؟ قُلْتُ : أَنَا مُعْبِدَةٌ ؛ فَقَبَّلُوا رَأْسِي ، وَقَالُوا : لَفَقْتِ ^(٦) عَلَيْنَا وَكُنَّا كَتَهَاوَنُ بِكَ ، وَلَا نَعْدُكَ شَيْئًا ، وَأَنْتِ أَنْتِ ! فَأَقَمْتُ عِنْدَهُمْ شَهْرًا أَخَذَ مِنْهُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنِّي ثُمَّ انْصَرَفْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ .

(١) الترب : اللذة ، وهو من يماثلك في سنك (٢) الشحط : البعد ، والصرلمر بن أبي ربيعة
(٣) تنظر : تأن وتلبث (٤) هرف به : مدح حتى جاوز القدر في الثناء والإطراء (٥) ضحك به ومنه بمعنى (٦) لفقت علينا : أي سذرت علينا أمرك .

١٩- مَعْبَدٌ فِي السَّفِينَةِ*

كان مَعْبَدٌ قد عَلمَ الفِئَاءَ جاريةً من جوارى الحِجَازِ تدعى ظَبْيَةَ وعُني بتَخْرِيجِهَا ؛
فاشترَاهَا رجلٌ من أهل العراق ، فأخرجَهَا إلى البصرة ، وباعَهَا هناك ، فاشترَاهَا رجلٌ
من أهل الأهواز فأعْجَبَ بِهَا ، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده بِرُحَّةٍ من الزمان ،
وأخذ جوارِيَهُ أَكْثَرَ غَنَائِهَا عنها ، فكان لِحُبِّهِ إِيَّاهَا وَأَسْفَهِ عَلَيْهِمَا لا يزال يسألُ
عن أخبارِ مَعْبَدٍ وأين مستقرُّهُ ، ويُظهِرُ التعصبَ لَهُ واليلَ إِلَيْهِ ، والتقديمَ لَغَنَائِهِ على
سائر أغاني أهلِ عَصْرِهِ إلى أن عرف ذلك منه .

وبلغ مَعْبَدٌ أَخْبَرَهُ ، فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما وَرَدَهَا صادف
الرجلَ ، وقد خرج عنها في ذلك اليوم إلى الأهواز فَاكْتَرَى سَفِينَةً ، وجاء مَعْبَدٌ
يلتمس سَفِينَةً ينحدر فيها إلى الأهواز ، فلم يجد غير سَفِينَةِ الرجلِ ، وليس يعرف
أحد منهما صاحِبَهُ ، فأمر الرجلُ المَلَّاحَ أن يُجْلِسَهُ معه في مؤخرِ السَفِينَةِ ، ففعل
وأنحدروا .

فلما صاروا في فم نهر الأَبْلَةِ^(١) تغدّوا وشرَبوا ، وأمر جوارِيَهُ فغَنَيْنَ ، ومَعْبَدٌ
ساكتٌ ، وهو في ثياب السفر ، وعليه فروٌّ وخُفَّانٌ غليظان وزِيٌّ جاف من زِيٍّ
أهل الحِجَازِ ، إلى أن غَنَّتْ إحدى الجوارِيِ :

بانت سَعَادٌ وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْقَرَمًا واحتلتِ النَوْرَ والأَجْرَاعَ من إَضْمًا^(٢)

* الأغانى : ١ - ٤٨

(١) الأَبْلَةُ : بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة (٢) النور :
المطمئن من الأرض ، والأَجْرَاعَ : جمع جرع وهو مفرد أو جمع جرعة وهي الرملة الطيبة المنبت
لا وموثة فيها ، وإضم : واد بجبل تهامة ، وهو الوادى الذى فيه المدينة ، والشعر للناثبة .

إحدى بلي وما هام الفؤادُ بها إلا السفاهة وإلا ذكرة حُلماً^(١)
 فلم نُجِدْ أداءه ، فصاح بها معبد : يا جارية ؛ إن غناءك هذا ليس بمستقيم .
 فقال له مولاها - وقد غضب : وأنت ما يدريك الغناء ما هو ! ألا تُمسِكُ وتلزم
 شأنك ! فأمسك .

ثم غنت أصواتاً من غناء غيره ، وهو ساكت لا يتكلم ، حتى غنت :
 يابنة الأزدي قلبى كئيبٌ مُستَهَامٌ عندها ما يُنِيبُ
 ولقد لاموا قلتي : دَعُونِي إن من تنهونُ عنه حبيبُ
 إنما أبلى عظامى وجسمى حبُّها ، والحبُّ شئٌ عجيبُ
 أيها العائبُ عندي هواها أنت تقدي من أراك تعيبُ
 فأخلفت ببغضه ؛ فقال لها معبد : يا جارية ؛ لقد أخلفت بهذا الصوت إخلالاً
 شديداً ؛ فغضب الرجل وقال له : ويلك ! ما أنت والغناء ! ألا تكف عن هذا
 الفضول ! فأمسك وغنى الجوارى ملياً ؛ ثم غنت إحداهن :

خليلى عوجاً فابكيا ساعةً معى على الرُّبع تقضى حاجة ونودع
 ولا تعجلى أن أليم بدمنةً لعزة لاحت لي بيضاء بَلَقَعِ
 وقولا لقلبٍ قد سلا : راجع الهوى وللعين : أذرى من دموعك أودعي
 فلا عيش إلا مثل عيش مضى لنا مصيفاً أقمنا فيه من بعد مَرَبِعِ
 فلم تصنع فيه شيئاً ، فقال لها معبد : يا هذه ؛ أما تقومين على أداء صوت واحد ؟
 فغضب الرجل وقال له : ما أراك تدعُ هذا الفضول بوجه ولا حيلة ، فأقسم بالله
 لئن عاودت لأخرجنك من السفينة !

(١) بلي : اسم قبيلة ، والسفاهة : الطيش ، والذكرة بالكسر والضم : قبض النسيان .

فأمسك معبد حتى إذا سكنت الجوارى سكتة اندفع بغنى الصوت الأول حتى فرغ منه ؛ فصاح الجوارى : أحسنتَ والله يارجل ؛ فأعسده ، فقال : لا والله ولا كرامة ! ثم اندفع بغنى الثانى ، فقلن لسيدهن : ويحك والله ! إن هذا أحسنُ الناس غناءً ، فسأله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة ، لعلنا نأخذه عنه ؛ فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً . فقال : قد سمعتنَّ سوءَ ردِّه عليكن ، وأنا خائف مثله منه ، وقد أسلفناه الإساءة فاصبرنَ حتى نُدَارِيه . ثم غنى الثالث ، فزلزل الأرض ، فوثب الرجل وقبّل رأسه وقال : ياسيدى ؛ أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك . فقال له : فهبك لم تعرف موضعى ، قد كان ينبغى لك أن تتشبَّت ولا تسرع إلى بسوء العِشْرَةِ وجفاء القول ! فقال له : قد أخطأتُ ، وأنا أعتذر إليك مما جرى ، وأسألك أن تنزل إلىّ ، وتختلط بى ، فقال له : أما الآن فلا .

فلم يزل يَرَفُقُ ^(١) به حتى نزل إليه . فقال الرجل : ممن أخذتَ هذا الغناء ؟ قال : من بعض أهل الحجاز ، فمن أين أخذه جواريك ؟ فقال : أخذه عن جارية كانت لى ، انتاعها رجلٌ من أهل البصرة من مكة ، وكانت قد أخذت عن معبد ، وعُني بتغريمها ، فكانت تحمل منى محلّ الروح من الجسد ، ثم استأثر الله عزَّ وجل بها ، وبقي هؤلاء الجوارى وهنَّ من تعليمها ، فأنا إلى الآن أتعصّب لمعبد ، وأفضله على المغنين جميعاً ، وأفضل صنّعتَه على كل صنعة .

فقال له معبد : أو إنك لَأنت هو ؟ أفتعرفنى ؟ قال : لا . فصكَّ ^(٢) معبدُ بيده صلّعتَه ثم قال : فأنا والله معبد وإليك قدمتُ من الحجاز ، ووافيتُ البصرة ساعة

(١) يترفق به (٢) صك : ضرب .

نزلت السفينة لأقصدك بالآقواز ؛ ووالله لا قصرتُ في جواريك هؤلاء ، ولأجعلنَ لك في كل واحدة منهن خلفاً من الماضية .

فأكبَّ الرجل والجواري على يديه ورجليه يقبلونها ، ويقولون : كَتَمْتَنَّا نَفْسَكَ طَوْلَ هَذَا الْوَقْتِ حَتَّى جَفَوْنَاكَ فِي الْمَخَاطِبَةِ ، وَأَسَانَا عِشْرَتَكَ وَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَمَنْ نَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ نَلْقَاهُ .

ثم غيَّرَ الرجلُ زِيَّةَ وَحَالِهِ وَخَلَعَ عَلَيْهِ عِدَّةَ خَلْعٍ وَأَعْطَاهُ ثَلَاثِينَ دِينَارٍ وَطَيِّباً وَهَدَايَا يُمَثِّلُهَا ، وَانْحَدَرَ مَعَهُ إِلَى الْأَهْوَازِ ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ حَتَّى حَذَقَ جَوَارِيَهُ مَا أَخَذَنَّهُ عَنْهُ ، ثُمَّ وَدَّعَهُ وَانصَرَفَ إِلَى الْحِجَازِ .

٢. وفاء مالك بن أبي السَّمَح لمُعَبَّد*

كان مالك^(١) بن أبي السَّمَح المغني من طيِّ، فأصابتهُم حَظْمَةٌ^(٢) في بلادهم بالجليلين ؛ فقدِمَتْ به أمُّه وبأخوة له وأخوات أيتام لا شيء لهم ، فكان يسألُ الناسَ على باب حمزة بن عبد الله بن الزُّبير - وكان معبَّدٌ منقطاً إلى حمزة يكون عنده في كل يوم يغنِّيهِ - فسمع مالكٌ غناءه فأعجبه واشتَهاه .

فكان لا يفارق باب حمزة ، يسمعُ غناء معبَّد إلى الليل ، فلا يملُوف المدينة ولا يطلب من أحدٍ شيئاً ولا يَريِمُ^(٣) موضعه ، فينصرف إلى أمه ، ولم يسكتسب شيئاً فتَضَرَّبَ به ، وهو مع ذلك يترنم بألحان معبَّد ، يؤدِّيها دَوْرًا دَوْرًا ، في مواضع صبيحاته ونَبَرَاتِهِ^(٤) نغمًا بغير لفظ ولا رواية شيء من الشعر ؛ وجعل حمزة كلما غَدَا وراح ملازمًا لبابه فقال لغلامه يومًا : أَدْخِلْ هذا الغلام الأعرابي إلَيَّ : فأدخله ، فقال له : مَنْ أَنْتَ ؟ فقال : أنا غلام من طيِّء أصابتنا حَظْمَةٌ بالجليلين فحَطَّيْنَا إليكم ، ومعى أم لي وإخوة ، وإني قد لَزِمْتُ بابك فسمعت من دارك صوتًا أعجبنى فلزمت بابك من أجله ، قال : فهل تعرفُ منه شيئًا ؟ قال أعرفُ لحنه كله ؛ ولا أعرف الشعر . فقال : إن كنت صادقًا فإنك لَنفهم .

ودعا بمعبد ، فأمره أن يُغَنِّيَ صوتًا فغَنَّا ، ثم قال لمالك : هل تستطيع أن

* نهاية الأرب : ٤ - ٢٨١ ، الأغاني : ٥ - ١٠٢

(١) أخذ مالك الغناء عن جيلة ومعبد وأدرك الدولة العباسية ، وانتقل إلى بني سليمان بن علي ، ومات في خلافة أبي جعفر المنصور (٢) الحظمة : السنة والجذب (٣) يريم موضعه : يفارقه (٤) نبرة المغني : رفع صوته عن خفض .

تقوله ؟ قال : نعم ، قال : هاتيه ، فاندفع فغناه ، فأدى نغمه بغير شعر ، يؤدي مداته وليآتيه ، وعطفآتيه ونبرآتيه ، لا ينجزم حرقاً .

فقال لمعبد : خذ هذا الغلام إليك وخرجه فليكوننَّ له شأن ؛ قال معبد : ولم أفعل ذلك ؟ قال : لتكون محاسنه منسوبة إليك .

فقال : صدق الأمير ، وأنا أفعل ما أمرتني به . ثم قال حمزة لمالك : كيف وجدت ملأ زميتك لبابنا ؟ قال : أرايت لو قلت فيك غير الذي أنت له مستحق من الباطل أكنت ترضى بذلك ؟ قال : لا . قال : وكذلك لا يسرك أن تُحمد بما لم تفعل ؛ قال : نعم . قال : فوالله ما شيعتُ على بابك شبة قط ، ولا انقلبته منه إلى أهلى بعير . فأمر له ولأمه ولإخوته بمنزل ؛ وأجرى لهم رزقاً وكسوة ، وأمر لهم بخادم يخدمهم ، وعبد يسقيهم الماء ، وأجلس مالكا معه في مجالسه ، وأمر معبداً أن يطأ راحه ، فلم ينشب^(١) أن مهر وحذق ، وكان ذلك بعقب مقتل هذبة بن خشرم ؛ فخرج مالك يوماً ، فسمع امرأة تنوح على زيادة الذى قتله هذبة بن خشرم بشعر أخى زيادة :

أبعد الذى بالنف^(٢) نف كويكب رهينة رمس ذى تراب وجندل
أذكر بالقوى على من أصابني وبقيأى أنى جاهد غير مؤتل^(٣)
فلا يدعنى لومى لزيد بن مالك لئن لم أعجل ضربة أو أعجل

(١) لم ينشب : لم يلبث (٢) النف : ما انحدر عن غلط الجبل وارتفع عن مجرى السيل

(٣) غير مؤتل : غير مقصر ، والبقيا : الاسم ، من أبقيت عليه إذا رعيت عليه ورحته . وقد ورد هذا البيت فى اللسان منسوباً إلى أبى القمقام الأسدى هكذا :

أذكر بالقوى على ما أصابني وبقيأى أنى جاهد غير مؤتل

وإلا أنل تاري من اليوم أو غدٍ بني عمنّا فالدهر ذو مُتَطالٍ
أنختم علينا كلكل الحرب مرّةً فنحن مُنيخوها عليكم بلكلكل
فغنى في هذا الشعر لحنين : أحدهما نحا فيه نحو المرأة في نوحها ورقة
وأصلحه ، وزاد فيه ، والآخر نحا فيه نحو معبد في غناؤه .

ثم دخل على حمزة فقال له : أيها الأمير ! إني قد صنعتُ غناءً في شعرٍ سمعتُ
بعض أهل المدينة ينشده . وقد أعجبني ؛ فإن أذن الأمير غنّيته فيه . قال : هاتيه ؛
فغنّاه اللحن الذي نحا فيه نحو معبد ؛ فطرب حمزة ، وقال له : أحسنت يا غلام !
هذا الغناء غناء معبد وطريقته ، فقال : لا تعجل أيها الأمير ، واسمع مني شيئاً ليس
من غناء معبد ولا طريقته . قال : هات ، فغنّاه اللحن الذي تشبه فيه بنوح المرأة ؛
فطرب حمزة حتى ألقى عليه حلة كانت عليه قيمتها مائة دينار .

ودخل معبد فرأى حلة حمزة عليه ، فأنكرها ، وعلم حمزة بذلك ، فأخبر
معبداً بالسبب ، وأمر مالكا فغنّاه الصوتين ؛ فغضب معبد لما سمع الصوت الأول ،
وقال : قد كرهتُ أن آخذ هذا الغلام فيتعلم غنائى فيدعيه لنفسه . فقال له حمزة :
لا تعجل واسمع غناء صنعته ليس من شأنك ولا غنائك ، وأمره أن يغنى الصوت
الآخر فغنّاه فأطرق معبد ، فقال له حمزة : والله لو انفرَدَ بهذا لضاهاك ، ثم
يتزايد على الأيام ، وكلما كبرَ وزاد شخّثت أنت وقصت ، فلأن يكون منسوباً
إليك أجمل .

فقال له معبد - وهو منكِرٌ : صدق الأمير ! ثم أمر حمزة لمعبد بخلعة من
ثيابه وجائزة حتى سكن وطابت نفسه ، فقام مالك قبيل رأس معبد ، وقال له :

يا أبا عباد ؛ أساءك ما سمعت مني ؟ والله لا أغني نفسي شيئاً أبدا ما دمت
حيّاً ، وإن غلبتني نفسي فغنيت في شعر استحسنته لا نسبته إلا إليك ، فطبت
نفساً وارضَ عني . فقال له معبد : أو تفعل هذا وتني به ؟ قال : إي
والله وأزيد .

فكان مالكٌ بعد ذلك إذا غنى صوتاً وسئلَ عنه قال : هذا لمعبد ما غنيت
لنفسى شيئاً قط ، وإنما آخذُ غناء معبد فأنقله إلى الأشعار وأحسنه وأزيدُ فيه
وأُنقص منه .

٢١- مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ يَغْنَى*

قال حسين بن دحمان الأشقر : كنتُ بالمدينة ، فخلّلتُ الطريقُ وَسَطَ النهارِ
فَجَعَلْتُ أَتَغْنَى :

ما بالُ أَهْلِكَ يا رَبَّابُ خَزْرَأُ^(١) كَأَنَّهُمْ غَضَابُ
قال : فَإِذَا خَوْخَةٌ^(٢) قَدْ فَتِجَتْ ، وَإِذَا وَجْهٌ قَدْ بَدَأَ تَتَّبِعُهُ لَحْيَةٌ خَرَاءُ ، فقال :
يا فاسقُ ، أَسَأَتِ التَّأْدِيَةُ ، وَمَنَعَتِ الْقَائِلَةُ^(٣) ، وَأَذَعَتِ الْفَاحِشَةُ ؛ ثُمَّ اندفعَ بِغَنِيهِ ،
فَظَنَنْتُ أَنْ طَوَّيَسًا قَدْ نُشِرَ بِعَيْنِهِ .

فقلتُ له : أَصْلَحَكَ اللَّهُ ! مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْغَنَاءُ ؟ فقال : نَشَأْتُ وَأَنَا غَلَامٌ
حَدَّثَ أَتَتَّبِعُ الْمُغْنَيْنِ ، وَأَخَذُ عَنْهُمْ ؛ فَقَالَتْ لِي أُمِّي : يَا بَنِي ؛ إِنْ الْمَغْنَى إِذَا كَانَ
قَبِيحَ الْوَجْهِ لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى غِنَائِهِ ؛ فَدَعِ الْغَنَاءَ وَاطْلُبِ الْفِقْهَ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَهُ قُبْحُ
الْوَجْهِ . فَتَرَكْتُ الْمُغْنَيْنِ وَاتَّبَعْتُ الْفُقَهَاءَ ، فَبَلَغَ اللَّهُ بِي عِزًّا وَجَلَّ مَا تَرَى . فقلتُ له :
فَاعِدْ ، جُعِلْتُ فِدَاكَ ! قال : لَا ! وَلَا كِرَامَةً ، أَتُرِيدُ أَنْ تَقُولَ : أَخَذْتُهُ عَنْ مَالِكِ
ابْنِ أَنَسٍ ! وَإِذَا هُوَ مَالِكُ^(٤) بَنِ أَنَسٍ وَلَمْ أَعْلَمْ .

* الأغانى : ٤ - ٢٢٢

(١) الخزر : النظر بلحاظ العين (٢) الخوخة : البويب ، أو الباب الصغير في الباب الكبير
(٣) القائلة : القيلولة (٤) مالك بن أنس ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة كان صلباً في
دينه بعيداً من الأمراء والملوك ، وهو صاحب كتاب الموطأ ، توفي سنة ١٧٩ هـ .

٢٢- أَفْسَدَ آخِرًا مَّا أَصْلَحَ أَوَّلًا *

قدم ابنُ جامع السَّهمي مَكَّةَ بِمَالٍ كَثِيرٍ ، ففَرَّقَهُ فِي ضُعْفَاءِ أَهْلِهَا ؛ فَقَالَ
سُفْيَانُ ^(١) بِنُ عِيْنَةَ : بَلَفَنِي أَنْ هَذَا السَّهْمِيُّ قَدِيمٌ بِمَالٍ كَثِيرٍ ! قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ :
فَعَلَامَ يُعْطَى ؟ قَالَ : يَغْنَى الْمُلُوكُ فَيُعْطَوْنَهُ . قَالَ : وَبَأَيِّ شَيْءٍ يَغْنِيهِمْ ؟ قَالُوا :
بِالشَّعْرِ . قَالَ : فَكَيْفَ يَقُولُ ؟ فَقَالَ لَهُ فَتَى مِنْ تَلَامِيذِهِ : يَقُولُ :

أَطَوَّفُ بِالْبَيْتِ مَعَ مَنْ يَطُوفُ وَأَرْفَعُ مِنْ مِزْرَى الْمُسْبِلِ
قَالَ : بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، مَا أَحْسَنَ مَا قَالَ ! ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ :

وَأَسْجُدُ بِاللَّيْلِ حَتَّى الصَّبَاحِ وَأَتْلُو مِنْ الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ
قَالَ : وَأَحْسَنَ أَيْضًا ، أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ :
عَسَى فَارِجُ الْهَمِّ عَنْ يَوْسَفَ يُسَخِّرُ لِي رَبَّةَ الْحِمْلِ
قَالَ : أَمْسِكْ ، أَمْسِكْ ! أَفْسَدَ آخِرًا مَّا أَصْلَحَ أَوَّلًا !

* العقد الفريد : ٤ - ٩٣

(١) محدث الحرم ، كان حافظاً ثقة ، واسع العلم ، ولد بالكوفة ومات بمكة سنة ١٩٨ هـ .

٢٣- ابن جَامِع في دَارِ الْخِلَافَةِ*

قال إسماعيلُ بن جامع السَّهْمِي (١) :

ضَمَّنِي (٢) الدهرُ ضَمًّا شَدِيدًا بِمَسْكَةٍ ، فانتقلتُ منها إلى المدينة ، فأصبحتُ
يومًا وما أُمْلِكُ إِلَّا ثَلَاثَةَ دَرَاهِمَ ، فهي في كُمِّي إِذَا أَنَا بِجَارِيَةِ مُخَيَّرَاءَ عَلَى رِقَبَتِهَا
جَرَّةٌ تَرِيدُ الرَّكِيَّ (٣) تَسْمَى بَيْنَ يَدَيَّ ، وَتُرَنِّمُ بِصَوْتٍ شَجِيٍّ تَقُولُ :

شَكَّوْنَا إِلَى أَحِبَابِنَا طَوْلَ لَيْلِنَا فَقَالُوا لَنَا : مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا !
وَذَاكَ لِأَنَّ النَّوْمَ بَغَشَى عِيُونَهُمْ سِرَاعًا وَمَا بَغَشَى لَنَا النَّوْمُ أُعْيُنَا
إِذَا مَا دَنَا اللَّيْلُ الْمُضِرُّ لِذِي الْهَوَى جَزَعْنَا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ إِذَا دَنَا
فَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُبَلِّقُونَ مِثْلَ مَا نَلَّاقِي لَكَانُوا فِي الْمَضَاجِعِ مِثْلَنَا

فَأَخَذَ الْفَنَاءُ بِقَلْبِي ، وَلَمْ يَدْرُ لِي مِنْهُ حَرْفٌ . فَقُلْتُ : يَا جَارِيَةُ ؛ مَا أَذْرَى
أَوْجُحَكَ أَحْسَنَ أَمْ غَنَاؤُكَ ! فَلَوْ شِئْتَ أَعَدْتِ . قَالَتْ : حَبًّا وَكَرَامَةً . ثُمَّ أَسْنَدَتْ
ظَهْرَهَا إِلَى جِدَارٍ قَرُبَ مِنْهَا وَوَضَعَتْ إِحْدَى رِجْلَيْهَا عَلَى الْأُخْرَى ، وَوَضَعَتْ الْجَرَّةَ
عَلَى سَاقَيْهَا ، ثُمَّ انْبَعَثَتْ تُغَنِّيهِ ؛ فَوَاللَّهِ مَا دَارَ لِي مِنْهُ حَرْفٌ . فَقُلْتُ : أَحْسَنْتِ !

* الْأَعَانِي : ٦ - ٣١١

(١) اشتهر ابن جامع بالفناء ، ولكنه كان من أحفظ خلق الله لكتاب الله ، وكان ورعاً
تقياً يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة ، فيصلي الصبح ثم يصف قدميه حتى تطلع الشمس ، ولا
يصلي الناس الجمعة حتى يحتم القرآن ، ثم ينصرف إلى منزله (٢) ضمني : ضغطني واشتد علي ، من
شدة الفقر (٣) الركي : جمع الركبة ، وهي البئر .

فلو شئت أعدت مرة أخرى ! قَطَّطْتَ وَكَلَّحْتَ^(١) وقالت : ما أعجب أمركم !
أحدكم لا يزال يجرى إلى الجارية عليها الضريبة فيشغلها ! فضربت يدي إلى
الثلاثة الدراهم فدفعتها إليهما ، وقلت : أقيمى بها وجهك اليوم إلى أن نلتقى .
فأخذتها كالسكارهة وقالت : أنت الآن تريد أن تأخذ منى صوتاً أحسبك ستأخذ
به ألف دينار وألف دينار وألف دينار ؛ وانبعثت تُغَنِّي ؛ فأعملتُ فِكْرِي في
غنائها حتى دار لي الصوتُ وفهمته ، وانصرفتُ مسروراً إلى منزلي أرَدَدُّه حتى
خَفَّ على لساني .

ثم إنى خرجتُ أريدُ بَغْدَادَ فدَخَلْتُها ، فنزل بي المُكَارِي على بابِ مُحَوَّل^(٢) ؛
فبقيتُ لا أدري أين أتوجه ولا مَنْ أَقْصِدُ ! فذهبتُ أمشي مع الناس ، حتى
أتيتُ الجِسْرَ فعبرتُ معهم ، ثم انتهيتُ إلى شارعِ المدينة ، فرأيتُ مسجدًا بالقرب
من دار الفضل بن الربيع ، يرتفعاً ، فقلت : مسجد قوم سِراة ؛ فدخلته وحضرتُ
صلاة المغرب ، وأقيمتُ بمكانى حتى صَلَّيتُ العِشاءَ الآخرة على جوع وتعب ،
وانصرفَ أهلُ المسجد ، وبقي رجل يُصَلِّي ، خَلْفَهُ جماعةٌ : خدام وخوَلٌ ينتظرون
فراغه ، فصلى ملياً ثم انصرف ؛ فرآني فقال : أَحْسِبُكَ غَرِيباً . قلت : أجل . قال :
فمتى كنتَ في هذه المدينة ؟ قلت : دخلتها آنفاً ، وليس لي بها منزلٌ ولا مَعْرِفَةٌ ،
وليست صناعتى مما يَمْتَنُّ بها إلى أهل الخير . قال : وما صناعتُك ؟ قلت : أنغنى .
فوثب مُبَادِراً ، ووَكَّلَ لي بعضَ من معه ، فسألتُ المَوَكَّلَ بي عنه ، فقال : هذا
سَلَامُ الأَبْرَشِ^(٣) .

(١) كَلَحَ : تَكَشَّرَ في عبوس (٢) باب محول : علة كبيرة من محال بغداد (٣) سلام الأبرش :
خدم المنصور وتولى المطام للهدى وعاصر الهادي والرشيد .

قال ابنُ جامع : وإذا رسولٌ قد جاء في طلبى ، فانتهى بى إلى قصرٍ من قصورِ الخلافة ، وجازَ بى مقصورةً إلى مقصورة ، ثم أُدخِلْتُ مقصورةً في آخر الدهليز ، ودعا بطعام فأتيتُ بمائدة عليها من طعام الملوك ، فأكلتُ حتى امتلأتُ .

فإني لكذلك إذ سمعتُ رَكْضاً في الدهليز وقائلاً يقول : أين الرجل ؟ قيل : هو ذا ، قال : ادعوا له بفَسول^(١) وخِلْعةٍ وطيبٍ . فقُيِّل ذلك بى ، فَحِيلْتُ على دابةٍ إلى دار الخلافة - وعرفتُها بالحرس والتَّكبير والتَّيران - فجاوزتُ مقاصيرَ عِدَّة ، حتى صِرْتُ إلى دارِ قَوْرَاء^(٢) فيها أَسيرةٌ في وسطها ، قد أُضيفَ بعضها إلى بعض .

فأمرنى الرجلُ بالصعود فصعدتُ ، وإذا رجلٌ جالس ، عن يمينه ثلاثُ جوارٍ في حُجورهنَّ الميدان ، وفي حِجْرِ الرجلِ عود ، فرحَّب الرجلُ بى ، وإذا بجالسٍ حيَّالَه كان فيها قومٌ قد قاموا عنها ، فلم ألبثُ أنُ خرجَ خادمٌ من وراء الستر ؛ فقال للرجل . تَفَنِّ ، فانبعثَ ففَنِّ بصوتٍ لى وهو :

لم تَمْشِ مَيْلاً ولم تَرْكَبْ على قَتَبٍ ولم تر الشمسَ إلا دونها السَكَلُ^(٣)
تَمْشِى الهَوَيْنِى كَأَنَّ الرِّيحَ تَرْجِمُهَا مَشَى اليَعاْفِرِ في جَنِيَّاتِهَا الوَهْلُ^(٤)
فَفَنِّ بغيرِ إصَابَةٍ ، وبأوتارٍ ودساتينَ^(٥) مختلفة ، ثم عاد الخادمُ إلى الجارية التي

(١) الفسول : الماء يفتسل به (٢) الدار القوراء : الواسعة (٣) السكل : جمع سكة ، وهي سدة يخط كالبيت (٤) اليعافير : الطباء ، والوهل : الفرع (٥) الدساتين : الرباطات التي توضع الأصابع عليها ، واحدها دستان .

تلى الرجل ، فقال لها : تغنى ، فغنت أيضاً بصوت لى ، كانت فيه أحسن حالاً من
الرجل ، وهو :

ياديارُ أضحتْ خلاء لا أنيسَ بها إلا الظباء وإلا الناشطُ ^(١) الفردُ ^(٢)
أين الذين إذا مازرتهم جاذلوا وطار عن قلبى النشواق والسكدُ

ثم عاد الخادم إلى الجارية التى تليها ، فانبعثت تُغنى :

فوالله ما أدرى أَيْغَلِبُنِي المـوـى إذا جددَ وشكُ البينِ أم أنا غالبه ؟
فإن أستطعُ أغلبُ ، وإن يغلب الموى فنل الذى لا قيتُ يغلبُ صاحبه

ثم عاد الخادم إلى الجارية الثالثة فغنت :

مررتنا على قَيْسِيَّةٍ عامريَّة لما بشرتُ صافى الأديم هجان ^(٣)
فقلت ، وألقت جانبَ الستر دونها : من آيةِ أرضِ أو من الرجلان ؟
فقلت لها : أما تميمٌ فأسرقى هُديتِ ، وأما صاحبي فيمَّانِ
رفيقان ضمَّ السفرُ بينى وبينه وقد يلتقى الشقى فيأتلفان

ثم عاد إلى الرجل فغنى صوتاً فشبه ^(٤) فيه وهو :

أنسى بأسماء هذا القلبُ مصوداً إذا أقول صحا يعتاده عبيداً
أجرى على موعدٍ منها فتخلفنى فما أملٌ ولا تُوفى المواعيداً
كانَ أخوَر من غزلان ذى بقرٍ ^(٥) أعارها شبه العنين والجبيداً
قامت تراءى وقد جدَّ الرحيلُ بنا لتنكأ القرح من قلب قد اضطيدا

(١) الناشط : الثور الوحشى (٢) الفرد : المنفرد (٣) الهجان : الأبيض : الخالص من كل شئ (٤) شبه : خلط فيه ولم يحسن أدائه (٥) ذو بقر : قرية فى ديار بنى أسد .

بمشرق كشعاع الشمس بهجته ومُسَبِّكَرٍ^(١) على لباتها سودا

ثم عاد إلى الجارية ، فتغنت :

تَعَيَّرْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدِدُنَا فقلت لها : إن الكرام قليل
وما ضَرَّنا أَنَا قَلِيلٌ وجارُنا عَزِيزٌ وجارُ الأَكثَرين ذليل
وإنَّا لَقَوْنِمَ ما نرى القتلَ سَبَّةً إذا ما رَأَتْهُ عامرٌ وسَلُولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالنا لنا وتكرهُه آجالهم فنطولُ

وتغنت الثانية :

وَدِدْتُكَ لَمَّا كَانَ وَدُكٍ خالِصاً وأعرضتُ لَمَّا صِرْتُ نَهَباً مقسماً
ولا يلبثُ الحوضُ الجَدِيدُ بناؤه على كثرةِ الوَرَادِ أن يتهدماً

وتغنت الثالثة :

وما كَرَّ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ طاعنٍ وما أبصرتهُ الخيلُ إِلَّا اقشَعرَّتِ
فَيُذْرِكُ ثَاراً وهو لم يُخْطِ الغِنَى فمثلُ أخى يوماً به العينُ قَرَّتِ
فلستُ أَرَزَا بَعْدَهُ بِرَزيَّةٍ فأذكره إِلَّا سَلْتُ وَتَجَلَّتِ

وغنى الرجل :

لحى الله صُعلوكاً مُناهَ وهَمَّه من الدهر أن يلتقى لبؤساً ومَطْعَماً
ينامُ الضُّحَا حتى إذا ليلُهُ انتهى تنبه مثلُوجَ الفؤادِ مُورَماً^(٢)
ولكن صُعلوكاً يساورُ همة ويمضى على الهَيْجَاءِ لَيْثاً مقدماً
فذلك إن يلتقِ الكَرِيهَةَ يَلْقَاهَا كريماً ، وإن يستنَّ يوماً فَرَبَّماً

(١) شعر مسبكر : مسرسل (٢) مورما : أى منتفضا بادنا لعدم ما يشغله من أمور الحياة

وتغنت الجارية :

إذا كنت ربًّا للقلوصِ فلا يكن رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أينها فأزده فاب حملتكا فذاك، وإن كان العقاب^(١) فمقاب

وتغنت الثانية :

ألم تر لما ضمنى البلد القفرُ سمعتُ نداءً يصدعُ القلبَ يا عمرُوا
أغشنا فإنا عصبه مذججيةُ نزارُ على وفيرٍ وليس لنا وفيرُ

وتغنت الثالثة :

فلم اتواقفنا وسلمتُ أسفرتُ وجوهُ زهاها الحسنُ أن تتقنعا
تبالهن بالعرفان لنا عرَفَنِي وَقُلْنَ امروا باغٍ أَكَلْ وَأَوْضَمًا^(٢)
ولما تنازعن الأحاديثَ قلنَ لى أَخِفْتَ علينا أن نفرَّ ونُخْذَعَا

قال ابن جوامع : وتوقفتُ بحىء الخادم إلى ، فقلتُ للرجل : بأبى أنت !
خذِ العودَ ، فشدَّ وترَ كذا وارفع الطبقة ، وحطَّ دُستان كذا ، ففعل ما أمرته .
وخرج الخادم فقال لى : تَغَنَّ ، عافاك الله ! فتغنيتُ بصوتِ الرجل الأول على
غير ما غنَّاه ، فإذا جماعةٌ من الخدم يحضرون حتى استندوا إلى الأسرَّة ، وقالوا :
وَيْحَكَ ! لِمَن هذا الغناء ؟ قلت : لى . فانصرفوا عني بتلك السرعة ، وخرج إلى
الخادم وقال : كذبت ! هذا الغناء لابن جوامع . ودارَ الدور ، فلما انتهى الغناء إلى
قلتُ للجارية التى تلى الرجل : خذى العودَ فَعَلِمْتَ ما أريد ، فسوتِ العودَ على
غنائها للصوت الثانى فتغنيتُ به ؛ فخرجت الجماعة الأولى من الخدم فقالوا :

(١) العقاب : هو أن تتركب الناقة مرة ، ويركبها صاحبك مرة أخرى (٢) أكل : أعيأ .
وأوضح : أسرع ؛ يريد أنه أوضح فأكل ، ولكن قدم وأخر .

وَيَحْكُ اَلْمَن هَذَا ؟ قلت : لى ، فرجعوا وخرج الخادم فقال : كذبت ، ثم تَفَنِّيَتْهُ
بصوت لى ، فلا يُعرف إلا بى ، وهو :

عُوجِي عَلَى فُسْلَى جَبْرُ فِيمَ الصَّدُودُ وَأَنْتُمْ سَفَرُ
مَا نَلْتَقَى إِلَّا ثَلَاثَ مَنَى حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَنَا الدَّهْرُ

فترزلت والله الدَّارُ عليهم ، وخرج الخادمُ فقال : وَيَحْكُ اَلْمَن هَذَا الغناء ؟
قلت : لى . فرجع ، ثم خرج فقال : كذبت ا هَذَا غناء ابن جامع ، قلت :
فأنا إسماعيل بن جامع .

فما شعرتُ إلا وأميرُ المؤمنين وجعفر بن يحيى قد أقبلَا مِن وراء السُّتْرِ الذى
كان يخرجُ منه الخادم . فقال لى الفضل بن الربيع : هَذَا أمير المؤمنين قد أقبل
إليك ؛ فلما صَعِدَ السَّرِيرَ وَثَبْتُ قائماً ، فقال لى : ابنُ جامع ؟ قلت : ابن جامع ،
جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين ا قال : ويحك ا متى كنتَ فى هذه البلدة ؟ قلت :
آنِفًا ، دخلتها فى الوقت الذى علم بى أميرُ المؤمنين . قال : اجلس ، ويحك
يا ابن جامع !

ومضى هو وجعفر ، فجلسا فى بعض تلك المجالس ، وقال لى : أبشِرْ وابْسُطْ
أَمْلَكَ ؛ فدعوتُ له . ثم قال : غَنِّى يابنَ جامع ، فخطر بقلبي صوتُ الجارية
الحَمِيرَاءِ ، فأمرتُ الرجلَ بإصلاح العودِ على ما أردتُ من الطبقة ، فعرف ما أردتُ ،
فوزن العودَ وَزَنًا ، وتعاهدَهُ حتى استقامت الأوتار ، وأخذت الدساتينُ مواضعها ،
وانبعثتُ أغنى بصوت الجارية الحَمِيرَاءِ :

شكوتنا إلى أحيابنا طولَ ليلنا فقالوا لنا : ما أقصرَ الليلَ عندنا !
وذاك لأنَّ النومَ يَفْشَى عيونَهم مِرَاعاً وما يَفْشَى لنا النومَ أَعْيُنَا
إذا مادنا الليلُ المُضِرُّ لذي الهوى جَزِعْنَا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثلَ ما نَلَّاقِي لكانوا في المضاجعِ مثَلْنَا

فنظر الرشيد إلى جعفر وقال : أسمعتَ مثلَ هذا قط ؟ فقال : لا والله ما خرقَ
مسامعي قطَ مثله . فرفع الرشيد رأسه إلى خادمٍ بالقربِ منه ، ودعا بكيس فيه
ألفُ دينار ، فجاء ورَمَى به إلى ، فصيرته تحتَ فخذى ودعوتُ لأمير المؤمنين .

فقال : يا بنَ جامع ؛ رُدَّ على أمير المؤمنين هذا الصوت ، فرددته ، وتزيذتُ
فيه ؛ فقال له جعفر : يا سيدي ؛ أما تراه كيف يتزيذ في الغناء ! هذا خلاف
ما سمعناه أولاً ، وإن كان الأمر في اللحن واحداً .

فرفع الرشيدُ رأسه إلى ذلك الخادم ، ودعا بكيس آخر فيه ألفُ دينار ،
فجاءني به ، فصيرته تحتَ فخذى ، وقال : تَعَنَّ يا إسماعيل ما حَضَرَكَ ،
فجعلتُ أقصد الصوتَ من بعد الصوت ؛ مما كان يبلغني أنه يشتري
عليه الجوارى فأغنيه ، فلم أزلُ أفعلُ ذلك إلى أن عَسَسَ^(١) الليل . فقال :
أَتَعَبْنَاكَ يا إسماعيل هذه الليلةَ بالغناء ؛ فأعِدْ على أمير المؤمنين الصوت . (يعنى
صوت الجارية) فتغنيت ؛ فدعا الخادمَ وأمره فأحضر كيساً ثالثاً فيه ألفُ
دينار ؛ فذكرتُ ما كانت الجارية قالت لى ، فتبسَّمتُ ، ولحظنى ؛ فقال :
يَمْ تَبَسَّمت ؟ فجثوت على ركبتى وقلت : يا أمير المؤمنين ؛ الصدقُ مَنجاة ،

(١) عَسَسَ الليل : أقبل ظلامه .

فقال لي يا تهاار : قُلْ ! قَصَصْتُ عَلَيْهِ خَبَرَ الْجَارِيَةِ ، فَلَمَّا اسْتَوْعَبَهُ ^(١) قَالَ :
صَدَقْتُ ، قَدْ يَكُونُ هَذَا ؛ وَقَامَ .

وَنَزَلْتُ مِنَ السَّرِيرِ وَلَا أُدْرِي أَيْنَ أَقْصِدُ ، فَابْتَدَرَنِي فَرَّاشَانِ فَصَارَا بِي إِلَى
دَارٍ قَدْ أَمَرَ بِهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَرِشْتُ وَأُعِدَّ فِيهَا جَمِيعُ مَا يَكُونُ فِي مِثْلِهَا مِنْ آلَةٍ
بِجِلْسَاءِ الْمُلُوكِ وَنَدَمَائِهِمْ ، وَمِنْ كُلِّ آلَةٍ وَخَوَّلَ ^(٢) إِلَى جِوَارٍ وَوُصَفَاءَ ، فَدَخَلْتُ
بِفِدَادٍ فَقِيرًا وَأَصْبَحْتُ مِنْ حِلَّةٍ ^(٣) أَهْلِهَا وَمَيَّاسِيرِهِمْ !

(١) عرفه كله (٢) الخول : الخدم (٣) الجلة جمع جليل : عظيم .

٢٤ - ابن جَامِع وأبو يُوْسُف القَاضِي*

قَدِمَ ابن جَامِع قَدَمَةً لَهُ من مَكَّةَ على الرَشِيد - وكان ابنُ جَامِع حَسَنَ السَّمَةِ
كَثِيرَ الصَّلَاةِ ، قَدْ بَانَ أَثَرُ السَّجُودِ فِي جَبْهَتِهِ ، وَكَانَ يَغْتَمُّ بِعِمَامَةٍ سَوْدَاءَ على
قَلَنْسُوَةٍ طَوِيلَةٍ ، وَيَلْبَسُ لِبَاسَ الفُقَهَاءِ وَيَرْكَبُ حِمَاراً مَرِيئاً^(١) فِي زِيَّةِ
أَهْلِ الْحِجَازِ .

فَبَيْنَا هُوَ وَاقِفٌ عَلَى بَابِ يَحْيَى بنِ خَالِدٍ يَلْتَمِسُ الإِذْنَ ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو يُوْسُفَ
القَاضِي بِأَصْحَابِهِ أَهْلَ القَلَّانِسِ ، فَلَمَّا هَجَمَ عَلَى البَابِ نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ يَقِفُ إِلَى جَانِبِهِ
وَيَحَادِثُهُ ، فَوَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى ابنِ جَامِعَ ، فَرَأَى سَمَتَهُ وَحِلَاوَةَ هَيْئَتِهِ ؛ فَجَاءَ فَوْقَ
إِلَى جَانِبِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَمْتَعَ اللهُ بِكَ ! تَوَسَّعْتُ فِيكَ الحِجَازِيَّةَ وَالْقُرَشِيَّةَ ، قَالَ :
أَصَبْتُ ، قَالَ : فَمَنْ أَيْ قُرَيْشٍ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ بَنِي سَهْمٍ . قَالَ : فَأَيُّ الحَرَمِينَ
مَنْزِلُكَ ؟ قَالَ : مَكَّةُ ، قَالَ : وَمَنْ لَقِيتَ مِنْ فُقَهَائِهِمْ ؟ قَالَ : سَلْ عَنْ شَيْئٍ ،
فَنَاطَحَهُ الفَقْهُ وَالْحَدِيثَ فَوَجَدَ عِنْدَهُ مَا أَحَبَّ ؛ فَأَعْجَبَ بِهِ ، وَنَظَرَ النَّاسُ إِلَيْهِمَا
فَقَالُوا : هَذَا القَاضِي أَبُو يُوْسُفَ قَدْ أَقْبَلَ عَلَى أُغْنَى - وَأَبُو يُوْسُفَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ ابنُ
جَامِعِ ! فَقَالَ أَصْحَابُهُ : لَوْ أَخْبَرْنَاهُ عَنْهُ ! ثُمَّ قَالُوا : لَا ، لَعَلَّهُ لَا يَعُودُ إِلَى مَوَاقِفَتِهِ بَعْدَ
الْيَوْمِ فَلِمَ نَعُمَّ !

فَلَمَّا كَانَ الإِذْنُ الثَّانِي لِيَحْيَى غَدَاً عَلَيْهِ النَّاسُ وَغَدَا عَلَيْهِ أَبُو يُوْسُفَ ، فَنَظَرَ
يَطْلُبُ ابنَ جَامِعَ فَرَأَاهُ ، فَذَهَبَ فَوْقَ إِلَى جَانِبِهِ ، فَخَادَثَهُ طَوِيلًا فَفَعَلَ فِي الْمَرَّةِ

* الأَغَانِي : ٦ - ٢٩١

(١) مَرِيئٌ : مُرِيَّةٌ ، مُرِيَّةٌ : مُرِيَّةٌ ، مُرِيَّةٌ : مُرِيَّةٌ ، مُرِيَّةٌ : مُرِيَّةٌ .

الأولى ، فلما انصرف قال له أصحابه : أيُّها القاضي ؛ أتعرف ، هذا الذي تُوَاقِفُ (١) وتحادثُ ؟ قال : نعم ؛ رجلٌ من قريش من أهل مكة من الفقهاء . قالوا : هذا ابنُ جامع المغنّي ، قال : إنا لله ! قالوا : إن الناسَ قد شهِرُوا بِمُوَاقِفَتِهِ ، وأنكروا ذلك من فعلك .

فلما كان الإذنُ الثالثُ جاء أبو يوسف ونظر إليه فتَنَكَّبَهُ ، وعرف ابنُ جامع أنه قد أنذِرَ به ، فجاء فوقف فسَلَّمَ عليه ، فردَّ عليه أبو يوسف بغير ذلك الوجه الذي كان يَلْقَاهُ به ، ثم انحرف عنه .

فدنا منه ابنُ جامع ، وعرف الناسُ القِصَّةَ ، وكان ابنُ جامع حَيِّراً ، فرفع صوته . ثم قال : يا أبا يوسف ، مالك تَنَحَّرِفُ عني ! أيُّ شيء أنكرت ؟ قالوا لك : إني ابنُ جامع المغنّي ، فكرهتَ مُوَاقِفَتِي ! أسألك عن مسألة ثم اصنع ما شئتَ - ومال الناسُ فأقبلوا نحوهما يستمعون - فقال : يا أبا يوسف ، لو أن أعرابياً جَلَّقاً وقف بين يديك فأنشدك بحفاء وغلظة من لسانه وقال :

يَا دَارَ مَيِّةٍ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنْدِ أَقْوَتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَائِفُ الْأَمَدِ
أَكُنْتَ تَرَى بِذَلِكَ بَأْساً ؟ قال : لا ، قد رَوَى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الشعر قولٌ ورَوَى في الحديث .

قال ابنُ جامع : فإن قلتُ أنا هكذا ... ثم اندفع يتغنى فيه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف ؛ رأيتني زِدْتُ فيه أو نَقُصْتُ منه ؟ قال : عافاك الله ؛ أَعَفَيْتُ من ذلك . ثم قال : يا أبا يوسف ؛ أنتَ صاحبُ فُتْيَا ، مازدته على أن حسنته بالفاظي ، فحسُن في السماع ، ووصل إلى القلب ! ثم تنحى عنه ابنُ جامع !

(١) واقفه : سأله الوقوف .

٢٥- سَرِقَةُ الْغَنَاءِ*

قال الرشيدُ يوماً لجعفر بن يحيى : قد طال سماعُنا هذه العصابةَ على اختِلاطِ الأمرِ فيها ، فهلمَّ أَقاسِمَكِ إياها وَأَخَايِرَكَ ؛ فاقسما المغنّين ، على أنْ جعلّا بإزاء كل رجلٍ نظيرَه ؛ وكان ابنُ جامعٍ في حَيَزِ الرشيدِ وإبراهيمُ الموصليّ في حَيَزِ جعفر بن يحيى ، وحضر النَّدْماءُ لِمِحْنَةٍ (١) المغنّين .

وأمرَ الرشيدُ ابنَ جامعٍ فغَنَى صوتاً أَحْسَنَ فيه كلَّ الإحسان ، وطربَ الرشيدُ غايةَ الطرب ، فذَقَ قطعه ، قال الرشيدُ لإبراهيمَ : هاتِ يا إبراهيمُ هذا الصوتَ فغَنَّهُ . فقال : لا والله يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ما أُعْرِفُهُ ؛ وظهر الانكسارُ فيه ، فقال الرشيدُ لجعفر : هذا واحدٌ .

ثم قال لإسماعيل بن جامع : غَنِّ يا إسماعيلُ ؛ فغَنَى صوتاً ثانياً أحسن من الأول ، فلما استوفاه قال الرشيدُ لإبراهيمَ : هاتِه يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا ! فقال : هذان اثنان ! غَنِّ يا إسماعيل ؛ فغَنَى ثالثاً يتقدّم الصوتين الأولين ويُفضّلُهُما . فلما أتى على آخره قال : هاتِه يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا أيضاً . فقال له جعفر : أَخْزَيْتَنَا أَخْزَاكَ اللهُ .

وأنتم ابنُ جامعٍ بِرَؤْمِهِ ، والرشيدُ مُسرورٌ به ، وأجازَه بِجَواثِرِ كثيرة ، وخلَعَ عليه خِلَماً فاخرة ، ولم يزل إبراهيمُ مُتَخَذِلاً منكسراً حتى انصرف . ومضى إلى

* الأغاني : ٥ - ٢٠٦

(١) المحنة : الاختبار .

منزله ، فلم يستقرّ فيه حتى بعث إلى محمد المعروف بالزّف^(١) - وكان من المغنين
المحسنين، وكان أسرع من عُرف في أيامه في أخذ صوتٍ يريد أخذَه ، وكان الرشيدُ
قد وجدَ^(٢) عليه في بعض ما يحدّه الملوكُ على أمثاله ، فألزمه بيته وتناساه - فقال إبراهيم
للزّف : إني اخترتُك على من هو أحبُّ إليّ منك لأمرٍ لا يصلح له غيرُك ، فانظر
كيف تكون ! قال : أبلغ في ذلك محبّتك ، إن شاء الله تعالى . فأدّى إليه الخبر ،
وقال : أريدُ أن تمضي الساعةَ إلى ابن جامع ، فتعلمه أنك صيرتَ إليه مهنثاً بما
تهيأ له على وتدنقضي وتثلبني^(٣) وتشتيني ، وتحتال في أن تسمعَ منه الأصواتَ
وتأخذها منه ، ولك ما تحبُّه من جهتي من عَرْض من الأعراض مع رضا الخليفة
إن شاء الله .

فرضى واستأذن على ابن جامع فأذِن له ، فدخل وسلم عليه وقال :
جئتُك مهنثاً بما بلغني من خبرك ، والحمد لله الذي أخزى ابنَ الجرْمَقَانِيَّةِ^(٤)
على يدك ، وكشف الفضلَ في محلك من صناعتك ، قال : وهل بلغك خبرُنا ؟
قال : هو أشهرُ من أن يخفى على مثلي ، قال : ويحك ! إنه يقصرُ عن العيان .
قال : أيها الأستاذ ؛ مرّني بأن أسمعَ من فيك حتى أرويهُ عنك ؛ قال : أقيمُ
عندي حتى أفعل ، قال : السمع والطاعة .

فدعا له ابنُ جامع بالطعام فأكلوا ودعّا بالشراب ، ثم ابتدأ فحدثه بالخبر حتى

(١) هو محمد بن عمرو مولى بني تميم ، كوفي الأصل والولد ، والزّف لقب غلب عليه ، كان
مفنيا ضاربا ، طيب المسوع ، صالح الصنعة ، مليح النادرة ، أسرع خلق الله أخذا للفناء .
وأصحهم أداء له كان يتعصب لابن جامع ، مات في خلافة الرشيد (٢) وجد عليه : غضب
(٣) ثلبه : عابه وتنقصه (٤) الجرْمَقَان واحد الجرامقة : وهم قوم من العجم صاروا بالموصل في
أوائل الإسلام .

انتهى إلى خبر الصوت الأول . فقال له الزّاف : وما هو أيّها الأستاذ ؟ فغناه ابنُ
جامع إياه ، فجعل محمد يُصَفِّقُ وينقر ويشربُ وابنُ جامع مجتهد في شأنه حتى أخذه
عنه ، ثم سألَه عن الصوت الثاني فغناه إياه . وفعل مثلَ فعلِه في الصوت الأول ،
ثم كذلك في الصوت الثالث .

فلما أخذ الأصواتَ الثلاثةَ وأحكمها ، قال له : يا أستاذ ؛ قد بلغتُ ما أحبُّ
فتأذن لي في الانصراف ؟ قال : إذا شئتَ .

فانصرف محمدٌ من وجهه إلى إبراهيم ، فلما طلع من باب داره قال له : ما وراءك؟
قال : كلُّ ما تحبُّ ؛ ادعُ لي بعودٍ ، فدعا له به ؛ فضرَبَ وغناه الأصوات . قال إبراهيم :
وأبيك هي بصُورِها وأعيانها ؛ ردّها عليّ الآن ، فلم يزل يردّها حتى صحت
لإبراهيم ، وانصرف الزّافُ إلى منزله .

وغداً إبراهيم إلى الرشيد ، فلما دعا بالمُغَنِّين دخل فيهم ، فلما بَصُرَ به قال له :
أوقد حضرت ! أما كان ينبغي لك أن تجلسَ في منزلك شهراً بسبب ما لقيتَ
من ابن جامع ! قال : ولمَ ذلك يا أميرَ المؤمنين ؟ جعلني الله فداك ! والله لئن
أذنت لي أن أقولَ لأقوانٍ ، قال : ما عساك أن تقول ! قل . فقال : إنه ليس
ينبغي لي ولا لغيري أن يراك نشيطاً لشيء ، فيعارضك ، ولا أن تكونَ متعصباً
لحزبٍ وجَنبةٍ^(١) فيغالبك ؛ وإلا فما في الأرض صوتٌ لا أعرفه . قال : دَعُ ذا عنك
قد أقررتَ أمس بالجهالة بما سمعتَ من صاحبنا ، فإن كنتَ أمسكتَ عنه بالأمس
على معرفةٍ كما تقول فماتهِ اليوم ، فليس ههنا عَصَبِيَّةٌ ولا تمييز .

(١) الجنبَة : الناحية .

فاندفع فأمر الأصوات كلها ، وابن جامع مُصغٍ يسمع منه ، حتى أتى على آخرها ، فاندفع ابن جامع خلف بالإيمان المُخرِجة أنه ما عرفها قط ولا سمعها ، ولا هي إلا مِن صَنَعته ، ولم تُخرج إلى أحد غيره ، فقال له : ويحك ! فما أحدثت بعدى ؟ قال : ما أحدثتُ شيئاً .

فقال : يا إبراهيم ؛ بحياتي ، اصدقني . فقال : وحياتك لأصدقنك ؛ رميته بِحَجَره^(١) ، فبعثت إليه بِمحمد الزَّف وضمتُ له ضماناتٍ ، أوَّلتها رضاك عنه ؛ فضى فاحتال لى عليه حتى أخذها عنه ونقلتها حتى سقط الآن اللومُ عني بِإقراره ؛ لأنه ليس عليّ أن أعرف ما صنعه هو ولم يُخرجهُ إلى الناس ، وهذا بابٌ من الغيب ، وإنما يلزمني ألا يعرف هو شيئاً من غناء الأوائل وأجهله أنا ، وإلا فلو لزمني أن أروى صنعه لزمه أن يروى صنعتي ، ولزم كل واحدٍ منا لِسائر طبقاته ونظرائه مثل ذلك ، فمن قصر كان مذموماً ساقطاً .

فقال له الرشيد : صدقت يا إبراهيم ونَضَحْتَ^(٢) عن نفسك ، وقت بِحجَّتِكَ . ثم أقبل على ابن جامع ، فقال له : يا إسماعيل ؛ أتيت أُنبت دُهيت دُهيت أ بطل عليك الموصلي ما فعلته به أمس ، وانتصف اليوم منك ، ثم دعا بالزَّف فرَضِيَ عنه .

(١) رى فلان بحجره : إذا قرن بئله (٢) نضح عن نفسه : دفع عنها بالحجة .

٢٦ - انا والصبح كَفَرَسَي رِهَان*

قال إبراهيم^(١) الموصلي :

قال لي الرشيدُ يوماً : يا إبراهيم ؛ بَكَرَ علىَ غدا حتى نَصْطَبِح ؛ فقلتُ له : أنا
والصبحُ كَفَرَسَي رِهَانٍ ، فبَكَرْتُ فإذا أنا به خالياً ، وبين يديه جاريةٌ كأنها
خوط^(٢) بَانٍ ، حُلُوَّةُ المنظر ، دَمِثَةُ الشبائل ، وفي يدها عود ، فقال لها : غَنِّي ،
فغَنَّتْ في شِعْرِ أَبِي نَوَاس وهو :

تَوَقَّعْتُ قَلْبِي فَأَصْبَحَ خَدُّهُ وفيه مكان الوهم من نظري أثر^(٣)
ومرَّ بِفِكْرِي خَاطِراً فَجَرَحَتْهُ ولم أرَ جِسْماً قطَّ يَجْرَحُهُ الْفِكْرُ
وصالحه قَلْبِي فَأَلَمَ كَفَّهُ فَمِنْ غَمَزِ قَلْبِي فِي أَنَامِلِهِ عَقْرُ^(٤)

قال إبراهيم : فذهبتُ والله بعقلي حتى كِدْتُ أن أفتضح ، فقلت : مَنْ هذه
يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه التي يقول فيها الشاعر :

لَهَا قَلْبِي الْغَدَاةَ وَقَلْبُهَا لِي فنحنُ كذاك في جَسَدَيْنِ رُوح

ثم قال لها : غَنِّي ، فغَنَّتْ :

تقول غداةَ البين إحدى نسائهم : لِي الْكَبِيدُ الْحَرَّى فَيَسِرْ وَلَكَ الصَّبْرُ^(٥)

* الأغانى : ٥ - ٢٢٨

(١) أُوحد زمانه في الفناء واختراع الألحان ، اتصل بالخلفاء فكانت له عندم منزلة حسنة ،
ومات في بغداد سنة ١٨٨ هـ (٢) الخوط : الغصن ، والبان : نوع من الشجر ، لحب ثمره
دمن طيب (٣) أثر الجرح : أثره يبقى بعدما يبرأ (٤) العقر : الجرح (٥) الشد
لأبي الشيم ، .

وقد خَنَقْتُهَا عَسْبَةً فَدُمُوعُهَا عَلَى خَدَّهَا بَيْضٌ وَفِي نَحْرِهَا صُفْرٌ
قال : فشرب وسقاني ثم سقاها ، ثم قال : غَنِّ يا إبراهيم ؛ فغَنَّيت حسبَ
ما في قلبي غير مُتَحَفِّظٍ مِنْ شَيْءٍ :

تَشْرَبُ قَلْبِي حَبْهًا وَمَشَى بِهِ تَمَشَّى نُحْيَا الكَأْسَ فِي جِسْمِ شَارِبِ
وَدَبَّ هَوَاهَا فِي عِظَامِي فَشَقَّهَا كَمَا دَبَّ فِي الْمَلْسُوعِ مُمْسِكُ الْعُقَارِبِ
قال : فَفَطِنَ بِتَعْرِيفِي - وَكَانَ جِهَالَةً مَنِي - وَأَمَرَنِي بِالْإِنْصِرَافِ ، وَلَمْ يَدْعُنِي
شَهْرًا ، وَلَا حَضَرْتُ مَجْلِسَهُ .

فلما كان بعد شهر دَسَّ إِلَى خَادِمًا مَعَهُ رَقْعَةً ، فِيهَا مَكْتُوبٌ :
قَدْ تَخَوَّفْتُ أَنْ أَمُوتَ مِنَ الْوَجْدِ وَلَمْ يَدْرِ مَنْ هُوَ يُتَّكَلَّمُ بِمَا بِي
يَا كِتَابِي فَاقْرَأَ السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ لَا أَسْمَى وَقُلْ لَهُ يَا كِتَابِي
إِنْ كَفَا إِلَيْكَ قَدْ بَعَثْتَنِي فِي شَقَاءِ مُوَاصِلٍ وَعَازَابِ
فَأَتَانِي الْخَادِمُ بِالرَّقْعَةِ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : رَقْعَةُ الْجَارِيَةِ فَلَانَةِ الَّتِي
غَنَّيْتُكَ بَيْنَ يَدَيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَأَحْسَسْتُ الْقِصَّةَ فَشَتَّمْتُ الْخَادِمَ وَوُثِّبْتُ عَلَيْهِ
وَضَرْبَتُهُ ضَرْبًا شَفَّيْتُ بِهِ نَفْسِي وَغَضِبْتُ .

وَرَكِبْتُ إِلَى الرَّشِيدِ مِنْ فُورَى فَأَخْبَرْتُهُ الْقِصَّةَ وَأَعْطَيْتُهُ الرَّقْعَةَ ؛ فَضَحِكَ حَتَّى
كَادَ يَسْتَلْقَى ، ثُمَّ قَالَ : عَلَى عَمْدٍ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ لِأَمْتَحِنَ مَذْهَبَكَ وَطَرِيقَكَ ،
ثُمَّ دَعَا بِالْخَادِمِ ، فَلَمَّا خَرَجَ رَأَى قَبَالَ لِي : قَطَعَ اللَّهُ يَدَيْكَ وَرَجْلَيْكَ ، وَيَحْسُكَ !
قَتَلْتَنِي ؛ فَقُلْتُ : الْقَتْلُ وَاللَّهُ كَانَ بَعْضَ حَقِّكَ لَمَّا وَرَدْتَ بِهِ عَلَيَّ ، وَلَكِنْ رَحِمْتُكَ
فَأَبْقَيْتُ عَلَيْكَ ، وَأَخْبَرْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَأْتِيَ فِي عِقَابِكَ بِمَا نَسْتَحِقُّهُ : وَأَمَرَ لِي
الرَّشِيدُ بِصَلَاةٍ سَنِيَّةٍ .

٢٧ - مَا هَذَا بِجَزَائِي مِنْكَ !

قال الأصمعي^(١) : مررتُ بدار الزبير بالبصرة ، فإذا شيخٌ قديم من أهل المدينة من ولد الزبير ، يكنى أبا ريمحانة ، جالس بالبواب عليه شملة^(٢) تسترد ؛ فسلمتُ عليه ؛ وجلستُ إليه ؛ فبينما أنا كذلك إذ طلعت علينا سويداء ، تحمل قرربة ، فلما نظر إليها لم يمالك أن قام إليها ، فقال لها : بالله غنى صوتاً ! فقالت : إن موالى أعجلوني^(٣) ؛ فقال : لا بدَّ من ذلك ! قالت : أما والقرربة على كتنى فلا ! قال : فأنا أحملها ؛ فأخذ القرربة منها ؛ فاندفعتُ تُغنى :

فؤادٌ أسيرٌ لا يُفكٌ ومُهَجَّتِي تَفِيضٌ ، وأحزاني عليك تطول
ولى مقلةٌ قرحى لطول اشتياقها إليك ، وأجفاني عليك همول^(٤)
فَدَيْنُكَ ! أعدائي كثيرٌ ، وشُقَّتِي بعيدٌ ، وأشياعى لديك قليلٌ

فطرب ، وصرخ صرسةً ، وضرب بالقرربة إلى الأرض فشققها !
فقامت الجارية تبكى ، وقالت : ما هذا بجزائى منك ! أسمعُك بما جئتكَ
فعرَضْتَنِي لما أكرهُ من موالى !

قال : لا تَغْتَمِي ؛ فإن المصيبة على حصَلَت ! ونزع شملتته ، وابتاع لها قرربةً
جديدة ! وقعد ؛ فاجتاز به رجلٌ من ولد على بن أبى طالب ؛ فعرف حاله ،

❦ زهر الآداب : ١ - ٥٦ .

(١) هو عبد الملك بن قريب ، اشتهر بالرواية والتضلع في اللغة ، توفى سنة ٢١٦ هـ (٢) الشملة : كساء دون القميص يشتمل به (٣) أمجله : استعجته (٤) تفيض فالحمم .

فقال : يا أبا رِيحانة ؛ أحسبك من الذين قال الله فيهم : ﴿ فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ
وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

قال : لا ؛ يا بن رسول الله ، ولكنى من الذين قال الله فيهم : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ
الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ؛ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ !
فضحك وأمر له بألف درهم .

٢٨- مَا نَقَعَنِي الْغِنَاءُ إِلَّا ذَلِكَ الْيَوْمَ*

قال إبراهيم^(١) بن المهدي : حججت مع الرشيد ، فبينما نحن في الطريق وقد انفردت أسيرٌ وُخدي ؛ وأنا على دابتي إذ حملتني عيناى ، فسلكت بي الدابة غير الطريق ، فالتبته وأنا على غير الجادة^(٢) ، فاشتدَّ بي الحر ، فعطشت عطشاً شديداً ، فارتفع لي خيالٌ فقصدته ، فإذا بقبة ، وبجنبها بئر ماء ، بقرب مزرعة - وذلك بين مكة والمدينة - ولم أر بها إنسياً ، فاطلمت في القبة ؛ فإذا أنا بأسود نائم ، فأحس بي ، ففتح عينيه ثم استوى جالساً ، فإذا هو عظيم الصورة . فقلت : يا أسود ؛ اسقني من هذا الماء ، فقال : يا أسود ؛ اسقني من هذا الماء ؛ نحاً كيألى . وقال : إن كنت عطشان فانزل واشرب ، وكان تحتى برذون^(٣) خبيث نفور ، فخشيت أن أنزل عنه ؛ فتنفّر ، فضربت رأس البرذون .

وما نفعنى الغناء قط إلا في ذلك اليوم ، وذلك أنى رفعت عتيرتى وغنيت . فرفع الأسود رأسه إلى ، وقال : أيتها أحب إليك ، أن أسقيك ماء وحده ، أو ماء وسويقاً^(٤) ؟ قلت : الماء والسويق . فأخرج قمباً^(٥) له ، فسب السويق في القدح فسقاني ، وأقبل يضرب يده على رأسه وصدره ، ويقول : واحر صدرأه ! يا مولاي ؛ زدنى وأنا أزيدك ، وشربت السويق ، ثم قال لى : يا مولاي ؛ إن بينك

* المسعودى : ٢ - ٢٧٠

(١) هو إبراهيم بن محمد المهدي أخو هارون الرشيد ، كان أسود حالك اللون فصيح اللسان واسع الصدر ، سقى الكف حاذقاً بصناعة الغناء ، توفى سنة ٢٢٤ هـ (٢) الجادة : معظم الطريق (٣) البرذون : الدابة (٤) السويق : ما يتخذ من الحنطة والشعير (٥) القمب : القدح الضخم .

وبين الطريق أنيالا ، ولست أشك أنك تعطش ؛ لكنني أملأ قربةتي هذه وأحلبها
قدأمك ، فقلت : افعل .

فلما قربةته ؛ وسار قدأى وهو يحجل في مشيته غير خارج عن الإيقاع ، فإذا
أمسكت لأستريح أقبل على ، فقال : يا مولاي ؛ عطشت فأغنيه إلى أن أوقفني
على الجادة ، ثم قال لي : سِرْ رعاك الله ، ولا سَلَبك ما كساك من هذه النعم -
بكلام عجمي ، معناه هذا الدعاء - فلحقت بالقافلة ، والرشيذ قد فقدني ، وقد بث
الخيال في طلبي ، فسُرَّ بي حين رآني ، فأتيت فقصصت عليه الأمر ، فقال :
على بالأسود ، فما كان إلا هنيهة حتى مثل بين يديه ، فقال له : ويلك ! ما حرك
صدرك ؟ فقال : يا مولاي ، ميمونة ؟ قال : ومن ميمونة ؟ قال : حبشية يامولاي ؛
فأمر من يستفهمه ، فإذا الأسود عبدٌ لبني جعفر الطيار ، وإذا السوداء التي يهواها
لقوم من ولد الحسن بن علي ؛ فأمر الرشيذُ بابتياعها له ، فأبى مواليها أن يقبلوا لها
ثمنًا ، ووهبها للرشيذ ، فاشترى الأسود وأعتقه ، وزوجه منها ، ووهب له من
ماله بالمدينة حديقتين وثلاثمائة دينار .

٢٩- طُفَيْلِي وَلَكِنَّهُ ظَرِيفٌ*

حدث إسحاق^(١) الموصلي قال : غدوت يوماً وأنا شَجِرٌ من مُلَازمة دارِ
الخِلافة والخِدْمة فيها ؛ فخرجتُ وركبتُ بُكْرَةً^(٢) ، وعزمتُ على أن أطوفَ
الصحراء وأنفِرَج . فقلتُ لِغُلَامِي : إن جاء رسولُ الخليفة أو غيره فمرّ فوه أني
بَكَّرْتُ في بعض مُهمَّاتي ، وأنكم لا تعرفون أين توجّهت !

ومضيتُ وطُفْتُ ما بدّأ لي ، ثم عدتُ وقد حَمَى النهار . فوقفتُ في
الشارع المعروف بالمُخَرَّم^(٣) في فناء تُخِين الظل ، وجناحٍ رُخْبٍ عَلَى الطريق
لأُشْتَرِج .

فلم أَلْبَثْ أن جاء خادمٌ يقودُ حِمَاراً فَأَرَهَا عليه جاريةٌ رَاكِبَةٌ ، تحتها منديلٌ
دَبِيقِي^(٤) ، وعليها من اللباس الفاخر مالا غاية بعده . ورأيت لها قواماً حسناً
وشمائل حسنة .

فَخَرَصْتُ^(٥) أنها مُغَنِيَةٌ ، فدخلتِ الدارَ التي كنتُ واقفاً عليها .

ثم لم أَلْبَثْ أن جاء رجلان شابان ، فاستأذنا فأذن لهما ، فنزلا ونزلتُ معهما .

* الأغاني : ٥ - ٤٢٣

(١) إسحاق الموصلي : من أشهر ندماء الخلفاء ، تفرد بصناعة الغناء ، وكان عالماً باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام ، وراويّة للشعر وحافظاً للأخبار ، توفي ٢٣٥ هـ (٢) باكراً
(٣) المخرم : محلة يبعد (٤) دبيق : منسوب إلى دبيق ، وهي بلدة كانت بين القرما وتنيس
من أعمال مصر ، وتنسب إليها الثياب (٥) خرصت : ظننت .

ودخلت ؛ فظنّا أن صاحب الدار دعاني وظنّ صاحب الدار أنّي معهما ؛ فجلسنا
وأتي بالطعام فأكلنا وبالشراب فوضع ، وخرجت الجارية وفي يدها سرور فغنت
وشربنا ؛ وقمت قومة ، فسأل صاحب المنزل الرجلين عني ، فأحسبهما أنهما
لا يعرفاني ؛ فقال : هذا طفيلي ولكنه ظريف ، فأجلوا عشرته ، وجئت فجلست ؛
وغنت الجارية في لحن لي ، فأدّته أداءً صالحاً ؛ ثم غنت أصواتاً شتى ، وغنت في
أضعافها من صنعتي :

الطلول الدّوّارِسُ فارقتها الأوائِسُ
أوحشت بعد أهلها فهي قفرٌ بسائِسُ^(١)

فكان أمرها فيه أصلح منه في الأول ؛ ثم غنت أصواتاً من القديم والحديث ،
وغنت في أثنائها من صنعتي :

فل لمن صدّ عائباً ونأى عنك جانباً
قد بلغت الذي أرَدْتُ وإن كنت لآعباً

فكان أصلح ما غنته . فاستعدته منها لأصحّحه لها . فأقبل عليّ رجل من
الرجلين ، وقال : ما رأيت طفيلياً أصفق وجهاً منك ! لم ترض بالتطفيل حتى
اقتَرَحْتَ ، وهذا غاية المثل : « طفيليٌّ مُقترح » ؛ فأطرقت ولم أجبه . وجعل
صاحبه يكفه عني فلا يكف . ثم قاموا للصلاة وتأخرت قليلاً ، فأخذت عودَ
الجارية ، ثم أصلحته إصلاحاً مُحْكَمًا ، وعدت إلى موضعي فصليت . وعادوا ثم
أخذ ذلك الرجل يُعَنِّفُنِي وأنا صامت .

(١) بسابس ، لغة في السباب : الصغاري .

ثم أخذتِ الجارية العودَ فجسّته وأنكرت حاله ، وقالت : مَنْ مَسَّ عودى ؟
قالوا : ما مَسَّهُ أحدٌ ، قالت : بلى والله لقد مَسَّهُ حاذقٌ متقدّم وأصلحُه إصلاحَ
متمكنٍ من صناعته ، فقلت لها : أنا أصلحتُه ؛ قالت : فبالله خُذْه واضرب به ؛ فأخذته
وضربتُ به مبدأً ظريفاً عجيباً صعباً ، فيه نقراتٌ متحركة . فما بقي أحدٌ منهم إلا
وثب على قدميه وجلس بين يدي .

ثم قالوا : بالله ياسيدنا ؛ أتعنّى ؟ فقلت : نعم ، وأعرفكم نفسى : أنا إسحاق
ابن إبراهيم الموصلى ، والله إني لآتيه على الخليفة إذا طلبنى ، وأنتم تُسمعوننى
ما أكره منذ اليوم لأنى نزلتُ بكم ! فوالله لا نطقُ بحرف ولا جلستُ معكم
حتى تُخرجوا هذا المرَبْدَ^(١) المقيتَ^(٢) الفث . فقال له صاحبه : مِنْ هذا حَدِرتُ
عليك . فأخذ يعتذر ؛ فقلت : والله لا نطقُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى يخرج
فأخذوا بيده فأخرجوه وعادوا .

فبدأتُ وغنيتُ الأصواتَ التى غنّتها الجاريةُ من صنعتى ، فقال لى الرجل :
هل لك فى خَصَلَةٍ ؟ قلت : ما هى ؟ قال : تقيمُ عندى شهراً والجارية والحمارُ لك
مع ما عليها من حُلِيٍّ ؛ قلت : أفعل . فأقامتُ عنده ثلاثين يوماً لا يدرى أحدٌ أين
أنا ، والمأمون يطلبُنّى فى كل موضع فلا يعرفُ لى خبراً .

فلما كان بعد ثلاثين يوماً أسلمَ إلى الجارية والحمارَ والخادم فبحثتُ بذلك إلى
منزلى ، وركبتُ إلى المأمون من وقتى ، فلما رآنى قال : إسحاق ! ويحك ! أين
تكون ؟ فأخبرتهُ بخبرى . فقال : على بالرجل الساعة ؛ فدَلَّتهمُ على بيته فأحضر .

(١) المرَبْد ، رجل معربد : يؤذى نديمه فى سكره . (٢) المقيت : المكروه .

فسأله المأمون عن القصة فأخبره . فقال له : أنت رجل ذو مروءة ، وسبيلك أن
تعاونَ عليها . وأمر له بمائة ألف درهم ، وأمر لي بخمسين ألف درهم ، وقال :
أحضرنى الجارية . فأحضرتها فغنته . فقال لي : قد جعلتُ لها نوبةً في كل يوم
ثلاثاء تُغنينى وراء الستر مع الجوارى . وأمر لها بخمسين ألف درهم ، فربحتُ والله
بتلك الرّكبةِ وأزبحتُ .

٣٠- زُرِّيَابُ وَإِسْحَاقُ الْمُوصَلِيُّ*

كان زُرِّيَابُ^(١) تلميذاً لإسحاق الموصلي ببغداد ، فتلقف من أغانيه استراقاً وهُدًى من فهم الصناعة وصدق العقل ، مع طيب الصوت ، إلى ما فاق به إسحاق وإسحاق لا يشعرُ بما فُتِحَ به عليه ، إلى أن اقترح الرشيدُ عليه أن يأتيه بمغنٍ غريبٍ مُجيدٍ للصنعة ، لم يشتهر مكانه إليه ؛ فذكر له تلميذه هذا ، وقال : إنه مَوْلى لكم ، وسمعتُ له نَزَعَاتٍ حسنة ، ونغماتٍ رائقةٍ مُلتَأَطَّةٍ^(٢) بالنفس ، وهو من اختراعى واستنبأطِ فكرى ، وأُخْدِسُ^(٣) أن يكون له شأن .

فقال الرشيد : هذا طَلِيتى ، فأحضرنى ، لعل حاجتى عنده . فأحضره فلما كلمه الرشيدُ أغْرَبَ عن نفسه بأحسن منطق ، وأَوْجَزَ خطاب ؛ وسأله عن معرفته بالفنَاء ، فقال : نعم ، أحسنُ ما يُحْسِنُهُ الناس ، وأكثر ما أُحْسِنُهُ لا يحسنونه ، مما لا يحسنُ إلا عندك ، ولا يدَّخِرُ إلا لك ؛ فإن أذنتَ غنيتك ما لم تسمعه أذنٌ قبلك .

فأمر بإحضار عودِ أستاذه إسحاق ؛ فلما أذِنَ إليه وقف عن تناوُلِهِ ، وقال :

* نفع الطيب : ٢ - ١٠٩

(١) كان زُرِّيَابُ مع علمه بصناعة الفناء عالماً بالنجوم ، شاعراً أديباً حلو الحديث ، لطيف المعاشرة ، ماهراً فى خدمة الملوك ، توفى سنة ٣٣٠ هـ (٢) التاط بالقلب : لظى به (٣) الحدس : الظن والتخمين .

لى عود نحتته ييدى ، وأرهفته بإحكامى ، لا أرتضى غيره ، وهو بالباب ، فليأذن لى
أمير المؤمنين فى استدعائه ؛ فأمر بإدخاله إليه .

فلما تأمله الرشيدُ — وكان شبيهاً بالعود الذى دفعه إليه — قال : ما منعك أن
تستعملَ عودَ أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاي يرغبُ فى غناء أستاذى غنيتهُ
بعوده ، وإن كان يرغبُ فى غنائى فلا بدَّ لى من عودى ! فقال له : ما أراها إلا
واحداً ؛ فقال : صدقتَ يا مولاي ؛ ولا يؤدّى النظرُ غيرَ ذلك ، ولكنَّ عودى
وإن كان فى قدرِ جسمِ عوده ، ومن جنسِ خشبه ، فهو يقع من ربه فى الثلث ؛
ووصفه وصفاً استبرعه الرشيد ، وأمره بالغناء ، فجلس ثم اندفع فغناه :

يا أيها الملك الميمون طائرُه هارون راح إليك الناسُ وابتكروا^(١)

فلما أتمَّ طار الرشيد طرباً ، وقال لإسحاق : والله لولا أنى أعلم من صدقك
وتصديقه لك ؛ من أنك لم تسمعه قبلُ لأنزلتُ بك العقوبة ؛ لتزكك إعلامى
بشأنه ؛ فخذهُ إليك واعتن به ، حتى أفرغ له ؛ فإن لى فيه نظراً .

فسقط فى يد إسحاق ، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره ، فخلا
بزرىاب ، وقال : يا على ؛ إن الحسد أقدمُ الأدواء^(٢) ، والدنيا فتانة ، والشركةُ
فى الصنعة عداوةٌ ، ولا حيلة فى حبسها ؛ وقد مكرت بى فيما انطويت عليه من
إجادتك ، وعلو طبقتك ؛ وقصدتُ منفعتك ، فإذا أنا قد أتيتُ نفسى من مآمنها
بإذنائك ، وعن قليل تسقط منزلتى ، وترتقى أنت فوقى ، وهذا مالا أصحابك عليه

(١) ابتكروا : أتوه بكرة ، والبكرة : القدوة (٢) جمع داء .

ولو أنك وَلَدِي ؛ ولولا رَغْبِي لَدَمَّتْ تَرْيِيَّتُكَ لما قَدَمْتُ شَيْئاً على أن أَذْهَبَ نَفْسَكَ ،
ويكونُ في ذلك ما يكون .

فَتَخَيَّرَ في ثِنْتَيْنِ لا بَدَّ لَكَ مِنْهُمَا : إما أن تَذْهَبَ عَنِّي في الأَرْضِ العَرِيضَةِ ،
لا أَسْمَعُ لَكَ خَبِراً ، بعد أن تَعْطِيَنِي على ذلك الأَيْمَانَ المَوْثِقَةَ ؛ وأنا أَنْهَضُكَ لذلك
بِمَا أَرَدْتُ من مَالٍ وَغَيْرِهِ . وإما أن تَقِيمَ على كُرْهِى وَرَغْبِي مُسْتَهْدِفاً إِلَيَّ ؛ فَخُذْ
الآن حِذْرَكَ مِنِّي ، فَلَسْتُ - وَاللَّهِ - أَبْقِي عَلَيْكَ ، 'ولا أَدَعُ اغْتِيالَكَ ، باذِلًا في
ذلك بَدَنِي وَمَالِي ، فاقْضِ قَضَاءَكَ !

فَخَرَجَ زُرِّيَابَ لَوْقَتِهِ ، وَعَلِمَ قُدْرَتَهُ على ما قَالَ ، واختارَ الْفِرَارَ ، فَأَعَانَهُ إِسْحَاقُ
على ذلك سَرِيعاً ، وَرَاشَ^(١) جَنَاحَهُ ، فَرَحَلَ عَنْهُ وَمَضَى يَبْغِي مَغْرِبَ الشَّمْسِ ،
وَاسْتَرَحَ قَلْبُ إِسْحَاقَ مِنْهُ .

وَتَذَكَّرَهُ الرَّشِيدُ بعدَ قَرَأَتِهِ من شَغْلٍ كَانَ مَنفَعِماً فِيهِ ، فَأَمَرَ إِسْحَاقَ بِإِحْضَارِهِ
فَقَالَ : وَمَنْ لِي بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! ذَاكَ غَلَامٌ مَجْنُونٌ ، يَزْعُمُ أَنَّ الْجِنَّ تَكَلَّمُوا ،
وَتَطَارَحُهُ مَا يُزْهِى^(٢) بِهِ مِنْ غِنَائِهِ ، فَمَا يَرَى في الدُّنْيَا مِنْ يَعْدِلِهِ ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ
أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ جَائِزَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدَّرَ التَّقْصِيرَ بِهِ ، وَالتَّهْوِينَ بِصِنَاعَتِهِ ، فَرَحَلَ
مُغَاضِباً ذَاهِباً على وَجْهِهِ ، مُسْتَخْفِياً عَنِّي ، وَقَدْ صَنَعَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
فَإِنَّهُ كَانَ بِهِ أَمَمٌ^(٣) يَنْشَأُ ، وَقَدْ كَانَ يَفْرُطُ خَبَلَهُ ، فَيَفْزِعُ مِنْ رَأَاهُ .

فَسَكَنَ الرَّشِيدُ إِلَى قَوْلِ إِسْحَاقَ ، وَقَالَ : على ما كَانَ بِهِ ، فَقَدْ فَاتَنَا مِنْهُ
سُرُورٌ كَثِيرٌ !

(١) رَاشَهُ : إِذَا أَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَرَاشَ صَدِيقُهُ : إِذَا أَطْعَمَهُ وَسَقَاهُ وَكَسَاهُ (٢) زَهَى بِهِ : أَعْجَبَ
بِهِ . (٣) مَغَاضِباً : غَاضِبَتِ الرَّجُلَ : أَغْضَبَتْهُ وَكَرِهَتْهُ (٤) اللَّمَمُ : الْجَنُونُ .

ومضى زرياب إلى المغرب^(١) ، وعلم عبد الرحمن بن الحكم بخبره ؛ فكتب إلى
عمّاله على البلاد أن يُحَسِّنُوا إليه ، ويوصلوه إلى قرطبة ، وأمر من يتلقاه بيفال
وآلات حسنة .

فدخل هو وأهله ليلاً ، وأنزله في دار من أحسن الدور ، وحمل إليها جميع
ما يحتاج إليه ، وخلع عليه . ثم أجرى عليه راتباً ، وأقطعه من الدور والمستغلات
بقرطبة وبساتينها ، ومن الضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار ، فلما قضى له
سؤله ، وأنجز مواعده ، وعلم أن قد أَرْضاه ، وملك نفسه استدعاءه ، ولما سمع غناه
اطرح كلَّ غناء سواه ، وأحبه حباً شديداً ، وقدمه على جميع المغنّين .

(١) يريد الأندلس .

٣١- في مسجد رسول الله تتغنى؟*

قال إبراهيم الخرائي : حججتُ مع أمير المؤمنين الرشيد ، فدخلتُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبينما أنا بين القبر والمنبر إذا أنا برجل حسن الهيئة خاضب ، ومعه رجلٌ في مثل حاله ، فحانتُ مني التفاتة ؛ فإذا هو يقوِّس حاجبيه ، ويفتح فاهُ ، ويلوِي عنقه ، فتجوزتُ^(١) في صلاتي ، ثم سمعتُ فقلت : أفي مسجد رسول الله تتغنى ! فقال : ما أجملك ! أما في الجنة غناء ! قلت : بلى ! لعمرى ، فيها ما تشتهيهِ الأنفسُ وتلذُّ الأعين ! قال : أما نحن في روضةٍ من رياض الجنة ؟ قلت : نعم ! قال : واحرَّباه ! أنردُّ على رسول الله قوله : « بين قبري ومنبري روضةٌ من رياض الجنة » ! فمحن في تلك الروضة . قلت : قبح الله شيخاً ما أسفه ! قال : بالقبر والمنبر لَمَّا^(٢) أنصتَ إلى افتخوفاً ألا أنصت . فاندفع يغنى بصوت يخفيه :

وليسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمَى برواجعٍ إليك ، ولكنَّ خلَّ عينيك تدمعاً
بكت عَيْنِي البُسرَى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبَلتَا معا
فوالله إن قمتُ إلى الصلاة لِمَا دخل قلبي ! فلما رأى ما نزل بي ، قال : يا بن أم ؛
أرى نفسك قد استجابت وطأيت ، فهل لك في زيادة ؟ قلت : ويحك ! في مسجد

* ذيل زهر الآداب : ٤٨

(١) تجوز في صلاته : خفف (٢) لا : إلا .

رسول الله !! قال : أنا والله أعرفُ بالله ورسوله منك ! فدعنا من جهلك ،
ثم تغنى :

فلو كان واشٍ باليمامة دَارُهُ ودَارِي بِأَقْصَى حَضْرَمَوْتَ اهْتَدَى لِيَا
وماذا لهم - لا أحسنَ الله حفظهم - من الشأن في تَصْرِيمِ^(١) لَيْلَى حَبَالِيَا
فقال له صاحبه : يابن أم ، أحسنتَ والله ، وعِثْقُ مَا أَمْلِكُ لو كان أميرُ المؤمنين
الرشيْد حاضراً خلَّع عليك ثِيَابَهُ مَشْقُوقَةً طَرَبًا .

فقلت ، وهما لا يعلمان مَنْ أنا ؟ فدخلتُ على أمير المؤمنين فأعلمته الخبر فقال :
أَذْرِكُهُمَا لا يفوتاك !

فوجهتُ من جاء بهما . فلما دخلا عليه دخلا بوجوه قد ذهبَ ماؤُها ، وأنا
قائمٌ على رأسه ؛ فقال : يا إبراهيم ؛ هذان هما ؟ قلت : نعم ! فنظر إلى المغنى منهما ،
وقال : سِمْيَاةُ^(٢) في جوار رسول الله ! فسرَّي عن أمير المؤمنين بعضُ غَضَبِهِ ،
وتبسَّم ، فقال : ما كنتمَا فيه ؟ قالا : في خير ! قال : فما الخير ؟ فسكَّتا .

فقال للمغنى منهما : من أنت ؟ فابتدره جماعة فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إنه
ابنُ جُرَيْجٍ^(٣) فقيهُ مكة ! فقال : فقيه مكة يتغنى في مسجد رسول الله !

قال : يا أمير المؤمنين ؛ لم يكن ذلك مني بالقصد للفناء ، ولكنني كنتُ
أُتِممت هذا الخزومي - يعني صاحبه - صوتين ، فلم يزالا في قلبي حتى ألتقينا ،
فأحببتُ أن يأخذها عني ، فأخذها ، وحلف أني أحسنتُ ، وأنه لو كان في الموضع
أميرُ المؤمنين نلَّع عليَّ - وسكت .

(١) صرمته ، وصارمته : ناغته (٢) سميامة : وشاية (٣) ابن جريج : وهو عبد الملك
ابن عبد العزيز بن جريج ، ويكنى أبا الوليد .

فقال الرشيد : تركت من الحديث شيئاً ؟ قال : ما تركتُ شيئاً يا أمير المؤمنين !
قال : والله لتقولنَّ . قال : يا أمير المؤمنين ؛ زعم أنك لو كنتَ في موضعه خلعت
على ثياباً مشقوقة طرَباً !

فتبسّم ، وقال : أمّا هذا فلا ، ولكن نخلعُها عليك صحيحة ، فهي خير لك !
ثم دعا بثياب فلبسها ونَبَذَ إليه ثيابه ، وأمر له بعشرين ألف درهم ولصاحبه
بمِشْرَةِ آلاف درهم !

وقال : لا تعودنَّ لهذا . فقال صاحبه : إلا أن يحجَّ أمير المؤمنين ثانية .
فضحك وقال : ألحقوه بصاحبه في الجائزة !

٣٢ - شَعْرُ رَفِيقٍ*

قال إسحاق الموصلي : حضر مسامرة الرشيد عَبَثُ المغنى - وكان فصيحاً متأدباً ،
عَلَى الشَّعْرِ ، ذا صوتٍ حَسَنٍ - فتذاكروا رِقَّةَ شِعْرِ المَدَنِيِّينَ ، فأنشد بعضهم
جلساته أبياتاً لابن الدُّمَيْنَةِ حيث يقول :

وأذكر أيامَ الحِمَى ثم أنذني على كبدى من خشيةٍ أن تصدعا^(١)
ولست عَشِيَّاتُ الحِمَى برواجع عليك ، ولكن خلَّ عينيك تدمعاً
بكتُ عيني اليمنى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبكتنا معاً

فأعجب الرشيد برقة الأبيات ، فقال له عَبَثُ : يا أمير المؤمنين ؛ إن هذا الشعر
مدنى رقيق ، قد غذى بماء العقيق ، حتى رقَّ وصفاً ، فصار أصفى من الهواء ؛
ولكن إن شاء أمير المؤمنين أنشدته ما هو أرق من هذا وأحلى ، وأصلب وأقوى
لرجل من أهل البادية ! قال : فإني أشاء . قال : وأترنمُ به يا أمير المؤمنين ؟ قال :
وذلك لك ، فغنى الجريز :

إنَّ الذين غَدَوْا بلبك غادروا وشلاً^(٢) بعينيك لا يزال مَعِينَا
غَيَضُ^(٣) مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وقلن لى : ماذا لقيت من المـوى ولقينا
قال : صدقت يا عَبَثُ ، وخلع عليه وأجازه .

* العقد الفريد : ٤ - ١٠٩

(١) أصله تصدعا (٢) الوشل : القليل من الدمع والكثير منه (٣) غيض من عبراتهم :
سيلن دموعهن حتى ترفقن ، ومن هنا لتبويض أو زائدة .

٣٣- صَوْتُ بِيْدِرْهَمِينَ*

قَدِمَ إِسْمَاعِيلُ^(١) بِنَ الْهَرَبْدِيِّ عَلَى الرَّشِيدِ مِنْ مَكَّةَ ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ وَعِنْدَهُ ابْنُ جَامِعٍ وَإِبْرَاهِيمُ وَابْنُهُ إِسْحَاقُ وَفُلَنْحٌ وَغَيْرُهُمْ ، وَالرَّشِيدُ يَوْمَئِذٍ خَائِرٌ^(٢) ، فَغَنَّى ابْنُ جَامِعٍ ثُمَّ فَأَنَحَ ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ إِسْحَاقُ ، فَمَا حَرَكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا أَطْرَبَهُ ؛ فَانْدَفَعَ ابْنُ الْهَرَبْدِيِّ يُغَنِّي ، فَعَجَبُوا مِنْ إِقْدَامِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ عَلَى الرَّشِيدِ ، فَغَنَّى :

يَا رَاكِبَ الْعَيْسِ^(٣) الَّتِي وَفَدْتُ مِنْ الْبِلَادِ الْحَرَامِ
قُلْ لِلَّهِ الْمُلْكُ بِنِ الْإِمَامِ مِ أَخِي الْإِمَامِ أَبِي الْإِمَامِ
زَيْنِ الْبَرِيَّةِ إِذْ بَدَا فِيهِمْ كَمَصْبَاحِ الظُّلَامِ
جَعَلَ الْإِلَهُ الْهَرَبْدِيَّ فِدَاكَ مِنْ بَيْنِ الْأَنَامِ

فَكَادَ الرَّشِيدُ يَرْقُصُ ، وَاسْتَخَفَّه الطَّرْبُ حَتَّى ضَرَبَ بِيَدَيْهِ وَرَجَلَيْهِ ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ . فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنْ لِهَذَا الصَّوْتِ حَدِيثًا ؛ فَإِنْ أُذِنَ مُوَلَايَ حَدَّثْتَهُ بِهِ ؛ فَقَالَ : حَدَّثْ .

قَالَ : كُنْتُ مَمْلُوكًا لِرَجُلٍ مِنْ وَلَدِ الزُّبَيْرِ ؛ فَدَفَعَنِي إِلَى دَرَهْمَيْنِ أُبْتَاعَ بِهِمَا لَحْمًا ، فَرُحْتُ فَلَقِيتُ جَارِيَةً عَلَى رَأْسِهَا جِرَّةٌ مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَاءِ الْعَقِيقِ ، وَهِيَ تُغَنِّي هَذَا اللَّحْنَ فِي شَعْرِ غَيْرِ هَذَا الشَّعْرِ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيهِ ، فَسَأَلْتُهَا أَنْ تَعَلِّمَنِيهِ ؛ فَقَالَتْ :

* الْأَغَانِي : ٧ - ١٠٤

(١) إِسْمَاعِيلُ بْنُ هَرَبْدٍ : مَوْلَى آلِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ، أَدْرَكَ آخِرَ أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَغَنَّى لِلْوَلِيدِ بْنِ زَيْدٍ ، وَعَمَرَ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ الرَّشِيدِ .
(٢) خَيْرٌ نَفْسُهُ : غَثٌ وَثِقَلَتْ وَاخْتَلَطَتْ .
(٣) الْعَيْسُ : الْإِبِلُ .

لا وحقَّ القبر إلا بدرهمين ؛ فدفعت إليها الدرهمين وعلمتني ، فرجعتُ إلى مولاي
بغير لحم ، فضر بني ضرباً مبرحاً شُفِلْتُ معه بنفسى فأنسيتُ الصوت .

ثم دفع إلى درهمين آخرين بعد أيام أبتاع له بهما لحماً ، فلقيتني الجاريةُ فسألها
أن تعيدَ عليّ الصوت ؛ فقالت : لا والله إلا بدرهمين ، فدفعتهما إليها ، وأعادته عليّ
مراراً حتى أخذته .

فلما رجعتُ إلى مولاي أيضاً ولا لَحْمَ معي ، قال : ما القصةُ في هذين الدرهمين ؟
فصدّقته القصة ، وأعدتُ عليه الصوت ، فقبل بين عيني وأعتقني ؛ فرحلتُ إليك
بهذا الصوت : وقد جعلت ذلك اللّحنَ في هذا الشعر ، فقال : دَعِ الأول وتَنَاسَهُ ،
وأقم على الغناء بهذا اللحن في هذا الشعر ، فأما مولاك فسأدفع إليه بَدَل كل درهم
ألفَ دينار ، ثم أمر له بذلك فحُمِلَ إليه .

٣٤ - أم جعفر بن نوح على الرشيد*

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :
سمعت نائحة نوح بهذا الشعر^(١) :

قد لعمري بت ليلى كاخى الداء الوجيم
ونجى الممى منى بات أدنى من ضلوعى
كلما أبصرت ربما درسا^(٢) فاضت دموعى
مقفرأ من سيد كا ن لنا غير مضيم

فلما سمعته منها استحسنته واشتهيته ، ولهجت به ، فكنت أترنم به كثيراً ،
فسمع ذلك منى أبى ، فقال : ما تصنع بهذا ؟ قلت : شغرت قاله الأخوص وصنعه
معبداً لسلامة ، وناحت به سلامة على يزيد .

ثم ضرب الدهر^(٣) ؛ فلما مات الرشيد إذا رسول أم جعفر قد وافانى فأمرنى
بالحضور . فسيرت إليها ؛ فبعثت إلى : إني قد جمعت بنات الخلفاء وبنات هاشم
لننوح على الرشيد فى ليلتنا هذه ؛ فقل الساعة أياتاً رقيقة ، واصنعن صنعة حسنة
حتى أنوح بهن .

* الأغاني : ٨ - ٣٤٨

(١) الشعر للأخوص والنوح لمعبد ، وكان صنعه لسلامة ، وناحت به سلامة على يزيد بن
عبد الملك (٢) المدارس : العاق الذى اعى (٣) ضرب الدهر بيننا : فرقنا .

فأردتُ نفسي على أن أقول شيئاً فما حضرنى ، وجملتُ ترسل إلى تحثُّنى ،
فذكرتُ هذا النُّوح ، فأريتُ أنى أصنع شيئاً ، ثم قلت : قد حضرنى القول ،
وقد صنعتُ فيه ما أمرت ، فبعثتُ إلى بكُنيزة وقالت : طارحها حتى تطارحنيهِ ،
فأخذتُ كنيزةُ العودَ ورددتهُ عليها حتى أخذته ، ثم دخلت فطارحته أم جعفر ،
فبعثت إلى بمائة ألف درهم ومائة ثوب .

٣٥- أما إليك سبيل غير مسدوداً

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: لما أفضت الخلافة إلى المأمون أقام عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الغناء؛ ثم كان أول من تغنى بحضرته أبو عيسى، ثم واظب على السماع، وسأل عني، فخرّحني عنده بعض من حسدني؛ فقال: ذلك رجل يتيه على الخلافة؛ فقال المأمون: ما أبقى هذا من التيه شيئاً، وأمسك عن ذكرى.

وجفاني كل من كان يصلني لِمَا ظهر من سوء رأيه؛ فأضرب ذلك بي حتى جاءني يوماً علّويه، فقال لي: أتأذن لي اليوم في ذكرك، فإني اليوم عنده؟ فقلت: لا، ولكن غنّه بهذا الشعر؛ فإنه سيبعثه على أن يسألك: من أين هذا؟ فيفتح لك ما تريد، ويكون الجواب أسهل عليك من الابتداء؛ فمضى علّويه، فلما استقر به المجلس غنّاه الشعر الذي أمرته به، وهو:

يا مشرع الماء قد سدّت مسالكه أما إليك سبيل غير مسدود
يلحائم حار حتى لا حياة به مشرد عن طريق الماء مطرود

فلما سمعه المأمون: قال: ويلك! لمن هذا؟ قال: يا سيدي، لعبد من عميدك، جفوته واطرحته، قال: إسحاق؟ قال: نعم؛ قال: ليحضر الساعة.

قال إسحاق : فجاءني الرسولُ ، فسرتُ إليه ، فلما دخلتُ قال : اذنُ ، فدنوتُ
فرفع يديه وقد مدَّهما ، فاتسكأتُ عليه ؛ فاحتضنتني بيديه ؛ وأظهر من إكرامِي
وبرِّي ما لو أظهره صديقٌ لي مؤاسٍ لسرَّتني .

٣٦ - عِنْدَ مُخَارِقِ*

قال بعضُ الرُّوَاةِ : كنتُ عندَ مُخَارِقِ^(١) أنا وهارون بن أحمد بن هشام ،
فلعب مع هارون بالنردِ ، فقَمَرَهُ^(٢) مُخَارِقُ ، ومَرَّ بهارون فصِيلَ^(٣) ينادي عليه ،
فاشتراه بأربعة دنانير ، ووجه به إلى مخارق ، وقال : أطعمنا من هذا الفصيل .

فاجتمعنا وطبخ مخارق بيده جزُورِيَّةً ، وعمل من سَنَامِهِ وكبدته طعاماً شَوِيَّ في
التَّنُّورِ ، وعمل من لَحْمِهِ لَوْنًا يُشْبِهُ الهَرِيْسَةَ بشعير مُقَشَّرٍ في نهاية الطيب ، فأكلنا
وجلسنا نشرب ؛ فإذا نحن بامرأة تصيحُ من الشَّطِّ : يا أبا المهنأ ، الله ، الله ، في
حَلَفِ زوجي بالطلاق أن يسمع غفائك ويشربَ عليه ، فقال : اذهبي وجيئي به ،
فجاء فجلس ، فقال له : ما حَمَلَكَ على ما صَنَعْتَ ؟ فقال له : يا سيِّدِي ؛ كنتُ
سمعتُ صوتاً من صَنَعَتِكَ فطربتُ عليه حتى استخفَّني الطَّربُ ، فخلعتُ أن أسمع
منك ثقةً بإجابتك رغبةً زوجتي ؛ فقال : وما هذا الصوت ؟ فقال :

* الأغانى : ٢١ - ١٥١

(١) هو أبو المهنأ بن يحيى ، منشؤه بالمدينة ، وكان أبوه جزاراً ، فكان وهو سبي ينادى على
ما يبيعه أبوه ، فلذا بان طيب صوته علمته مولاته طرفاً من الغناء ثم اشتهر أمره وغنى الرشيد
والأمين والمأمون والعنصر والواثق ، توفي أيام المتوكل (٢) غلبه .
(٣) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

بكرت عليك فهِيجَتْ وجدا هُوجُ^(١) الرياح واذا كرت نَجْدًا
أَتَجِنُّ مِنْ شَوْقٍ إِذَا ذُكِرْتَ نَجْدٌ وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا عَمْدًا!
فَفَنَاءَ إِيَّاهُ ، وَسَفَاهَ رَطْلًا ، وَأَمْرَهُ بِالْانْصِرَافِ ، وَنَهَاهُ أَنْ يَعَاوِدَ ؛ فَخَرَجَ .

قال الراوى : فما لبثنا أن عادت المرأة تَصْرُخُ : الله ، الله ، يا أبا المهنأ ! قد
أعاد زوجى المشئوم اليمين ؛ أنْ تَغْنِيَهُ صَوْتًا آخَرَ ؛ فقال لها : أحضريه ، فأحضرتُه
أيضاً ، فقال له : ويلك ! مالى ولك ؟ ما قِصَّتُكَ ؟ فقال له : يا سيدي ؛ أنا رجل
طروب ، وكنت قد سمعتُ صوتاً لك آخر فاستفزتني الطرب إلى أن حلفتُ بالطلاق
فلاناً أنى أسمعُه منك ، قال : وما هو ؟ قال : لحنك :

أبلغ سلامة أن البين قد أفدا وأن صَحْبِكَ عنها رَأْحُون غدا
هذا الفراقُ يقيناً إن صَبَرْتَ له أَوْ لَا فَإِنَّكَ مِنْهَا مَيِّتٌ كَمَا
لَشَكَّ أَنْ الذى بى سوف يَهْلِكُنِي إِنْ كَانَ أَهْلَكَ حُبٌّ قَبْلَهُ أَحداً
فَفَنَاءَ إِيَّاهُ مَخَارِقُ ، وَسَفَاهَ رَطْلًا وَقَالَ له : احذَرْ ، ويلك أن تعاد .

قال الراوى : ولم تلبث أن عاودَ الصَّيَّاحَ تَصْرُخُ : يا سيدي ! قد عاود
اليمين ، الله الله فى وفى أولادى ! قال : هاتيه ، فأحضرتُه ، فقال لها : انصرفي
أنت ؛ فإن هذا كلما انصرف حلف وعاد ، فدعِيه يقيم يومه كله ، فتركته وانصرفت ،
فقال له مخارق : ما قِصَّتُكَ أيضاً ؟ قال : قد عرفتُك يا سيدي أننى رجل طروب ،
وكنت سمعتُ صوتاً من صنعتك فاستخفنى الطرب له ، فحلفت أنى أسمعُه منك ،
قالى : وما هو ؟ قال :

أَلِفَ الظَّبْيِ يَعَادِي وَنَسَى الْمُمُّ رُقَادِي

(١) هوج الرياح : شديد الرياح .

وَعَدَا الْهَجْرُ عَلَى الْوَضَلِ بِأَسْيَافٍ حِدَادٍ
قَلْ لِمَنْ زَيْنٌ وَوَدَى : لَسْتَ أَهْلًا لَوْدَادِي

فغَنَّا إِيَّاهُ وَسَقَاهُ رَطْلًا ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَبَطَّحَ ، وَأَمَرَ بِضَرْبِهِ خَمْسِينَ مِثْرَةً^(١) ،
وَهُوَ يَسْتَفِيثُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : احْلِفْ أَنَّكَ لَا تَذْكُرْنِي أَبَدًا ، وَإِلَّا كَانَ هَذَا دَأْبُكَ إِلَى
الْيَمَلِ ، فَخَلَفَ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ ، ثُمَّ أَقِيمَ فَأَخْرَجَ عَنِ الدَّارِ ، فَجَعَلْنَا نَضْحَكَ بَقِيَّةَ
يَوْمِنَا مِنْ حُمَقِهِ .

٣٧- مُحَارِقُ يُغْنِي لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ فِي شَعْرِهِ*

حدّث مُحَارِقُ ، قال : جاءني أبو العتاهية ، فقال : قد عزمتُ على أن أتزوّد منك يوماً نَهْبُهُ لِي فَمَتَى تَنْشَطُ ؟ قلت : متى شِئْتَ وإن طلبني الخليفة ، فقال : يكون ذلك في غد ؟ فقلت : أفعل .

فلما كان من غد باكرتني رسوله فبجثته ، فأدخلني بيتاً له فيه فرشٌ نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خُبزٌ سَمِيدٌ^(١) وَخَلٌّ وَبَقْلٌ وملح وجَدَى مَشْوَى ، فأصبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بِحَمَلَاءٍ فأصبنا منها ، وغسلنا أيدينا ، وجاءونا بفاكهة وريحان وألوان من الأنبيذ ، فقال : اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت وشربت ؛ قدحاً ثم قال : غنّني في قولي :

أحمدٌ قال لي ولم يدّر ما بي أنحبّ الغداة عُتْبَةَ حقاً !
فغنّيته ، فشرب قدحاً وهو يبكي أحراً بكاءً ، ثم قال : غنّني في قولي :
ليس من ليست له حيلةٌ موجودةٌ خيرٌ من الصبرِ
فغنّيته وهو يبكي وينشج^(٢) ، ثم شرب قدحاً آخر ، ثم قال : غنّني فديتك في قولي :

خليلى ما لي لا تزال مضرّتى تكون مع الأقدار حتماً من الحتمِ
فغنّيته إياه ، وما زال يقترح على كل صوت غنّى به في شعره فأغنيه ويشرب ويبكى حتى العقمة^(٣) ، فقال : أحبُّ أن تصبر حتى ترى ما أصنع . فجلست ، فأمر

* الأغاني : ٤ - ١٠٧

(١) السميد : الدقيق الأبيض (٢) نشج الباكي : غص بالبكاء في حلقه من غير انتخاب .

(٣) العتمة : وقت صلاة العشاء .

ابنه و غلامه فكسّر كلّ ما بأيدينا من النبيذ وآلته والملاهي ، ثم أمر بإخراج كلّ ما في بيته من النبيذ وآلته ، فأخرج جميعه ، فما زال يكسّره ويصبّ النبيذ ، وهو يبكي حتى لم يبقَ من ذلك شيء ، ثم نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثياباً بيضاً من صوف ، ثم عانقني وبكى ، ثم قال : السلام عليك يا حبيبي سلام الفراق الذي لا لقاء بعده ، وجعل يبكي وقال : هذا آخر عهدى بك . فظننت أنها بعض حماقاته .

فانصرفت وما لقيته زماناً ، ثم تشوّقتُ إليه فأتيتُه ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلت فإذا هو قد أخذ قوصرتين^(١) ، وثقّب إحداها ، وأدخل رأسه و يديه فيها ، وأقامها مقام القميص ، وثقّب أخرى ، وأخرج رجله منها ، وأقامها مقام السراويل .

فلما رأته نسيتُ كلّ ما كان عندي من الغمّ عليه والوخشة لعشرته ، وضحكت والله ضحكا ما ضحكت مثله قط . فقال : من أيّ شيء تضحك ؟ فقلت : أسخن^(٢) الله عينك ! هذا أيّ شيء هو ؟ من بلغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزهاد والصحابة والمجانين ! انزع عنك هذا يا سخين العين ! فكانه استخياً مني .

ثم بلغني أنه جلس حجّاماً ، فجهدتُ أن أراه بتلك الحال ، فلم أره ، ثم مرض فبلغني أنه اشتفى أن أغنيّه ، فأتيتُه عائداً ؛ فخرج إليّ رسوله يقول : إن دخلت إليّ جددت لي حزناً ، وتاقت نفسي من سماعك إلى ما قد غلبتها عليه ، وأنا أستودعك الله ، وأعتذرُ إليك من عدم اللقاء ، ثم كان آخر عهدى به .

(١) القوصرة : وعاء من قصب يوضع فيه التمر (٢) أسخن الله عينه : أبكاه وأحزنه .

٣٨ - المَغْنُونُ عِنْدَ الْوَائِقِ*

تناظر المغنون يوما عند الواثق ، فذكروا الضَّرَّابَ وحَدَقَهم ؛ فقدَّم إسحاق زلزلة^(١) عليه ملاحظ ، ولملاحظ في ذلك الرياسة على جميعهم ، فقال له الواثق : هذا حَيْفٌ وَتَمَدٍّ مِنْكَ ؛ فقال إسحاق : يا أمير المؤمنين ؛ اجمع بينهما وامتحانهما ؛ فإنَّ الأمرَ سينكشف لك فيهما ، فأمر بهما فأحضرا ؛ فقال له إسحاق : إن للضَّرَّابِ أصواتا معروفة ، أفأمتحنهما بشيء منها ؟ قال : أجل ، افعلْ ، فسمي ثلاثة أصوات كان أوسا :

عَلَّقَ قَلْبِي ظَبْيَةَ السَّيْبِ^(٢) جهلاً فقد أغرى بتمذيبي
نَمَتْ عَلَيْهَا حِينَ مَرَّتْ بِنَا بجاسد^(٣) يَنْفَحْنَ بِالطَّيْبِ
تَصُدُّ عَنَّا عَجُوزٌ لَهَا مُنْكَرَةٌ^(٤) ذاتُ أعاجيبِ
فَكَلَّمَا هَمَّتْ^(٥) بِإِتْيَانِهَا قالت : تَوَقَّ عِدْوَةَ الذَّيْبِ

قصر با عليه ، فتقدَّم زلزل وقصرَ عند ملاحظ ، فعجِبَ الواثق من كشفه عما ادعاه في مجلس واحد . فقال له ملاحظ : فما بآله يا أمير المؤمنين يُحِيلُكَ عَلَى النَّاسِ ! ولم لا يضرب هوا ! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنه لم يكن أحد في زمانى أضرب منى

* الأغاني : ٥ - ٢٨٠

(١) كان زلزل من سواد أهل الكوفة ، وقف إبراهيم الموصلي على الغناء العربي ، وأراه وجوه النغم وثقفه ، ثم أصبح بعد ذلك من حذاق الضراب (٢) السيب : كورة من سواد الكوفة (٣) المجاسد : العصان التي صبغت بالزعفران (٤) منكورة : مبخضة مكروهة (٥) همت : همت ، وهم بالشيء : أرادته ونواه .

إلا أنكم أعفيتُموني ؛ فتفَلَّت مِنِّي ، على أن معي بقية لا يتعلق بها أحدٌ من هذه الطبقة .

ثم قال : يا ملاحظ ؛ شَوَّشْ عودَكَ وهاتِهِ ، ففعل ذلك ملاحظ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هذا يخلط الأوتار تخليط متعمّنت ، فهو لا يالو إفسادها ، ثم أخذ العود فجسَّه ساعة حتى عرف مواقِعَه ، ثم قال : يا ملاحظ ؛ غَنَّ أَيَّْ صوتٍ شئت ، فغَنَّى ملاحظ صوتاً ، وضرب عليه إسحاق بذلك العود الفاسد التسوية ، فلم يخرجْهُ عن لَحْنِهِ في موضع واحد حتى استوفاه عن نقرة واحدة ، ويده تصعد وتنحدر على الدَّسَاتِين ^(١) ، فقال له الوراق : لا والله ما رأيتُ مثلك ولا سمعتُ به ! اطرح هذا على الجوارى .

فقال : هيهات يا أمير المؤمنين ! هذا لا تعرفه الجوارى ولا يصلحُ لهنَّ ، إنما بلغني أن الفهليذ ضرب يوماً بين يدي كِشْرَى فأحسن ، فحسده رجلٌ من حُذَّاق أهل صَنْعَتِهِ ، فترقبه حتى قام لبعض شأنه ، ثم خالفه إلى عود فشوش بعض أوتاره ، فرجع فضرب وهو لا يدري ، والمُلُوك لا تُصَلِّحُ في مجالسها العيدان ، فلم يزل يضرب بذلك العودِ الفاسد إلى أن فرَغَ ، ثم قام على رجله فأخبر الملك بالقصة ، فامتحن العودَ فعرف مافيه ، ثم قال : « زه زه ^(٢) وزهان زه » ، ووصله بالصلة التي كان يصل بها مَنْ خاطبه هذه المخاطبة ؛ فلما تواطأت الرواية بهذا أخذت نفسى ورَضَتْها عليه ، وقالتُ : لا ينبغي أن يكون الفهليذُ أقوى على هذا مِنِّي ، فما زلتُ أستنبطه بضع

(٢) كلمة فارسية معناها

(١) الدساتين : ما عليه أطراف أوتار العود من مقدمه

أحسن أحسن .

عشرة سنة حتى لم يَبْقَ في الأرض موضعٌ على طبقةٍ من الطبقاتِ إلا وأنا أعْرِفُ
نَعْمَتَهُ كيف هي ، والمواضع التي يخرج النِّعم كلها منه فيها ، من أعاليها إلى أسافلها ،
وكلّ شيء منها يُجَانِسُ شيئاً غيره كما أعرف ذلك في مواضع الدساتين ، وهذا شيء
لا تَقِي^(١) به الجوارى . قال له الوائي : صدقت ، واثن مُتَّ لِمَوْتِنَ هذه الصناعة
مملك ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

(١) لا تأتي به واقيا .

٣٩- في دار الواثق*

حدث ابن بسْخَر، قال : كانت لي نوبة في خدمة الواثق في كل جمعة إذا حضرت ركبتُ إلى الدار ؛ فإن نشطتُ أمتُ عنده ، وإن لم ينشط انصرفتُ ، وكان رسمنا ألا يحضر أحدٌ منا إلا في يوم نوبته .

فإني لفي منزلي في غير يوم نوبتي إذا رُسِلَ الخليفة قد هجموا عليّ ، وقالوا لي : احضرا فقلت : أَلخَيْر ؟ قالوا : خير ، فقلت : إن هذا يومٌ لم يحضرنا فيه أمير المؤمنين قط ، ولعلكم غلِطتم . فقالوا : الله المستعان ! لا تطوّل وبادِرْ ، فقد أمرنا ألا ندعَكَ تستقرُّ على الأرض . فداخِلني فزعٌ شديد ، وخفتُ أن يكونَ ساعٍ قد سعى بي أو بليّةٌ قد حدثتُ في رأيي الخليفة عليّ .

فركبتُ حتى وافيتُ الدار ؛ فذهبتُ لأدخلَ من حيث كنتُ أدخلُ فَمَنَعَتُ ، وأخذ بيدي الخدمُ فأدخلوني وعدّوا بي إلى تمرّاتٍ لا أعرفها ، فزاد ذلك في جزعي وغمّي ، ثم لم يزل الخدمُ يُسلمونني من خدمٍ إلى خدمٍ ، حتى أفضيتُ إلى دار مفروشة الصّحّين ، ملبّسة الحيطانِ بالوشى المنسوج بالذهب ، ثم أفضيتُ إلى رواقٍ أرضه وحيطانه ملبّسةٌ بمثل ذلك ، وإذا الواثقُ في صدره عل سرير مُرصع بالجواهر ، وعليه ثيابٌ منسوجةٌ بالذهب وإلى جانبه فريدة^(١) ، جاريته ، عليها مثلُ ثيابه ، وفي حِجْرِها عُود . فلما رآني قال : إيلينا إيلينا ! فقَبَّلَتِ الأرضَ ثم قلت :

* الأغاني : ٤ - ١١٥

(١) فريدة: كانت جارية مغنية محسنة ، أهداها عمرو بن بانة إلى الواثق ، وكانت حسنة الوجه ، حسنة الفناء ، حادة الفطنة والفهم .

يا أمير المؤمنين ؛ خيراً ! قال : خيراً ، أما ترانا ! أنا طلبتُ والله ثالثاً يؤنسنا فلم أرَ أحقَّ بذلك منك ، فبحياتي بادِرْ فكلْ شيئاً وبادِرْ إلينا . فقلتُ : قد والله ياسيدي أكلتُ وشربتُ أيضاً ، قال : فاجلسْ ، فجلست . قال : هاتوا الحمدِ رِطلاً في قدَح ، فأحضر ذلك ، واندفعت فريدةً تغني :

أهابك إجلالاً وما بكِ قدرةٌ على ولكن مله عَيْن حبيبها
وما هجرتك النفسُ بآليل أنها قَدَّتْكِ ولا أن قلّ منك نصيبها
فجاءت والله بالسَّحر ، وجعلت تُغني الصوت بعد الصوت ، وأغني أنا في خلال غنائها ؛ فمرّ لنا أحسنُ مامراً لأحد .

فإننا لسكذلك إذ رفع رجله فضرب بها صدر فريدة ضربةً تدخرجت منها من أعلى السرير إلى الأرض وتفتت عودها ، ومرت تعدو وتصيح ، وبقيت أنا كالمنزوع الروح ، فاطرق ساعة إلى الأرض متحيراً ، وأطرقتُ أتوقع ضرب العنق .

فإنني لسكذلك إذ قال لي : يا محمد ؛ فوثبت . فقال : ويحك ! أرايت أغرب مما تهياً لنا ؟ فقلت : ياسيدي ؛ الساعة والله تخرجُ روحي . فعلى مَنْ أصابنا بالعين لعنةُ الله ! فما كان السبب ! أَلِذنب ؟ قال : لا والله ولكن فكرتُ أن جعفرًا يَقْعُدُ هذا المقعد ، ويقعدهمها كما هي قاعدةٌ معي ، فلم أطلق الصبر ، وخامرني ما أخرجني إلى ما رأيت . فسُرِّي عني وقلت : بل يَقْتُلُ الله جعفرًا ويحيي أمير المؤمنين أبداً ، وقبّلت الأرض وقلت : ياسيدي ؛ الله الله ! ارحمها ومُرْ بِرَدِّها . فقال لبعض الخدم الوقوف : مَنْ يجيء بها ! فلم يكن بأسرع من أن خرجت في يدها عودها ، وعليها غيرُ الثياب التي كانت عليها . فلما رآها لاطفها ، فبكت وجعل هرير يبكى ، واندفعتُ أنا في البكاء ، فقالت : ما ذنبى يامولاي وسيدي ؟ وبأى شيء استوجبت هذا ؟

فأعاد عليها ما قاله وهو يبكي وهي تبكي ! فقالت : سألتك بالله يا أمير المؤمنين إلا ضربت عنقي الساعة وأرحتني من الفكر في هذا ، وأرحت قلبك من الهم بي ؛ وجعلت تبكي ويبكي ، ثم مسحاً أعينهما ، ورجعت إلى مكانها .

وأومأ إلى خدام وقوف بشيء لا أعرفه ؛ فمضوا وأحضروا أكياساً فيها عَيْن وُورِق^(١) ورزماً فيها ثياب كثيرة ، وجاء خادم بدرج ففتحه وأخرج منه عِقداً ما رأيت قطُّ مثل جوهر كان فيه ، فألبسها إياه ، وأحضرت بذرة فيها عشرة آلاف درهم ، فجُمِلت بين يدي ، وخمسة تحوت فيها ثياب ، وعدنا إلى أمرنا وإلى أحسن مما كنا فيه ، فلم نزل كذلك إلى الليل .

ثم تفرقنا وضرب الدهرُ ضربة^(٢) ، وتقلد المتوكل ، فوالله إني لفي منزلي بعد يوم نوبتي إذ هجم على رُسُل الخليفة ، فما أمهلوني حتى ركبت وصرْتُ إلى الدار ، فأدخلتُ والله الحجرة بعينها ، وإذا المتوكلُ في الموضع الذي كان فيه الوائق على السرير بعينه وإلى جانبه فريدة ، فلما رآني قال : ويحك ! أما ترى ما لنا فيه من هذه ! أما منذ غُدوة أطلبها بأن تغنيني فتبأي ذلك ! فقلت لها : يا سبحان الله ! أتخالفي سيدك وسيدنا وسيد البشر ! بحياته غني ، فعرفت ، والله ثم اندفعت تفتني :

مقيمٌ بالمجازة^(٣) من قنوني^(٤) وأهلك بالأجيفر^(٥) فالتماد^(٥)

فلا تبعد فكل فتى سيأتى عليه الموت يطرق أو يُفادى

(١) العين : الذهب المضروب ، والورق : الدراهم المضروبة من الفضة (٢) يقال : ضرب الدهر من ضربه ، أى مر من مروره وذهب بفضه (٣) المجازة : منزل من منازل طريق مكة (٤) قنونا : واد من أودية السراة يصب إلى البحر (٥) الأجيفر والتماد : موضعان .

ثم رمّت بالعود الأرض ، ورمّت بنفسها عن السرير ، ومرت تعدو وتصيح :
واسيّداه !

فقال لي : ويحك ! ما هذا ؟ فقلت : لا أدري والله ياسّدي . فقال : فما ترى ؟
فقلت : أرى أن أنصرف أنا وتحضر هذه ومعها غيرها ؛ فإنّ الأمر يؤولُ إلى
ما يريدُ أمير المؤمنين . قال : فأنصرف في حفظِ الله ، فأنصرفتُ ؛ ولم أدر
ما كانت القصّة !

٤. محبوبَة جارية المتوكل *

قال علي بن الجهم : كانت محبوبَة أُهديتُ إلى المتوكل ، أهداها إليه عبدُ الله ابن طاهر في جملة أربعائة جارية ، وكانت بارعة الحسن والظرف والأدب ، مغنيةً محسنة ، فخطبت عند المتوكل حتى إنه كان يجلسها خلف ستارة وراء ظهره إذا جلس للشرب ، فيدخل رأسه إليها ويحدثها ويراها في كل ساعة ؛ ففاضبها يوماً ، وهجرها ، ومنع جواريه جميعاً من كلامها ، ثم نازعته نفسه إليها ، وأراد ذلك ، ثم منعه العِزَّة منها ، وامتنعت من ابتدائه إدلالاً عليه بمحلها منه .

قال ابنُ الجهم : فبكرتُ إليه يوماً فقال لي : يا علي ؛ إني رأيتُ البارحة محبوبَة في نومي كأنني قد صالحتها ، فقلت : أقرء الله عينيك يا أمير المؤمنين ، وأنامك على خير ، وأيقظك على سرور ، وأرجو أن يكونَ هذا الصلحُ في البقعة .
فبينما هو يحدثني وأجيبه إذا بوصيفة قد جاءت فأسرتُ إليه شيئاً ، فقال لي : أتدري ما أسرت هذه إليّ ؟ قلت : لا . قال : حدثتني أنها اجتازت محبوبَة الساعة ، وهي في حجرتها تُغني ! أفلا تعجبُ إلى هذا ! إني مغاضبها وهي متهاونة بذلك ؛ لا تبدؤني بصلح ، ثم لا ترضي حتى تُغني في حجرتها ! قم بنا يا علي حتى نسمع ما تغني ، ثم قام ، وتبعته حتى انتهى إلى حجرتها ، فإذا هي تغني وتقول :

أدور في القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يكلمني
حتى كاني ركبتُ معصيةً ليست لها توبةٌ تخليصني

● نهاية الأرب : ٥ : ١٠٩

فهل لنا شافعاً إلى ملكٍ قد زارني في الكرى^(١) فصالحني
حتى إذا ما الصُّباحُ لاحَ لنا عاد إلى هَجْرِهِ فصارَ مني^(٢)
فطرب المتوكل ، وأحسَّتْ بمكانه ، فخرجت إليه ، وتنحَّيتُ ، فحدثته أنها
رأته في منامها ، وقد صالحها فانتبهت ، وقالت هذه الأبيات ، وغنت فيها ؛ فحدثها
هو أيضاً برؤياه ، واصطلحا ، وبعث إلى بجائزة وخيلمة .
ولما قُتِلَ تسلى عنه جميعُ جواريه غيرها ، فإنها لم تزل حزينةً ، هاجرةً لكل
لذة حتى ماتت .

(١) الكرى : النوم .

(٢) الصبرم : التقطع والمجر .

٤١ - قَيْنَةُ تَحْنُ إِلَى بَغْدَادِ *

قال أبو علي بن الأسكري المصري : كنتُ من جُلَّاسِ تميم بن أبي تميم ويمَنُ
يَخِفُّ عليه ، فَأَتَيْتُ من بغدادَ بِجاريةٍ رائعةٍ فائقةِ الفناء ، فدعا جُلَّاسُهُ ومُدَّتْ
السَّتَّارَةُ وأمرها ففنت :

وبَدَّأَ له من بعدما انْدَمَلَ الهوى بَرَقَ تَأَلَّقَ مَوْهِنًا لَمَعَانُهُ
يَبْدُو كحاشيةِ الرِّدَاءِ ودونه صُغِبَ الذُّرَا مَتَمَتِ أَرْكَانُهُ
وبَدَأَ لِيَنْظُرَ كيفَ لَاحَ فلمْ يَطِقْ نَظَرًا إِلَيْهِ وَصَدَّه أَشْجَانُهُ
فَالنَّارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُهُ وَالْمَاءُ مَاسَحَتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

فأَحْسَنْتُ مَا شَاءَتْ ، وطربَ تميمَ وَمَنْ حَضَرَ ، ثُمَّ غَفَّتْ :
سَتَسْلِيكَ عِمَافَاتِ دَوْلَةِ مُفْضِلٍ أَوَانِسُهُ عَمُودَةٍ وَأَوَاخِرُهُ
ثَنَى اللَّهِ عِظْفَيْهِ وَأَلْفَ شَخْصِهِ عَلَى الْبِرِّ مَذْشُدَّتْ عَلَيْهِ مَآزِرُهُ

فطربَ تميمَ وَمَنْ حَضَرَ طَرِبًا شَدِيدًا ، ثُمَّ غَفَّتْ :
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قُرَأُ بِالْكَرْنِخِ مِنْ فَلَكَ الْأَزْوَارِ مَطْلَعُهُ
فَأَفْرَطَ تميمَ فِي الطَّرِبِ جَدًّا ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : تَمَنَّى مَا شِئْتَ فَلَكَ مُنَاكَ ، فَقَالَتْ :
أَتَمَنَّى عَافِيَةَ الْأَمِيرِ وَسَعَادَتَهُ ، فَقَالَ : لَا بَدَّ وَاللَّهِ ! فَقَالَتْ : عَلَى الْوَفَاءِ أَتَمَنَّى أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؟
فَقَالَ : نَعَمْ ، فَقَالَتْ : أَتَمَنَّى أَنْ أَغْنَى هَذِهِ النَّوْبَةُ بِيَبْغَادَ . . . فَتَغَيَّرَ وَجْهُ تميمَ ،

وتكدر المجلس، وقمنا ؛ فلحقني بعضُ خدمه فردّني ، فلما وقفتُ بين يديه قال لي :
وَيْحَكَ ! أَرَأَيْتَ مَا امْتَحِنَّا بِهِ ؟ وَلَا بُدَّ مِنَ الْوَفَاءِ ، وَمَا أَثِقَ فِي هَذَا بِغَيْرِكَ ، فَتَاهَبْ
لنَحْمِلْهَا إِلَى بَغْدَادَ ، فَإِذَا غَنَتْ هُنَاكَ فَاضْرِفْهَا . فقلتُ : سَمِعًا وَطَاعَةً .

فَأَصْحَبَهَا جَارِيَةً سُودَاءَ تَخْدُمُهَا وَتُعَادِلُهَا^(١) ، وَأَمَرَ لِي بِنَاقَةٍ وَبِجَمَلٍ عَلَيْهِ هَوْدَجٌ ،
فَأَدْخَلْتُ فِيهِ ، وَسَرْنَا مَعَ الْقَافِلَةِ إِلَى مَكَّةَ ، فَقَضَيْنَا حَجَّنا ، ثُمَّ لَمَّا وَرَدْنَا الْقَادِسِيَّةَ ،
أَتَتْنِي السُّودَاءُ فَقَالَتْ لِي : تَقُولُ لَكَ سَيِّدَتِي : أَيْنَ نَحْنُ ؟ فَقُلْتُ : نَحْنُ نَزُولٌ
بِالْقَادِسِيَّةِ ، فَأَخْبَرْتُهَا ، فَسَمِعْتُ صَوْتَهَا قَدْ ارْتَفَعَ بِالْغَنَاءِ :

لَمَّا نَزَلْنَا الْقَادِسِيَّةَ حَيْثُ مُجْتَمَعُ الرِّفَاقِ
وَشَمْتُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَابِ زَنْسِيمَ أَنْفَاسِ الْعِرَاقِ
أَبْقَنْتُ لِي وَلِمَنْ أَحْسَبُ بِمَجْمَعِ شَمْلٍ وَاتِّفَاقِ
وَضَحِكْتُ مِنْ فَرَحِ اللَّقَاءِ ۝ كَمَا يَكُونُ مِنَ الْفِرَاقِ

فَصَاحَ النَّاسُ مِنْ أَقْطَارِ الْقَافِلَةِ : أَعِيدِي ، أَعِيدِي ؛ فَمَا سَمِعَ لَهَا كَلِمَةً .
فَلَمَّا نَزَلْنَا الْيَاسِرِيَّةَ - عَلَى خَمْسَةِ أَمْيَالٍ مِنْ بَغْدَادَ فِي بَسَاتِينَ مُتَّصِلَةٍ بِبَيْتِ النَّاسِ
بِهَا ثُمَّ يَكْثُرُونَ لِبَغْدَادَ - بَقَيْنَا هُنَاكَ ، وَلَمَّا قَرُبَ الصَّبَاحُ إِذَا بِالسُّودَاءِ قَدْ أَتَتْنِي
مَذْعُورَةً ، فَقَالَتْ : إِنْ سَيِّدَتِي لَيْسَتْ بِحَاضِرَةٍ ، وَوَاللَّهِ لَا أَدْرِي أَيْنَ هِيَ ؟ فَطَلَبْتُهَا فَلَمْ
أَجِدْهَا ، وَلَا وَجَدْتُ لَهَا بِبَغْدَادَ خَبْرًا ، فَقَضَيْتُ حَوَائِجِي بِبَغْدَادَ ، وَانصَرَفْتُ إِلَى
تَمِيمٍ ، فَأَخْبَرْتُهُ خَبْرَهَا ، فَلَمْ يَزَلْ وَاجِعًا^(٢) عَلَيْهَا !

(١) تَرْكَبُ مَعَهَا . (٢) حَزَنًا

البَابُ الثَّانِي

في القصص التي تُفصِّحُ عن رِقَّةِ قلوب العرب ،
ورفاهة عواطفهم ، وسمو نفوسهم بالإخبار عن وقع
الحبِّ في قلبه ، وامتزج العَفَافُ والشرف بحبه ، ولكن
امتنع عليه أمله ، فبقي معذَّباً في سبيل من أحبَّ ، وراح
شهيداً الرقة والعفاف .

٤٢ - جَنَى الْجَمَالَ عَلَى نَصْرِ فَعَرَّ بِهِ

عَنِ الْمَدِينَةِ تَبْكِيهِ وَيَبْكِيهَا *

عشقت امرأةً من المدينة فتى من بنى سليم ، يقال له نصر بن حجاج - وكان أحسن أهل زمانه - فضنيت من حبه ، ودنيت^(١) من الوجد به ، ثم لهجت بذكره حتى صار ذكره هجيرًا^(٢) .

وخرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - ذات ليلة يعس ، ومراءً بدارها ، فسمعها تقول رافعةً عقيبتها^(٣) :

هل من سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج فقال عمر : أمّا ما عشتُ فلا ، لا أرى معي رجلاً تهتِفُ به العواتقُ في خدورهن .

فلما أصبح دعا نصر بن حجاج ، فأبصره ، فإذا هو أحسنُ الناس وجهًا ، وأضبحهم وأملحهم حسنًا ، فأمر أن يُطَمَّ^(٤) شعره ؛ فخرَجَتْ جبهته فازداد حسنًا ، فقال له عمر : اذهب فاعتمْ ، فاعتم فبدت وفرة^(٥) فأمر بحلقها فازداد حسنًا ! فقال له : فتنّت نساء المدينة يا بن حجاج ، فقال : وأى ذنب لي في ذلك ! قال عمر :

* جمع الأمثال : ١ - ٣٧٩ ، ابن أبي الحديد : ٣ - ٩٣ ، ثمرات الأوراق : ٢٣٦
(١) دنف : إذا لازمه المرض (٢) هجيرًا : دأبها وشأتها (٣) العقيرة : صوت الشاكي والباكي والمغنى (٤) طم شعره : عقصه (٥) الوفرة : ما سأل على الأذنين من الشعر .

صدقته ، الذنب لي إن تركتُك في دار الهجرة ، ثم أركبته جملاً وسيّره إلى البصرة .
وأقام نصرٌ بالبصرة مدة ، ثم سمع يوماً منادياً يُنادي : « مَنْ أراد أن يكتبَ
إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً فليكتب ؛ فإنّ بريد المسلمين خارج »
فكتب الناس ، ودمس نصرٌ بن حجاج كتاباً فيه : « لعبد الله عمر أمير المؤمنين
من نصر بن حجاج . سلام عليك ، أما بعد يا أمير المؤمنين :

لعمري لئن سيّرتني أو حرمتني	لما فلت من عرضي عليك حرامٌ
أئن غنت الذّلفاء يوماً بُنيّة	وبعض أمانى النساء غرامٌ
ظننت بي الظنّ الذي ليس بعده	بقاء ، فإلى في النديّ كلامٌ
وأصبحتُ منفيّاً على غير ريبة	وقد كان لي بالكتّين ^(١) مقامٌ
سيمعني مما تظنّ تكرّمي	وأباه صدق سالفون كرامٌ
ويمنعها مما تمتّ صلاتها	وحالها في دينها وصيامٌ
فها تان حالانا ، فهل أنت راجعي ^(٢) ؟	فقد جُبّ مني كاهلٌ وسنامٌ ^(٣)

ولما نام عمر بن الخطاب قال : أما ولي ولاية فلا ، وأقطعته بالبصرة
أرضاً وداراً .

ثم بدا لمجاشع بن مسعود السلمي أن يُنزله منزله لقرايته ، فصيّره إليه ، وأخدمه
امراته شُميلة - وكانت أجملاً امرأة بالبصرة - ، فعَلَّقَتْهُ وَعَلِقَهَا ، وخفي على كل
واحد منهما خبر الآخر لِمَلازمة مجاشع لضيّفه ، وكان مجاشع أمّياً ونصر وشُميلة

(١) يريد مكة والمدينة على التقلب (٢) راجعي : رادى (٣) جب : قطع ، والكاهل :
مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق ؛ ذكروا أن الشُميلة هي الفارعة أم الحجاج ، وقيل هي جدة الحجاج
أم أبيه (ابن خلكان : ص ١٢٤ ، ج ١) .

كاتبين ، فعيل صبرُ نصر ، فكتب على الأرض بحضرة مجاشع : « إني قد أحبتك حُباً لو كان فوقك لأظلك ، ولو كان تحتك لأقلك » . فوقت تحته غير محتشمة « وأنا » . فقال لها مجاشع : ما الذى كتبته ؟ فقالت : كتب : كم تحلب ناقتكم ؟ فقال : وما الذى كتبت تحته ، فقالت : كتبت وأنا ؛ فقال مجاشع : كم تحلب ناقتكم ، وأنا ؛ ما هذا لهذا بطبق ^(١) ؟ فقالت : أصدقك ، إنه كتب ، كم تُفل أرضكم ؟ فقال مجاشع : كم تُفل أرضكم ، وأنا ؛ ما بين كلامه وجوابك قرابة ! ثم كفأ على الكتابة جفنة ودعا بسلام من الكتاب ^(٢) ، فقرأ عليه ، فالتفت إلى نصر وقال : يا بن عم ؛ ما سيرك عمرٌ من خير ؛ فقم فإن وراءك أوسع ، فهض مستحيياً ، وعدل إلى منزل بعض السُّلميين ؛ ووقع لجنبه ، فضني من حُب شملة ؛ ودنف ^(٣) وانتشر خبره .

ثم إن مجاشعاً وقف على خبر عِلته ؛ فدخل عليه ، فلحقته رقةٌ لما رأى ما به من الدنف ؛ فرجع إلى بيته ؛ وقال لشميلة : عزمت عليك لما أخذت خُبزة ^(٤) فلبستها بسبن ، ثم بادرت بها إلى نصر ؛ فبادرت بها إليه ، فلم يكن به نهوض ؛ فجعلت تلقيه بيدها ، فعادت قواه وبرأ كأن لم يكن به قلبة ^(٥) .

فلما فارقت عاوده النكس ^(٦) ، فلم يزل يتردد فى علة حتى مات فيها !

(١) الطبق من كل شيء : ماساواه (٢) الكتاب والمكتب : موضع التعليم ، أو هو جمع كاتب
(٣) الدنف : المرض الملازم (٤) الخبزة : عجينة يوضع فى الملة حتى ينضج (٥) يقال : ما به قلبة — بالتحريك : أى داء ونعب (٦) النكس : عود المرض .

٤٣- عُرْوَة وَعَفْرَاء *

هلك حزام ، وترك ابنة عُرْوَة ^(١) صغيراً في حِجْر عمِّه عقال ؛ وكانت عَفْرَاء تَرْبَاً ^(٢) لعروة ، يلعبان جميعاً ، ويكونان معاً ، حتى تألف كل واحدٍ منهما صاحبه إلْفاً شديداً ؛ وكان عقال يقول لعُرْوَة لما يرى من الفهما : أبشر فإن عَفْرَاء أُمَّتُكَ ^(٣) إن شاء الله !

فكانا كذلك حتى لحقت عَفْرَاء بالنساء ، ولحق عُرْوَة بالرجال ؛ فأبى عروة عمّة له يقال لها : هند ، وقال لها في بعض ما يقول : يا عمّة ؛ إني لمكلمك ؛ وإني منك المستحي ، ولكن لم أفعل هذا حتى ضِقتُ ذَرْعاً بما أنا فيه .

فذهبت عمّة إلى أخيها ، فقالت له : يا أخي ؛ قد أتيتك في حاجةٍ أُحِبُّ أن تُحسِنَ بها ، فإن الله يَأْجُرُكَ ^(٤) لصلّةِ رحمتك بي ؛ فقال لها : قولي ، فلن تَسْأَلِي حاجةً إلا ردّدتُك بها ، قالت : تزوّج عروة ابنَ أخيك بابنتك عَفْرَاء ، فقال : ما عنه مذهب ، ولا هو دون رجل يُرْغَب فيه ، ولا بنا عنه رغبة ؛ ولكنه ليس بذِي مال ، وليست عليه عَجَلَة .

* الأغاني : ٢٠ - ١٥٢

(١) هو عروة بن حزام بن مالك ، شاعر لبيب حاذق متمكن في العشق ، قيل : إنه أول عاشق مات بالهجر من العذريين ، ولشدة مقاساته في العشق ضرب به المثل بين العرب . مات سنة ٣٠ هـ ، ودفن بوادي القرى قرب المدينة (٢) القرب : من ولد معك (٣) يريد زوجتك وامرأتك (٤) يَأْجُرُكَ : يجازيك .

فطابت نفسُ عروة ؛ وسكنَ بعضَ السُّكُونِ ، وكانت أمُّها سيئةَ الرأى فيه
تريد لا بنتها ذا مال ووَفْرٌ^(١) ، وكانت عُرْضَةٌ^(٢) لذلك كلاً وجالاً .

فلما تكاملت سيئته ، وبلغ أشده ؛ عرف أن رجلاً من قومه ذابِسا ومال
كثير يخطبها ؛ فاتى عمه ، فقال : يا عم ؛ قد عرفتَ حَقِّي وقرابتي ؛ وإني ولدك
ورُبِّيْتُ في حجرِكَ ؛ وبلغني أن رجلاً خطبَ عَفْرَاءَ ؛ فإن أسعفتَه بطلبته قتلتني
وسفكت دمي ؛ فأنشدك الله ورحمى وحَقِّي ! فرَّقَ له ؛ وقال : يا بني ؛ أنت مُعْدِمٌ
وحالنا قريبةٌ من حالك ؛ ولستُ مخرجها إلى سِوَاكَ ، وأمُّها أبت أن تزوجها
إلاَّ بمهرٍ غال .

فَضَرَبَ في الأرضِ يبتغي الرزق ، ثم جاء إلى أمها فألطفها^(٣) ودَارَاهَا ، فأبت
أن تجيبه إلا بما تحتكمه من المهر ، وبعد أن يَسُوقَ شَطْرَهُ^(٤) إليها ، فوعدها بذلك ،
وعلم أنه لا تنفعه قرابةٌ ولا غيرها إلا المال الذي يطلبونه ، فعمل على قَصْدِ ابنِ عم له
موسر ، وكان مقيماً بالرَّيِّ ، فجاء إلى عمه وامراته ، فأخبرها بعزمه ، فصوبَّاه ووعدها
ألاَّ يُحدثا حدثاً حتى يعود .

وصار في ليلةٍ رحيله إلى عَفْرَاءَ ، فجلس عندها هو وجوارى الحى يتحدثون
حتى أصبحوا ، ثم ودَّعها وودَّع الحى ، وشدَّ على راحلته ، وصحبه في طريقه
فَتَيَّانَ كانا يالْقَانِه ، وكان في طول سفره ساهما يكلمانه فلا يفهم ، فيكره في عَفْرَاءَ
حتى يُرَدَّا عليه القولُ مِرَّاراً .

(١) الوفّر : الغنى . (٢) عرضة لذلك : أى أهلاً لذلك . (٣) ألطفها : برها .

(٤) الشطر : النصف .

وسار إلى أن قدم على ابن عمه ، فلقّيه ، وعرفه حاله وما قدم له ، فوصله وكساه ، وأعطاه مائة من الإبل ، فانصرف بها إلى أهله .

وقد كان رجلٌ من أهل الشام من أنساب بني أمية نزل في حيٍّ عَفراء ، فنَحَرَ وَوَهَبَ وأطعم ، وكان ذا مال ، فرأى عَفراء ، وكان منزله قريباً من منزلهم ، فأعجبته وخطبها إلى أبيها ، فاعتذر إليه وقال : قد سميتها إلى ابن أخ لي يعدلها عندي ، وما إليها لغيره سبيل . فقال له : إني أرغبك في المهر ، قال : لا حاجة لي بذلك ؛ فعَدَلَ إلى أمِّها ، فوافق عندها قبولاً لبذلها . ورغبت في ماله ، فأجابته ووعدته ، وجاءت إلى عقال وقالت : أيُّ خير في عُرْوَة حتى نحبس ابنتي عليه وقد جاءها الغنى يَطْرُقُ عليها بابها ؟ والله ما تدري أَعُرْوَة حيٌّ أم ميت ؟ وهل ينقلبُ إليك بخير أم لا ؟ فتكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً سنياً ، فلم تزل به حتى قال لها : فإن عاد لي خاطباً أجبتُه .

فوجَّهَتْ إليه : أن عُدَّ إليه خاطباً . فلما كان من غد نَحَرَ جُزْراً عِدَّةً ، وأطعم ووهب ، وجمع الحىَّ معه على طعامه ، وفيهم أبو عَفراء ، فلما طعموا أعاد القول في الخطبة ، فأجابه وزوجَه ، وساق إليه المهرَ وحَوَّاتٍ إليه عَفراء ، وقالت قبل أن يدخلَ بها :

يَا عُرْوَة إِنَّ الحىَّ قد نَقَضُوا عَهْدَ الإله وحاولوا القَدْرَ

فلما كانت الليلُ دخلَ بها زوجها ، وأقام فيهم ثلاثاً ، ثم ارتحلَ بها إلى الشام ، وعمدَ أبوها إلى قَبْرِ عَتِيقٍ فجَدَّدَهُ وسَوَّاه ، وسأل الحىَّ كَيْثَمَانَ أمرها .

وقدم عُرْوَة بعد أيام ، فنماها أبوها إليه ، وذهب به إلى ذلك القبر ، فكثَّ
يختلفُ إليه أياما وهو مُضْنَى هالك ، حتى جاءتْه جاريةٌ من جَوَارِي الحَيِّ فأخبرتهُ
الخبر ؛ فتركهم وركب بعض إبله وأخذ معه زاداً ونفقةً ، ورحل إلى الشام فقدمها ،
وسأل عن الرجل ، فأخبر به ودلَّ عليه ، فقصدته وانتسب إليه في عدنان ، فأكرمه
وأحسن ضيافته ، فكثَّ أياما حتى أنسوا به .

ثم قال لجاريةٍ لهم : هل لك في يدِ تُولِينِيها ؟ قالت : نعم ، قال : تدفعين
خاتمي هذا إلى مولاتك ، فقالت : سوءةٌ لك ! أما تستحي بهذا القول ! فأمسك عنها
ثم أعاد عليها ، وقال لها : ويحك ! هي والله بنتُ عمي ، وما أحدٌ مِنَّا إلا وهو أعزُّ
على صاحبه من الناس ، فاطرحي هذا الخاتم في صَحْفيها ، فإن أنكرتُ عليك
فقولي لها : اصْطَبَحَ ضيفُك قبلك ، ولعله سقطَ منه !

فرقت له الجارية ، وفعلت ما أمرها به ، فلما شَرِبَتْ عَفْراء اللبَن رأت الخاتم
فعرفتهُ فشبهت ، ثم قالت لجاريتهما : اصدقيني الخبر ، فصَدَّقَتْها ، فلما جاء زوجها
قالت له : أتدري مَنْ ضيفُك هذا ؟ قال : نعم ! فلان ابن فلان (للنسب الذي
انتسبه له عروة) . فقالت : كلا والله ، بل هو عُرْوَة بن حزام ابن عمي ، وقد كتمك
نفسه حياءً منك .

فبعث إليه ، فدعاه وعاتبه على كتمانهِ نفسه إياه ، وقال له : بالرحب والسعة ،
نشدُتك الله إن رِمْتَ^(١) هذا المَكان أبداً ، وخرج وتركه مع عَفْراء يتحدثان ،
وأوصى خادما له بالاستماعَ عِبهما ، وإعادة ما تسمعه منهما عليه .

(١) رام المَكان : برحه وتركه .

فلما خلوا تشاكياً ما وجدوا بعد الفراق ، فطالت الشكوى وهويكي أحر-
بكاء ، ثم أتته بشراب ، وسألته أن يشربه ، فقال : والله ما دخل في جوفي حرامٌ
قط ، ولا ارتكبته منذ كنت ، ولو استحللتُ حراماً لكنتُ قد استحللتُهُ منك ،
فأنتَ حظي من الدنيا ، وقد ذهبتِ مني وذهبتُ بعدك فما أعيش ، وقد أجمل هذا
الرجل الكريم وأحسن ، وأنا أستحي منه ، والله لا أقيمُ بعدَ علمه مكانى ، وإني
عالم أنى راحِلٌ إلى مَنيَّتِي ، فبكت وبكى وانصرف .

فلما جاء زوجها أخبرتهُ الجاريةُ بما دار بينهما ، فقال : يا عفراء ؛ امنعى ابن
عمك من الخروج ، فقالت : لا يمتنعُ ، هو والله أكرم وأشدُّ حياء من أن يقيمَ بعد
ما جرى بينكما ؛ فدعاه وقال له : يا أخى ؛ اتقِ اللهَ فى نفسك ، فقد عرفتُ خبرك ؛
وإنك إن رحلتَ تَلِفْتَ ، والله لا أمتنعُ من الاجتماعِ معها أبداً ، ولئن شئتَ
لأفارقنها ، ولأنزلنَّ عنها لك ، فقال له : جزاك الله خيراً وأثنى عليه . وقال : إنما
كان الطمعُ إليها آفتى ، والآن قد يئستُ . وحمِلْتُ نَفْسِي على الصبر ، فإنَّ اليأسَ
يُسْلِي ، وَلِي أُمُورٌ لا بدُّ من رجوعى إليها ، فإن وجدتُ بى قوة على ذلك ، وإلا
عدتُ إليكم وزُرْتُكم حتى يقضى الله من أمرى ما يشاء ؛ فزوّدوه وأكرموه
وشيعوه ؛ فانصرف .

فلما رحل عنهم نُكس بعد صلاحه وتماسكه ، وأصابه غَشْيٌ وخَفَقَانٌ ، فكان
كُلَّمَا أغمى عليه أُلْقِيَ على وجهه خِماراً لعفراء زوّدته إياه فيفريق .

ولقيه فى الطريق ابنُ مكحول عرّافُ اليمامة ، فرآه وجلس عنده وسأله عما به
وهل هو خبل أوجنون ؛ فقال له عروة : ألك علم بالأوجاع ؟ قال : نعم ، فأنشأ يقول :

ما بي من خيل ولا بي جنة
أقول لعرف اليمامة داووني
فيا كبدأ أمست رفاتا كأنما
عشبة لا عفرأ منك بعيدة
فو الله لا أنساك ما هبت الصبا
وإني لتعروني لذكراك هزة
ولكن عمى يا أخى كذوب
فإنك إن داويتني لطبيب
يلدعها بالموقدات طيب
فتسلو ولا عفرأ منك قريب
وما عقتها في الرياح جنوب
لها بين جلدي والعظام ديب

وقال يخاطب صاحبيه بقصته : (١)

خيلي من عليا لال بن عامر
ولا ترهدا في الأجر عدى وأجملا
أليما على عفرأ إنكا غدا
فيا واشي عفرأ دعاني ونظرة
أغركا مني قيس لبسته
متى تكشفا عن القيص تبينا
وتعترفا لحما قليلا وأعظما
على كبدى من حب عفرأ قرحة
فمفرأ أرجى الناس عدى مودة
فيا ليت كل اثنين بينهما هوى
بصنعا عوجا اليوم وانتظراني
فإنكا بي اليوم مبتليان
بوشك النوى والبين معترفان
تقر بها عيناى ثم كلاتي
جديد وبردا يمنة زهيان
بي الضر من عفرأ يفتيان
بلين وقلبا دأما الخفقان
وعيناى من وجد بها تكفان
وعفرأ عنى المعرض (٢) المتوانى
من الناس والأنعام يلتقيان

(١) راجع هذه القصيدة بتمامها من ١٥٨ إلى ١٦٢ من ذيل الأمل طبعة دار الكتب .

(٢) قال صاحب الأمل : ذكر المعرض ، لأنه أراد : وعفرأ عنى الشخص المعرض ، أو ذكره بناء على التشبيه وأراد : وعفرأ عنى مثل المعرض .

فيقضى حبيبٌ من حبيبٍ لبانةً ويرى عاهما ربّي فـ لا يرى يان
هوَى ناقتي خلفي وقد أوى الهوى وإني وإياهاا المختلفةان
تحمّلتُ من عَفراء ما ليس لي به ولا للجبالِ الراسياتِ يدان
كأنَّ قطاةً علّقتُ بِجناحها على كَبِدِي مِنْ شِدَّةِ الحَفَقانِ
وقد تركتني لأعَى لِحَدَث حديثاً وإن نَجَّيْتُهُ ونجاني
جعلتُ لعرافِ البِمامَةِ حُكْمَهُ وعَرَّافِ نَجْدٍ إن هما شَفِيانِي
فقالا : نعم نشقى مِنْ الداءِ كُلَّهُ وقاما مع العـوادِ يَبْتَدِرَانِ
فما تركا من رُقِيَّةٍ يَعْلَمَانِهَا ولا شَرِبَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَقِيَانِي
وما شَفِيَا الداءِ الَّذِي بِي كُلَّهُ ولا ذَخْرًا نُصْعًا ولا أَلْوَانِي^(١)
وقالا : شفاك الله ، والله ما لنا بما ضُمِّتْ مِنْكَ الضَّلُوعُ يَدَانِ
فويلي على عَفراءٍ وَيلاً كَأَنَّهُ على الصِّدْرِ والأَحْشَاءِ حَدٌّ سِنَانِ
أحب ابنةَ العذرى حبًّا وإن نأتُ ودانيتُ فيها غَيْرَ ما مُتَدَانِ
فياربَّ أنت المستمانُ على الذي تحملتُ من عَفراءٍ مِنْذُ زمانِ

ثم تُوفى^(٢) وهو راجع بالشام . ولما بلغ عَفراءَ موته قالت لزوجها : قد كان من
خبر ابن عمي ما بلغك ، والله ما عرفتُ مِنْهُ قطًّا إِلَّا الحَسَنَ ، وقد مات في وِجْهِي ؛
ولا بُدَّ لي من أن أندبه فأقيم مأتما عليه ؛ قال : افعلی ؛ فما زالت تندبه ثلاثاً حتى تُوفيت
في اليوم الرابع ، وبلغ معاويةَ بن أبي سفيان خبرهما ؛ فقال : لو علمتُ بحال هذين
الحريين الكريمين لجمعتُ بينهما .

(١) ألوانى : قصراً في حقي (٢) انظر القصة التالية .

٤٤ - قَتِيلُ الْحُبِّ *

قال النعمان بن بشير :

استعملني معاويةُ على صدقاتِ بَيْلٍ^(١) وعُدْرَةٍ ؛ فإني كُفِي بعضَ مياهم إذا أنا
ببيت مُنْجَرِدٍ^(٢) ناحيةً ، وإذا بفنائهِ رجلٌ مُسْتَلَقٍ ، وعنده امرأةٌ ، وهو يقول ،
أَوْ يَتَغَنَّى بهذه الأبيات :

جعلتُ لعرّافِ الإمامَةِ حُكْمَهُ وعرّافٌ نَجْدٍ إنْ هُما شَفِيانِي
فقالا : نعم ، نَشَفِي من الداءِ كُلِّهِ وقاما مع العُوّادِ يَتَقَرَّبُ دِرَانِ
فما تركا من رُقِيَةٍ يَعْلَمَانِيهَا ولا سَلَوَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَقِيَانِي
فقالا : شفاكَ اللهُ ، واللهُ مالنا بِمَا حُمِلَتْ مِنْكَ الضُّلُوعُ يَدَانِ
فقلتُ لها : «اقصِّصْهُ» ؟ فقالت : هو مريضٌ ، ما تكلم بكلمة ، ولا أنْ أَنَّهُ منذ
وقت كذا وكذا إلى الساعة ، ثم فَتَحَ عَيْنِيهِ ، وأنشأ يقول :

مَنْ كَانَ مِنْ أُمَّهَانِي بَاكِياً أَبَداً فالْيَوْمَ إني أَرَانِي اليَوْمَ مقبوضا
يُسَمِّعُنِيهِ ، فإني غَسِيرٌ سَامِعُهُ إذا حُمِلْتُُ عَلَى الْأَعْنَاقِ مَعْرُوضا
نَمْ خَفَّتْ فَنَاتٌ ، فَهُنَّ غَسَلْنَهُ ، وَصَلَّيْتُ عَلَيْهِ وَدَفَنْتُهُ ، وقلتُ للمرأة :
من هذا ؟ فقالت : هذا قَتِيلُ الْحُبِّ ! هذا عُرْوَةُ بن حزام !

* ذيل الأملال : ١٥٧ .

(١) بلى وعُدرة : قبيلتان (٢) منعرد : منفرد منزول .

٤٥ - قَيْسٌ وَلُبْنَى*

— ١ —

كان منزلُ قَيْسٍ^(١) في ظَاهِرِ المدينة ، وكان هو وأبوه من حَاضِرَةِ المدينة ؛
فمرَّ قَيْسٌ لِبعض حاجته بِبنيام بنى كَعْب بن خُزَاعَةَ ؛ فوقف على خَيْمَةٍ منها ؛
والحى خُلُوف^(٢) ، والخِيَمَةُ خَيْمَةُ لُبْنَى بنتِ الحُبَابِ الكَعْبِيَّةِ ، فاستسقى ماءً ،
فسقته وخرجت إليه به ، وكانت امرأةٌ مديدة القامة شَهْلَاءَ^(٣) حُلُوةَ المنظر
والكَلَامِ .

فلما رآها وَقَعَتْ في نفسه ، وشرب الماء ؛ فقالت له : أَنْزِلْ فَتَتَبَرَّدَ عِنْدَنَا ؟
قال : نعم ؛ فنزل بهم . وجاء أبوها فنَحَرَ له وأكرمه ؛ فانصرف قَيْسٌ وفي قلبه
من لُبْنَى حَرٌّ لَا يُطْفَأُ ، فجعل ينطقُ بالشعر فيها حتى شاع ورُوى .
ثم أتاها يوماً آخر ، وقد اشتدَّ وَجْدُهُ بها ، فسلم فظهرت له وردَّتْ سلامته ،
وتَحَفَّتْ^(٤) به ؛ فشكا إليها ما يَجِدُهَا وما يَلْقَى مِنْ حُبِّهَا ، وشكت إليه مثلَ ذلك
فأطالت ؛ وعرف كلُّ واحدٍ منهما ماله عند صاحبه .

* الأغانى : ٩ - ١٨١ .

(١) هو قيس بن ذريح من كنانة ، كان هو وأبوه من حاضرة المدينة ، واشتهر قيس بحبه لبني
بنت الحباب الكعبية ، وهى التى ألهمته القول وأنطقته بالشعر ، توفى نحو سنة ٧٠ هـ (٢) خلوف :
غيب (٣) الشهلاء : التى يحالط سواد هينها زرقه (٤) تحفت : بالفت فى إكرامه ، وأظهرت
السروز والفرح .

فانصرف إلى أبيه وأعلمه حاله ، وسأله أن يزوجه إياها . فأبى عليه ، وقال :
يا بُنَيَّ ؛ عليك بإحدى بنات عمك ، فمن أحق بك - وكان ذريح كثير المال
موسراً ، فأحب ألا يخرج ابنه إلى غريبة .

فانصرف قيس ، وقد ساء ما خاطبه أبوه به ، فأتى أمه فشكا ذلك إليها ،
واستعان بها على أبيه ؛ فلم يجد عندها ما يحب .

فأتى الحسين بن علي بن أبي طالب وابن أبي عتيق ، فشكا إليهما ما به وما ردَّ
عليه أبوه . فقال له الحسين : أنا أكفيك . فمشى معه إلى أبي لُبْنَى ؛ فلما
بصر به أعظمه ووثب إليه وقال له : يا بن رسول الله ؛ ما جاء بك ؟ ألا بعثت إلى
فاتيتك ! قال : إن الذي جئت فيه يُوجب قصدك ، وقد جئتُك خاطباً ابنتك
لُبْنَى لقيس بن ذريح . فقال : يا بن رسول الله ؛ ما كنا لنعمى لك أمراً ؛ وما بنا
عن الفتى رغبة ؛ ولكن أحب الأمر إلينا أن يخطبها ذريح أبوه ، وأن يكون ذلك
عن أمره ؛ فإننا نخاف إن لم يسمع أبوه في هذا أن يكون عاراً وسبباً علينا .

فأتى الحسين رضي الله عنه ذريحاً وقومه وهم مجتمعون ، فقاموا إليه إعظماً له ،
وقالوا له مثل قول الخزاعيين ^(١) . فقال لذريح : أقسمت عليك إلا خطبت لُبْنَى
لابنك قيس . قال : السمع والطاعة لأمرك .

فخرج معه في وجوه من قومه حتى أتوا دار لُبْنَى ، فخطبها ذريح على ابنه
إلى أبيها ، فزوجها به إياها وزفت إليه بعد ذلك ، فأقامت معه مدة لا ينكر أحد
من صاحبه شيئاً .

(١) الخزاعيون : قوم لبني .

وكان أبرّ الناسِ بأمّه ، فآلَتهُ بُنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك ، فوجدت أمّه في نفسها وقالت : لقد شغلت هذه المرأة ابني عن برّي ، ولم تر للكلام في ذلك موضعاً حتى مَرَضَ مرضاً شديداً . فلما برأ عن علته قالت أمّه لأبيه : لقد خشيتُ أن يموتَ قيس وما يترك خلفاً وقد حُرِمَ الولد من هذه المرأة ، وأنتَ ذو مال فيصير مالك إلى الكلالة^(١) ، فزوَّجهُ بغيرها لعل الله أن يرزقه ولداً ؛ وألحّت عليه في ذلك .

فأمهلَ قيساً حتى إذا اجتمع قومه دعاه فقال : يا قيسُ ؛ إنك اعتلّلت هذه العلة فخيّفتُ عليك ولا ولدَ لك ولا لي سواك ، وهذه المرأة ليست بولود ؛ فتزوج إحدى بناتِ عمّك ؛ لعلّ الله أن يهبَ لك ولداً تقرُّ به عينك وأعيننا .

فقال قيس : لستُ متزوجاً غيرها أبداً ؛ فقال له أبوه : فإن في مالي سعة فتسرّ بالإماء ، قال : ولا أسوءها بشيء أبداً والله . قال أبوه : فإني أقسم عليك ألا تطلقها . فأبى وقال : الموتُ والله على أسهل من ذلك ، ولكني أخيرك خصلة من ثلاث خصال . قال : وما هي ؟ قال : تتزوج أنت فلعلّ الله أن يرزقك ولداً غيري . قال : فما فيّ فضلةٌ لذلك . قال : فدعني أرتحل عنك بأهلي واصنع ما كنت صانعا لو ميت في عتي هذه . قال : ولا هذه . قال : فادعُ بُني عندك وأرتحل عنك فلعلّ أسلوها فإني ما أحبُّ بعد أن تكون نفسي طيبةً أنها في خيالي .

قال : لا أرضى أو تطلقها ، وحلف لا يَكُنْهُ سَقْفُ بيت أبداً ، حتى يطلق بُني ، فكان يخرج فيقف في حرّ الشمس ويحیی قيس فيقف إلى جانبه فيظله

(١) يراد بالكلالة هنا : من عدا الأب والابن من الورثة .

بردائه ، وَيَصَلِّيْ هُوَ بِحَرِّ الشَّمْسِ حَتَّى يَنْفِيءَ النَّفْسَ (١) فَيَنْصَرِفُ عَنْهُ ، وَيَدْخُلُ إِلَى
لُبْنَى فَيَعَانِقُهَا وَتَعَانِقُهُ ، وَيَبْكِي وَتَبْكِي مَعَهُ ، وَتَقُولُ لَهُ : يَا قَيْسُ ! لَا تُطِيعَ أَبَاكَ فَتُهْلِكَ
وَتُهْلِكَ نَفْسِي . فَيَقُولُ : مَا كُنْتُ لِأَطِيعَ أَحَدًا فَيْكَ أَبَدًا ، وَمَكَثَ كَذَلِكَ سَنَةً ثُمَّ طَلَّقَهَا .

فَلَمَّا بَانَ لُبْنَى بِطَلَاقِهِ ، وَفُرِغَ مِنَ الْكَلَامِ لَمْ يَلْبَثْ حَتَّى اسْتَطِيرَ عَقْلُهُ وَذُهِبَ
بِهِ ، وَلَحِقَهُ مِثْلُ الْجُنُونِ ، وَتَذَكَّرَ لُبْنَى وَحَالَهَا مَعَهُ ، فَأَسِيفَ وَجَعَلُ يَبْكِي وَيَنْشِجُ (٢)
أَحْرًا نَشِيجًا . وَبَلَّغَهَا الْخَبِيرَ فَأَرْسَلَتْ إِلَى أَبِيهَا لِيَحْمِلَهَا ؛ فَأَقْبَلَ أَبُوهَا بِهَوْدَجٍ عَلَى
نَاقَةٍ وَيَابِلٍ تَحْمِلُ أَثْنَاهَا .

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَيْسٌ أَقْبَلَ عَلَى جَارِيَتِهَا فَقَالَ : وَيَحَاكَ ! مَا دَهَا نِي فَيْكُمْ ؟ فَقَالَتْ :
لَا تَسْأَلْنِي وَسَلْ لُبْنَى ، فَذَهَبَ لِيُلِمَّ بِجَبَائِهَا فَيَسْأَلُهَا ، فَمَنْعَهُ قَوْمُهَا . فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ
امْرَأَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَتْ لَهُ : مَا لَكَ ؟ وَيَحَاكَ ! تَسْأَلُ كَأَنَّكَ جَاهِلٌ أَوْ مُتَجَاهِلٌ ! هَذِهِ
لُبْنَى تَرْتَحِلُ اللَّيْلَةَ أَوْ غَدًا ، فَسَقَطَ مَفْشِيًّا عَلَيْهِ لَا يَعْقِلُ ، ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَقُولُ :

وَإِنِّي لَكُنْفِي دَمْعٍ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ حِذَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
وَقَالُوا : غَدًا أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ بَلِيلَةٍ فِرَاقُ حَبِيبٍ لَمْ يَبْنُ وَهُوَ بَائِنُ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيتِي بَسْكَفَيْكَ إِلَّا أَنْ مَاحَانَ حَائِنُ

ثُمَّ التَفَتَ فَرَأَى غُرَابًا سَقَطَ قَرِيبًا مِنْهُ ، فَجَعَلَ يَنْعَقُ مِرَارًا ، فَتَطِيرُ مِنْهُ وَقَالَ :

لَقَدْ نَادَى الْغُرَابُ بَيْنَ لُبْنَى فَطَارَ الْقَلْبُ مِنْ حَذَرِ الْغُرَابِ
وَقَالَ : غَدًا تَبَاعَدُ دَارُ لُبْنَى وَتَنَأَى بَعْدَ وَدِّ اقْتِرَابِ

(٢) النشيج : أن يفص الباكى بالبكاء من

(١) النفء : ما كان شمسا فينبغى الظل
غير انتعاب .

قلت : تَعِسْتَ وَيَحَكَ مِنْ غَرَابٍ وكان الدهرَ سَعِيكَ فِي تَبَابٍ
ومنعهُ قَوْمُهُ مِنَ الْإِلَامِ بِهَا ؛ فقال :

أَلَا يَا غَرَابَ الْبَيْنِ ؛ وَيَحَكَ ! نَبْنَى بِعِلِّكَ فِي لُبْنَى وَأَنْتَ خَيْرُ
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تُخَيِّرْ بِمَا قَدْ عَلِمْتَهُ فَلَا طِرْتَ إِلَّا وَالْجَنَاحُ كَبِيرُ
وَدَرْتُ بِأَعْدَاءِ حَبِيبِكَ فِيهِمْ كما قَدْ تَرَانِي بِالْحَبِيبِ أَدُورُ

ثم أَذْخَلْتَ فِي هَوْدَجِهَا ، وَرَحَلْتَ وَهِيَ تَبْكِي ! فَاتَّبَعَهَا وَهُوَ يَقُولُ :

أَلَا يَا غَرَابَ الْبَيْنِ ؛ هَلْ أَنْتَ مُخَيِّرِي بِخَيْرٍ كَمَا خَبَّرْتَ بِالنَّأْيِ وَالشَّرِّ
وقلتَ : كَذَاكَ الدَّهْرُ مَازَالَ فَاجِمًا صدقتَ ، وَهَلْ شَيْءٌ يَبَاقِي عَلَى الدَّهْرِ

ثم عَلِمَ أَنَّ أَبَاهَا سَيَمْنَعُهُ مِنَ الْمَسِيرِ مَعَهَا ؛ فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَبْكِي ، حَتَّى غَابُوا
عَنْ عَيْنِهِ ، فَفَكَّرَ رَاجِعًا ؛ وَنَظَرَ إِلَى أَثَرِ خُفِّ بَعِيرِهَا ؛ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ يَقْبَلُهُ ، وَرَجَعَ
يَقْبَلُ مَوْضِعَ مَجْلِسِهَا وَأَثَرَ قَدَمِهَا ؛ فَلَيْمَ عَلَى ذَلِكَ وَعَتَفَهُ قَوْمُهُ عَلَى تَقْبِيلِ التُّرَابِ ،
فَقَالَ :

وَمَا أَحْبَبْتُ أَرْضَكُمْ وَلَكِنْ أَقْبَلُ إِثْرَ مَنْ وَطِئَ التُّرَابَا
لَقَدْ لَا قَيْتُ مِنْ كَلْفِي بِلُبْنَى بَلَاءَ مَا أَسِيغُ بِهِ الشَّرَابَا
إِذَا نَادَى الْمَنَادَى بِاسْمِ لُبْنَى عَيْتُ فَمَا أُطِيقُ لَهُ جَوَابَا
وقال ، وَقَدْ نَظَرَ إِلَى آثَارِهَا :

أَلَا يَا رَبِّعَ لُبْنَى مَا تَقُولُ ؟ أَبْنَى لِي الْيَوْمَ مَا فَعَلَ الْحُلُولُ
فَلَوْ أَنَّ الدِّيَارَ تُجِيبُ صَبًّا لَرَدَّ جَوَابِي الرَّبِّعُ الْمُجِيبُ
وَلَوْ أَنِّي قَدَرْتُ غَدَاةَ قَالَتْ : غَدَرْتُ ، وَمَاءَ مُقْلَنِيهَا يَسِيلُ

نحرتُ النفسَ حينَ سمعتُ منها مقالَها وذاكَ لها قليلُ
شفيتُ غليلَ نفسى منِ فعلى ولم أغبرْ بلا عقلٍ أجولُ
كأنى والهِ بفراقِ لُبى — تهيمُ بفقدِ واحدِها تُكولُ
ألا يا قلبُ ويحكِ اكنَ جليداً ؛ فقدَ رحلتِ ، وفاتَ بها الذمِيلُ^(١)
فإنك لا تطيقُ رجوعَ لُبى إذا رحلتِ ، وإن كثرَ العويلُ
وكم قد عشتَ ؟ كم بالقربِ منها ! ولكنَّ الفراقَ هو السبيلُ
فصبراً ؛ كلُّ مؤتلفينِ يوماً من الأيامِ عيشهما يزولُ

فلما جنَّ عليه الليلُ وانفردَ ، وأوى إلى مضجعه لم يأخذهُ القرار ، وجعل
يتملّلُ فيه تملّلَ السليم ، ثم وثبَ حتى أتى موضعَ خبايها ؛ فجعل يترنّغ فيه
ويبكي ويقول :

بتُّ والهمُّ يا لُبى ضجيجى وجرتُ مذ نأيتِ عني دُموعى
وتنفستُ إذ ذكركِ حتى زالتِ اليومَ عن فؤادى ضلوعى
أتناساكِ كي يُرِغَ^(٢) فؤادى ثم يشتدُّ عند ذاكَ ولوعى
يا لُبى ! فدتكِ نفسى وأهلى ! هل لدهرٍ لنا من رجوع

ومرّض قيسٌ ، فسأل أبوه فتياتِ الحى أن يعُدنه ويحدّثنه ، لعله أن يتسلى
ففعّل ذلك ، ودخل الطبيب إليه ليداويه ، والفتيات معه ؛ فلما اجتمعن عنده جعلن
يحادثنه ، وأطلن السؤال عن سبب علته ، فقال :

(١) الذمیل : السیر اللین (٢) یرین : یحید .

عيد قيس من حُبِّ لُبْنى، ولُبْنى داء قيس، والحبُّ داءٌ شديدٌ
وإذا عادنى الموائدُ يوماً قالت العينُ : لا أرى من أريدُ
ليت لُبْنى تعودنى ثم أقضى إنها لا تعود فيمن يعودُ
ويَح قيس لقد تضمن منها داء حبْلٍ، فالقلب منه عديدُ
فقال له الطبيب : منذ كم هذه العلة ؟ ومنذ كم وجدتَ بهذه المرأة ما وجدت .
فقال :

تعلق رُوحى روحها قبل تَخَلُّقنا ومن بعد ما كنّا نطافاً وفي المهدِ
فزاد كما زدنا ، فأصبح نامياً وليس إذا متُّنا بمنصرمِ العهدِ
ولكنه باقٍ على كلِّ حادثٍ وزائرنا فى ظلمةِ القبرِ واللحدِ

فقال له الطبيب : إنَّ مما يسليك عنها أن تتذكَّرَ ما فيها من المساوىء والمعائب ،
وما تعافى النفسُ من أقدارِ بنى آدم ، فإن النفس حينئذٍ تنبؤ وتسلو ويخفُّ ما بها ،
فقال :

إذا عيبتها شبهتها البدرَ طالماً وحسبك من عيب بها شبهُ البدرِ
لقد فضلتُ لُبْنى على الناس مثلاً ما على ألفِ شهرٍ فضلتُ ليلةُ القدرِ

ودخل أبوه وهو يخاطبُ الطبيبَ بهذه المخاطبة ، فأنبهه ولامه ، وقال له :
يا بنى ؛ الله الله فى نفسك ! فإنك ميتٌ إن دُمتَ على هذا ، فقال :

وفى عُرْوَة^(١) المذرىِّ إن متُّ أسوةً وعمرو^(٢) بن عجلان الذى قتلت هِنْدُ

(١) موعروة بن حزام أحد التميميين الذين قتلهم الهوى (انظر صفحة ١١٣) (٢) شاعر جاهلى
أحد من قتلهم الحب ، وكان له زوجة يقال لها هند فطلقها ثم ندم عليها ، ولما تزوجت زوجاً غيره
مات أسفاً (الأغاني ص ١٠٢ ، ج ١٩) .

وبى مثل ما مآثا به ، غير أنتى إلى أجـل لم يأتنى وقتـه بعد
هل الحب إلا عبـرة بعد زفرـة وحرى على الأحشاء ليس له برـد
وفيض دموع تستهل إذا بدا لنا علم من أرضكم لم يكن يبدو

ولمّا طال على قيس ما به من الأمر بعد طلاق لبنى ، أشار قومه على أبيه بأن
يزوجه امرأة جميلة ، فلهذه أن يسألوا بها عن لبنى ؛ فدعاه إلى ذلك فأباه وقال :

لقد خفتُ ألا تقنعَ النفسُ بعدها بشيء من الدنيا وإن كان مقنعاً
وأزجر عنها النفس إذ حيلَ دونها وتأبى إليها النفسُ إلا تطلّعاً

فأعلمهم أبوه بما ردّ عليه . قالوا : فمرّه بالمسير في أحياء العرب والنزول عليهم
فعلّ عينه أن تقع على امرأةٍ تُعجبه . فأقسم عليه أبوه أن يفعل .

فسار حتى نزل بحى من فزارة ، فرأى جاريةً حسناء قد حسرت برقع خزر
عن وجهها وهي كالبدّر ليلة تمّ ، فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : لبنى .
فسقط على وجهه مفضياً عليه ، فنضّحت على وجهه ماء وارتاعت لما عراه ، ثم
قالت : إن لم يكن هذا قيس بن ذريح إنه لجنون ! فأفاق فنسبته فانتسب .
فقال : قد علمتُ أنك قيس ، ولكن نشدتك بالله وبحقّ أبنى إلا أصبت من
طعامنا ؛ وقدّمتُ إليه طعاماً ، فأصاب منه بإصبعه ، وركب فأتى على أثره أخ لها كان
غائباً فرأى مناخ ناقته ؛ فسألهم عنه فأخبروه ، فركب حتى رده إلى منزله ، وحلف عليه
ليقيم عنده شهراً . فقال له : لقد شققت على ، ولكنى سأتابع هواك ، والفرارى

يزداد إعجاباً بحديثه وعقله وروايته ، فعرض عليه الصَّهر . فقال له : يا هذا ؛ إن
فيك لرغبة ، ولكنني في شغل لا يُنتفع بي معه .

فلم يزل يُعَاوِدُهُ والحيُّ يلومونه ويقولون له : قد خَشِينَا أن يصيرَ علينا فِعْلُكَ سُبَّةً .
فقال : دَعُونِي فِي مِثْلِ هَذَا الْفَتَى يَرْغَبُ السِّكْرَامَ . فلم يزل به حتى أجابه ، وعقدَ
الصَّهر بينه وبينه على أُخْتِهِ الْمَسَامَةِ لُبْنَى ، وقال له : أَنَا أُسَوِّقُ عَنْكَ صَدَاقَهَا . فقال :
أنا والله يا أخى أَكْثَرُ قَوْمِي مَالًا . فما حاجتك إلى تكْلِيفِ هَذَا ؟ أَنَا سَائِرٌ إِلَى قَوْمِي
وسَائِقٌ إِلَيْهَا الْمَهْرَ . ففعل وأعلم أباه الذى كان منه ؛ فَسَرَّهُ وساقَ الْمَهْرَ عَنْهُ .

ورجع إلى الْفَزَارِيِّينَ حَتَّى أُدْخِلَتْ عَلَيْهِ زَوْجَتُهُ ، فلم يَرَوْهُ هَشًّا إِلَيْهَا وَلَا دَنَّا
مِنْهَا ؛ وَلَا خَاطَبَهَا بِحَرْفٍ وَلَا نَظَرَ إِلَيْهَا .

وأقام على ذَلِكَ أَيَّامًا كَثِيرَةً ؛ ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَرِيدُ الْخُرُوجَ إِلَى قَوْمِهِ أَيَّامًا ، فَأَذِنُوا
لَهُ فِي ذَلِكَ ؛ فمضى لوجهه إلى المدينة ، وكان له صديقٌ من الْأَنْصَارِ بِهَا ، فَأَتَاهُ فَأَعْلَمَهُ
الْأَنْصَارُ أَنَّ خَيْرَ تَزْوِيجٍ بَلَغَ لُبْنَى فَفَعَّمَهَا وَقَالَتْ : إِنَّهُ لَفَدَّارٌ ! وَلَقَدْ كُنْتُ أَمْتَنُ مِنْ
إِجَابَةِ قَوْمِي إِلَى التَّزْوِيجِ فَأَنَا الْآنَ أَجِيبُهُمْ .

وقد كان أبوها شكا قَيْسًا إِلَى معاوية ، وأعلمه تَعَرُّضَهُ لَهَا بَعْدَ الطَّلَاقِ ، فَكَرَّ
إِلَى مروان بن الْحَكَمِ يُهْدِرُ دَمَهُ إِنْ تَعَرَّضَ لَهَا ، وأمر أباهَا أَنْ يُزَوِّجَهَا رَجُلًا يَعْرِفُ
مُحَالِدَ بْنِ حِلْزَةَ ، فزوجهَا أبوها مِنْهُ ، فجعل نساء الْحَيِّ يَقْلُنَ لَيْلَةَ زِفَافِهَا :

لُبَيْنَى زَوْجُهَا أَصْبَحَ لَا حُرًّا بِوَادِيهِ
لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ بِمَا بَاتَتْ تُنَاجِيهِ
وَقَيْسٌ مَيِّتٌ حَيٌّ صَرِيحٌ فِي بَوَاكِيهِ
فَلَا يُبْعِدُهُ اللَّهُ وَبُعْدًا لِتَوَاعِيهِ

فَجَزِعَ قَيْسٌ جَزَعًا شَدِيدًا ، وَجَعَلَ يَنْشِجُ أَحْرًا نَشِيجًا وَيَبْكِي أَحْرًا بَكَاءً .
 ثُمَّ رَكِبَ مِنْ فَوْرِهِ حَتَّى أَتَى نَحْطَةَ قَوْمِهَا ؛ فَنَادَاهُ النِّسَاءُ : مَا تَصْنَعُ الْآنَ هَاهُنَا !
 قَدْ نَقَلْتِ لُبْنَى إِلَى زَوْجِهَا ! وَجَعَلَ الْفَتَيَانُ يُعَارِضُونَهُ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا وَهُوَ
 لَا يَجِيبُهُمْ حَتَّى أَتَى مَوْضِعَ خِيَابِهَا ، فَتَزَلَّ عَنْ رَاحِلَتِهِ وَجَعَلَ يَتَمَمَّكَ^(١) فِي مَوْضِعِهَا ؛
 وَيَمَرِّغُ خَدَّهُ عَلَى تُرَابِهَا ، وَيَبْكِي أَحْرًا بَكَاءً ، ، ثُمَّ قَالَ :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَقَدْ لَبِئْتِ كَمَا شَكَا	إِلَى اللَّهِ فَقَدَ الْوَالِدَيْنِ يَتِيمُ
يَتِيمٌ جَفَاءُ الْأَقْرَبُونَ فَجِسْمُهُ	نَحِيلٌ وَعَهْدُ الْوَالِدَيْنِ قَدِيمُ
لَيْتَ دَارَهُمْ مِنْ نَأْيِهِمْ فَتَهَلَّلْتُ	دُمُوعِي ، فَأَيْ الْجَارِ عَيْنِ الْيَوْمِ ؟
أَمَسْتَعْبِرًا يَبْكِي مِنَ الشَّوْقِ وَالْمُحْوَى	أَمْ آخِرَ يَبْكِي شَجْوَهُ وَيَتِيمُ
تَهَيَّضَنِي ^(٢) مِنْ حُبِّ لُبْنَى عِلَاقُ	وَأَصْنَافِ حُبِّ هَوْلُنِ عَظِيمُ
وَمَنْ يَتَمَلَّقُ حُبَّ لُبْنَى فَوَادُهُ	يَمُتْ أَوْ يَمِشْ مَا عَاشَ وَهُوَ كَلِيمُ
فَأَنى وَإِنْ أَجَمْتُ عَنْكَ تَجَلَّدًا	عَلَى الْعَهْدِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمُقِيمُ
وَإِنَّ زَمَانًا شَدَّتْ الشَّمْلَ بَيْنَنَا	وَيَنْكُمُ فِيهِ الْعِيدُ لَمَشُومُ
أَفَى الْحَقُّ هَذَا أَنْ قَلْبِكَ فَارِغُ	صَحِيحٌ وَقَلْبِي فِي هَوَاكِ سَقِيمُ !

— ٤ —

وَشَخَّصَ أَبُو لُبْنَى إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَشَكَا إِلَيْهِ قَيْسًا ، وَتَعَرَّضَهُ لَابْنَتِهِ بَعْدَ طَلَاقِهِ
 إِيَّاهَا ، فَكَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى مَرْوَانَ يُهْدِرُ دَمَهُ إِنَّ أَلَمَ بِهَا ، وَأَنْ يَشْتَدَّ فِي ذَلِكَ .

(١) يَتَمَمَّكَ : يَتَمَرَّغُ (٢) تَهَيَّضَنِي : انْكَسَرَ .

فكتب مروان في ذلك إلى صاحب الماء الذي ينزله أبو لبني كتاباً وكيداً ؛
ووجهت لبني رسولاً قاصداً إلى قيس تُعلمه ماجرى وتحذره .

وبلغ أباه الخبر ، فعاتبه ، وقال له : انتهى بك الأمر إلى أن يهدير السلطان
دمك ؟ فقال :

فإن يحبوها أو يحلّ دون وصلها	مقالة واش أو وعيد أمير
فإن ينعوا عيني من دائم البكا	ولن يذهبوا ما قد أجنّ ضميري
إلى الله أشكو ما ألاق من الهوى	ومن حرقى نعت أدنى رذفير
ومن حرقى للحب في باطن الحشى	وليل طويل الحزن غير قصير
سأبكي على نفسى بعين غزيرة	بكاء حزين في الوثاق أسير
وكنّا جميعاً قبل أن يظهر الهوى	بأنعم حالي غبطة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لهم	بطون الهوى مقلوبة لظهور
لقد كنت حسب النفس لودام وصلنا	ولكننا الدنيا متاع غرور

وحجّ قيس بن ذريح ، واتفق أن حجّت لبني في تلك السنة ، فرآها ومعه
امراًة من قومها ؛ فدهش ، وبقي واقفاً مكانه ومضت لسبيلها .
ثم أرسلت إليه بالمرأة تبغى السلام وتسأله عن خبره ، فألقته جالسا وحده
ينشد ويبكى :

ويوم منى أعرضت عني فلم أقل	بحاجة نفس عند لبني مقالها
وفي اليأس للنفس المريضة راحة	إذا النفس رامت خطّة لا تنالها

فدخلت خيائه وجمعت محدثه عن لُبني ومحدثها عن نفسه ملياً ، ولم تعلمه أن
لُبني أرسلتها إليه ، فسألها أن تبلغها عنه السلام ، فامتنعت عليه ؛ فأنشأ يقول :

إذا طلعت شمسُ النهار فسلمى فآيةُ تسليمي عليك طلوعُها
بعشرِ تحياتٍ إذا الشمسُ أشرقت وعشرٍ إذا اصفرّت وحن رجوعُها
ولو أبلغتها جارةٌ قولِي أسلمى بكتُ جزعاً وارفض منها دموعُها
وبان الذي تُخفي من الوجد في الجشي إذا جاءها عن الحديث يرُوعُها

وقضى الناسُ حجَّهم ، وانصرفوا ؛ فمريض قيس في طريقه مرضاً شديداً أشقى
منه على الموت ؛ فلم يأتيه رسولها عائداً ؛ لأن قومها رأوه وعلموا به فقال :

ألُبني لقد جلت عليك مصيبتى غداة غدٍ إذ حلّ ما أتوقع
تُمنّيني نَيْلاً وتلوّيني به فنفسي شوقاً كلَّ يوم تقطع
وقلبك قطّ ما يلين لما يرى فواكبي قد طال هذا التضرّع
الومك في شأني وأنتِ مُليمةٌ لعمري ، وأجفني للمحبِّ وأقطع
أخبرتني أني فيك ميتٌ حشرتي فما فاض من عينيك للوجد مدّمعُ
واسكن لعمري قد بكيتك جاهداً وإن كان دأى كله منك أجمعُ
صبيحةً جاء العائداتُ يعدّني فظلتُ على العائداتُ تفجعُ
فقائلةً جئنا إليه وقد قضى وقائلةً لا ، بل تركناه ينزعُ^(١)
فاغشيت عينيك من ذاك عبّرةً وعيني على ما بي بذكراك تدّمعُ

فبلغتها الأبيات ؛ فجزعت جزعاً شديداً ، وبكت بكاءً كثيراً ، ثم خرجت

(١) في النزاع : أي على شفا الموت .

إليه ليلا على موعد ؛ فاعتذرت وقالت : إنما أبقى عليك وأخشى أن تُقْبَلَ ، فإني أتحامك لذلك ، ولولا هذا لما افترقنا ، وودَّعته وانصرفت .

وبلغه أن أهلها قالوا لها : إنه عليل لما به ، وإنه سيموت في سفره هذا ، فقالت لهم لتدفعهم عن نفسها : ما أراه إلا كاذباً فيما يدعى ، ومتعللاً لا عليلاً ، فبلغه ذلك فقال :

تَكَادُ بِلَادُ اللَّهِ يَا أُمَّ مَقْمَرٍ بِمَا رَحِبَتْ يَوْمًا عَلَى تَضِيقٍ
إلى أن قال :

سعى الدهرُ والواشونَ بيني وبينها ففُطِّعَ حبلُ الوصلِ وهو وثيق
هل الصبرُ إلا أن أُصَدَّ فلا أرى بأرضك إلا أن يكون طريق

ثم أتى قومه ، فاقتطع قطعةً من الإبل ، وأعلم أباه أنه يريد المدينة ليبيمها ، ويمتار لأهله بثمنها . فعرف أبوه أنه إنما يريد لبني ، فعاتبه وزجره عن ذلك ؛ فلم يقبل منه ، وأخذ إبله وقدم المدينة .

فبينما هو يعرضها إذ ساومه زوجُ لبني بناقَةٍ منها ، وهما لا يتعارفان ، فباعه إياها . فقال له : إذا كان غدٌ فأُتني في دارِ كثير بن الصلتِ فاقبضِ الثمن . قال : نعم . ومضى زوجُ لبني إليها ، فقال لها : إني أبتعتُ ناقةً من رجل من أهل البادية ، وهو يأتينا غداً لقبضِ ثمنها ، فأعدِّي له طعاماً ، ففعلت .

فلما كان من الغد جاء قيس فصوت بالخادم وقال : قولى لسيدك : صاحب الناقة بالباب . فعرفتُ لبني نَعْمَتَه فلم تقل شيئاً . فقال زوجها للخادم : قولى له : ادخل . فدخل فجلس . فقالت لبني للخادم : قولى له : يافتي ؛ ما لي أراك أشعث أغبر ؟

فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ . فَتَنَفَّسَ ثُمَّ قَالَ لَهَا : هَكَذَا تَكُونُ حَالُ مَنْ فَارَقَ الْأَحِبَّةَ وَاخْتَارَ الْمَوْتَ عَلَى الْحَيَاةِ ، وَبَكَى .

فَقَالَتْ لَهَا لُبْنَى : قُولِي لَهُ : حَدِّثْنَا حَدِيثَكَ ؛ فَلَمَّا ابْتَدَأَ يُحَدِّثُ بِهِ كَشَفَتْ الْحِجَابَ ، وَقَالَتْ : حَسْبُكَ ! قَدْ عَرَفْنَا حَدِيثَكَ ! وَأَسْبَلَتْ الْحِجَابَ ؛ فَبُهِتَ سَاعَةً لَا يَتَكَلَّمُ ، ثُمَّ انفجر باكياً ونهض فخرج ؛ فناداه زوجها : وَيْحَكَ ! مَا قِصَّةُكَ ؟ ارجع اقبضْ ثَمَنَ نَاقَتِكَ ، وَإِنْ شِئْتَ زِدْ نَاكَ . فلم يكلمه ، ومضى .

وقالت لُبْنَى لزوجها : وَيْحَكَ ! هَذَا قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ . فَمَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ بِهِ ؟ قَالَ : مَا عَرَفْتُهُ . وجعل قَيْسٌ يَبْكِي فِي طَرِيقِهِ ، وَيَنْدُبُ نَفْسَهُ ، وَيُؤَبِّجُهَا عَلَى فَعْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ :

أَتَبْكِي عَلَى لُبْنَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا	وَأَنْتَ عَلَيْهَا بِالْعَمَلِ أَنْتَ أَقْدَرُ
فَإِنْ تَكُنِ الدُّنْيَا بِلُبْنَى تَقْلَبْتُ	عَلَى فَلِلدُّنْيَا بُطُونٌ وَأَظْهَرُ
لَقَدْ كَانَ فِيهَا لِلْأَمَانَةِ مَوْضِعٌ	وَلِلْكَفِّ مَرْتَادٌ وَلِلْعَيْنِ مَنَظَرُ
وَاللْحَائِمِ الْعَطْشَانِ رِيٌّ بِرِيقِهَا	وَلِلتَّرِجِ الْمُخْتَالِ خَرٌّ وَمُسْكِرُ
كَأَنِّي لَهَا أَرْجُو حَتَّى بَيْنَ أَحْبَلٍ	إِذَا ذُكِرَتْ ^(١) مِنْهَا عَلَى الْقَلْبِ تَخْطُرُ

وعاد إلى قومه بعد رؤيته إياها وقد أنكر نفسه ، وأسِفَ ، ولحقه أمر عظيم ؛ فأنكروه ، وسألوه عن حاله فلم يخبرهم ؛ ومرض مرضاً شديداً أشرف فيه على الموت . فدخل إليه أبوه ورجال قومه فكلّموه وعاتبوه وناشدوه الله . فقال : وَيْحَكُمْ !

(١) الذِّكْرَةُ : ضد النسيان . . .

أَتَرَوْنِي أَمْرَضْتُ نَفْسِي أَوْ وَجَدْتُ لَهَا سَكْوَةً بَعْدَ الْيَأْسِ فَاخْتَرْتُ أَلْهَمَ وَالْبَلَاءَ ،
أَوْ لِي فِي ذَلِكَ صُنْعٌ ! هَذَا مَا اخْتَارَهُ لِي أَبَوَايَ وَقَتَّلَانِي بِهِ .

فَجَعَلَ أَبَوَاهُ يَبْكِي ، وَيَدْعُو لَهُ بِالْفَرْجِ وَالسَّلْوَةِ ، فَقَالَ قَيْسٌ :

لَقَدْ عَذَّبْتَنِي يَا حَبِّ لُبْنَى فَفَعَّعْ إِمَّا بِمَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ
فَإِنَّ الْمَوْتَ أَرْوَجُ مِنْ حَيَاةٍ تَدُومُ عَلَى التَّبَاعِدِ وَالشَّتَاتِ
وَقَالَ الْأَقْرَبُونَ : تَعَزَّ عَنْهَا فَقُلْتُ لَهُمْ إِذْنُ حَاتِ وَفَاتِ^(١)

(١) قد اختلف في آخر أمر قيس ولبنى ، فذكر أكثر الرواة أنهما ماتا على انفراقهما ؛ وذكر بعضهم أنه تزوجها فلم تزل معه حتى ماتا (راجع الأغاني ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ج ٩) .

٤٦ - مَا أَبَالِي مَا نِيلَ مِنْ شَعْرِي وَمِنْ بَشْرِي*

كان بشر^(١) بن مروان شديداً على العصاة ، فكان إذا ظفر بالعمى أقامه على كرسي وسمّر كفيه في الحائط بمسمار ، ونزع الكرسي من تحته فيضطرب معلقاً حتى يموت .

وكان فتى من بني عجل مع المهلب وهو يحارب الأزارقة ، عاشقاً لابنة عم له ، فكتبت إليه تستزيه ؛ فكتب إليها :

لولا مخافة بشر أو عقوبته أو أن يشدّ على كفتي مسمار
إذن أعطت ثغري^(٢) ثم زرتكم إن الحب إذا ما اشتاق زوار

فكتبت إليه :

ليس الحب الذي يخشى العقاب ولو كانت عقوبته في إلفه الدار
بل الحب الذي لا شيء يمنعه أو تستقرّ ومن يهوى به الدار

فلما قرأ كتابها عطل ثغره ، وانصرف إليها ، وهو يقول :

أستغفر الله إذ خفتُ أخش الذي أنا منه غير منتصر
فشأن بشر بلعني أو يعفو عفو أمير خير مقتدر

* الأمل : ٢ - ٣٠ .

(١) بشر بن مروان : أمير كان سمحاً حوذاً ، ولي إمرة العراقين لأخيه عبد الملك ، توفي سنة ٧٥ هـ .

(٢) الثغر : موضع الخافة من فروج البلدان .

فما أبالي - إذا أُمسيتِ راضيةً ياهندُ - ما نيلَ من شعري ومن بشرى
ثم قدم البصرة ، فما أقام إلا يومين حتى وشى به واشى إلى بشر ؛ فقال : على
به ! فأتى به ، فقال : يا فاسق ، عطلت نورك ! هلموا إلى الكرسي ، فقال : أعز الله
الأمير ، إن لي هذراً ، فقال : وما عُذرك ؟ فأنشده الأبيات ، فرق له وكتب إلى
المهلب فأنبته في أصحابه .

٤٧ - فِي الْمَتَلَبِينَ ثُمَّ هَوَى دَفِين*

كان سببُ عشق المجنون^(١) ليلي ، أنه أقبل ذات يوم على ناقة له كريمة ، وعليه خاتمان من حُلل الملوك ، فرمى بامرأة من قومه يقال لها : كريمة ، وعندها نسوة يتحدثن ، فيهن ليلى ، فأعجبهن جماله وكمالُه ، فدعونه إلى النزول والحديث ، فنزل وجعل يحدثهن ، وأمر عبداً له كان معه ، ففقر لهن ناقته ، وظل يحدثهن بقية يومه .

فبينما هو كذلك ، إذ طلع عليهن فتى عليه بُرْدَةٌ من بُردِ الأعراب يقال له : « مُنَازِل » يسوق معزى له ، فلما رأيته أقبلن عليه ، وتركن المجنون ، ففضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول :

أَأَغِيرُ مِنْ جَرًّا^(٢) كَرِيمَةً نَاقَتِي وَوَصِلَى مَفْرُوشٍ^(٣) لَوْضِلِ مُنَازِلِ
إِذَا جَاءَ قَمَقَمَ الْخَلِيٍّ وَلَمْ أَكُنْ إِذَا جِئْتُ أَرْضِي صَوْتَ تِلْكَ الْخَلَاخِلِ
مَتَى مَا انْتَضَلْنَا^(٤) بِالسَّهَامِ نَضَلْتُهُ^(٥) وَإِنْ نَزَمْتُ رُشَقًا^(٦) عِنْدَهَا فَنَاضِلِي

فلما أصبح لبس حُلَّتَهُ ، وركب ناقةً له أخرى ، ومضى متعرضاً لهن ، فالتى ليلي قاعدة بفناء بيتها ، وقد علق حبه بقلبها وهويته ، وعندها جواريات يتحدثن

* الأغانى : ٢ : ١٢

(١) هو قيس بن اللوح من بني عامر ، وصاحبته هي ليل بنت مهدي ، وتكنى أم مالك ، ولداستفاضت كتب الأدب بأخبار عشقه ، واختلف الرواة في صفة نسبتها إليه ، توفي سنة ٨٠ هـ . (٢) من جرا : من أجل . (٣) مفروش : مهد لوضله وسبيل إليه . (٤) انتضلنا : ترامينا . (٥) نضلته : سبقته . (٦) الرشق : رمى أهل النضال ما معهم من السهام في جهة واحدة .

معها ، فوقف بهنّ وسلم ، فدعوته للنزول وقلن له : هل لك في محادثة من لا يشغله
عنك منازِل ولا غيره ؟ فقال : إى أعمري ! فنزل وفعل مثل ما فعله بالأمس ،
فأرادت أن تعلم ، هل لها عنده مثل ماله عندها ، فجعلت تُعرض عن حديثه
ساعة بعد ساعة ، وتحدث غيره ، وقد كان علق بقلبها مثل حبها إياه ، وشغفته
واستملحها .

فينا هي تُحدثه إذ أقبل فتى من الحى ، فدعته وسارته سراراً^(١) طويلاً ،
ثم قالت له : انصرف ، ونظرت إلى وجه المجنون فوجدته قد تغيّر ، وانتقع^(٢) لونه ،
وشقّ عليه فعلها ، فأنشأت تقول :

كِلَانَا مُظْهِرٌ لِلنَّاسِ بُفْضًا وَكُلٌّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِينٌ^(٣)
تَبْلُغُنَا الْعْيُونَ بِمَا أَرَدْنَا وَفِي الْقُلُوبِ نَمٌّ هَوًى دَفِينٌ

فلما سمع البيتين شفق شهقة شديدة وأغمى عليه ، فمكث على ذلك ساعة .
ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق ، ونمكّن حب كل واحد منهما في قلب صاحبه
حتى بلغ منه كل مبلغ .

(١) سراراً : مصدر سارته في أذنه مسارة وسراراً (٢) انتقع : تغير لونه (٣) فلان مكين عند
فلان : بين المكانة .

٤٨ - أَخْبَرَنِي عَنْ لَيْلَةِ الْغَيْلِ *

اجتاز قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ بِالْمَجْنُونِ وَهُوَ جَالِسٌ وَحْدَهُ فِي نَادِي قَوْمِهِ ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُشْتَقًا إِلَى لِقَاءِ الْآخَرِ ، وَكَانَ الْمَجْنُونُ قَبْلَ تَوْحُّشِهِ لَا يَجْلِسُ إِلَّا مَنْفَرَدًا ، وَلَا يَحْدِثُ أَحَدًا ، وَلَا يَرُدُّ عَلَى مُتَكَلِّمٍ جَوَابًا ، وَلَا عَلَى مُسَلِّمٍ سَلَامًا ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ ، فَوُثِبَ إِلَيْهِ فَمَانَقَهَ وَقَالَ : مَرْحَبًا بِكَ يَا أَخِي ، أَنَا وَاللَّهِ مَذْهُوبٌ بِي ، مُشْتَرِكُ اللَّبِّ فَلَا تَلْمَنِي ؛ فَتَحَدَّثَا سَاعَةً وَتَشَاكِيَا وَبَكَيَا .

ثُمَّ قَالَ لَهُ الْمَجْنُونُ : يَا أَخِي ؛ إِنَّ حَيَّ لَيْلَى مِنْ قَرِيبٍ ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَمْضِيَ إِلَيْهَا فَتَبْلُغَهَا عَنِّي السَّلَامَ ؟ فَقَالَ لَهُ : أَفْعَلُ .

فَمَضَى قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ حَتَّى أَتَى لَيْلَى فَسَلَّمَ وَانْتَسَبَ ؛ فَقَالَتْ لَهُ : حَيَّاكَ اللَّهُ ، أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ؛ ابْنُ عَمِّكَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ بِالسَّلَامِ ؛ فَأَطْرَقَتْ ثُمَّ قَالَتْ : مَا كُنْتُ أَهْلًا لِلتَّحِيَّةِ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ رَسُولُهُ ، قُلْ لَهُ عَنِّي : أَرَأَيْتَ قَوْلَكَ :

أَبَتْ لَيْلَى بِالْغَيْلِ ^(١) يَا أُمَّ مَالِكٍ لَكُمْ غَيْرَ حَبٍّ صَادِقٍ لَيْسَ يَكْذِبُ
أَلَا إِنَّمَا أَبْقَيْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ^(٢) صَدَى أَيْنَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ
أَخْبَرَنِي عَنْ لَيْلَةِ الْغَيْلِ ، أَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ ؟ وَهَلْ خَلَوْتُ مَعَكَ فِي الْغَيْلِ أَوْ غَيْرِهِ

* الْأَخَانِي : ٢ - ٩٣

(٢) الصدى : يطلق على الرجل النحيف الجسد

(١) الغيل : اسم واد لبني جعدة

ليلا أو نهارا ؟ فقال لها قيس : يا بنة عم ، إنَّ الناسَ تأوَّلوا كلامه على غير ما أراد ،
فلا تكوني مثلهم ، إنما أخبرَ أنْه رأكَ ليلةَ الغَيْلِ فذهبتِ بقلبه ، لا أنه عَنَّاكَ^(١) بسوء .
فأطرقتَ طويلا ودموعُها تجري وهي تُكفِّكُفُها ، ثم انتحبتُ حتى ظنَّ
أنه تقطعتُ حَيَازِيمُهَا^(٢) ؛ ثم قالت : اقرأ على ابنِ عمي السلام ، وقل له :
بنفسي أنت ا والله إن وجدِي بك لفوقَ ما تجدُ ، ولكن لا حيلةَ لي فيك ؛
فانصرف قيسٌ ليخبره فلم يجده ا

(١) هناك : قصدك (٢) حيازيم : جمع حيروم ، وهو الصدر أو وسطه .

٤٩- أَيْاشِبَهُ لَيْلَى لَا تَرَاعِي*

مَرَّ الْمُجَنُّونَ بِرَجُلَيْنِ قَدْ صَادَا ظُبِيَّةً فَرَبَطَاهَا بِحَبْلِ وَذَهَبَا بِهَا ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا
وَهِيَ تَرْكُضُ فِي حَبَالِهَا دَمَعَتْ عَيْنَاهُ ، وَقَالَ لَهَا : حُلَايَا وَخُذَا مَكَانَهَا شَاةً مِنْ
غَنِيِّ ، ثُمَّ أَنْشَدَهَا :

يَا صَاحِبِيَّ الَّذِينَ الْيَوْمَ قَدْ أَخَذَا	فِي الْحَبْلِ شِبْهًا لِلَّيْلِ ثُمَّ غَلَاهَا
إِنِّي أَرَى الْيَوْمَ فِي أُعْطَافِ شَاتِكُمَا	مُشَابِهًا أَشْبَهَتْ لَيْلَى فَحَلَاهَا
ثُمَّ أَعْطَاهُمَا الشَّاةَ فَحَلَايَا ، فَوَلَّتْ هَارِبَةً فَقَالَ - وَقَدْ نَظَرَ إِلَيْهَا وَهِيَ تَعْدُو :	
أَيَا شِبْهَ لَيْلَى لَا تَرَاعِي ^(١) ؛ فَإِنِّي	لَكَ الْيَوْمَ مِنْ وَخْشِيَّةٍ لَصْدِيقُ
وَيَا شِبْهَ لَيْلَى لَوْ تَلَبَّثْتَ سَاعَةً	لَعَلَّ فُؤَادِي مِنْ جَوَاهُ يُفِيقُ
فَعَيْنَاكَ عَيْنَاهَا وَجِيدُكَ جِيدُهَا	وَلَكِنَّ عَظَمَ السَّاقِ مِنْكَ دَقِيقُ
أَقُولُ وَقَدْ أَطْلَقْتُهَا مِنْ وَثَاقِهَا	لَأَنْتِ لِلَّيْلِ مَا حَيِّتُ طَلِيقُ

* الأغانى : ٢ - ٨١ - لسان العرب - مادة روع .

(١) لا ترامى : لا تغال .

٥٠ - اسْتَبْكَا فِي السَّيْلِ إِذْ جَرَى *

قال رجل من بني عامر :

مُطِرْنَا مَطَرًا شَدِيدًا فِي ربيع ، ودام المطر ثلاثًا ، ثم أصبحنا في اليوم الرابع
على صَحْوٍ ، وخرج الناسُ يمشون على الوادي ، فرأيت رجلًا جالسًا حَجْرَةً ^(١)
وَحَدَهُ ؛ فَقَصَدْتُهُ ، فَإِذَا هُوَ الْمَجْنُونُ جَالِسٌ وَحَدَهُ يَبْكِي ، فَوَعَظْتُهُ وَكَلَّمْتُهُ طَوِيلًا ،
وهو ساكِتٌ لم يرفع رأسه إليّ ؛ ثم أنشدني بصوتٍ حزين لا أنساه أبدًا :

جَرَى السَّيْلُ فَاسْتَبْكَا فِي السَّيْلِ إِذْ جَرَى	وفاضت له من مُقَلَّتِي غُرُوبٌ ^(٢)
وما ذاك إلا حين أيقنت أنه	يكونُ بوادي أنت فيه قريبُ
يكونُ أجاجًا ^(٣) دونكم فإذا انتهى	إليكم تَلَقَّى طيِّبكم فيطيبُ
أَظَلُّ غَرِيبَ الدار في أرضٍ عامرٍ	ألا كلُّ مهجورٍ هُناكَ غريبُ
وإنَّ الكَيْبَ الْفَرْدَ من أيمن الحَمَى	إلى وإن لم آتِه الحبيبُ
فلا خيرَ في الدنيا إذا أنت لم تَزُرْ	حبيبًا ولم يَطْرَبْ إليك حبيبُ

* الأغني : ٢ - ٦٣

(١) حجرة : ناحية (٢) الغروب : جمع غرب ، وهو الدمع (٣) ماء أجاج : ملح مر .

٥١ - عهود جبل التَّوْبَادِ*

كان المجنون وليلى وما صَبِيَّانِ يَرَّعِيَانِ غَمًّا لأهلهما عند جَبَلٍ في بلادهما يقال له التَّوْبَادُ^(١) ، فلما ذهب عقله وتوحَّشَ كان يحىء إلى ذلك الجبل فيقيم به ، فإذا تذكَّرَ أيامَ كان يُطِيفُ هو وليلى به جزعَ جزعاً شديداً ، واستوحش ؛ فهامَ على وجهه حتى يأتى نواحيَ الشامِ ، فإذا ثابَ إليه عقله رأى بلداً لا يعرفه ؛ فيقول لمن يلقاه من الناس : بأبى أتم ! أين التَّوْبَادُ من أرضِ بنى عامر ؟ فيقال له : وأين أنتَ من أرضِ بنى عامر ! أنتَ بالشامِ ! عليك بنجم كذا فأَمَّهُ ! فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقعَ بأرضِ اليمَنِ ، فيرى بلداً يُنْكِرُها وقوماً لا يَعْرِفُهُمْ فيسألهم عن التَّوْبَادِ وأرضِ بنى عامر ، فيقولون : وأين أنتَ من أرضِ بنى عامر ! عليك بنجم كذا وكذا ، فلا يزالُ كذلك حتى يقعَ على التَّوْبَادِ ، فإذا رآه قال في ذلك :

وأَجْهَشْتُ ^(٢) للتَّوْبَادِ حينَ رأيتهُ	وكَبَّرَ للرحمنِ حينَ رأيتهُ
وأُذْرِبْتُ دمعَ العينِ لما عرفتُهُ	ونادى بأعلى صوتِهِ فدعاني
فقلتُ له : قد كان حولَكَ جيرةٌ	وعَهْدِي بِذاك الصَّرمِ منذُ زمانٍ
فقال : مضوا وأستودعونى ببلادهم	ومن ذا الذى يَبْقَى على الخلدِ ثانٍ !
وإني لأبكي اليومَ من حَذَرِي غداً	فِرَاقَكَ والحيَّانِ مُجْتَمَعَاتٍ
سِجَالاً وتَهْتَاناً ^(٣) وَوَبْلاً وَدِيمَةً	وسَحّاً وتَسْجَاماً ^(٤) إلى هَمَلانٍ

* الأغانى : ٢ - ٥

(١) جبل بنجد (٢) أجْهَشَ إليه : نزع إليه وهو يريد البكاء (٣) هتفت السماء : صبت (٤) سجت السحابة مطرها إذا صبت .

٥٢- حَدِيثُ الْمَجْنُونِ عَلَى لَيْلَى*

قال أحد الرواة : قلتُ لقيس بن الملوّح قبل أن يخالطَ ^(١) : ما أعجبُ شيءٍ أصابكَ في وجدِكَ بليلى ؟ قال : طرَفنا ذات ليلةٍ أضيافٌ ، ولم يكنْ عندنا لهم أدمٌ ، فبعثني أبي إلى منزل أبي ليلى ، وقال لى : اطلبْ لنا منه أدمًا . فأتيتُه فوقفتُ على خِيابته فصِحتُ به ، فقال : ما تشاء ؟ فقلتُ : طرَقنا ضيفانٌ ولا أدمَ عندنا لهم ، فأرسلنى أبى أطلبُ منك أدمًا ، فقال : يا ليلى ؛ أخْرِجى إليه ذلك النّحى ^(٢) ، فاملئى له إناءً من السّمن . فأخرجته ومعى قعب ^(٣) ، فجعلتُ تصبُ السمن فيه وتتحدّث ، فآلهانا الحديثُ وهى تصبُ السمن وقد امتلأ القعبُ ولا نعلم جميعاً ، وهو يسيلُ حتى استنقعت أرجلنا من السمن . فأتيتهم ليلةً ثانية أطلبُ ناراً ، وأنا مُتَلَفِعٌ بِرُدى ، فأخرجتُ لى ناراً فى عُطبة ^(٤) لى فأعطتنيها ، ووقفنا نتحدّثُ ، فلما احترقت العُطبة خرّقتُ من بُردى خِرقةً ، وجعلتُ النارَ فيها ، فكلما احترقتُ خرّقتُ أخرى ، وأذْكِتُ بها النارَ حتى لم يبق على من البرد إلا ما وارى عورتى ، وما أعقلُ ما أصنع !

• الأغانى : ٢ - ٣١

(١) خولط فى عقله : فسد عقله (٢) النحى : الزق يوضع فيه السمن (٣) القعب : القدح الضخم الفليظ (٤) العطبة : خرقه تؤخذ بها النار .

٥٣ - حَلَالٌ لِلْيَالَى شَتْمُنَا*

سأل الملوّح - أبو المجنون - رجلاً قديماً من الطائف أن يمرّ بالمجنون فيجلس إليه فيخبره أنه لقي ليلي وجلس إليها ، ووصف له صفات منها ومن كلامها يعرفها المجنون ؛ وقال له : حدّثه بها ، فإذا رأيته قد اشترأب^(١) لحديثك واشتهاه فعرفه أنك ذكرته لها ووصفت ما به فشتّمته وسبّته ، وقالت : إنه يكذب عليها ويُشهرها^(٢) بفعله ، وإنها ما اجتمعت به قط كما يصف .

ففعل الرجل ذلك ، وجاء إليه فأخبره ببقائه إياها ، فأقبل عليه وجعل يسأله عنها ، فيخبره بما أمره به الملوّح ، فيزداد نشاطاً ويثوبُ إليه عقله ، إلى أن أخبره بسبّها إياه وشتّمها له ، فقال - وهو غير مُكترث لما حكاه عنها :

وَيَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهْبَّ هُبُوبُهَا	تَمْرُ الصَّبَا صَفْحًا بَسَا كُنِ ذِي الْغَضَى
جَوَايَ بِمَا تُهْدِي إِلَى جَنُوبِهَا	إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ الشَّمَالُ فَإِنَّمَا
هُوَ كُلُّ نَفْسٍ حَيْثُ كَانَ حَبِيبُهَا	قَرِيبَةً عَهْدٍ بِالْحَبِيبِ وَإِنَّمَا
بِدَارِ قَلْبِي تُمَسِي وَأَنْتَ غَرِيبُهَا	وَحَسْبُ اللَّيَالَى أَنْ طَرَحْنَاكَ مَطْرَحًا
هَنِيئًا وَمَغْفُورٌ لِلْيَالَى ذُنُوبُهَا	حَلَالٌ لِلْيَالَى شَتْمُنَا وَاتَّقَا صُنَا

* الأغاني : ٢ - ٨٥

(١) اشترأب إليه : مد عنقه لينظر ، أو ارتفع .

(٢) الشهرة : ظهور الشيء في شناعة ، شهرة كنهه ، وشهره واشتهره فاشتهر .

٥٤- إِنْ دَأَى وَدَوَائِي أَنْتِ*

قال بعضُ مشايخ بني عامر :

مرَّ المجنونُ في تَوَحُّشِهِ ، فصادفَ حَيَّ لَيْلَى راحلاً ، ولقيها فبجأةً ، فعرفها
وعرفته ، فصعقَ وخرَّ مغشياً على وجهه .

وأقبلَ فِتْيَانٌ مِنْ حَيَّ لَيْلَى ؛ فأخذوه وَمَسَحُوا التُّرَابَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَأَتَتْهُمُ
إِلَى صُدُورِهِمْ ، وسألوا لَيْلَى أَنْ تَقِفَ لَهُ وَقْفَةً ؛ فَرَقَّتْ لِمَا رَأَتْهُ بِهِ ؛ وقالت : أَمَا هَذَا
فَلَا يَجُوزُ أَنْ أَفْتَضِّحَ بِهِ ، وَلَكِنْ يَا فُلَانَةَ - لِأَمَةٍ لَهَا - اذْهَبِي إِلَى قَيْسٍ فَقُولِي لَهُ :
لَيْلَى تَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ ، وتقولُ لك : أَعَزِّزْ عَلَيَّ بِمَا أَنْتَ فِيهِ ، ولو وجدتُ سَبِيلًا
إِلَى شِفَاءِ دَائِكَ لَوْ قِيتُكَ بِنَفْسِي مِنْهُ ، فمضتِ الْوَلِيدَةُ^(١) إِلَيْهِ ، وأخبرته بقولها ،
فَأُفَاقَ وَجَلَسَ وَقَالَ : أَبْلَغِيهَا السَّلَامَ وَقُولِي لَهَا : هِيَهَاتِ ! إِنْ دَأَى وَدَوَائِي أَنْتِ ؛
وَإِنْ حَيَاتِي وَوَفَاتِي لَنِي يَدِيكَ ، ولقد وَكَلَّتْ بِي شَقَاءٌ لَازِمًا ، وبلاءٌ طَوِيلًا ، ثم
بَكَى وَأَنشَأَ يَقُولُ :

أَقُولُ لِأَصْحَابِي هِيَ الشَّمْسُ ضَوْؤُهَا قَرِيبٌ وَلَكِنْ فِي تَنَاقُلِهَا بُعْدُ
لَقَدْ عَارَضَتْنَا الرِّيحُ مِنْهَا بِنَفْحَةٍ عَلَى كِبْدِي مِنْ طَلِبِ أَرْوَاحِهَا بَرْدُ

* الأغانى : ٢ - ٦٤

(١) الوليدة : الجارية .

فمازلتُ مَفْشِيًا عَلَىَّ وقد مَضَتْ
أَقْلَبُ بِالْأَيْدِي وَأَهْلِي بَعُولَةً^(٢)
ولم يبقَ إِلَّا الْجِلْدُ وَالْعَظْمُ عَارِيًا
أَدْنِيَايَ مَالِي فِي انْقِطَاعِي وَرَغْبَتِي
عِدِّي - بِنَفْسِي أَنْتِ - وَعَدَا فَرُّبَمَا
وقد يُبْتَسَى لِي قَوْمٌ وَلَا كِبَالِيَّتِي
غَزَتْنِي جُنُودُ الْحُبِّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
أَنَاةٌ^(١) وما عندي جوابٌ وَلَا رَدُّ
يُفَدُّونَنِي لَوْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْدُوا
وَلَا عَظْمٌ لِي إِنْ دَامَ مَا بِي وَلَا جِلْدٌ
إِلَيْكَ ثَوَابٌ مِنْكَ دَيْنٌ وَلَا نَقْدٌ
جَلَا كَرْبَةً الْمَكْرُوبِ عَنْ قَلْبِي الْوَعْدُ
وَلَا مِثْلَ جَدِّي^(٣) فِي الشَّقَاءِ بِكُمْ جَدُّ
إِذَا حَانَ مِنْ جَنْدٍ قُقُولٌ^(٤) أَنِي جُنْدُ

(١) أَنَاة : انتظار (٢) العولة : رفع الصوت بالبكاء (٣) الجد : الحظ (٤) القفول : رجوع الجند بعد الفزو .

٥٥- مَا رَأَيْتُ مِثْلَ حَزْنِهَا وَوَجْدِهَا عَلَيْهِ*

قال بعضُ أشياخِ بني مُرَّة : خرج منا رجلٌ إلى ناحية الشام والحجاز وما يلي تيماء والسَّراة^(١) وأرضَ نجد ؛ في طلبِ بُعْيَةٍ له ، فإذا هو بِخَيْمَةٍ قد رُفِعَتْ له وقد أصابه المطر ؛ فمدَّ إليها وتَنَجَّحَ ، فإذا امرأة قد كلمتهُ ، فقالت : انزل ، فنزل - وراحت إيلهم وغنمهم فإذا أمرٌ عظيم - فقالت : سَلُوا هذا الرجلَ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلَ ؟ فقلتُ : من ناحيةِ تهامة ونجد ، فقالت : ادخل أيها الرجل .

فدخلتُ إلى ناحية من الخيَمة ، فأرختُ يدي وبينها سترًا ، ثم قالت لي : يا عبدَ الله ؛ أيُّ بلادِ نجد وطِئت ؟ فقلت : كلها ؛ قالت : فبِمَنْ نزلتَ هناك ؟ قلت : ببني عامر ، فتَنَفَّستِ الصُّعداء ، ثم قالت : فبأيُّ بني عامر نزلتَ ؟ فقلتُ : ببني الحريشِ ، فاستعبرت^(٢) ثم قالت : فهل سمعتَ بذكر فتى منهم يُقال له : قَيْسُ بن الملوِّح ويلقب بالجنون ؟ قلت : بلى والله ! وعلى أبيه نزلتُ ، وأُتِيَتْهُ فنظرتُ إليه يهيم في تلك الفياقِ^(٣) ، ويكون مع الوحش لا يعقل ولا يفهم إلا أن تُذكَرَ له امرأة يُقال لها : ليلي ، فيبكي ويُدشِدُ أشعاراً قالها فيها .

فرفعتِ السَّترَ بيني وبينها ، فإذا فِلَقَةٌ قمر لم ترَ عيني مثلها ؛ فبكتُ حتى ظننتُ - والله - أن قلبها قد انصدَّعَ ، فقلت : أيتها المرأة ؛ اتقي الله فما قلتُ بأسًا . فبككت طويلاً على تلك الحال من البكاء والنحيب ، ثم قالت :

* الأغانى : ٢ - ٣٦

(١) السراة : الجبال والأرض المجاورة بين تهامة ونجد (٢) استعبرت : جرت عبرتها وحزنت (٣) الصغارى .

ألا ليت عِترِي ، والخطوبُ كثيرة متى رَحِلُ قيسٍ مستَقِلٌ ^(١) فَرَّاجِعُ
بِنَفْسِي مَنْ لَا يَسْتَقِلُّ بِرَحْلِهِ وَمَنْ هُوَ إِنْ لَمْ يَحْفَظِ اللَّهَ ضَائِعُ
ثم بكيت حتى سقطت مغشياً عليها ، فقلت لها : مَنْ أَنْتِ يَا أُمَّةَ اللَّهِ ؟ وما
قِصَّتُكَ ؟ قالت : أنا ليلي صاحبتُهُ المشثومةُ - وَاللَّهِ عَلَيْهِ ، غَيْرُ الْمُؤَنَسَةِ لَهُ ، فَمَا رَأَيْتُ
مِثْلَ حُزْنِهَا وَوَجْدِهَا عَلَيْهِ قَطًّا .

(١) استقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

٥٦- عِنْدَ الْكَعْبَةِ*

رُوي أن أبا المجنون وأمه ورجالَ عشيرته اجتمعوا إلى أبي ليلى ، فوعظوه وناشدوه الله والرحم ، وقالوا له : إن هذا الرجل لهالك ، وقبَلَ ذلك هو في أقبح من الهلاك بذهاب عقله ، وإنك فاجعٌ به أباه وأهله ، فنشدناك الله والرحم أن تفعل ذلك ، فوالله ما هي أشرفُ منه ولا لك مثلُ مالِ أبيه ، وقد حكمتك في المهر ، وإن شئت أن يخلع نفسه إليك من ماله ففعل .

فأبى وحلف بالله وبطلاق أمها إنه لا يزوجه إياها أبداً ، وقال : أفضح نفسي وعشيرتي وآتي ما لم يأتني أحدٌ من العرب ، وأسيم^(١) ابنتي بميسم فضيحة ! فانصرفوا عنه ، وخالفهم لوقته فزوجها رجلاً من قومها وأدخلها إليه .

فما أمسى إلا وقد بنى بها^(٢) ، وبلغ المجنون الخبر فأيس^(٣) منها حينئذ وزال عقله ، فقال رجالُ الحى لأبيه : احججْ به إلى مكة ، وادعُ الله عز وجل له ، ومُرّه أن يتعلق بأستار الكعبة ، فيسأل الله أن يُعافيه مما به ، ويُبغضها إليه ، ففعل الله أن يُخلصه من هذا البلاء .

فحجَّ به أبوه ؛ فلما صاروا بمنى سمع صائحاً في الليل يصيح : يا ليلى ! فصرخ صرخةً ظنوا أن نفسه قد تَلِفَتْ ، وسقط مغشياً عليه ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ثم أفاق حائل^(٤) اللون ذاهلاً ، فأنشأ يقول :

* الأغاني : ٢ - ٢١

(١) أسم : أصف (٢) بنى : دخل بها (٣) أيس : يش (٤) جائل اللون : متغيره .

عزمت على قلبي العزاء فقال لي : من الآن فأبأس : لا أعزك من صبر
 إذا بان من تهري وأصبح نائياً فلا شيء أجدي من حلولك في القبر
 وداع دعا إذ نحن بالخيف^(١) من منى فهبج أحزان الفؤاد وما يذرى
 دعا باسم ليلى غيرها ، فكأنما أطار بليلى طائراً كان في صدرى
 دعا باسم ليلى ضلل الله سميه وليلى بأرض عنه نازحة قفر
 ثم قال له أبوه : تعلق بأستار الكعبة ، واسأل الله أن يعافيك من حب
 ليلى ؛ فتعلق بأستار الكعبة ، وقال : اللهم زدني ليلي حباً ، وبها كافاً ، ولا تُدْني
 ذكرها أبداً . فهم حينئذ واختلط .

فكان يهيم في البرية مع الوحش ، ولا يأكل إلا ما ينبت في البرية من بقل ،
 ولا يشرب إلا مع الظباء إذا وردت منهاها ، وطال شعر جسده ، ورأسه ، وألفته
 الظباء والوحوش ، فكانت لا تنفّر منه ، وجعل يهيم حتى يبلغ حدود الشام ، فإذا
 تاب إليه عقله سأل من يمر به من أحياء العرب عن نجد ؛ فيقال له : وأين أنت
 من نجد ! قد سارفت الشام ! أنت في موضع كذا ، فيقول : فأروني وجهة
 الطريق ، فيرحلونه ويعرضون عليه أن يحملوه أو يكسوه فبابي ، فيدلّونه على طريق
 نجد فيتوجه نحوه !

(١) الخيف : ناحية في منى .

٥٧ - ذهول*

قال نوفل بن مُسَاحِق : قَدِمْتُ الْبَادِيَةَ فَسَأَلْتُ عَنْ الْمَجْنُونِ ، فَقِيلَ لِي : تَوَحَّشَ
وَمَا لَنَا بِهِ عَهْدٌ ، وَلَا تَذَرِنِي إِلَى أَيْنَ صَارَ .

فَخَرَجْتُ يَوْمًا أَتَصِيدُ الْأَرْوَى^(١) ، وَمَعِيَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِي ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ
بِنَاحِيَةِ الْحَمَى إِذَا نَحْنُ بِأَرَاكَةِ^(٢) عَظِيمَةٍ ، قَدْ بَدَأَ مِنْهَا قَطِيعٌ مِنَ الظُّبَاءِ ، فِيهَا
شَخْصٌ إِنْسَانِي يُرَى مِنْ خَلَلِ تِلْكَ الْأَرَاكَةِ ؛ فَمَجِبَ أَصْحَابِي مِنْ ذَلِكَ ، فَعَرَفْتُهُ
وَأَتَيْتُهُ ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْمَجْنُونُ الَّذِي أَخْبِرْتُ عَنْهُ .

فَنَزَلْتُ عَنْ دَابَّتِي ، وَتَحَقَّقْتُ^(٣) مِنْ ثِيَابِي ، وَخَرَجْتُ أَمْشِي رَوِيدًا ، حَتَّى
أَتَيْتُ الْأَرَاكَةَ ؛ فَارْتَقَيْتُ حَتَّى صِرْتُ عَلَى أَعْلَاهَا ، وَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ وَعَلَى الظُّبَاءِ ؛
فَإِذَا بِهِ وَقَدْ تَدَلَّى الشَّعْرُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَلَمْ أَكْذُ أَعْرِفُهُ إِلَّا بِتَأْمُلٍ شَدِيدٍ ، وَهُوَ يَرْتَعَى
فِي ثَمَرِ تِلْكَ الْأَرَاكَةِ ؛ فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، فَتَمَثَّلْتُ بَيْتٍ مِنْ شِعْرِهِ :

أَتَّبِعْكِ عَلَى لَيْلَى وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ لَيْلَى وَشَفِهَا كَمَا مَعَا
فَنَفَرَتِ الظُّبَاءُ ؛ وَأَنْدَفَعُ فِي بَاقِي الْقَصِيدَةِ يُنْشِدُهَا ، فَمَا أَنْسَى حُسْنَ نَعْمَتِهِ
وَحُسْنَ صَوْتِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ^(٤) :

فَمَا حَسَنٌ أَنْ تَأْتِيَ الْأَمْرَ طَائِعًا وَتَجْزِعَ أَنْ دَاعِيَ الصَّبَابَةِ أَسْمَعًا

* الأغانى : ٢ - ٦٦

(١) الأروى : الوعول ، وهى نبوس الجبل ، واحده أروبة (٢) الأراكة : واحدة الأراك
وهو شجر كثير الورق والأغصان (٣) أى نزع شئاً منها (٤) بعض هذه الأبيات ينسب
إلى غير المجنون (انظر الأغانى ج ٢٢ ، ص ٦٧ والأمالى ج ١ ص ١٩٠) .

بَكَتْ عَيْنِي الْيُسْرَى فَلَمَّا زَجَرَتْهَا عَنْ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحَلَمِ أَسْبَلَتْهَا مَعَا ^(١)
وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الْحَمَى ثُمَّ أَنْشَدَنِي عَلَى كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا
فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحَمَى بِرَوَاجِعِ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ تُعِينُكَ تَدَمَّعَا
مَعِيَ كُلُّ غِرٍّ قَدْ عَصَى عَازِلَاتِهِ بَوَاضِلِ الْغَوَايِ مِنْ لَدُنْ أَنْ تَرَعَّرَعَا
إِذَا رَاحَ يَمْشِي فِي الرِّدَا مِنْ أَسْرَعَتِ إِلَيْهِ الْعَيُونُ النَّاضِرَاتُ التَّطَلُّعَا
ثُمَّ سَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ، فَتَمَثَّلَتْ بِقَوْلِهِ :

يَا دَارَ لَيْلٍ بِسِقْطِ ^(٢) الْحَى قَدْ دَرَسَتْ إِلَّا الثَّمَامُ وَإِلَّا مَوْقِدَ النَّارِ ^(٣)
فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : مَنْ أَنْتَ حَيَّاكَ اللَّهُ ؟ فَقُلْتُ : أَنَا نُؤْفَلُ بْنُ مُسَاحِقٍ ،
فَخَيَّانِي فَقُلْتُ لَهُ : مَا أَخَذْتُكَ بَعْدِي فِي يَأْسِكَ مِنْهَا ؟ فَأَنْشَدَنِي يَقُولُ :
أَلَا حُجِبَتْ لَيْلِي وَآلَى أَمِيرُهَا عَلَى يَمِينًا جَاهِدًا لَا أَزُورُهَا
وَأَوْعَدَنِي فِيهَا رِجَالُ أَبَوْهُمْ أَبِي وَأَبُوهَا خُشِدَتْ لِي صُدُورُهَا
عَلَى غَيْرِ جُرْئِمٍ غَيْرَ أَنِي أَحِبُّهَا وَأَنْ فَوَادِي رَهْنُهَا وَأَسِيرُهَا
ثُمَّ سَنَحَتْ لَهُ ظِبَاءَ فِقَامٍ يَمْدُو فِي أَثَرِهَا حَتَّى لَحِقَهَا ، فَمَضَى مَعَهَا .

(١) أسبلت السماء : أمطرت : أي بكيت عيناه . (٢) السقط : حيث انقطع معظم الرمل ورق .
(٣) الثمام : نبت في البادية ، كان العرب يسدون به خصام البيوت .

٥٨- خاتمة المجنون*

خرج شيخ من بني مرة ليلقى المجنون في أرض بني عامر ثم حدث فقال :
دللت على تحلته فأتيتها ، فإذا أبوه شيخ كبير وإخوة له رجال ، وإذا نعم
كثير^(١) وخير ظاهر ، فسألهم عنه فاستغبروا جميعاً .

وقال الشيخ : والله لقد كان أثر في نفسي من هؤلاء وأحبهم إليّ وإني
هوى امرأة من قومه ، والله ما كانت تطعم في مثله ، فلما أن فشا أمره وأمرها
كره أبوها أن يزوجه منه بعد ظهور الخبر ، فزوجها من غيره ، فذهب عقل ابني
ولحمه خبل ، وهام في الفياق وجدأ عليها ، فحبسناه وقيدناه ، فجعل يعض لسانه
وشفتيه ، حتى خفنا عليه أن يقطعهما ، فخلينا سبيله ، فهو يهيم في هذه الفياق مع
الوحوش ؛ يذهب إليه كل يوم بطعامه فيوضع له حيث يراه ، فإذا تنجسوا عنه
جاء فأكل منه .

فسألهم أن يدلوني عليه ، فدلوني على فتى من الحى كان صديقاً له ، وقالوا :
إنه لا يأنس إلا به ولا يأخذ أشماره عنه غيره ؛ فأتيته فسألته أن يدلني عليه ،
فقال : إن كنت تريد شعره فكل شعر قاله إلى أمي غدى ، وأنا ذاهب
إليه غداً ، فإن كان قال شيئاً أتيتك به . فقلت : بل أريد أن تدلني عليه لآتيه ؛

* الأغاني : ٢ - ٨٨ ، المسعودي : ٢ - ١٧٢

(١) النعم : يذكر ويؤث .

فقال لي : إن نَفَرَ منك نَفَرٌ مِنِّي فيذهبُ شِعْرُهُ ، فأيتُ إِلَّا أن يدلّني عليه ، فقال : اطلبه في هذه الصحارى ، فإذا رأيته فاذنُ منه مستأنساً ، ولا تُره أنك تهابه ، فإنه يتهدّدك ويتوعّدك أن يرْمِيكَ بشيء ، فلا يرُوعنكَ ، واجلس صارفاً بصرك عنه ، والحظه أحياناً ، فإذا رأيته قد سكن من نِفاره فأنشده شعراً غزلاً ، وإن كنت تروى من شعر قيس بن ذريح شيئاً فأنشده إياه فإنه مُعجَبٌ به .

فخرجتُ فطلبته يومي إلى العصر ، فوجدته جالساً على رمل قد خطّ فيه بإصبعه خطوطاً ، فدنوتُ منه غير مُنقبِض ، فنَفَرَ مِنِّي نفورَ الوحش من الإنسان ، وإلى جانبهِ أحجارٌ فتناول حجراً ، فأعرضتُ عنه ، فمكث ساعة كأنه نافرٌ يريد القيام ، فلما طال جلوسى سكن وأقبل يخطّ بإصبعه . فأقبلتُ عليه وقلت : أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ وَيْحَكَ نَبِيٌّ (١) بعلمك في لبني وأنت خبيرٌ
فإن أنت لم تُخبر بشيء علمته فلا طرّت إلا والجنّاحُ كبيرٌ
ودرتَ بأعداء حبيبك فيهم كما قد تراني بالحبيب أدورُ

فأقبل عليّ وهو يبكي ، ثم قال : وأنا أحسنُ منه قولاً حيث أقول :
كأن القلبَ ليلةٌ قيلَ يُغْدَى بليلى العامرية أو يُراحُ
قطاةٌ عزّها (٢) شركٌ فبانت تُنارعه وقد علقَ الجنّاحُ
فأمسكتُ عنه هنيهةً ، ثم أقبلتُ عليه فقلت : وأحسنَ والله قيس

(١) نبى : نبئى وأخبرنى .

(٢) عزّها : غلبها .

ابن ذريح حيث يقول :

وإني لمُنِّي دمعَ عَيْنِي بالبُكا حِذاراً لمبا قد كان أو هو كائنُ
وقالوا : غَداً أو بعد ذاك بليلة فراقُ حبيبٍ لم يَبِنْ وهو بائنُ
وما كنتُ أخشى أن تكون مَنِيَّتِي بكفِّيكِ إلا أن ما حانَ حائنُ
فبكي - والله - حتى ظننتُ أن نفسي فاضتُ ^(١) ، وقد رأيتُ دموعه
قد بليت الرمل الذي بين يديه ، ثم قال : أحسنَ لعمرك الله ؛ وأنا والله أشعر منه
حيث أقول :

وأذُنَيْتِي حتى إذا ما سَبَيْتَنِي بقول يُحِلُّ العَصَمَ ^(٢) سهلاً الأباطحِ
تناوبت عني حين لا لي حيلةٌ وخَلَفَتْ ما خَلَفَتْ بين الجواخِ
ثم سَنَحَتْ له ظَبِيَّةٌ فوثب يمدو خلفها حتى غاب عني ، وانصرفت .

وعُدْتُ من غَدٍ فطلبتَه فلم أجده ، وجاءت امرأة - كانت تَضَعُ له طعامه -
إلى الطعام فوجدته بماله .

فلما كان اليوم الثالث غدوتُ ، وجاء أهله معي فطلبناه يومنا فلم نجده ، وغدونا
في اليوم الرابع نَسْتَقْرِى أثره ^(٣) ، حتى وجدناه في وادٍ كثير الحجارة خَشِن وهو
مِيتٌ بين تلك الحجارة ، فبينما يقلبونه إذ وجدوا خِرْقَةً فيها :

ألا أيها الشيخ الذي ما بنا يرضى شَقِيتَ ولا هُنَيْتَ من عيشك الغضا
شَقِيتَ كما أَشَدَّيْنِي وتركْتَنِي أهِمُّ مع الهلاك لا أطمع العمضا

(١) فاضت نفسه : خرجت ومات .

(٢) العصم : جمع أعصم ، وهو الوعل الذي في ذراعيه بياض ، يريد أن قولها يخلب العصم ويستترها
من الجبال وهي مساكنها إلى الأباطح السهلة .

(٣) نستقرى أثره : نتبع أثره .

كَانَ قَوَادِي فِي مَخَالِبِ طَائِرٍ إِذَا ذُكِرَتْ لَيْلِي يَشُدُّ بِهَا قَبْضًا
كَانَ فِجَاجٌ^(١) الْأَرْضِ حَلَقَةً خَاتَمٌ عَلَىٰ فَمَا تَزْدَادُ طَوْلًا وَلَا عَرْضًا

واحتمله أهله فغسلوه وكفنوه ودفنوه ؛ فلم تبق فتاة من بنى جَعْدَةَ وَلَا بنى
الْحَرِيشِ إِلَّا خَرَجَتْ حَامِرَةً صَارِخَةً عَلَيْهِ تَنْدُبُهُ ، واجتمع فِتْيَانُ الْحَيِّ يَبْكُونَ
عَلَيْهِ أَحْرًا بَكَاءً ؛ وَيَنْشَجُونَ عَلَيْهِ أَشَدَّ نَشِيجٍ ، وحضرهم حتى لَيْلِي مُعَزِّينَ ، وأبوها
مَعَهُمْ ، فَكَانَ أَشَدَّ الْقَوْمِ جَزَعًا وَبَكَاءً عَلَيْهِ ، وجعل يقول : مَا عَلِمْنَا أَنَّ الْأَمْرَ
يَبْلُغُ كُلَّ هَذَا ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَمْرًا عَرِيضًا أَخَافُ مِنَ الْعَارِ ، وَقُبْحِ الْأَحْدُوثة ،
مَا يَخَافُهُ مِثْلِي ، فزَوَّجْتُهَا وَخَرَجْتُ عَنْ يَدِي ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَمْرَهُ يَجْرِي عَلَى هَذَا
مَا أَخْرَجْتُهَا عَنْ يَدِهِ ، وَلَا احْتَمَلْتُ مَا كَانَ عَلَى فِي ذَلِكَ .

فَمَا رَأَيْتُ يَوْمًا كَانَ أَكْثَرَ بَاكِيًا وَبَاكِيًا عَلَى مَيِّتٍ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

(١) جمع فج : وهو الطريق .

٥٩ - اليوم يجمعنا في بطنها الكفن*

قال الطُّفيل^(١) بن عامر العمرى : خرجتُ ذات يوم أُريدُ الفارةَ - وكنتُ رجلاً أحبُّ الوحدةَ - فبينما أنا أسير ، إذ ضَلَلْتُ الطريقَ الذى أردتُه ، فسيرتُ أياماً لا أدري أينَ أتوجّه ، حتى نفذَ زادى ، فجعلتُ آكلُ الحشيشَ وورقَ الشجر حتى أشرفتُ على الهلاك ، ويئستُ من الحياة .

فبينما أنا أسير إذ أبصرتُ قطعَ غمٍّ فى ناحيةٍ من الطريق ؛ فملتُ إليها ، وإذا شابٌ حسنُ الوجه ، فصيحُ اللسان .

قال لى : يا بنَ العمِّ ؛ أين تريدُ ؟ فقلتُ : أردتُ حاجةً لى فى بعض المدن ، وما أظننى إلا قد ضللتُ الطريقَ . قال : أَجَلْ . إن بينك وبين الطريق مسيرة أيام ، فانزِلْ حتى تستريح وتطمئنَّ وتريح فرسك .

فنزاتُ فرسى لفرسى حشيشاً ، وجاء إلى بريد كثير ولَبَنٍ ، ثم قام إلى كبش فذبحه ، وأجج ناراً^(٢) ؛ وجعل يُكَبِّبُ^(٣) لى ، ويطعمنى حتى اكتفيت .

فلما جئنى الليل قام وفرش لى ، وقال : قم فارمِ بنفسك ؛ فإنَّ النومَ أذهب لتعبك ، وأرجع لنفسك .

فقمْتُ ووضعتُ رأسى ، فبينما أنا نائم إذ أقبلتُ جاريةٌ لم ترَ عيتاى مثلها قطُّ

* المحاسن والأضداد : ٨٠ ، مسامرات الأبرار : ٢ - ٦٠ ، نهاية الأرب : ٢ - ١٩٦

(١) راوى القصة فى نهاية الأرب جميل العذرى (٢) أشعل (٣) أى يجعل لى اللحم كباباً .

حُسْنًا وَجَمَالًا ، فَقَمَدَتْ إِلَى الْفَتَى وَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَشْكُو إِلَى صَاحِبِهِ مَا يَلْقَى مِنْ الرَّجْدِ بِهِ ؛ فَامْتَنَعَ عَلَى النَّوْمِ لِحَسَنِ حَدِيثِهِمَا . فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ السَّحَرِ ، قَامَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا دَنَوْتُ مِنْهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَمَنَّ الرَّجُلُ ! قَالَ : أَنَا فَلَانُ ابْنِ فَلَانٍ : وَانْتَسَبَ لِي فَعَرَفْتَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : وَيَحْكُ ! إِنَّ أَبَاكَ لَسَيِّدُ قَوْمِهِ ، فَمَا حَمَلَكَ عَلَى وَضْعِكَ نَفْسَكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ ! فَقَالَ : أَنَا وَاللَّهِ أَخْبَرْتُكَ :

كَذْتُ عَاشِقًا لِابْنَةِ عَمِّي هَذِهِ الَّتِي رَأَيْتُهَا ؛ وَكَانَتْ هِيَ أَيْضًا لِي وَامِقَةً ^(١) ، فَشَاغَ خَبَرَنَا فِي النَّاسِ ، فَأَتَيْتُ عَمِّي ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يُزَوِّجَنِيهَا ، فَقَالَ : يَا بَنِي ؛ وَاللَّهِ مَا سَأَلْتَ شَطَطًا ^(٢) ، وَمَا هِيَ بِأَثَرٍ عِنْدِي مِنْكَ ؛ وَلَكِنْ النَّاسُ قَدْ تَحَدَّثُوا بِشَيْءٍ وَعَمَّكَ يَكْرَهُ الْمَقَالَةَ الْقَبِيحَةَ ؛ وَلَكِنْ انْظُرْ غَيْرَهَا فِي قَوْمِكَ ، حَتَّى يَقُومَ عَمُّكَ بِالْوَاجِبِ لَكَ .

فَقُلْتُ : لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ذَكَرْتُ ، وَتَحَمَّلْتُ ^(٣) عَلَيْهِ بِجَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِي فَرَدَّاهُمْ وَزَوَّجَهَا رَجُلًا مِنْ ثَقِيفٍ لَهُ رِيَاسَةٌ وَقَدْرٌ ؛ فَحَمَلَهَا إِلَى هُنَا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى خِيَمِ كَثِيرَةٍ بِالْقَرَبِ مِنَّا - فَضَاقَتْ عَلَى الدُّنْيَا بِرُخْبِهَا ، وَخَرَجَتْ فِي إِثْرِهَا ؛ . . . أَنَّنِي فَرَحْتُ فَرَحًا شَدِيدًا ، فَقُلْتُ لَهَا : لَا تُخْبِرِي أَحَدًا أَيْ مِنْكَ بِسَبِيلٍ ، ثُمَّ أَتَيْتُ زَوْجَهَا ، وَقُلْتُ : إِنَّا رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ ، أَصَبْتُ دَمًا وَأَنَا خَائِفٌ ، وَقَدْ قَصَدْتُكَ لِمَا أَعْرِفُ مِنْ رَغْبَتِكَ فِي اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ ، وَلِي بَصَرٌ بِالْغَنَمِ ؛ إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُعْطِيَنِي مِنْ غَنَمِكَ شَيْئًا فَأَكُونَ فِي جَوَارِكَ وَكَنَفِكَ فَافْعَلْ . قَالَ : نَعَمْ ، وَكَرَامَةٌ . فَأَعْطَانِي مِائَةَ شَاةٍ وَقَالَ لِي : لَا تَبْعُدُ بِهِمَا مِنَ الْحَيِ ، وَكَانَتْ ابْنَةُ عَمِّي

(١) وامقة : محبة (٢) شينا بعيدا (٣) تحملت عليه : أي أتيت به يقوم يشفعون لي عنده .

تخرج إلى كل ليلة في الوقت الذي رأيت وتنصرف ؛ فلما رأى حسن حال الغنم ؛ أعطاني هذه ، فرضيت من الدنيا بما ترى .

قال الطفيل : فأقمت عنده أياماً ، فبينما أنا نائمٌ إذ نبهني ، وقال : يا أخا بني عامر . قلت له : ما شأنك ؟ قال : إن ابنة عمي قد أبطأت ولم تكن هذه عادتها ، ووالله ما أظن ذلك إلا لأمرٍ حادث ، فخذني ، فجعلت أحدثه ، فأنشأ يقول :

ما بال مية لا تأتي كماديتها	هل حاجبا طرب ^(١) أو صدّها شغل ؟
لكن قلبي لا يعنيه غيرهم	حتى المات ولا لي غيرهم أمل
لو تعلمين الذي بي من فراقكم	لما اعتلت ولا طابت لك العيل
نفسى فداؤك ! قد هيّجت لي سقما	تسكاد من حرّه الأعضاء تنفصل
لو كان عاديه منه على جبال	لزال وانهدّ من أركانه الجبل

وإن ما اكتحل بقمض ، حتى انفجر عمود الصبح ، وقام ومرّ نحو الحى ثم أقبل ومعه شيء ، وجعل يبكي عليه . فقلت له : ما هذا ؟ قال : هذه ابنة عمي افترسها السبع ، فأكل بعضها ؛ ووضعها بالقرب مني ، فأوجع والله قلبي !

ثم تناول سيفه ومرّ نحو الحى ، فأبطأ هنيئة ، ثم أقبل إلى ، وعلى عاتقه ليش كأنه حمار ؛ فقلت له : ما هذا ؟ قال : صاحبي ، قلت : وكيف علمته ؟ قال : إني قصدت الموضع الذي أصابها فيه ، وعلمت أنه سيعود إلى ما فضل منها ؛ فجاء قاصداً إلى ذلك الموضع ، فعلمت أنه هو ، فحملت عليه فقتلته ؛ ثم قام فحفّر في

(١) الطرب : خفة تصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور .

الأرض فأمّمت ؛ وأخرج ثوباً جديداً ؛ وقال : يا أخا بني عامر ؛ إذا أنا ميتٌ
فادرُجني ^(١) معها في هذا الثوب ؛ ثم ضَعْنَا في هذه الحفرة ، وأهلِ التراب ^(٢) ،
واكتب هذين البيتين على قبرنا وعليك السلام :

كُنَّا على ظهريها والعيشُ في مَهَلٍ والدهرُ يَجْمَعُنَا ، والدارُ والوطنُ
لخائنا الدهرُ في تفريقِ ألفتِنَا واليوم يَجْمَعُنَا في بطنها الكفنُ
ثم اتفقت إلى الأسد وقال :

ألا أيّها الليثُ المدلُّ بنفسه هلكتَ ، لقد جرّت يدك لناحرُنَا
وغادرْتَنِي فرّداً وقد كنتُ ألفاً وصيرتَ آفاقَ البلادِ لنا سِجْنَا
أصحبُ دَهْأَ خاتني بفرّاقِها معاذَ إلهي أن أكونَ له خِدْنَا ^(٣)
ثم قال : يا أخا بني عامر ؛ إذا فرغتَ من شأننا فصِحْ في أدبار هذه الغنمِ
فرُدّها إلى صاحبها .

ثم ماتَ ، فمِتُّ فادرُجْتُهُمَا في ذلك الثوب ؛ ووضعتُهما في تلك الحفرة ؛
وكتبت البيتين على قبرها ، ورددتُ الغنمَ إلى صاحبها . وسألني القوم ، فأخبرتهم
الخبر ؛ فخرج جماعة منهم فقالوا : والله لننحرنَّ عليه ؛ تمظيماً له ، فخرجوا ؛ وأخرجوا
مائة ناقة ؛ وتسامع الناس فاجتمعوا إلينا ؛ فنفرت ثم انصرفنا .

(١) ادرجني : اطوئي معها (٢) مال التراب وأهاله : صبه (٣) خدنا : صديقا .

٦. العِفَّةُ فِي الْحُبِّ*

سَعَتْ أُمَّةٌ لُبَيْثِنَةَ بِهَا إِلَى أَبِيهَا وَأَخِيهَا ، وَقَالَتْ لَهَا : إِنَّ جَمِيلًا ^(١) عِنْدَهَا اللَّيْلَةَ ؛ فَأَتِيَاهَا مُسْتَمِلِينَ عَلَى سَيْفَيْنِ ، فَرَأَاهُ جَالِسًا حَجْرَةً ^(٢) مِنْهَا يَحْدُثُهَا وَيَشْكُو إِلَيْهَا بَثَّهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : يَا بَثْنِيَّةُ ؛ أَرَأَيْتِ وَدَّى إِيَّاكَ ، وَشَفَقَى بَكَ ، أَلَا تَجْزِينِيهِ ؟ قَالَتْ : بِمَاذَا ؟ قَالَ : بِمَا يَكُونُ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينِ ، فَقَالَتْ لَهُ : يَا جَمِيلُ ؛ أَهَذَا تَبْغِي ! وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ عِنْدِي بَعِيداً مِنْهُ ، وَلَثْنٌ عَاوَدَتْ تَعْرِضُهَا بَرِيْقَةً ، لَا رَأَيْتَ وَجْهِي أَبْدأ .

فَضَحَكَ وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا قُلْتُ لَكَ هَذَا إِلَّا لِأَعْلَمَ مَا عِنْدَكَ فِيهِ ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَجِيْبِيَنِي إِلَيْهِ لَعَلِمْتُ أَنَّكَ تُجِيْبِينَ غَيْرِي ، وَلَوْ رَأَيْتُ مِنْكَ مَسَاعِدَةً عَلَيْهِ لَضَرَبْتُكَ بِسِيفِي هَذَا مَا اسْتَمْسَكَ فِي يَدِي ، وَلَوْ أَطَاعَتْنِي نَفْسِي لَهَجَرْتُكَ هِجْرَةَ الْأَبَدِ ، أَوْ مَا سَمِعْتُ قَوْلِي :

وَإِنِّي لِأَرْضَى مِنْ بُثْنِيَّةَ بِالَّذِي لَوْ أَبْصَرَهُ الْوَائِي لَقَرَّتْ بَلَابِلُهُ ^(٣)

* الْأَغَانِي : ٨ : ١٠٥

(١) هُوَ جَمِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْمَرِ الْعَذْرَى ، كَانَ شَاعِراً فَصِيحاً مُقَدِّماً جَامِعاً لِلشَّعْرِ وَالرُّوَايَةِ . اشتهر بحبه لبثينة ابنة عمه ، وكان يجتمع بها سرّاً عن أهلها ، فألحوا بالشكوى عليه ، ففر إلى اليمن ثم انتجع أهل بئينة الشام ، فرحل جميل إليهم فترصدوه وشكوه إلى عشيرته ، فعنفه أهله وهددوه ، فانقطع عنها ، وأخيراً لجأ إلى مصر وعاملها عبد العزيز بن مروان ، فأحسن وفادته ، ومرض هناك ومات بها سنة ٨٢ هـ (٢) حَجْرَةٌ : نَاحِيَةٌ مُنْفَرِداً . (٣) الْبَلَابِلُ : وَسْوَاسُ الصَّدْرِ .

بِلا وبألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آملة
وبالنظرة المجلى وبالحول تنقضى أواخره لا نلتقى وأوائله
فقال أبوها لأخيها : قم بنا ؛ فما ينبغي لنا بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من
لقاءها ؛ فانصرفا وتركاهما .

٦١ - حَدِيثُ جَمِيلٍ وَبُشَيَّةٌ*

قال مَعْبَدٌ : خرجتُ إلى مكةَ في طلب لقاء الغريِّض^(١) ، وقد بلغني حسنُ غنائه في لَحْنه :

وما أنسَ في الأشياءِ لا أنسَ شاديًّا^(٢) بمكةَ مَكْحُولًا أُسَيْلًا مدايمُهُ
وقد كان بلغني أنَّه أولُ لحنٍ صنَّعه ، وأنَّ الجنَّ نهَّته أن يغنَّيه لأنه فتن
طائفةً منهم ، فاتَّقوا عن مكةَ من أجل حُسْنِهِ .

فلما قدمتُ مكةَ سألتُ عنه ، فدُلِّلتُ على منزله ؛ فأتيته فقرعتُ البابَ فما
كلمني أحدٌ ، فسألتُ بعضَ الجيران فقلت : هل في الدار أحدٌ ؟ قالوا لي : نعم ،
فيها الغريِّضُ ، فقلت : إني قد أكثرتُ دقَّ البابِ ، فما أجابني أحدٌ ! قالوا : إنَّ
الغريِّضَ هناك ، فرجعتُ فدقَّقتُ البابَ فلم يُجِبْنِي أحدٌ ، فقلت : إنَّ نَفْعَ غنائي
يَوْمًا نَفْعَني اليوم ، فاندفعتُ ففَنَيْتُ لَحْنِي في شِعْرِ جَمِيلٍ :

عَلَيْتُ الهَوَى مِنْهَا وَلَيْدًا فَلَمْ يَزَلْ إلى اليومِ يَنِمُّ حُبُّهَا وَيَزِيدُ

فوالله ما سَمِعْتُ حركةَ البابِ ، فقلت : بطلَ سِحْرِي^(٣) وضاعَ سَفَرِي ،
وجئتُ أطلبُ ما هوَ عَيْرٌ عليَّ ، واحتقرتُ نفسي وقلت : لم يتوَهَّمَنِي^(٤) لَضَمَفْ

* الأغاني : ٢ - ٣٨٧ ، تزيين الأسواق : ٣٧

(١) مفعول مشهور ، أخذ الفناء عن أبي سريج وبرع فيه ، واسمه عبد الملك ، والغريِّض لقبه ،
قال ابن الكلبي : شبه بالإغريض ، وهو الحمار فسمي به ، ثم ثقل على الألسنة ، فحذفت الألف منه
(٢) من أصله الأشياء (٣) بطل سحري : ضاعت حيلتي (٤) لم يتوَهَّمَنِي : لم يعرفني .

غِنَائِي عِنْدَهُ ، فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا بِصَاحِحٍ يَصِيحُ : يَا مَعْبُدَ الْمَغْنَى ؛ أَفَهُمْ وَتَلَقَّ عَنِّي شَعْرَ
جَمِيلٍ الَّذِي تُغْنِي فِيهِ يَاشُقُّ الْبَخْتِ ، وَغَنَّى :

وَمَا أَنَسَ بِمِ الْأَشْيَاءِ لَا أَنَسَ قَوْلَهَا وَقَدْ قَرَّبَتْ نِضْوِي ^(١) : أَمَصَرَ تَرِيدُ ؟
وَلَا قَوْلَهَا : لَوْلَا الْعَيُونُ الَّتِي تَرَى أَتَيْتُكَ فَاغْذِرْنِي فَدَتَكَ جُودًا
خَلِيلِيَّ مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ بَاطِنُ وَدَمَعِي بِمَا قَلْتُ الْفِدَاءَ شَهِيدُ
يَقُولُونَ : جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بِفَزْوَةٍ وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ عِنْدَهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ

فَسَمِعْتُ شَيْئًا لَمْ أَسْمَعْ أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَقَصَّرَ ^(٢) إِلَى نَفْسِي ؛ وَعَلِمْتُ فَضِيلَتَهُ عَلَى
بِمَا أَحْسَنَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَقُلْتُ : إِنَّهُ لِحُرَّى بِالْإِسْتِئْذَانِ مِنَ النَّاسِ تَنْزِيهًا لِنَفْسِهِ ، وَتَعْظِيمًا
لِقُدْرِهِ ، وَإِنَّ مِثْلَهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْإِسْتِذَالَ ، وَلَا أَنْ تَتَدَاوَلَ الرِّجَالُ ؛ فَأَرَدْتُ
الْإِنْصِرَافَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَاجِعًا .

فَلَمَّا كُنْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ إِذَا بِصَاحِحٍ يَصِيحُ بِي : مَعْبُدُ ؛ أَنْتَظِرْ أَكَلْمَكَ ، فَرَجَعْتُ
فَقَالَ لِي : إِنَّ الْغَرِيضَ يَدْعُوكَ ؛ فَأَسْرَعْتُ فَرِحًا ، فَدَنَوْتُ مِنَ الْبَابِ ، فَقَالَ لِي :
أَنْحِبُ الدُّخُولَ ؟ فَقُلْتُ : وَهَلْ إِلَى ذَلِكَ مِنْ سَبِيلٍ ؟ فَفَرَّعَ الْبَابَ فَفُتِحَ ، فَقَالَ لِي
ادْخُلْ وَلَا تُطَلِّ الْجُلُوسَ .

فَدَخَلْتُ فَإِذَا شَمْسٌ طَالِعَةٌ فِي بَيْتٍ ، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّ السَّلَامَ ، ثُمَّ قَالَ : اجْلِسْ
فَجَلَسْتُ ، فَإِذَا أَنْبَلُ النَّاسِ ، وَأَحْسَنُهُمْ وَجْهًا وَخُلُقًا وَخُلُقًا ؛ فَقَالَ : يَا مَعْبُدُ ؛ كَيْفَ

(١) النضو : المهزول من الإبل (٢) قصر إلى نفسي : صغرها في عيني .

حَارَاتُ^(١) إِلَى مَكَّةَ ؟ فَقُلْتُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ ! وَكَيْفَ عَرَفْتَنِي ؟ فَقَالَ : بِصَوْتِكَ ؛
فَقُلْتُ : وَكَيْفَ وَأَنْتَ لَمْ تَسْمَعْهُ قَطُّ ؟ قَالَ : لَمَّا غَنَيْتَ عَرَفْتُكَ بِهِ وَقُلْتُ : إِنْ كَانَ
مَعْبُودٌ فِي الدُّنْيَا فِهَذَا . فَقُلْتُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ ! فَكَيْفَ أَجَبْتَنِي بِقَوْلِكَ :

وَمَا أَنْسَمِ الْأَشْيَاءَ لَا أَنْسَ قَوْلَهَا وَقَدْ قَرَّبْتُ لِسَوِي : أَمِضَرَ تَرِيدُ ؟

فَقَالَ : لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَرِيدُ أَنْ أُنِيعَ لَكَ صَوْتِي :

وَمَا أَنْسَمِ الْأَشْيَاءَ لَا أَنْسَ شَادِنًا بِمَكَّةَ مَكْحُولًا أَسِيلاً مَدَامِعُهُ
وَلَمْ يَكُنْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلٌ ، لِأَنَّهُ صَوْتُ نَهْيٍ أَنْ أُغْنِيَهُ ، فَغَنَيْتُكَ هَذَا
الصَّوْتُ جَوَابًا لِمَا سَأَلْتَ وَغَنَيْتَ ؛ فَقُلْتُ : وَاللَّهِ مَا عَدَوْتُ مَا أُرَدْتُ . فَقَالَ لِي :
يَا أَبَا عَمَّادٍ ؛ لَوْلَا مَلَالَةُ الْحَدِيثِ ، وَثَقُلُ إِطَالَةِ الْجُلُوسِ لَأَسْتَكْرَثْتُ مِنْكَ فَاغْدِرُ .
فَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ ، وَإِنَّهُ لَا جَلَ النَّاسِ عِنْدِي ، وَرَجَعْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ فَتَحَدَّثْتُ
بِحَدِيثِهِ ، وَعَجِبْتُ مِنْ فِطْنَتِهِ وَقِيَّافَتِهِ^(٢) ، فَمَا رَأَيْتُ إِنْسَانًا إِلَّا وَهُوَ أَجَلٌ مِنْهُ
فِي عَيْنِي .

وَذَكَرْتُ جَمِيلًا وَبَشِيرَةً فَقُلْتُ : أَيْتَنِي عَرَفْتُ إِنْسَانًا يُحَدِّثُنِي بِقِصَّةِ جَمِيلٍ وَخَبِيرِ
الشَّعْرِ فَأَكُونُ قَدْ أَخَذْتُ بِفَضِيلَةِ الْأَمْرِ كُلِّهِ فِي الْغِنَاءِ وَالشَّعْرِ ، فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ
فَإِذَا الْحَدِيثُ مَشْهُورٌ ، وَقِيلَ لِي : إِنْ أُرَدْتُ أَنْ تُخَبِّرَ بِخَبْرِهِ فَأَتِ بَنِي حَنْظَلَةَ ، فَإِنَّ
فِيهِمْ شَيْخًا مِنْهُمْ يَقَالُ لَهُ : فُلَانٌ ، يُخَبِّرُكَ الْخَبَرَ .

فَأَتَيْتُ الشَّيْخَ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ : نَعَمْ ؛ يَبْنَا أَنَا فِي إِبِلِي فِي الرَّبِيعِ إِذَا أَنَا بِرَجُلٍ
مُنْظُورٍ عَلَى رَحْلِهِ كَأَنَّهُ جَانٌّ^(٣) ، فَسَلِّمْ عَلَيَّ ، ثُمَّ قَالَ : مَنْ أَنْتَ يَا عَبْدَ اللَّهِ ؟ فَقُلْتُ : أَحَدُ

(١) طَرَاتُ : أَقْبَلَتْ فَجَاءَتْ . (٢) قَافِ الْأَثَرِ قِيَاةٌ : تَتَّبِعُهُ وَعَرَفَهُ (٣) حَيَّةٌ لَا تُؤْذِي كَثِيرَةً

بنى حَنْظَلَةَ ، قال : فانتسبُ ؛ فانتسبتُ حتى بلغتُ إلى فَخِذِي الذي أنا منه ؛ ثم سألني عن بنى عُذْرَةَ أين نزلوا ؟ فقلت له : هل ترى ذلك السَفْح ؟ فإنهم نزلوا من ورائه ؛ قال : يا أخا بني حَنْظَلَةَ ؛ هل لك في خير تصطنعه إليّ ؟ فوالله لو أعطيتني ما أصبحتَ تَسُوق من هذه الإبل ما كنتُ بأشكرَ مني لك عليه ، فقلت : نعم ، ومن أنتَ أوَّلَا ؟ قال : لا تسألني مَنْ أنا ولا أخبرك لو سألتني ؛ غير أنني رجلٌ بيني وبين هؤلاء القوم ما يكونُ بين بني العمِّ ، فإن رأيتَ أن تأتيهم فإنك تجدد القوم في مجلسهم ، فتَنشُدُهُمْ ^(١) بَكْرَةَ أَدْمَاءَ تَجُرُّ خَنِيْهَا غُفْلًا من السَّمة ^(٢) ، فإن ذكروا لك شيئاً فذاك ، وإلا استأذنتهم في البيوت وقلتُ : إن المرأة والصبي قد يريان مالا يرى الرجال فتَنشُدُهُمْ ولا تدع أحداً تصيبه عينك ولا بيتاً من بيوتهم إلا شدتها فيه .

فأتيتُ القومَ فإذا هم على جَزُورٍ ^(٣) يَفْتَسِمُونَهَا ، فسأمتُ وانتسبتُ لهم ونشدتهم ضالتي ، فلم يذكروا لي شيئاً ، فاستأذنتهم في البيوت وقلتُ : إن الصبي والمرأة يريان مالا يرى الرجال ، فأذِنُوا ، فأتيتُ أقصاها بيتاً ، ثم استقرتُها بيتاً بيتاً أنشدتهم فلا يذكرون شيئاً ، حتى إذا انتصفَ النهار ، وآذاني حرُّ الشمس وعطشتُ وفرغتُ من البيوت ، وذهبتُ لأنصرفَ حانتُ مني التفاتةٌ فإذا بثلاثة أبيات فقلت : ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم ، ثم قلت لنفسي : سوءةٌ ! وثِقَ بي رجلٌ ، وزعم أن حاجته تعديل مالي ، ثم آتية فأقول : عَجَزْتُ عن ثلاثة أبيات !

(١) تنشدهم : تناديهم ونسألهم عنها ، والبكرة الفتية من الإبل ، والآدم من الإبل : الأبيض .

(٢) السمة : العلامة ، وغفلاً من السمة : أي ليست فيها علامة (٣) الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى .

فانصرفت عائداً إلى أعظمها بيتاً ، فإذا هو قد أُرْخِيَ مُؤَخَّرُهُ ومقدَّمُهُ ،
 فسلمتُ فرُوداً علىَّ السلام ، وذكرت ضالَّتِي ، فقالت جارية منهم : يا عبدَ الله ؛
 قد أصبتَ ضالَّتَكَ ، وما أظنُّكَ إلَّا قد اشتدَّ عليك الحرُّ ، واشتهيتَ الشراب ؛
 قلت : أجل ؛ قالت : ادخل ؛ فدخلتُ ؛ فأتتني بصَحْفَةٍ فيها تَمْرٌ من تَمْرِ هَجَرَ^(١)
 وقَدَح فيه لبن ، والصحْفَةُ مصرية مُفَضَّضَةٌ ، والقَدَحُ مُفَضَّضٌ لم أرَ إناء قطُّ
 أحسنَ منه ، فقالت : دونك . فتجمَّعتُ وشربتُ من اللبن حتى رَوَيْتُ ، ثم قلتُ :
 يا أمةَ الله ؛ والله ما أتيتُ اليومَ أكرمَ منك ولا أحقَّ بالفضل ؛ فهل ذكرتِ من
 ضالَّتِي شيئاً ؟ فقالت : هل ترى هذه الشجرة فوق الشَّرَفِ^(٢) ؟ قلت : نعم ؛ قالت :
 فإنَّ الشمسَ غَرَبَتْ أمس وهي تُطِيفُ حولها ، ثم حال الليلُ بيني وبينها ؛ فقامتُ
 وجزيتُها الخَيْرَ ، وقلت : والله لقد تغدَّيتُ ورَوَيْتُ .

فخرجتُ حتى أتيتُ الشجرةَ . فأطَفْتُ بها ، فوالله ما رأيتُ من أثر ؛ فأتيتُ
 صاحبي فإذا هو مُتَشَحِّحٌ في الإبلِ بكسائه ورافعٌ عَقِيرَتَهُ^(٣) . فغنى . قلت : السلام
 عليك . قال : وعليك السلام ، ما وراءك ؟ قلت : ما ورأى من شيء ؛ قال : لا
 عليك ! فأخبرني بما فعلتُ ، فاقْتَصَصْتُ عليه القصةَ حتى انتهيتُ إلى ذِكْرِ المرأةِ
 وأخبرته بالذي صَنَعْتُ ؛ فقال : قد أصبتَ طَلِبَتَكَ ؛ فعجبتُ من قوله وأنا لم أجِدْ
 شيئاً .

(١) هجر : بلد باليمن مشهورة بالتمر (٢) الشرف : المكان العالي (٣) عقيرة الرجل :
 صوته إذا غنى أو أبكى .

ثم سألني عن صفة الإناءين : الصَّحْفَةُ والقِدَح ؛ فوصفتها له ، فتنفَّس الصُّعْدَاءُ وقال : قد أصبتَ طلبتك ، وَيَمَّحَكَ ! ثم ذكرتُ له الشجرةَ وأنها رأتها تُطيفُ بها ، فقال : حَسْبُكَ ! فمكثتُ حتى أُوتِ إِبِلِي إلى مَبَارِكها ودعوتهُ إلى العشاء فلم يذُنْ منه ، وجلس مني بِمَزَجَر^(١) الكلب .

فلما ظنَّ أَنِي قد نمتُ رَمَقْتُهُ ، فقام إلى عَيْبَةِ^(٢) له ، فاستخرج منها بُرْدَيْنِ فَأَتَزَّرَ بأحدهما وتردَّى بالآخر ، ثم انطلق عَامِداً نحو الشجرة . واستبطنتُ الوادى فجعلتُ أَخْفِي نفسي ، حتى إِذَا خِفْتُ أَن يراني انبطحتُ ؛ فلم أَزَلْ كذلك حتى سَبَقْتُهُ إلى شجرات قريبة من تلك الشجرة ، بحيثُ أسمعُ كلامَهُما ، فاستترتُ بهنَّ ، وَإِذَا صاحبتُهُ عند الشجرة ، فأقبل حتى كانَ منها غير بعيد ، فقالت : اجلس ؛ فوالله لكانه لَصِقَ بالأرض ، فسَلَّم عليها وسألها عن حالها أَكْرَمَ سؤال ، وأبعده عن كُلِّ رِيبة ، وسألته مثل مسألته ؛ ثم أمرت جارية معها ، فقرَّبَتْ إليه طعاما ، فلما أَكل وفرغ ، قالت : أَنشدني ماقلت ، فأنشدها :

عَلِقْتُ الهَوَى منها وليداً فلم يَزَلْ إلى اليوم يَنْمِي جُبْها وَيَزِيدُ
ثم لم يَزَلْا يتحدَّثان ، مايقولان فُحْشاً ولا هُجْراً ، حتى التفتت التفاتة ، فنظرت إلى الصبح ، فودَّع كُلُّ واحدٍ منهما صاحبه أحسن وداع ما سمعت به قطً ، ثم انصرفا .

فممت فمضيتُ إلى إِبِلِي ، فاضْطَجَعْتُ ، وكلَّ واحدٍ منهما يمشي خطوة ثم يلتفت إلى صاحبه ، فجاء بعد ما أَصْبَحْنَا فرفع بُرْدِيه ثم قال : يَا أَخَا بَنِي تَمِيم ؛ حتى متى

(١) أَي جلس بعيداً (٢) العيبة : وعاء من جلد يكون فيه المتاع .

تَنَامُ ! فَكُنْتُ وَتَوَضَّأتُ وَصَلَيْتُ ، وَحَلَبْتُ إِبِلِي ، وَأَعَانَنِي عَلَيْهَا ، وَهُوَ أَظْهَرُ النَّاسِ
سُرُوراً ، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الْغَدَاءِ فَتَغَدَّيْ ؛ ثُمَّ قَامَ إِلَى عَيْبَتِهِ فَافْتَتَحَهَا فَإِذَا فِيهَا سِلَاحٌ
وَبُرْدَانٌ مِمَّا كَسَتْهُ الْمُلُوكُ ، فَأَعْطَانِي أَحَدَهُمَا وَقَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مَعِيَ شَيْءٌ مِمَّا
ذَخَرْتُهُ عَنْكَ ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثَهُ وَانْتَسَبَ لِي ، فَإِذَا هُوَ جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ وَالْمَرْأَةُ بُثَيْنَةُ ،
وَقَالَ لِي : إِنِّي قُلْتُ أَيْبَاتًا فِي مُنْصَرَفِي مِنْ عِنْدِهَا ، فَهَلْ لَكَ إِنْ رَأَيْتَهَا أَنْ تُنْشِدَهَا ؟
قُلْتُ : نَعَمْ ؛ فَأَنْشَدَنِي :

وَمَا أَنْسَ بِمِ الْأَشْيَاءِ لَا أَنْسَ قَوْلَهَا	وَقَدْ قَرَّبْتُ نِضْوِي : أَمَصَرَ تُرِيدُ ؟
وَلَا قَوْلَهَا لَوْلَا الْعِيُونُ الَّتِي تَرَى	أَتَيْتُكَ فَأَعَذِرْنِي فَدَتَكَ جُدُودُ
خَلِيلِي مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ بَاطِنٌ	وَدَمْعِي بِمَا قُلْتُ الْغَدَاةَ شَهِيدُ
يَقُولُونَ : جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بَغْزَوَةَ	وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ
أَكُلْ حَدِيثَ عِنْدَهُنَّ بِشَاشَةٍ	وَكُلْ قَتِيلَ يَمِينِ شَهِيدُ

ثُمَّ وَدَعْنِي وَانْصَرَفَ

فَكُنْتُ حَتَّى أَخَذْتُ الْإِبِلَ مَرَانِعَهَا ، ثُمَّ عَمَدْتُ إِلَى دُهْنٍ كَانَ مَعِيَ فَدَهَنْتُ
بِهِ رَأْسِي ، ثُمَّ ارْتَدَيْتُ بِالْبُرْدِ وَأَتَيْتُ الْمَرْأَةَ ، فَقُلْتُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ؛ إِنِّي جِئْتُ أَمْسَ
طَالِبًا وَالْيَوْمَ زَائِرًا ، أَفْتَأْذَنُونَ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، فَسَمِعْتُ جُوزَيْرِيَّةً تَقُولُ لَهَا : يَا بُثَيْنَةُ ؛
عَلَيْهِ وَاللَّهِ بُرْدٌ جَمِيلٌ ، فَعَمَلْتُ أَتْنِي عَلَى ضَيْفِي وَأَذْكَرُ فَضْلَهُ ، وَقُلْتُ : إِنَّهُ ذَكَرَكَ
فَأَحْسَنَ الذِّكْرَ ، فَهَلْ أَنْتِ بَارِزَةٌ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْكَ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، فَلَبَسْتُ ثِيَابَهَا ثُمَّ
بَرَزَتْ وَدَعَتْنِي بِطَرَفٍ ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا أَخَا بَنِي تَمِيمٍ ، وَاللَّهِ مَا ثَوْبُكَ هَذَا بِمَشْدَهَيْنِ ،
وَدَعَتْنِي بِعَيْنَيْتَيْهَا ، فَأَخْرَجَتْ لِي مِلْحَفَةً ^(١) مَرْوِيَّةً مُشَبَّعَةً مِنَ الْعَصْفَرِ ، ثُمَّ قَالَتْ :

(١) المِلْحَفَةُ : الْإِبَاسُ الَّذِي فَوْقَ الْإِبَاسِ مِنْ دَنَارِ الْبَرْدِ وَنَحْوِهِ ، وَمَرْوِيَّةٌ : نَسَبَةٌ إِلَى مَرْوٍ .

اقسمت عليك لتقومنَّ إلى كِسْرِ البيت ولتخلعنَّ مِذْرَعَتَكَ^(١) ، ثم كَتَأْتِرَنَّ بهذه الملحفة، فهي أشبه بِرُذْكَ، ففعلتُ ذلك؛ وأخذت مِذْرَعَتِي يَدِي ؛ فجعلتها إلى جانبي، وأنشدتها الأبيات ؛ فدمعتُ ، وتحدثنا طويلاً من النهار ، ثم انصرفتُ إلى إِبْلِ بِمَلْحَفَةٍ بُثِينَةٍ وَبُرْدٍ جَمِيلٍ وَنَظْرَةٍ مِنْ بُثِينَةٍ .

قال معبد : فجزيتُ الشيخ خيراً ، وانصرفت من عنده ، وأنا والله أحسنُ الناس حالاً بِنَظْرَةٍ مِنَ الْغَرِيضِ وَاسْتِمَاعِ لِعَنَائِهِ ، وعلمَ بِمُحَدِّثِ جَمِيلٍ وَبُثِينَةٍ فِيمَا غَنِيْتُ أَنَا بِهِ ، وفيما غَنَى بِهِ الْغَرِيضُ عَلَى حَقِّ ذَلِكَ وَصَدَقَهُ ؛ فَمَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بُزُوجِينَ قَطّاً أَحْسَنَ مِنْ جَمِيلٍ وَبُثِينَةٍ ، وَمَنْ الْغَرِيضُ وَمَنْي .

(١) المدرعة : نوع من الثياب ، ولا تكون إلا من الصوف .

٦٢ - عِتَابُ بَيْنِ بُثَيْنَةَ وَجَمِيلَ*

لَقِيَ جَمِيلٌ بُثَيْنَةَ بَعْدَ تَهَاجُرٍ^(١) كَانَ بَيْنَهُمَا طَالَتْ مُدَّتُهُ ، فَتَعَاتَبَا طَوِيلًا ؛
فَقَالَتْ لَهُ : وَيَمْحُكُ يَا جَمِيلُ ! أَتَزْعُمُ أَنَّكَ تَهْوَانِي وَأَنْتَ الَّذِي تَقُولُ :
رَمَى اللَّهُ فِي عَيْنِي بُثَيْنَةَ بِالْقَذَى وَفِي الْفُرِّ مِنْ أَنْيَابِهَا بِالْقَوَادِحِ^(٢)
فَأَطْرَقَ طَوِيلًا يَبْسُكِي ، ثُمَّ قَالَ : بَلْ أَنَا الْقَاتِلُ :
أَلَا كَلَيْتَنِي أُنْعِمِي أُمِّمْ تَقُودُنِي بُثَيْنَةَ لَا يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا
فَقَالَتْ لَهُ : وَيَمْحُكُ ! مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذِهِ الْمُنَى ! أَوَلَيْسَ فِي سَعَةِ الْعَافِيَةِ
مَا كَفَانَا جَمِيعًا !

* الأغانى : ٨ - ١٠٤

(١) التهاجر : التقاطع . (٢) القوادح : سواد يظهر في الأسنان .

٦٣ - يَذْكُرَانِ الشَّعْرَ وَالْهَوَىٰ *

التقى جميلٌ وكثيرٌ فتذاكرا النسيب ؛ فقال كثير : يا جميل ؛ أترى بُدِينَةَ
لم تسمع بقولك :

يَقِيكَ جَمِيلٌ كُلُّ سُوءٍ ، أَمَا لَهُ	لَدَيْكَ حَدِيثٌ أَوْ إِلَيْكَ رَسُولٌ
وَقَدْ قُلْتُ فِي حُبِّي لَكُمْ وَصَبَابَتِي	مَحْسِنَ شَعْرٍ ذِكْرُهُنَّ يَطُولُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَوْلِي رِضَاكَ فَعَلَّمِي	هُبُوبَ الصَّبَا يَا بَثْنُ كَيْفَ أَقُولُ
فَمَا غَابَ عَنِّي خِيَالُكَ لِحِظَةٍ	وَلَا زَالَ عَنْهَا ، وَالْخِيَالُ يَزُولُ

فقال جميل : أترى عَرَّةً يا كثير لم تسمع بقولك :

يَقُولُ الْعِدَا : يَا عَزُّ قَدْ حَالَ دُونَكُمْ	شَجَاعٌ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ مَصْمٌ (١)
فَقُلْتُ لَهَا : وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ دُونَكُمْ	جَهَنَّمُ مَا رَاعَتْ فَوَادِي جَهَنَّمِ
وَكَيْفَ يَرُوعُ الْقَلْبَ يَا عَزُّ رَائِعٌ	وَوَجْهُكَ فِي الظُّلُمَاءِ لِلسَّفَرِ مَعْلَمٌ
وَمَا ظَلَمْتُكَ النَّفْسُ يَا عَزُّ فِي الْهَوَى	فَلَا تَنْقَمِي حُبِّي فَمَا فِيهِ مَنَقَمٌ

فَبَكِيًّا قِطْعَةً مِنَ اللَّيْلِ ، ثُمَّ انْصَرَفَا .

* الأغانى : ٨ - ١٠٩

(١) يقال للضارب بالسيف إذا أصابه العظم فأخذ الضربة : قد صمم ، فهو مصمم .

٦٤ - لَا أَزَالُ أَبْكِيهِ إِلَى الْمَمَاتِ*

حَدَّثْتُ بُثَيْنَةَ - وَكَانَتْ صَدُوقَةَ اللِّسَانِ ، جَمِيلَةَ الْوَجْهِ ، حَسَنَةَ الْبَيَانِ ،
عَفِيفَةً - قَالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَرَادَنِي جَمِيلٌ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ - بَرِيَّةٌ قَطُّ ، وَلَا حَدَّثْتُ
أَنَا نَفْسِي بِذَلِكَ مِنْهُ ، وَإِنْ الْحَيَّ اتَّجَعُوا مَوْضِعًا ، وَإِنِّي لِنِي هَوْدَجٍ لِي أُسِيرُ إِذَا
أَنَا بِهَاتِفٍ يُنْشِدُ أَيْيَاتًا .

فَلَمْ أَتَمَّالِكْ أَنْ رَمَيْتُ بِنَفْسِي ، وَأَهْلُ الْحَيِّ يَنْظُرُونَ ، فَبَقِيتُ أَطْلُبُ الْمُنْشِدَ
فَلَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ ، فَنَادَيْتُ : أَيُّهَا الْهَاتِفُ بِشَعْرِ جَمِيلٍ ، مَا وَرَاءَكَ مِنْهُ ! وَإِنِّي أَحْسَبُهُ قَدْ
قَضَى نَجْبَهُ وَمَضَى لِسَبِيلِهِ - فَلَمْ يَجِبْنِي مُجِيبٌ ، فَنَادَيْتُ ثَلَاثًا ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ لَا يَرُدُّ
عَلَيَّ أَحَدٌ شَيْئًا ، فَقَالَتْ صَوَاحِبَاتِي : أَصَابَكَ يَا بُثَيْنَةُ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ !
فَقُلْتُ : كَلَّا ، لَقَدْ سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ ! قُلْنَ : نَحْنُ مَعَكَ وَلَمْ نَسْمَعْ ، فَرَجَعْتُ
فَرَكِبْتُ مَطِيتِي وَأَنَا حَيْرَى ، وَالْهَةُ الْعَقْلُ ، كَاسِفَةُ الْبَالِ .

ثُمَّ سَرْنَا ، فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ سَمِعْتُ ذَلِكَ الْهَاتِفَ يَهْتِفُ بِذَلِكَ الشَّعْرِ بِعَيْنِهِ ،
فَرَمَيْتُ بِنَفْسِي ، وَسَعَيْتُ إِلَى الصَّوْتِ ؛ فَلَمَّا قَرُبْتُ مِنْهُ انْقَطَعَ ؛ فَقُلْتُ : أَيُّهَا
الْهَاتِفُ ! ارْحَمْ حَيْرَتِي ، وَسَكِّنْ عَذْرَتِي بِخَبَرِ هَذِهِ الْأَيَّاتِ ؛ فَإِنْ لَهَا شَأْنًا ! فَلَمْ يَرُدِّ
عَلَيَّ شَيْئًا !

فَرَجَعْتُ إِلَى رَحْلي فَرَكِبْتُ وَمِيرَتْ وَأَنَا ذَاهِبَةُ الْعَقْلِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ
لَا تُخْبِرُنِي صَوَاحِبَاتِي أَنَّهُنَّ سَمِعْنَ شَيْئًا .

فلما كانت الليلة القابلة نزلنا وأخذ الحى مضاجعهم ونامت كل عين ، فإذا الهاتف يهتف بى ويقول : يا بئينة ؛ أقبلى إلى أنديك عما تريدن ، فأقبلت نحو الصوت ؛ فإذا شيخ كأنه من رجال الحى ؛ فسألته عن اسمه وبيته ، فقال : دعى هذا ، وخذى فيما هو أهم عليك ، فقلت له : وإن هذا لما يهمنى . قال : اقنعى بما قلت لك . فقلت له : أنت المنشد الأبيات ؟ قال : نعم . قلت : فما خبر جميل ؟ قال : نعم ! فارقته وقد قضى نحبه ، وصار إلى حفرتة - رحمة الله عليه .

فصرخت صرخة أذيت منها الحى ، وسقطت لوجهى ؛ فأغمى على ، فكان صوتى لم يسمعه أحد ، وبقيت سائر ليلتى ، ثم أفقت عند طلوع الفجر ، وأهلى يطلبوننى فلا يفتقون على موصى ، ورفعت صوتى بالعويل والبكاء ورجعت إلى مكانى ، فقال لى أهلى : ما خبرك ؟ وما شأنك ؟ فقصصت عليهم القصة ، فقالوا : يرحم الله جميلاً ، واجتمع نساء الحى وأنشدتهن الأبيات فأسعدتنى بالبكاء^(١) ، فلم نزل كذلك لا يفارقننى ثلاثاً ، وتحزن الرجال أيضاً ، وبكوا ورثوه وقالوا كلهم : يرحمه الله ؛ فإنه كان عفيفاً صدوقاً . فلم أكتحل بعده بأمد^(٢) ، ولا فرقت رأسى بخيط ولا مشط ولا دهنته إلا من صداع خفت على بصرى منه ، ولا لبست خماراً مصبوغاً ولا إزاراً ، ولا أزال كذلك أبسكيه إلى المات !

(١) بكين معى .

(٢) الإمد : حجر يكتحل به .

٦٥- حَيِّ وَيُحْكُ مَنْ حَيَّاكَ يَا جَمَلُ*

أراد زوجُ عَزَّةَ أَنْ يَحْجَّ بِهَا؛ فسمعَ كَثِيرُ الْخَبَرِ؛ فَقَالَ : وَاللَّهِ لِأَحْبَنَ ،
لَعَلِّي أَفُوزُ مِنْ عَزَّةَ بِنَظَرَةٍ .

فبينما الناس في الطَّوَّافِ ، إِذْ نَظَرَ كَثِيرُ عَزَّةَ ، وَقَدْ مَضَتْ إِلَى جَمَلِهِ ، فَحَيَّتَهُ ،
وَمَسَحَتْ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَقَالَتْ : حَيَّيْتَ يَا جَمَلُ ! فَبَادَرَ لِيُلْحَقَهَا ، ففَاتَهُ فَوَقَفَ عَلَى
الْجَمَلِ وَقَالَ :

حَيَّتِكَ عَزَّةُ بَعْدَ الْحَجِّ وَانصرفتُ فحَيِّ وَيُحْكُ مَنْ حَيَّاكَ يَا جَمَلُ
لو كنت حَيَّيْتُهَا مَا زِلْتُ ذَا مِقَّةٍ^(١) عِنْدِي وَلَا مَسَّكَ الْإِدْلَاجُ^(٢) وَالْعَمَلُ
لَيْتَ التَّحِيَّةَ كَانَتْ لِي فَأَشْكُرَهَا مَكَانَ يَا جَمِيلُ حَيَّيْتَ يَا رَجُلُ
فسمعه الْفَرَزْدَقُ ، فَتَبَسَّمَ ؛ وَقَالَ لَهُ : مَنْ تَكُونُ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ! قَالَ : أَنَا كَثِيرُ
عَزَّةَ فَمَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ ! قَالَ : أَنَا الْفَرَزْدَقُ بْنُ غَالِبِ التَّمِيمِيِّ ! قَالَ :
أَنْتَ الْقَائِلُ :

رَحَلْتُ جِهْلًا بِكُلِّ أُسَيْلَةٍ^(٣) تَرَكْتُ فُؤَادَكَ هَائِمًا مَخْبُولًا
لو كنت أملكهم إِذَا لَمْ يَرْحَلُوا حَتَّى أَوْدَعَ قَلْبِي الْمُنْبُولُ^(٤) !
سَارُوا بِقَلْبِي فِي الْخُدُوجِ^(٥) وَغَادَرُوا جِسْمِي بِمَالِجِ زَفْرَةٍ وَعَوِيلًا

* المستطرف : ٢ : ١٧٩

(١) المقة : المحبة (٢) أدلج : سار من أول الليل (٣) أسيل الخد : لين الخد طويله
(٤) المنبول : الذاهب (٥) الجدوج : جمع حدج ، وهو مركب للنساء كالخففة .

فقال الفرزدق : نعم . فقال كُثَيِّرٌ : والله لولا أنى فى البيت الحرام لأصيحنَّ صيحةً أفرعُ هشام بن عبد الملك ، وهو على سريرٍ مُلكِه ؛ فقال الفرزدق :
والله لأعرفنَّ بذلك هشاماً .
ثم تَوادعا وافترقا .

ولما وصل الفرزدقُ إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك ، فعرفه بما اتفقَ له مع كُثَيِّرٍ ، فقال له : اكتبْ إليه بالحضور عندنا لنطلقَ عَزَّةَ من زوجها ونزوجه إياها ، فكتب إليه بذلك .

فخرج كُثَيِّرٌ يريد دمشق ، فلما خرج من حيه وسار قليلاً رأى غراباً على بانهٍ ^(١) ، وهو يفلّ نفسه ، وريشه يتساقط ؛ فاصفرَّ لونه ، وارتاع من ذلك وجدَّ فى السير ، ثم إنه مال ليسقى راحلته من حى بنى نهْدٍ ^(٢) — وهم زَجَرَةُ الطير — فبصر به شيخٌ من الحى ، فقال : يا بنَ أخى ؛ أرايتَ فى طريقك شيئاً فرأىكَ ؟ فقال : نعم يا عمّ ، رأيتُ غراباً يتفلى ويتنفّ ريشه ، فقال له الشيخ : أما الغرابُ فإنه اغتراب ، والبانةُ فرقة !

فازداد كُثَيِّرٌ حزنًا على حُزْنِهِ ، لما سمع من كلام الشيخ ، وجدَّ فى السير ، إلى أن وصلَ إلى دمشق ، ودخل من أحد أبوابها ، فرأى الناس يصلُّون على جنازة ، فنزل وصلى معهم ؛ فلما قضيت الصلاة صاح صائح : لا إله إلا الله ! ما أغفلاك يا كُثَيِّرُ عن هذا اليوم ! فقال له كُثَيِّرٌ : ما هذا اليوم ؟ فقال : إن هذه عزة قد ماتت وهذه جنازتها !

(١) البان : شجر .

(٢) نهْد : قبيلة باليمن ، وهناك رواية أخرى لهذه القصة ، وفيها أنه قدم على حى من « لب »

(انظر : ١ - ١٣٦ من هذا الكتاب ، والأغانى : س ٣٤ ج ٩) .

فخرٌ مغشياً عليه ، فلما أفاق أنشأ يقول :

فما أعرف النهديّ ! لا درّ درّه ! وأزجره للطير لا عزّ ناصره
رأيتُ غراباً قد علا فوق بانهٍ يَنْتِفُ ألى ريشه ويطّيره
فقال : غرابٌ اغترابٍ من النوى وبانهٍ بينٍ من حبيبٍ تعاشره
ثم شهِقَ شهقةً فارقت رُوحهُ الدنيا ، ومات من ساعته ودُفِنَ مع عزّة في
يومٍ واحد .

٦٦- إلى الخلوات يا نَسُ فيكَ قَلْبِي*

قال يونس الكاتب :

كُنَّا يَوْمًا مُتَمَرِّضِينَ بِالْعَقِيقِ أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى حَالِنَا إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَائِشَةَ ^(١) يَمْشِي وَمَعَهُ غُلَامٌ مِنْ بَنِي أَيْثَ ، وَهُوَ مَتَوَكِّئٌ عَلَى يَدِهِ ، فَلَمَّا رَأَى جَمَاعَتَنَا وَتَمَعَّنِي أَغْنَى جَاءَنَا فَسَلَّمَ ، وَجَلَسَ إِلَيْنَا ، وَتَحَدَّثَ مَعَنَا ، وَكَانَتْ الْجَمَاعَةُ تَعْرِفُ سُوءَ خُلُقِهِ وَغَضَبِهِ إِذَا سُئِلَ أَنْ يُغْنَى ، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَحَدَّثُونَ بِأَحَادِيثٍ كَثِيرٍ وَجَمِيلٍ وَغَيْرِهَا مِنَ الشُّعْرَاءِ ، يَسْتَجِرُّونَ بِذَلِكَ أَنْ يَطْرَبَ فِيغْنَى ، فَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَهُ مَا أَرَادُوا .

فَقُلْتُ لَهُمْ : لَقَدْ حَدَّثَنِي الْيَوْمَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ حَدِيثًا يَا كُلُّ الْأَحَادِيثِ ، فَإِنْ شِئْتُمْ حَدَّثْتُكُمْ إِيَّاهُ ؛ قَالُوا : هَاتِ ، قُلْتُ : حَدَّثَنِي هَذَا الرَّجُلُ أَنَّهُ مَرَّ بِنَاحِيَةِ الرَّبَذَةِ ^(٢) فَإِذَا صَبِيَّانِ يَتَغَاطِسُونَ فِي غَدِيرٍ ، وَإِذَا شَابٌّ جَمِيلٌ مِنْهُوكَ الْجِسْمِ ، عَلَيْهِ أَثَرُ الْعِلَّةِ ، وَالنُّحُولُ فِي جَسَمِهِ بَيِّنٌ ، وَهُوَ جَالِسٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ وَقَالَ : مَنْ أَيْنَ وَضَحَ ^(٣) الرَّاكِبُ ؟ قُلْتُ : مِنَ الْحِمَى ، قَالَ : وَمَتَى عَمْدُكَ بِهِ ؟ قُلْتُ : رَائِحًا ، قَالَ : وَأَيْنَ كَانَ مَمِيلَتِكَ ؟ قُلْتُ : بِبَنِي فُلَانٍ ،

* سَمَطُ اللَّاتِي : ١ - ١٥٢ ، ٢ - ٢٣٢ ، الْأُمَالِي : ٣٨

(١) هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَائِشَةَ ، يَتَّى أَبِي جَعْفَرٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ لَهُ أَبَ ، فَكَانَ يَنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ ، وَكَانَ حَسَنَ الْقَنَاءِ ، عَالِمًا بِفَنِّهِ ، طَرِيفَ الْجُلُوسِ ، طَيِّبَ الْحَدِيثِ عَلَى سُوءِ خُلُقِهِ ، وَتِيهِ فِي طَبْعِهِ ، تَوَفَّى نَحْوَ سَنَةِ ١٠٠ هـ (٢) الرَّبَذَةُ : قَرْيَةٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ (٣) أَيُّ مِنْ أَيْنَ بَدَأَ وَطَلَعَ .

فقال : أَوَّه ! وألقى بنفسه على ظهره ، وتنفس الصعداء فقلت : إنه قد خرق
حجاب قلبه ، ثم أنشأ يقول :

سقى بلداً أمست سُلَيْمَى تَحُلُّهُ من المزنِ ما يَرَوَى به وبُسَيْمِ (١)
وإن لم أكن من قاطنِيهِ فإنه يَحُلُّ به شخصٌ على كريمٍ
ألا حَبْذاً مَنْ ليس يَعْدِلُ قُرْبَهُ لدى - وإن شطَّ المزارُ - نعيمٍ
ومَنْ لا مَنِي فيه حميمٌ وصاحبٌ فرُدَّ بغيظٍ صاحبٌ وحميمٌ
ثم سكن كالمغشى عليه ، فصاحت بالصَّديَّة ، فأتوا بماء ، فصبَّته على وجهه ،
فأفاق وأنشأ يقول :

إذا الصَّبُّ الغريبُ رأى خُشوعِي وأنفاسِي تَزِينُ بالخشوعِ
ولى عَيْنٌ أَضْرَّ بِهَا التِفَانِي إلى الأجزاء (٢) مُطلقةَ الدموعِ
إلى الخَلَوَاتِ يَأْنَسُ فِكْ قَلْبِي كما أُنِسَ الغريبُ إلى الجميعِ
فقلتُ له : ألا أنزلُ فأساعدك ، أو أكرِّ عَوْدِي على يَهْدِي إلى الحمى إن
كانتُ لك فيه حاجة أو رسالة ؟ فقال : جُزيتَ خيراً وصحَّبتك السلامة ! امضِ
لِطَيْبَتِكَ (٣) ، فلو أنى علمتُ أنك تُغْنِي عني شيئاً لكنتُ موضعاً للرَّغبة وحقيقاً
بإسعاف المسألة ، ولسكنتُ أدركتني في صُبابة من حياتي بسيرة ، فانصرفتُ وأنا
لا أراه يُمسي ليلته إلا سَيَّاً .

فقال القوم : ما أتجب هذا الحديث ! واندفع ابنُ عائشة فتغنى في الشَّعْرَيْنِ
جميعاً ، وطرب وشرب بقية يومه ، ولم يزل يغنينا إلى أن انصرفنا .

(١) بسيم : يكون سالماً لا سامة بما يكون من خصب وكلاء (٢) الأجزاء جمع جزع : وهو
جانب الوادي ومنعطفه (٣) لطيتك : لوجهتك

٦٧ - مَنْ لَمْ يُقَيِّدْ جَوَارِحَهُ أَثَقَبَ قَلْبَهُ !*

جَبَّجَ عبد الملك بن مَرْوَانَ ، وَحِجَّ مَعَهُ خَالِدٌ^(١) بن يزيد بن معاوية - وكان من رجالِ قريشِ العدودين وعلماهم ، عَظِيمَ القدر ، جليلَ المنزلة ، مهيبَ المجلس ، موقراً مُعَظَّماً عند عبد الملك ، فبينما هو يطوفُ بالبيتِ إذ بَصُرَ بِرَمْلَةٍ بنت الزبير ابن العوام . فمَشَقَّهَا عِشْقاً شديداً ، وأخذت بجميع قلبه ، وتغيَّرَ عليه الحال ، ولم يملك من أمره شيئاً ، فلما أراد عبد الملك القولَ هَمَّ خالد بالتخلفِ عنه ، فبعث إليه فسأله عن أمره ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ رَمَلَةٌ بنت الزبير رأيتها تطوفُ بالبيتِ ، فأذهَلَتْ عَظْمِي ! فوالله ما أبديتُ لك ما بى إلا حين عَيلَ صبرى ، ولقد عَرَضْتُ النَوْمَ على عيني فلم تقبله ، والسَّلوَى على قلبي فامتنع منه . . .

فأطال عبد الملك التعجُّبَ من ذلك ، وقال : ما كنتُ أقول : إن الهوى يَسْتَأْسِرُ مثلك ، فقال خالد : وإني لأشدُّ تعجباً من تعجبك مني ، فلقد كنتُ أقول : إن الهوى لا يَتِمَكَّنُ إلا من صِنْفَيْنِ من الناس : الأعراب والشعراء ، أما الشعراء فإنهم أَلْزَمُوا قُلُوبَهُم الفُكْرَ في النساءِ والفُزْلَ ، فمال طبعُهم إلى النساءِ ، فضُمَّتْ قُلُوبُهُنَّ عن دفعِ الهوى ، فاستسلموا له مُنْقَادِينَ . وأما الأعراب فإنَّ أَحَدَهُمْ يَخْلُو بِأَمْرَأَةٍ فلا يكونُ الغالبُ عنده إلا حُبُّهُ لَهَا .

وجملةُ أمري : أني ما رأيتُ نظراً حَسَنَةً عندى رُكُوبَ الإثمِ مثلَ نظرتي هذه .

* محاضرات الأبرار : ٢ - ٢٦ ، الأغاني : ١٦ - ٨٥ .

(١) هو خالد بن يزيد كان من رجال قريش سخاء وعارضة وفصاحة ، وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ، فأفنى بذلك عمره ، وأُخِلَّ ذكره ، توفي سنة ٨٥ هـ .

فتبسم عبد الملك وقال : أوكل هذا بئغ بك ؟ فقال : والله ما عرفت هذه
البليّة قبل وقتي هذا .

فوجه عبد الملك إلى آل الزبير يخطب رَمْلَةً على خالد ، فذكروا لها ذلك ،
فقالت : لا والله أو يطلّق نساءه ، فطلّق امرأتين كانتا عنده ، وتزوجها ، وظمن بهما
إلى الشام ، وفيها يقول :

أليس يزيد السّيرُ في كلّ ليلة	وفي كلّ يومٍ من أحبّينا قُرْباً
أحنّ إلى بنتِ الزبير وقد عدتْ	بِنا العيسُ خرقاً ^(١) من تهمامة أو نقباً ^(٢)
إذا نزلت أرضاً تُحبُّ أهلها	إلينا وإن كانت منازلها حرباً
وإن نزلت ماء وإن كان قبلها	مُليحاً ^(٣) وجدنا ماءه بارداً عذباً
تجولُ خلاخيلُ النساءِ ولا أرى	لرَملةٍ خلخالاً يجولُ ولا قلباً ^(٤)
أقِلُّوا على اللومِ فيها فإني	تخبرتها منهم زيرية قلباً ^(٥)
أحبُّ بنى العوام طراً لحبها	ومن حبها أحببتُ أخوالها كلباً

فلما وقف عبد الملك على هذه الأبيات نظم بيتاً ودّسه ليكيد به خالداً ؛ لأنه
كان يروم الخلافة كأيّيه يزيد وجدّه معاوية ، فقال عبد الملك : يا خالد ؛
أنت القائل :

فإن تُسلمي أسلم وإن تَنصَري تخطّ رجالٌ بين أعينهم صلباً
فقال خالد : لعن الله قائله ! فخرّج عبد الملك ولام نفسه .

(١) الخرق : الفلاة الواسعة (٢) النقب : الطريق في الجبل (٣) المليح : الملح ، ضد
العذب (٤) القلب : سوار المرأة ، يريد أن ساقها مليئة ، ويدها عبلة ، فلا سبيل إلى الجول
(د) فلها صفات النساء الحسان ، كما سبق ، ولها قلب كقلوب آل الزبير طهارة ، وحفاظ عهد .

٦٨- غداً يكثر الباكون منا ومنكم *

قال أبو رِيحانة حاجب عبد الملك ^(١) بن مروان : كان عبد الملك يجلس في كل أسبوع يومين جلوساً عاماً للناس ؛ فبينما هو جالس في مُسْتَشْرِفٍ ^(٢) له ، وقد أُدْخِلَتْ عليه القِصَصُ إذ وقعت في يده قصة ، فيها : « إن رأى أمير المؤمنين أن يأمرَ جاريته فلانة أن تغنيني ثلاثة أصوات ؛ ثم يُنفِذَ في ما شاء من حكمه فعل ! » .

فاستشاط من ذلك غضبا ، وقال : يا رَبَّاح ؛ علىِّ بصاحب هذه القصة ! فخرج الناس جميعاً ، وأدخل عليه غلامٌ من أجمل الفتيان وأحسنهم ، فقال له عبد الملك : يا غلام ؛ أهذه قصَّتُك ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : وما الذي غرَّكَ مني ، والله لأمثلنَّ بك ! ولأزدعنَّ بك نظراءك من أهل الجسارة ! ثم قال : علىِّ بالجارية ، فجيء بها كأنها فليقة قمر ! وبيدها عودها فطرح لها الكرسي ، فحاست ، فقال عبد الملك : مرها يا غلام ؛ فقال لها : غنِّيني يا جارية بشعر قبس ابن ذريح :

لقد كنتِ حَسْبَ النفس ، لودام وُدُّنا ؛ ولسكنما الديننا متاعُ غرور !
وكُنَّا جميعاً قبل أن يَظْهَرَ الهوى بأنعمِ حَالٍ غبطةٍ وسُرورِ
فما بَرِحَ الواشوان حتى بَدَتْ لنا بطونُ الهوى مقلوبةً لِظُهُورِ

* مصارع العشاق : ٢٥٣ ، نهاية الأرب : ٢ - ١٦٠

(١) عبد الملك بن مروان : من أعظم الخلفاء ، نشأ في المدينة فقيهاً واسع العلم وتوفي سنة ٨٦ هـ

(٢) استشرف الشيء : رجع بصره إليه ، والمكان مستشرف ، والراء مجلب العالي ،

فَفَتَتْ ، فَخَرَجَ الْغَلَامُ بِجَمِيعِ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الثِّيَابِ تَخْرِيقًا ، ثُمَّ قَالَ لَهُ
عَبْدُ الْمَلِكِ : مُرْهَا تَفَنِّكَ الصَّوْتِ الثَّانِي ، فَقَالَ : غَنَّنِي بِشِعْرِ جَمِيلٍ :

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي ! هَلْ أُبَيِّنُ لَيْلَةً بَوَادِي الْقَرَى ؟ إِنِّي إِذْنُ لَسَعِيدُ !
إِذَا قُلْتُ : مَا بِي يَا بُثَيْنَةَ قَاتِلِي مِنْ الْحُبِّ أَقَالَتْ : ثَابِتٌ وَزَيْدُ
وَأِنْ قُلْتُ : رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أُعِشْ بِهِ مَعَ النَّاسِ أَقَالَتْ : ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ !
فَلَا أَنَا مَرُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ
يَمُوتُ الْمَوَى مَنَى إِذَا مَا لَقَيْتُهَا ، وَبِحِمَا إِذَا فَارَقْتُهَا فَيَعُودُ
فَفَتَتْهُ الْجَارِيَةُ : فَسَقَطَ الْغَلَامُ مَغْشِيًا عَلَيْهِ سَاعَةً ، ثُمَّ أَفَاقَ ؛ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ :

مُرْهَا فَلْتَفَنِّكَ الصَّوْتِ الثَّالِثَ ؛ فَقَالَ : يَا جَارِيَةُ ؛ غَنَّنِي بِشِعْرِ قَيْسِ بْنِ الْمُلُوحِ :
وَفِي الْجَيْدَةِ الْغَادِينَ مِنْ بَطْنِ وَجْرَةٍ ^(١) غَزَالٌ غَضِيبُ الْمُقْلَتَيْنِ رَبِيبُ
فَلَا تَحْسَبِي أَنَّ الْغَرِيبَ الَّذِي نَأَى وَلَكِنْ مَنْ تَنَأَيْنَ عَنْهُ غَرِيبُ !
فَفَتَتْهُ الْجَارِيَةُ ، فَطَرَحَ الْغَلَامُ نَفْسَهُ مِنَ الْمُسْتَشْرِفِ ، فَلَمْ يَصِلْ إِلَى الْأَرْضِ
حَتَّى تَقَطَّعَ ؛ فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : وَيْمُوهَ ! لَقَدْ عَجَّلَ عَلَى نَفْسِهِ ! وَلَقَدْ كَانَ تَقْدِيرِي فِيهِ
غَيْرَ الَّذِي فَعَلَ ! وَأَمْرًا فَأَخْرَجَتْ الْجَارِيَةُ مِنْ قَصْرِهِ ؛ ثُمَّ سَأَلَ عَنْ الْغَلَامِ ؛ فَقَالُوا :
غَرِيبٌ لَا يُعْرَفُ إِلَّا أَنَّهُ مِنْذُ ثَلَاثِ يَنَادِي فِي الْأَسْوَاقِ وَيَدُّهُ عَلَى رَأْسِهِ :
غَدًا يَكْثُرُ الْبَاكُونَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَتَزْدَادُ دَارِي مِنْ دِيَارِكُمْ بُعْدًا !

(١) وجرة : موضع بين مكة والبصرة .

٦٩- وَذُو الشُّوقِ الْقَدِيمِ وَإِنْ تَعَزَّى

مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَ *

بيننا عُمر^(١) بن أبي ربيعة يطوفُ بالبيت في حالٍ نُسكه - وكان قد حلف
ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رَقبة - فإذا هو بشابٍ قد دنا من شابة ظاهرة الجمال
فالتقى إليها كلاماً ، فقال له عمر : يا عدو الله ؛ في بلد الله الحرام وعند بيته تصنعُ
هذا ! فقال : يا عمّاه ؛ إنها ابنةُ عمي ، وأحبُّ الناس إليّ ؛ وإني عندها لكذلك ،
وما كان بيني وبينها من سوء قط أكثر مما رأيتَ ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا
فلان ابن فلان ، قال : أفلا تتزوَّجُها ؟ قال : أبى عليّ أبوها . قال : : وإم ؟ قال :
يقول : ليس لك مال ؛ فقال : انصرف والقني .

فلقيه بعد ذلك ، فدعا بيّفلته فركبها ؛ ثم أتى عمّ القتي في منزله فخرج إليه ،
وفرّح بمجيئه ، ورحّب وقرب ، ثم قال : ما حاجتك يا أبا الخطاب ؟ قال : لم أرك
منذ أيام فاشتقتُ إليك ! قال : فانزل . فانزله وألطفه^(٢) ، فقال له عُمر في بعض
حديثه : إني رأيتُ ابنَ أخيك فأعجبني ما رأيتُ من جماله وشبابه ، قال له :
أجل ! ما يغيّبُ عنك أفضلُ مما رأيت ؛ قال : فهل لك من ولد ؟ قال : لا ، إلا

* الأغاني : ١ - ١٢٥ ، المحاسن والأضداد : ٣٥٩ ، العقد الفريد : ١ - ٩

(١) كان عمر بن أبي ربيعة أشعر قرش ، ولكنه اختص في شعره بوصف النساء ، ولم يصف
سواهن ، وله في التشبيب طريقة عرفت باسمه سلكها الشعراء ، وشبّب بكثيرات من النساء ، توفي
سنة ٩٣ هـ (٢) ألطفه : برّه .

فلانة . قال : فما يمنعك أن تزوجه إياها ؟ قال : إنه لا مال له ، قال : فإن لم يكن له مال فلك مال ، قال : فإني أضين به عنه . قال : لكني لا أضين به عنه ، فزوجه واحتسبكم ، قال : مائة دينار ، قال : نعم ! فدفعتها عنه ، وتزوجها الفتى .

وانصرف عمر إلى منزله ، فقامت إليه جارية من جواريه ، فأخذت رداءه ، وألقى بنفسه على الفراش وجعل يتقلب ، فأتته بطعام فلم يتعرض له ؛ فقالت له : إن لك لأمرأ ، وأراك تريد أن تقول شعراً ، فقال : هاتى الدواء ، فكتب :

تقول وليدتي لما رأيتني	طربت ^(١) وكنت قد أقصرت ^(٢) حيناً
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً	وهاج لك الهوى داء دفيناً
وكنت زعمت أنك ذو عزاء	إذا ما شئت فارقت القربى
بربك هل أتاك لها رسول	فشأقك أم لقيت لها خدينا ^(٣) ؟
قلت : شكاً إلى أخ يحب	كـبعض زماننا إذ تعلينا
فقص على ما يلقى بهند	فذكر بعض ما كنا نسينا
وذو الشوق القديم وإن تعزى	مـشوق حين يلقى العاشقينا
وكم من خلة ^(٤) أعرضت عنها	لغير قلى وكنت بها ضئيفاً
أردت بمآداه فصدت عنها	ولو جنّ الفؤاد بها جنونا

ثم دعا نسمة من رقيقه فأعتقهم لكل بيت واحد !

(١) طربت : حزنت (٢) أقصرت : نزلت عنه وأنا قادر عليه ، وكفت (٣) الخدين : الصديق ، ومنه الخدين ، وهو محدث الجارية ، وكانت العرب لا يمتنعون من خدن محدث الجارية ، فجاء الإسلام بهدمه (٤) الخلة : الخيلة .

٧. قضى كلُّ ذي دينٍ فوقَ غريميه

وعزّةٌ ممطولةٌ معنّى غريميها*

كان أول علاقة كثير^(١) بعزّة أنه خرج من منزله خلفَ غنمٍ يسوقها إلى الجار^(٢)؛ فلما كان بالحبّ^(٣) وقفَ على نسوةٍ من بني ضمرة؛ فسألهنَّ عن الماء؛ فقلنَ لعزّة - وهي جاريةٌ حينَ كعب^(٤) تذيهاها : أرشديه إلى الماء ، فأرشدتهُ وأعجبته .

فبينما هو يسقى غنمه إذ جاءتْهُ عزّةٌ بدراهم ، فقالت : يقلنَ لك النسوةُ : بعنا بهذه الدراهم كبشاً من ضأنك . فأمرَ الغلامَ فدفعَ إليها كبشاً ، وقال لها : ردّي الدراهمَ وقولي لمن : إذا رحتُ بكُنْ اقتضيتُ حقّي .

فلما راح مرّ بهنَّ ، فقلنَ له : هذا حقك فخذ . فقال : عزّةٌ غريمي ، ولستُ أقتضى حقّي إلا منها . فزحّن معه ، وقلنَ : ويحك ! عزّةٌ جاريةٌ صغيرة ، وليس فيها وقاءٌ لحقك فأحلهُ على إحدانا ، فإننا أملاً به وأمرعُ له أداً . فقال : ما أنا بمُحيلٍ حقّي عنها . ومضى لوجهه ، ثم رجع إليهن حين فرغ من بيع جَلَبِه^(٥) فأنشدهن فيها :

* الأغاني : ٩ - ٢٥

(١) هو كثير بن عبد الرحمن ، كان رافضياً شديداً التعصب لآل أبي طالب ، ومعهشوقته عزّة بنت حميد من ضمرة ، وكانت من أجل النساء وآدبهن وأعقلهن ، ويقال إنه لم ير لها وجهاً ، إلا أنه استهم بها لما ذكر له عنها ، توفي سنة ١٠٥ هـ . (٢) الجار : موضعٌ بساحل البحر قريب من المدينة . (٣) الحبّ : الوادي العميق الضيق . (٤) نهدي تذيهاها . (٥) الجلب : ما جلب من الحيوان .

نظرتُ إليها نظرةً وهي عَاتِقٌ^(١) على حين أن شَبَّتْ وبَآتَ نُهْودُهَا
وقد دَرَّعَوهَا^(٢) وهي ذاتُ مُؤَصَّدٍ^(٣) حُجُوبٍ^(٤) ولَمَّا يَلْبَسِ الدَّرْعَ رِيْدُهَا^(٥)
من الخَفِرَاتِ البِيضِ وَدَّ جَلِيْسُهَا إذا ما أَتَقَضَتْ أُحْدُوْتُهُ لَرْتِيْدِهَا
وقال :

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوَفَى غَرِيْمَهُ وَعَزَّةٌ مَمْطُولٌ مُعْنَى غَرِيْمُهَا
فقلن له : أَيْتَ إِلَّا عَزَّةٌ ! وَأَبْرَزْنَهَا إِلَيْهِ وَهِيَ كَارِهَةٌ . ثُمَّ أَحْبَبَتْهُ عَزَّةٌ بِمِثْلِ ذَلِكَ
أَشَدَّ مِنْ حُبِّهِ إِيَّاهَا .

(١) العاتق : الجارية أول ما تدرك (٢) الدرع : التقيس (٣) المؤصد : صدار تلبسه
الفتاة الصغيرة فإذا أدركت درعت (٤) الحُجُوب : الذي له حجب (٥) الربد : التراب والند .

٧١ - تَغْنِيهِ فَيَمُوتُ*

كانت بالمدينة قَيْنَةٌ من أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا ، وَأَكْلَهُمْ عَقْلًا ، وَأَفْضَلَهُمْ أَدْبًا ،
قَرَأَتِ الْقُرْآنَ وَرَوَتِ الْأَشْعَارَ ، وَتَعَلَّمَتِ الْعَرَبِيَّةَ ، فَوَقَعَتْ عِنْدَ يَزِيدَ^(١) بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ،
فَأَخَذَتْ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ ؛ فَقَالَ لَهَا ذَاتَ يَوْمٍ : وَيْحَكَ ! أَمَا لَكَ قَرَابَةٌ أَوْ أَحَدٌ يَحْسُنُ
أَنْ أَصْطَنِعَهُ ، أَوْ أُسَدِّىَ إِلَيْهِ مَعْرُوفًا ؟ قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَمَا قَرَابَةٌ فَلَا ،
وَلَكِنْ بِالْمَدِينَةِ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ كَانُوا أَصْدِقَاءَ لِمَوْلَايَ ، كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ يَنَالَهُمْ مِنْ خَيْرِ
مَا صَرْتُ إِلَيْهِ .

فَكَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ بِالْمَدِينَةِ فِي إِشْخَاصِهِمْ ، وَأَنْ يُعْطِيَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَشْرَةَ
آلَافٍ دِرْهَمٍ ، وَأَنْ يُعَجِّلَ بِسَرَّاحِهِمْ إِلَيْهِ .

فَفَعَلَ عَامِلُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ ؛ فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى بَابِ يَزِيدَ اسْتَأْذَنُوا ، فَأُذِنَ لَهُمْ ،
وَأَكْرَمَهُمْ ، وَسَلَّمَهُمْ حَوَائِجَهُمْ ؛ فَأَمَّا الْاِثْنَانِ فَذَكَرَا حَوَائِجَهُمَا فَقَضَاهَا لَهَا ؛ وَأَمَّا الثَّلَاثُ
فَسَأَلَهُ عَنْ حَاجَتِهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مَا لِي حَاجَةٌ . قَالَ : وَلِمَ ؟ أَلَسْتُ أَقْدِرُ
عَلَى حَوَائِجِكَ ؟ قَالَ : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنْ حَاجَتِي لَا أَحْسِبُكَ تَقْضِيهَا ، قَالَ :
وَيْحَكَ ! فَسَلْنِي فَإِنَّكَ لَا تَسْأَلُنِي حَاجَةً أَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا قَضَيْتُهَا ، قَالَ : وَلِي الْأَمَانُ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَكَرَامَةٌ . قَالَ : إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَأْمَرَ جَارِيَتَكَ فَلَانَةَ

* المقد الفريد : ٤ - ١٢٥

(١) يزيد بن عبد الملك : من ملوك الدولة الأموية في الشام ، ولد في دمشق ، وتوفي بها سنة ١٠٥ هـ .

التي أكرمتمنّاهما أن تفنّيني ثلاثة أصوات أشربُ عليها ثلاثة أرطال فافعل .
فتغيّر وجهُ يزيد ؛ وقام من مجلسه - فدخل على الجارية ، فأعلمها ، فقالت :
وما عليك يا أمير المؤمنين ! افعل ذلك ، فلما كان من الغد أمر بالفتى فأحضّر ، وأمر
بثلاثة كراسي من ذهب فألقيت ، فقام يزيد على أحدها ، وقعدت الجارية على
الآخر ، وقعد الفتى على الثالث ، ثم دعا بطعام فتغدّوا جميعا ، ثم دعا بصنوف
الرياحين والطيب فوضّعت ، ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت ، ثم قال للفتى : قل
مابدا لك ، وسل حاجتك ، قال : تأمرها أن تغنى :

لا أستطيع سؤلوا عن مودّتها أو يصنع الحبُّ بي فوق الذي صنعاً
أدعو إلى هجرها قلبي فيسعدني حتى إذا قلت : هذا صادق نزاعاً
فأمرها ففنّنت ؛ فشرب يزيد ، وشرب الفتى ، ثم شربت الجارية ، ثم أمر
بالأرطال فملئت ، ثم قال للفتى : سل حاجتك . قال : تأمرها أن تغنى :
تخيّرتُ من نعمان ^(١) عودَ أراك لهند ، ولكن من يبلغه هنّدا
ألا عرجاً بي ، بارك الله فيكما وإن لم تكن هند لأرضكما قصداً
فغنّت بهما ، وشرب يزيد ، ثم الفتى ، ثم الجارية . ثم أمر بالأرطال فملئت ،
ثم قال للفتى : سل حاجتك . قال : يا أمير المؤمنين ، مرّها تغنى :

منّا الوصالُ ومنكم الهجرُ حتى يفرّق بيننا الدهر
والله ما أشـلـوكم أبداً ما لاح نجمٌ أو بدا فجرُ

(١) نعمان : اسم لواء .

فلم تأت على آخر الآيات حتى خرّ الفتي مَغْشِيًا عليه . فقال يزيد
للجارية : انظري ما حاله ؟ فقامت إليه ، فخرّ كته فإذا هو ميت ، فقال لها :
ابكيه . قالت : لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حيّ . قال لها : ابكيه ،
فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك ؛ فبَكَتْهُ ، وأمر بالفتى فأحسن تجهازه
ودفنه ^(١) !

(٢) روى أن مثل هذا حصل مع جارية لارشيد (انظر صفحة ١٦٣ ج ٢ من نهاية الأرب) .

٧٢ - فَاضَتْ نَفْسُهَا عَلَيْهِ*

قال محمد بن قيس :

وجئني عاملُ المدينة إلى يزيد بن عبد الملك - وهو إذ ذاك خليفة - فلما خرجتُ عن المدينة إذا أنا بامرأةٍ جالسة على الطريق ، وشابٌّ نائم ، وهو يتلوَّى ، ورأسه يسقط في حجرها ، وكما سقط أعادته مكانه . فسلمتُ ، فردت السلام - والشابُّ مشغولٌ بنفسه - فسألتهَا عنه ، فقالت : يا عبدَ الله ؛ هل لك في الأجر والثَّوبة ؟ فقلت : لا أبغى سواهما .

قالت : هذا ولدي ، وكانت له ابنةٌ عمٌ تربياً معها ، وشُغِفَتْ به ، وشُغِفَ بها ، وعلم بذلك أبوها ، وعلم بها أهلُ المدينة ؛ فحجَّ بها عنه ، وكان يأتي الموضعَ والخباء^(١) فيبكي ، ثم خطبها من أبيها ، فأبى أن يزوجه ؛ لأنَّه يرى ذلك عيباً ، أن تزوج امرأةٌ لرجل كان يحبُّها . ثم خطبها رجلٌ غيره ؛ فزوجها أبوها منه منذ خمسة أيام ، وهو على ما ترى ؛ لا يأكل ولا يشرب ولا يعقل ، فلو نزلت إليه ، وتحدثت معه ووعظته وسلَّيتمهُ ، فاعله يسكنُ إلى حديثك ، ويتقوَّتُ بشيء من الطعام !

قال محمد : فنزلتُ ودنوتُ منه ، وتلظفتُ به ؛ فرجعتُ إلى طرفه وقال بصوت

حزين :

* المختار من نوادر الأخبار ، نهاية الأرب : ٢ - ١٨٧
(١) الخباء من الأبنية ، يكون من وبر أو صوف أو شعر .

أَلَا مَا لِلْمَلِيحَةِ لَا تَعُودُ ؟ أَبْجَلُ بِالْمَلِيحَةِ أَمْ صَدُودُ ؟
 مَرَضْتُ فَعَادَنِي أَهْلِي جَمِيعًا فَمَا لَكَ لَا نَرَى فَيَمُنْ يَعُودُ !
 فَقَدْ تَكُ بَيْنَهُمْ فَبَكَيْتُ شَوْقًا ، وَقَدْ الْإِلْفُ يَأْسَلُنِي شَدِيدُ
 وَمَا اسْتَبْطَأْتُ غَيْرَكَ فَأَعْلَمِيهِ وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي رَحْمَى عَدِيدُ
 فَلَوْ كُنْتُ الْمَرِيضَةَ كُنْتُ أَسْعَى إِلَيْكَ وَلَمْ يُنْهِنِيهِنَّي الْوَعِيدُ !

ثم سكن ، فنظرت المرأة إلى وجهه وصرخت : وقالت : والله فاضت نفسه !
 قالتها والله ثلاث مرات . فغشيتني من ذلك همٌّ وغمٌ . ولما رأت العجوز ما حلَّ بي
 عليه من الحزن قالت : يا ولدي ؛ هوِّن عليك ، والله لقد استراح مما كان فيه ،
 عاش بأجلٍ ، وما به بقدرٍ ، وقدم على ربِّ كريم ، واستراح من تباريحِهِ وعُجَصِهِ ،
 فهل لك في استكمال الأجر ؟ قلت : قولي ما أحببت ، قالت : هذا الحى منك
 قريبٌ ، فإن رأيتَ أنْ تمضى إليهم تنعِّيه لهم ، وتسألهم الحضورَ ليُعيِّنوني على
 مَوَارَاتِهِ فافعل .

قال محمد : فركبت وأتيت الحى ، فنعيتُهُ لهم ، وأخبرتُهُم بصورةِ أمرِهِ ، فبينما
 أنا أدور في الحى إذا أنا بامرأةٍ خرجت من خِيَابِهَا تَجْرُ خِثَارَهَا ، ناشرةً شَعْرَهَا ،
 فقالت لى : أيُّهَا النَاعِي ؛ مَنْ تَنْعَى ؟ فقلت : فلان ، فقالت : بالله عليك ، مات !
 قلت : نعم ، قالت : هل سمعت منه شيئاً قبل موته ؟ قلت : نعم رأيتها الشعر ،
 فاستمبرت باكياً ، وأنشأت تقول :

عَدَانِي أَنْ أَزُورَكَ يَا حَبِيبِي مَعَاشِرُ كُلِّهِمْ وَاشِ حَسُودُ
 أَشَاعُوا مَا عَلِمْتَ مِنَ الرِّزَايَا وَعَابُونَا ، وَمَا فِيهِمْ رَشِيدُ

فَأَمَّا إِذْ تَوَيْتَ الْيَوْمَ لِحَسَدٍ فَدَوَّرُ النَّاسِ كُلُّهُمْ لِحُودٍ

فَلَا طَابَتْ لِي الدُّنْيَا حَيَاةً وَلَا سَحَّتْ لِي الْأَرْضُ الرَّعْدُودَ

ثم خرجت مع القوم ، وهى تَوَلَّوْا حَتَّى اتَّهَبْنَا إِلَى الْغَلَامِ ، ففلسناه ، وصلينا عليه ودفناه ، فلما تفرقنا عن قبره جعلت تصرخ وتلطم .

ثم ركبْتُ ومضيتُ ، وهى على تلك الحال . فأتيت يزيدَ بنَ عبد الملك وناولته الكتاب ، فسألنى عن أمورِ الناس وما رأيته فى طريقى ، فأخبرته الخبر ، فقال لى : يا محمد ؛ امضِ الساعةَ قبل أن تَشْتَغِلَ فى غير هذا حتى تمرَ بأهلِ الفتى وبنى عمه وتمضى بهم إلى عاملِ المدينة ، فتأمره أن يُثَبِّتَهُمْ فى شَرَفِ العطاء ، وإن كان أصابَ الجارية ما أصابه فافعلْ بأهلِها كما فعلت بأهله ؛ وارجع حتى تخبرنى بالخبر ، وتأخذ جوابَ الكتاب .

قال محمد : فخرجت حتى انتهيتُ إلى قبرِ الغلام ، فوجدتُ بجانبه قبراً آخر فسألتُ عنه ، فقالوا : هذا قبرُ الجارية ، لم تزل تصرخ وتلطم حتى فاضت نفسها ، ودُفِنَتْ بجانبه ، فدفعْتُ أهلهما ومضيتُ بهم إلى عاملِ المدينة ، فأثبتَهُمْ فى شرفِ العطاء ، وعدت فأخبرته ، فأجازنى على ذلك جائزةً حسنة .

٢٣- يَمُوتَانِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ*

قال أبو مالك الراوية :

تَمَعْتُ الْفَرَزْدَقَ^(١) يَقُولُ : أَبَقَ^(٢) غَلَامَانِ لِرَجُلٍ مَنَّا يُقَالُ لَهُ الْخِضِرُ ، فَخَدَّثَنِي قَالَ : خَرَجْتُ فِي طَلِبِهِمَا ، وَأَنَا عَلَى نَاقَةٍ عَيْسَاءَ كَوْمَاءَ^(٣) أُرِيدُ الْيَمَامَةَ ، فَلَمَّا صَرْتُ فِي مَاءٍ لِبْنِي حَنِيفَةً ارْتَفَعَتْ سَحَابَةٌ فَرَعَدَتْ وَبَرَقَتْ وَأَزْخَتْ عَزَا لِيهَا^(٤) ؛ فَعَدَلْتُ إِلَى بَعْضِ دِيَارِهِمْ وَسَأَلْتُ الْقَرَمِيَّ ؛ فَأَجَابُوا .

فَدَخَلْتُ دَارًا لَهُمْ ، وَأَتَخْتُ النَّاقَةَ ؛ وَجَلَسْتُ تَحْتَ ظِلِّ^(٥) لَمْ مِنْ جَرِيدِ النَّخْلِ ، وَفِي الدَّارِ جُوزِيرِيَّةٌ لَهُمْ سُودَاءُ ؛ فَدَخَلْتُ جَارِيَةً كَأَنَّهَا سَبِيكَةٌ فَضَّةٌ ، وَكَأَنَّ عَيْنَيْهَا كَوَكَبَانِ دُرِّيَّانِ ؛ فَسَأَلْتُ الْجَارِيَةَ : لِمَنْ هَذِهِ الْعَيْسَاءُ ؟ « تَعْنِي نَاقَتِي » . فَقَالَتْ : لَضَيْفِكُمْ هَذَا .

فَعَدَلْتُ إِلَى فَقَالَتْ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ، فَرَدَدْتُ عَلَيْهَا السَّلَامَ ؛ فَقَالَتْ لِي : مِمَّنَّ الرَّجُلُ ؟ فَقُلْتُ : مِنْ بَنِي حَنْظَلَةَ . فَقَالَتْ : مِنْ أَيِّهِمْ ؟ قُلْتُ : مِنْ بَنِي نَهْشَلٍ . فَتَبَسَّمتْ وَقَالَتْ : أَنْتِ إِذْنُ مَنْ عَنَاهُ الْفَرَزْدَقُ بِقَوْلِهِ .

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ^(٦) السَّمَاءَ بَنَى لَهَا يَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

* الْأَقَاْنِي : ٨ - ٤٤

(١) الْفَرَزْدَقُ : هَمَامُ بْنُ غَالِبٍ ، مِنْ صَعْمَةِ ، شَاعِرٌ عَظِيمُ الْأَثَرِ فِي الْاَلْفَةِ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْأَخْبَارِ مَعَ جَرِيرٍ وَالْأَخْطَلِ ، تَوَفَّى سَنَةَ ١١٠ هـ ، (٢) أَبَقَ الْعَبْدُ : هَرَبَ (٣) الْعَيْسَاءُ مِنْ الْإِبِلِ : الَّتِي يُضْرَبُ لَوْنُهَا إِلَى الْأَدَمَةِ ، وَالْكَوْمَاءُ ، عَظِيمَةُ السَّتَامِ طَوِيلَتُهُ (٤) الْعَزَالِي : جَمْعُ عَزْلَاءَ ، وَالْعَزْلَاءُ فِي الْأَصْلِ : مُصَبُّ الْمَاءِ مِنَ الْقَرْبَةِ وَالرَّاءِيَةِ (٥) الظَّلَّةُ : الشَّيْءُ يَسْتَرْبِيهِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ (٦) سَمَكَ السَّمَاءَ : رَفَعَهَا .

بيتاً بناه لنا المليك وما بنى ملك السماء فإنه لا ينقل
 بيتاً زرارة محتب بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل^(١)
 فقلت : نعم ، جعلت فداك ! وأعجبنى ما سمعت منها . فضحكت وقالت :
 فإن ابن الخطمي^(٢) قد هدم عليكم بيتكم هذا الذي فخرتم به حيث يقول :
 أخزى الذي رفع السماء مجاشعاً وبني بناءك بالحضيض الأسفل
 بيتاً يحمم قينكم^(٣) بفنائه دنساً مقاعده خبيث المدخل
 فوجئت .

فلما رأت ذلك في وجهي ؛ قالت : لا عليك ! فإن الناس يقال فيهم ويقولون .
 ثم قالت : أين تؤم^(٤) ؟ قلت : اليمامة . فتنفست الصمءاء ؛ ثم قالت : هاهي تلك
 أمامك ؛ ثم أنشأت تقول :

تذكرني بلداً خير أهل بها أهل المروءة والكرامة
 ألفتني الإله أجش صوباً^(٥) يسح بدره بسلك اليمامة
 وحياً بالسلام أبا نجيد فاهل للتحية والسلامة

قال : فأنست بها وقلت لها : أذات خدين أم ذات بعل ؟ فأنشأت تقول :
 إذا رقد النيام فإب عمراً تورقه الهوم إلى الصباح
 تقطع قلبه الذكرى وقلبي فلا هو بالخلي ولا بصاح
 سقى الله اليمامة دار قوم بها عمرو يحن إلى الرواح

(١) زرارة ومجاشع ونهشل : من سادة تميم ، قوم الفرزدق .
 (٢) جرير (٣) يحمم : يسخن ، والقين : الحداد ، يشير إلى أن مجاشعاً قبيلة الفرزدق كانت
 قبونا لعبد كان لصمصمة بن ناجية ، فنسب جرير غالباً أبا الفرزدق إلى القين (٤) تقصد .
 (٥) الصوب : بجى السماء بالمطر ، والأجش : الصوت المرتفع .

فقلت لها : مَنْ عمرو هذا ؟ فأنشأت تقول :

سألت ، ولو علمت كَفَقْتَ عنه وَمَنْ لك بالجوابِ سوى الخبير ؟
فإنَّ تَكُ ذا قَبُولٍ إنَّ عمراً هو القمرُ المضيءُ المستنير^(١)
ومالي بالتَّبَعْل^(٢) مُستراحٌ ولورَدَّ التَّبَعْلُ لى أسيرى
ثم سَكَتَتْ سَكَنَةً كأنها تتسمع إلى كلامٍ ، ثمَّ تَهَاوَتَتْ^(٣) وأنشأت تقول :
يُخَيِّلُ هَيَا عمرو بن كَعْبٍ كأنك قد حُمِلْتَ على سريرِ
يسير بك المَوْبِئِ القُومُ لَمَّا رماك الحبُّ بالعلق^(٤) العسير
فإنَّ تَكُ هـكذا يا عمرو إني مُبَكَّرَةٌ عليك إلى القبورِ
ثم شَهَقَتْ شَهَقَةً فَخَرَّتْ مَيِّتَةً .

فقلتُ لم : مَنْ هذه ؟ فقالوا : هذه عَقِيلَةُ بنتُ الضحاك . فقلتُ لهم : فمن عمرو
هذا ؟ قالوا : ابنُ عمها ، فارتحلت من عندهم .

فلما دخلتُ اليمامةَ سألتُ عن عمرو هذا ؛ فإذا هو قد دُفِنَ في ذلك الوقت
الذى قالت فيه ما قالت !

(١) في البيت إقواء ، وهو اختلاف حركة الروى (٢) تبعلت المرأة : أماءت بعلمها أو تزينت له
(٣) تساقطت من ضعفها وخورها (٤) العلق : الهوى ، يكون للرجل في المرأة .

٧٤- رَحَلَتْ مِيَّهَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الدِّيَارُ*

قال أبو صالح الفزاري : تَذَكَّرْنَا يَوْمًا ذَا الرُّمَّةِ^(١) ؛ فقال لنا عِصْمَةُ بْنُ مَالِكٍ الفزاري - وكان قد بلغ عشرين ومائة سنة : إِيَّايَ فَاسْأَلُوا عَنْهُ ؛ كَانَ حُلُوَ الْعَيْنَيْنِ خَفِيفَ الْعَارِضِينَ ، بَرَّاقَ الثَّنَايَا ، وَاضِحَ الْجَبِينِ ، حَسَنَ الْحَدِيثِ ، إِذَا أَنْشَدَ بَرَّبَرٌ وَجَشَّ صَوْتُهُ^(٢) .

جمعني وإياه مُرْتَبِعٌ^(٣) مرةً ، فَأَنَانِي فَقَالَ لِي : هَيَّا عِصْمَةُ ، إِنَّ مِيَّةً مِّنْقَرِيَّةً وَمِنْقَرٌ أَخْبَثُ حَيٍّ ، وَأَقْوَفُهُ^(٤) لَأَثَرٌ ، وَأُثْبِتُهُ فِي نَظَرٍ ، وَقَدْ عَرَفُوا آثَارَ إِبِلِي ، فَمَنْ مِّنْ نَّاقَةٍ نَزْدَارُ عَلَيْهَا مِيَّةٌ ؟ قُلْتُ : إِي وَاللَّهِ ؛ الْجَوْذَرُ ، بِنْتُ يَمَانِيَّةٍ لَجْدِي لِي . فَقَالَ : عَلَيَّ بِهَا .

فَاتَبَتْهُ بِهَا فَرَكَبَ وَرَدِفَتْهُ ، حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى مَنْزِلٍ مَيٍّ ؛ فَإِذَا الْحَيُّ خُلُوفٌ^(٥) ، فَأَمَهَلْنَا وَتَقَوَّضَ النِّسَاءُ مِنْ يَبُوتِهِنَّ إِلَى بَيْتِ مَيٍّ ، وَإِذَا فِيهِنَّ ظَرِيفَةٌ جَمَّهَتْهُنَّ فَتَزَلْنَا بِهَا ؛ فَقَالَتْ : أَنْشَدْنَا يَا ذَا الرُّمَّةَ ؛ فَقَالَ : أَنْشَدَهُنَّ يَاعِصْمَةُ - وَكَانَ عِصْمَةُ رَاوِيَةً - فَأَنْشَدْنَهُنَّ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

* المحاسن : ٢٢٤ ، العقد : ٤ - ٣٦٦ ، الأغاني : ١٦ - ١٢٤ ، المصارع : ١٣٧

ذيل الأمل : ١٢٤ ، تزيين الأسواق : ١٩

(١) ذو الرمة : هو غيلان بن عقبة الكنانى ، كان شاعراً رقيقاً خبيراً بأحوال العشق ، والرمة : حبل يحمل في عنق البعير ، وكان كثيراً ما يجعله في عنقه ، ولذلك سمي به ، وصاحبه مية بنت مقاتل الملقى . وكان كثير المدح لبلال بن أبي بردة ، وكان أحسن شعراء عصره تشبيهاً ، كما مرى . القيس في الجاهلية . توفي سنة ١١٧ هـ (٢) البربرة : التخليط في الكلام مع غضب وغور . والأجش : القليظ الصوت (٣) المرتبع : الموضع الذي ينزل فيه أيام الربيع (٤) من كاف الأثر : إذا عرفه (٥) خلوف : غائبون .

نظرتُ إلى أظمان^(١) مَيَّ كأنها ذُرَا النخلِ أوْ أَثْلُ تَمِيلِ ذوائبه
فَأَسْبَلَتِ العَيْنانِ والصدرُ كَأَنَّمْ بِمُغْرَوْرِقِ نَمَتْ عليه سوا كبه
بكاء الفتى خافَ الفراق ولم تَجُلْ جَوَائِلُهَا أسرارُه ومَعَانِيه
فَقَالَتِ الظريفة : فالآن فلتَجُلْ ! فقالت لها مَيَّة : قاتلك الله ؟ ما تجيبين به
مُنْذَ اليوم ؟ ثم أنشدتُ حتى بلغتُ إلى قوله :
إذا سرحتُ من حُبِّ مَيَّ سَوَارِحْ عَنِ القلبِ آبَتُهُ بَلِيلِ عَوَازِيهِ
فَقَالَتِهَا الظريفة : قتلته ، قاتلك الله ! فقالت مَيَّة : إنه لصحيح ،
وهنيئاً له .

فتنفّس ذو الرُّمّة تنفّساً كَادَ يُطِيرُ حَرُّ شَعْرَةِ وَجْهِهِ ، ثم أنشدتُ حتى بلغتُ
إلى قوله :

وَقَدْ حَلَفْتُ بِاللّهِ مَيَّةُ مَا الَّذِي أَحَدَثْتُهَا إِلَّا الَّذِي أَنَا كَاذِبُهُ
إِذَنْ فَرَمَانِي اللّهُ مِنْ خَيْثُ لَا أَرَى وَلَا زَالَ فِي أَرْضِي عَدُوٌّ أَحَارِبُهُ
فَقَالَتِ مَيَّةُ : خَفَ عَوَاقِبَ اللّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ يَا غِيَّالَانَ ، ثم أنشدتُ حتى بلغتُ
إلى قوله :

إِذَا نَازَعْتُكَ الْقَوْلَ مَيَّةُ أَوْ بَدَا لَكَ الْوَجْهَ مِنْهَا أَوْ نَضَا الدَّرْعَ سَالِبُهُ
فِيَا لَكَ مِنْ خَدَرٍ أَسِيلٍ وَمَنْطِقٍ رَخِيمٍ وَمِنْ خَلْقٍ تَعَلَّلَ جَادِيهِ^(٢)
فَقَالَتِ الظريفة : هذا الوجهُ قد بَدَا ، وهذا القولُ قد تُنْزِعُ فِيهِ ؛ فَمِنْ لَنَا أَنْ
يَنْضُو الدَّرْعَ سَالِبُهُ ؟ فقالت مَيَّة : مَا أَنْسَكِرَ مَا تَجِيبِينَ بِهِ مِنْذَ الْيَوْمِ !

(١) أظمان : جمع ظمينة : الهودج كانت فيه امرأة أم لا (٢) الجادب : العائب ، ويريد أن الناظر إليها لا يجد في خلقها مضراً ؛ فيتعلل بالباطل ، وبالشئ بعينه وليس بعيب .

فقامت الظريفة وقمن معها ؛ فقالت : دَعُوهم ؛ فَإِنْ لَمْ لَشَأْنَا ؛ فقامت فجلست ناحية ؛ وجلسا بحيث نَراهما ولا نسمع من كلامهما إلا الحرفَ بعد الحرف ، ووالله ما رأيتُهما بِرِحا من مكانهما ، وسمعتها تقول له : كذبت ، فوالله ما أدري ما الذى كَذَبَتْه فيه إلى الساعة .

ثم خرج ومعه قارورة فيها دُهن وقلائد ، فقال : يا عِصْمَةُ ؛ هذه دُهْنَةٌ طيبة اتخفئنا بها مى ، وهذه قلائد قلدها مى الجؤذر^(١) ، ولا والله لا قلدهن بعيراً أبدا ، فمقدهن فى ذُؤابة سيفه ، وانصرفنا .

فلما كان بعدُ أتانى ، فقال : هَيَّا عِصْمَةُ ؛ قد رحلت مى ، فلم يبق إلا الديار والنظر فى الآثار ؛ فانهمض بنا ننظر إلى آثارها ، فركب وتبعته ؛ فلما أشرف على المُرْتَبَع قال :

ألا يَا اسلمى يا دَار مى على البلى ولا زال مُهْلاً^(٢) بجر عَائِكَ^(٣) القطرُ
وإن لم تكونى غَيْرَ شامٍ^(٤) بقفْرِى تجرُّ بها الأذيالَ صَيْفِيَّةً^(٥) كدُرٍ^(٦)
ثم انفضحت عيناه بالبكاء ؛ فقلت : مَهْ يا ذا الرمة ! فقال : إني لجلدٌ على ما ترى ، وإني لصَبُور !

فما رأيت أشدَّ صبايةً ، ولا أحسنَ عزاء منه .
ثم افترقنا ؛ فكان آخرَ العهد به .

(١) اسم الناقة التى سارا عليها (٢) مهلاً : نازلاً (٣) الجرعاء : الرمة المستوية لانتبت شيئاً .
(٤) الشام : جمع شامة ، وهو بقعة تخالف لون الأرض (٥) الصيفية : رياح الصيف .
(٦) الكدر : جمع كدراء ، وهى التى فى لونها غبرة .

٧٥- صَبَابَةُ ابْنِ الطَّشْرِية*

أَصَابَ النَّاسَ سَنَةٌ وَجَدُّبٌ ، فَأَقْبَلَ جَمَاعَةٌ مِنْ جَرَمٍ^(٢) يَرِيدُونَ بَنِي قُشَيْرٍ ،
وَكَانَتْ بَيْنَهُمَا عَدَاوَةٌ وَحَرْبٌ عَظِيمَةٌ ، وَلَكِنْهُمْ لَمْ يَجِدُوا بُدًّا مِنْ ذَلِكَ ، لَمَّا قَدَّ
سَاقَهُمْ مِنَ الْجَدُّبِ وَالْجَمَاعَةِ وَرَقَّةِ الْأَمْوَالِ ، وَمَا أَشْرَفُوا عَلَيْهِ مِنَ الْهَلَاكَةِ ،
فَنَصَبَتْ^(٣) قُشَيْرٌ لِمِ الْهَرَبِ . فَقَالَتْ جَرَمٌ : إِنَّمَا جِئْنَا مُسْتَجِيرِينَ غَيْرَ مُحَارِبِينَ .
قَالُوا : مِمَّ ؟ قَالُوا : مِنَ السَّنَةِ وَالْجَدُّبِ وَالْهَلَاكَةِ الَّتِي لَا بَاقِيَةَ لَهَا . فَأَجَارَتْهُمْ قُشَيْرٌ
وَسَالَمَتْهُمْ وَأَرْزَعَتْهُمْ طَرَفًا مِنْ بِلَادِهَا .

وَكَانَ فِي جَرَمٍ فَتًى يُقَالُ لَهُ مَيَّادُ الْجَرَمِيِّ ، وَكَانَ غَزِيلاً حَسَنَ الْوَجْهِ تَامَ
الْقَامَةِ ، آخِذاً بِقُلُوبِ النِّسَاءِ - وَالْفَزْلُ فِي جَرَمٍ جَائِزٌ حَسَنٌ ، وَهُوَ فِي قُشَيْرٍ نَائِرَةٌ^(٤) .
فَلَمَّا نَازَلَتْ جَرَمٌ قُشَيْرٌ وَجَاوَزَتْهَا أَصْبَحَ مَيَّادُ الْجَرَمِيِّ يُغْدُو إِلَى الْقُشَيْرِيَّاتِ يَطْلُبُ
مِنْهُنَّ الْفَزْلَ وَالصَّبَا وَالْحَدِيثَ عِنْدَ غَيْبَةِ الرِّجَالِ ، وَاشْتَغَلَهُمُ بِالسَّقَى وَالرَّغْمَةِ وَمَا أَشْبَهَ
ذَلِكَ ، فَدَفَعَتْهُ عَنْهُنَّ وَأَسْمَعَتْهُ مَا يَكْرَهُ .

وَرَأَتْ رِجَالَهُنَّ عَلَيْهِنَّ وَهُنَّ مُغْضَبَاتٌ ؛ فَقَالَتْ عَجَائِزُ مِنْهُنَّ : وَاللَّهِ مَا نَذَرِي

* الْأَغَانِي : ٨ - ١٥٧ .

(١) اسْمُهُ يَزِيدُ بْنُ الْعَصَةِ ، وَالطَّشْرِيةُ أُمُّهُ ، كَانَ حَسَنَ الْوَجْهِ وَالشَّعْرِ ، حَلَوَ الْحَدِيثَ ، غَزَا آخِذاً
بِقُلُوبِ النِّسَاءِ ، وَقَدْ أَحَبَّ امْرَأَةً مِنْ جَرَمٍ ، وَقَاسَى فِي سَبِيلِهَا مِنَ الْوَجْدِ مَا قَاسَى مِثْلُهُ مِنَ الْمُتَمِيمِينَ
فِي الْحُبِّ ، وَنَظَّمَ فِيهَا الشَّعْرَ الرَّقِيقَ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٢٦ هـ (٢) بَطْنٌ فِي طِيءٍ (٣) نَصَبَ لَهُ
الْحَرْبُ : وَضَعَهَا (٤) النَّائِرَةُ : الْعِدَاوَةُ وَالشُّعْنَاءُ ، أَيْ أَنَّ الْفَزْلَ فِي قُشَيْرٍ سَبَبُ الْعِدَاوَةِ .

أَرْعَيْتُمْ جَرْمًا الْمَرْعَى أَمْ أَرْعَيْتُمُوهُمْ نِسَاءَكُمْ أَفَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا : وماذا ؟
قُلْنَا : رجل منذ اليوم ظلُّ مُجْجِرًا ^(١) لَنَا مَا يَطْلُعُ مِنَّا رَأْسُ وَاحِدَةٍ ، يَدُورُ
بَيْنَ بَيْوتِنَا .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَيِّتُوا جَرْمًا فَاضْطَلِمُوا ^(٢) . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَبِيحٌ . قَوْمٌ قَدْ
سَقَيْتُمُوهُمْ مِيَاهَكُمْ ، وَأَرْعَيْتُمُوهُمْ مَرَاعِيَكُمْ ، وَخَلَطْتُمُوهُمْ بِأَنْفُسِكُمْ ، وَأَجَرْتُمُوهُمْ
مِنَ الْقَحْطِ وَالسَّنَةِ ، تَفْتَاتُونَ ^(٣) عَلَيْهِمْ هَذَا الْاِفْتِيَاءُ لَا تَفْعَلُوا وَلَكِنْ لَتُصْبِحُوا ^(٤)
وَتَقْدَمُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؛ فَإِنَّهُ سَفِيهٌُ مِنْ سُفْمَانِهِمْ ، فَلْيَأْخُذُوا عَلَى
يَدَيْهِ ؛ فَإِنْ يَفْعَلُوا فَأَتَمُّوا لَكُمْ إِحْسَانَكُمْ ، وَإِنْ يَمْتَنِعُوا وَيُقِرُّوا مَا كَانَ مِنْهُ يَحِلُّ
لَكُمْ الْبَسْطُ ^(٥) عَلَيْهِمْ ، وَتَخْرُجُوا مِنْ ذِمَّتِهِمْ . فَأَجْمَعُوا عَلَى ذَلِكَ .

فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدًا نَفَرَ مِنْهُمْ إِلَى جَرْمٍ فَقَالُوا : مَا هَذِهِ الْبِدْعَةُ الَّتِي قَدْ
جَاوَرْتُمُونَا بِهَا ! إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْبِدْعَةُ سَجِيَّةً لَكُمْ فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدَنَا إِرْعَاءٌ وَلَا
إِسْقَاءٌ ، فَأَبْعِدُوا عَنَّا أَنْفُسَكُمْ ، وَأَذْنُوا ^(٦) بِحَرْبٍ . وَإِنْ كَانَ افْتِيَاءً فَغَيِّرُوا ^(٧) عَلَى
مَنْ قَعَلَهُ .

فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ جَرْمٍ فَقَالُوا : مَا هَذَا الَّذِي نَالَكُمْ ؟ قَالُوا : رَجُلٌ مِنْكُمْ
أَمْسَ ظَلٌّ يَجْرُ أَذْيَالُهُ بَيْنَ أَيْيَاتِنَا ، مَا نَدْرِي عَلَامَ كَانَ أَمْرُهُ ! فَقَهَقَتْ جَرْمٌ مِنْ
جَفَاءِ الْقُشَيْرِيِّينَ وَعَجَزَتْهَا وَقَالُوا : إِنَّكُمْ لَتُحْسِنُونَ مِنْ نِسَائِكُمْ بِيَلَاءٍ ، أَلَا فَايْبَعَثُوا
إِلَى بَيْوتِنَا رَجُلًا وَرَجُلًا .

(١) من أججره ، إذا ألزمه أن يدخل ججره (٢) استأصلوها (٣) افتات عليه : اختلق
عليه الباطل (٤) اللام لام الأمر (٥) بسط يده عليه : ساط عليه (٦) كونوا على علم
بحرب (٧) فغيروا : أي ازجروه وأنكروا عليه ما فعله .

فقالوا : والله ما نحسُّ من نساينا ببلاء ، وما نعرفُ منهن إلا العفة والكرم ، ولكن فيكم الذي قلم .

قالوا : فإننا نبعث رجلاً إلى بيوتكم ، يا بني قشير ، إذا غدت الرجال وأخلف النساء ، وتبعثون رجلاً إلى البيوت ، وتتحالف أنه لا يتقدّم رجلٌ منا إلى زوجة ولا أخت ولا بنت ، ولا يُغلّغها بشيء مما دار بين القوم ؛ فيظلُّ كلاهما في بيوت أصحابه حتى يردّا علينا عشيّاً الماء وتُخلّى لهما البيوت ، ولا تبرز عليهما امرأة ، ولا تُصادق منهما واحداً إلا بموثقٍ يأخذه عليها وعلامة تكون معه منها !

قالوا : اللهم نعم . فظلُّوا يَوْمَهُم ذلك وباتوا ليلتهم ، حتى إذا كان من الغد غدّوا إلى الماء وتحالفوا أنه لا يعودُ إلى البيوت منهم أحدٌ دون الليل .

وغداً ميّاد الجرّمي إلى القشيريات ، وغداً يزيد بن الطثيرة القشيريّ إلى الجرّميات ، وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم حديثاً ؛ فظلَّ عندهن بأكرم مَظَلٍّ لا يصيرُ إلى واحدة منهن إلا افتتنَتْ به ، وتابعتْهُ إلى المودة والإخاء ، وقبض منها رهنًا ، وسألته ألا يدخل من بيوت جرّم إلا بيتها ؛ فيقول لها : وأيّ شيء تخافين وقد أخذتِ عنى الموائيق والمعهود ، وليس لأحد في قلبي نصيب غيرك ، حتى صُلّيت العصر .

فانصرف يزيدُ بفتح^(١) كثير وبراقيع ، وانصرف مكحولاً مذهبوناً شعبان ريان مرَّجَلِ الألة^(٢) . وظل ميّاد يدورُ بين بيوت القشيريات مرجوماً مُقصي

(١) الفتح واحد فتحة ، وهي حلقة من فضة لا فم لها فإذا كان فيها فم فهي الخاتم
(٢) الألة : الشعر المجاور لشحمة الأذن .

لا يتقربُ إلى بيتٍ إلا استقبلته الولايدُ بالعمدِ^(١) والجندل ؛ فتهاكَّ لهنَّ ، وظنَّ أنه ارتيادٌ^(٢) منهنَّ له ، حتى أخذهُ ضربٌ كثير بالجندل ، ورأى اليأسَ منهنَّ ، وجهده العطشُ ؛ فانصرف حتى جاء إلى سَمُرَةٍ^(٣) قريباً إلى نصف النهار ؛ فتوسَّدَ يده ونامَ تحتها نَوِيمةً حتى أَفْرَجَتِ عنه الظهيرة ، وفاءت الأظلال ، وسكن بعضُ ما به من ألمِ الضرب ، وبرَّدَ عطشه قليلاً .

ثم قرب إلى الماء حتى وردَ على القوم قبلَ يزيدَ ، فوجد أمةً تَذودُ غنماً في بعض الظعن^(٤) ، فأخذ بُرْقُمَهَا ، فقال : هذا برقع واحدة من نسائكُم ، فطرحه بين يدي القوم ، وجاءتِ الأمةُ تَعْدُو فتعلقتُ ببرقُعها فرُدَّ عليها ، وخجل مبادٌ خجلاً شديداً .

وجاء يزيدُ مُمَسِّياً وقد كاد القوم أن يتفرَّقوا ، فنَزَرَ كُمَهُ بين أيديهم ملآنَ براقع وفتنخا ، وقد حلفَ القومُ ألا يعرف رجل شيئاً إلا رفعه .

فلما نثر مامعه اسودَّت وجوه جَرُم ، وأمسكوا^(٥) بأيديهم إمساكة . فقالت قُشَيْر : أتم تعرفون ما كان بيننا أمس من العهود والمواثيق وتخرج الأموال والأهل ؛ فمن شاء أن ينصرف إلى حرام فليُمسِكْ يده ، فبسط كلُّ رجل يده إلى ما عَرَفَ فأخذه ، وتفرَّقوا عن حَرْب ؛ وقالوا : هذه مكيدة يا قُشَيْر .

وبلي يزيد بعشق جارية من جَرُم في ذلك اليوم يقال لها وَحْشِيَّة ، وكانت من أحسن النساء . وناقرتهم جَرُم فلم يجدوا إليها سبيلاً ، فصار من العشق إلى أن

(١) العمدة : قضبان الحديد (٢) ارتياد : طلب (٣) السمرة : شجرة عظيمة (٤) الظعن : سبيل البادية للنخلة (٥) يريد أنهم قبضوا بأيديهم ، ولم يعدوها إلى شيء مما نثر أمامهم .

أشرف على الموت ، واشتدَّ به الجهدُ ، فجاء ابنُ عم له يقال له : خليفة بن بوزل ،
بعد اختلاف الأطباء إليه ويأمِّهم منه ، فقال له : يا ابن عمِّ ؛ قد تعلمُ أنه ليس إلى
هذه المرأة سبيل ، وأن التعزِّيَ أجمل ، فما أربك في أن تقتل نفسك وتأثم
عند ربك !

قال : وما همِّي يا ابن عمِّ بنفسى ومالى فيها أمر ولا نهى ؛ ولا همِّي إلا نفس
الجرّمية ؛ فإن كنت تريد حياتى فأرنيها . قال : كيف الحيلة ؟ قال : تحملنى
إليها ؛ فحمله إليها وهو لا يطعمُ فيها ، إلا إهم كانوا إذا قالوا له نذهب بك إلى
وحشيّة أبلّ قليلا ، وإذا أيس منها اشتدَّ به الوجع .

فخرج به خليفة بن بوزل فحمله فتخلل به اليمين ، حتى إذا دخل في قبيلة
انتسب إلى أخرى وهو يخبر أنه طالب حاجة . وأبلّ حتى صلح بعض الصلاح ؛ وطمع
فيه ابن عمه ، وصارا بعد زمان إلى حى وحشيّة ، فلقيا الرُعَيان ^(١) ، وكَمَفا
في جبلٍ من الجبال . فجمع خليفة يَنْزِلُ فيتعرَّض لرعيانِ الشاء فيسألهم عن
راعى وحشيّة ، حتى لقي غلامها وغنمها ؛ فواعدهم موعداً ، وسألهم ما حالُ وحشيّة ؟
فقال غلامها : هى والله بشرٌ ! لا حفظ الله بنى قشير ولا يوماً رأيناها فيه ! فما زالت
عليه منذ رأيناها - وكان بها طرفٌ ممّا بابن الطَّثْرِيَّة .

فقال : وَيَحْك ! فإن هاهنا إنساناً يدَاوِيها ، فلا تقل لأحد غيرها . قال : نعم
إن شاء الله تعالى .

فأعلمها الراعى ما قال له الرجل حين صار إليها ، فقالت له : ويحك ! فجيء به .
ثم إنه خرج فاتميه ، فأعلمه ، وظلَّ عنده يرعى غنمه ، وتأخر عن الشاء حتى
تقدمته الشاء وجنح الليل ، وانحدر بين يدي غنمه ، حتى أراحها . ومشى فيها يزيد
حين قرئت من البيت على أربع ، وتجللَ شملة سوداء بلون شاة من الغنم !
فصار إلى وحشية ، فبررت به سروراً شديداً ، وجمعت عليه من تثق به من
صواحباتها وأترابها ؛ وقد كان عهد إلى ابن عمه أن يقيم في الجبل ثلاث ليال ، فإن لم
يرَهُ فليَنصَرِف .

فأقام يزيد ثلاث ليال ، ورجع إلى أصح ما كان عليه ، ثم انصرف فصار
إلى صاحبه . فقال : ما وراءك يا يزيد ؟ ورأى من سروره وطيب نفسه ما سره .
فقال :

لو أنك شاهدت الصبا يابن بوزل	بفرع الغضا إذ راجعتني غياطه ^(١)
لشاهدت لهواً بعد شحط من النوى	على سخط الأعداء حلواً شمائله
بنفسي من لو مر برؤد بنائه	على كبدي كانت شفاء أنامله
ومن هجني في كل أمر وهبته	فلا هو يفتيني ولا أنا سائله

(١) الغياطل : جمع غيطلة ، وهي الظلمة التراكمة ، استعارها هنا لجهالات الصبا .

٧٦- مَعْبِدُ الصَّغِيرِ وَأَحَدُ الْعُشَّاقِ*

قال مَعْبِدُ^(١) الصغير المُنْفَى : كنتُ منقَطِعاً إلى البرامكة آخذُ منهم وألزمهم؛
فبينما أنا ذات يوم في منزلي إذا بابي يدُقُّ ، فخرج غلامي ثم رجع إليّ ، فقال :
على الباب فتى ظاهرُ المروءة ، يستأذنُ عليك ، فأذنتُ له .

فدخل عليّ شابٌّ مارأيتُ أحسنَ وجهاً ، ولا أنظفَ ثوباً ، ولا أجملَ زياً
منه ، دَنَفَ^(٢) ، عليه آثارُ السَّخَمِ ظاهرةٌ ، فقال لي : إني أوجو لقاءك منذ مدة ،
فلا أجدُ إليه سبيلاً ، وإن لي حاجةً ، قلت : ماهي ؟ فأخرج ثلاثة دنانير فوضعها
بين يديّ ، ثم قال : أسألك أن تقبلها ، وتصنع في بيتين قلتهما لحناً تغنياني به .
فقلت : هاتهما ؛ فأنشدهما وقال :

بِاللهِ يَاطْرُفِي الجَانِي عَلَى بَدَنِي لَتَطْفُنَّ بدمعي لوعةَ الحَزَنِ
لَا لَأَبُوحَنَّ حَتَّى يَحْجُبُوا سَكَنِي فلا أراه ولو أدرجتُ في كَفَنِي

قال مَعْبِدُ : فصنعتُ فيهما لحناً ، ثم غَنَيْتُهُ إياه ، فأغَمِيَ عليه ، حتى ظننته قد
مات ، ثم أفاق ، فقال : أَعِدْ فَدَيْتَكَ ! فأنشدته الله في نفسه وقلت : أخشى
أن تموت ؛ قال : هيهات ! أنا أشقى من ذاك ! وما زال يَخْضَعُ لي وَيَتَضَرَّعُ حَتَّى أَعَدْتُهُ ،
فصِيقَ صَعْقَةً أَشَدَّ من الأولى حتى ظننتُ أَنَّ نَفْسَهُ قد فاضت .

* الأغاني : ١٢ - ١٦١ ، تزيين الأسواق : ١٢٥ .

(١) كان مَعْبِدُ الصَّغِيرِ غلاماً مولداً من مولدى المدينة ، شدا بها ، وأخذ الفناء عن جماعة من
أهلها ، وعن جماعة أخرى من علية المغنين بالعراق ، مثل إسحاق وابن جامع ، وكان أكثر انقطاعه
إلى البرامكة (٢) دنف : مريض .

فلما أفاق رددتُ الدنانيرَ عليه ، ووضعتها بين يديه ، وقلت : يا هذا ؛ خذ دنانيرك ، وانصرف عني ، فقد قضيتُ حاجتك ، وبلغت ما أردته ، واستُ أحب أن أشرك في دمك ، فقال : يا هذا ؛ لا حاجة لي في الدنانير ، فقلت : لا والله ، ولا بعشرة أضعافها إلا على ثلاث شرائط ، قال : وما هن ؟ قلت : أولاً أن تقيم عندي وتحرّم بطعامي ، والثانية أن تشرب أقداحاً من النبيذ يشدُّ قلبك ، ويسكنُ مابك ، والثالثة أن تحدّثني بقصتك ، فقال : أفعل ما تريد .

فأخذتُ الدنانير ، ودعوتُ بطعام فأصاب منه ، ثم دعوتُ بالنبيذ فشرب أقداحاً ، وغنّيته بشعرٍ غيره في معناه ، وهو يشرب ويبكي ، ثم قال : الشرطُ أعزّك الله ، فغنّيته ، فجعل يبكي أحراً بكاءً ، وينشج أشدَّ نشيج وينتعب ، فلما رأيتُ مابه قد خفَّ عما كان يلحقه ، ورأيت النبيذ قد شدَّ من قلبه كرّرتُ عليه صوته صراراً ، ثم قلتُ : حدّثني حديثك ، فقال :

أنا رجل من أهل المدينة خرجتُ متنزّها في ظاهرها ، وقد سالَ العقيق ، في فتية من أقراني وأخذاني ؛ فبصُرنا بفتيات قد خرجنَ لمثل ماخرجنا له ، فجلسن حَجْرَةً^(١) منا ، وبصرتُ فيهن بفتاةٍ كأنها قضيبٌ^(٢) قد طلّه الندى ، تنظر بعينين ما ارتدَّ طرفُهما إلا بنفس من يلاحظهما ، فأطلنَا وأطأن حتى تفرق الناس ، وانصرفن وانصرفنَا ، وقد أبقت بقلبي جرحاً بطيئاً اندمأله ، فعدتُ إلى منزلي وأنا وقيذ^(٣)

وخرجت من الغد إلى العقيق وليس به أحد ، فلم أرَ لها ولا لصواحيبها أثراً ؛ ثم جعلتُ أتبعها في طرق المدينة وأسواقها ، فكانَّ الأرض أضمرتُها ، فلم أحس

(١) حجرة : بعيداً (٢) القضيب : العنصن (٣) الوقيذ : الشديد المرض المشرف

بعين ولا أثر ، وسقمتُ حتى أيسُ مني أهلي ، ودخلتُ ظئري^(١) ، فاستعملتني حالي ، وضمنتُ لي السعيَ فيما أحبه منها ؛ فأخبرتها بقصتي ؛ فقالت : لا بأس عليك ، هذه أيام الربيع ، وهي سنةُ خصبٍ ، وليس يبعد عنك المطر ؛ وهذا العقيق ، فتخرج حينئذ وأخرج معك ، فإن النسوة سيجئن ، فإذا فعلن ورأيتهن اتبعتهن حتى أعرف موضعها ، ثم أصل بينك وبينها ، وأسمى لك في تزويجها ؛ فكانت نفسي مطمئنة إلى ذلك ، ووثقت به ، وسكنت إليه ، ثم قويت وطعت ، وتراجعت نفسي .

وجاء مطرٌ فأسال الوادي ، وخرج الناس ؛ وخرجتُ مع إخواني إليه ، فجلسنا مجلسنا الأول بعينه ؛ فساكننا والنسوة إلا كفرسي رهان ، وأومأتُ إلى ظئري فجلست حجرةً منا ومنهن ، وأقبلتُ على إخواني ، فقلت : لقد أحسن القائل حيث قال :

رَمَتْنِي بِسَهْمٍ أَقْصَدَ الْقَلْبُ وَانْثَنَتْ وَقَدْ غَادَرْتُ جُرْحًا بِهِ وَنُدُوبًا^(٢)
فَأَقْبَلْتُ عَلَى صَوَاحِبَاتِهَا ، فَقَالَتْ : أَحْسَنَ وَاللَّهِ الْقَائِلُ ، وَأَحْسَنَ مَنْ أَجَابَهُ
حيث يقول :

بَنَّا مِثْلُ مَا تَشْكُو فَصَبْرًا لَعَلَّنَا نَرَى فَرَجًا يَشْفِي السَّقَامَ قَرِيبًا
فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْجَوَابِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَظْهَرَ مَا يَفْضَحُنِي وَإِيَّاهَا ، وَعَرَفْتُ
مَا أَرَادَتْ ، ثُمَّ تَفَرَّقَ النَّاسُ وَانْصَرَفْنَا .

وتبعتهن ظئري حتى عرفتُ منزلها ، وصارت إليّ ، فأخذت بيدي ، ومضينا إليها ، فلم تزل تتلطف حتى وصلت إليها ، فتلاقينا ، وشاع حديثي وحديثها وظهر

(١) الظئر : العاطفة على ولد غيرها ، الرضع له (٢) الندوب : جمع ندبة ، أثر الجرح الباقي على الجلد .

ما بيني وبينها، فحجبتها أهلها، وتشدد عليها أبوها؛ فزالَتْ أجهْدُ في لقائها
فلا أقدرُ عليه، وشكوتُ إلى أبي لشدة ما نالني؛ وسألته في خطبتها لي، فمضى
أبي ومشيخةُ أهلي إلى أبيها، فخطبوها؛ فقال: لو كان بدأ بهذا لأسمعته بما التمسَ
ولسكنه قد شهِرَها^(١)، فلم أكن لأحقِّق قولَ الناس فيها بتزويجه إياها؛ فانصرفت
على يأسٍ منها ومن نفسي.

قال معبد: ثم صارت بيننا عشرة، وجلس جعفر بن يحيى للشرب،
فأثبته؛ فكان أول صوت غنَّيته صوتي في شعر الفتى؛ فطرب عليه طرباً شديداً،
وقال: ويحك! إن لهذا الصوت حديثاً فها هو؟ فحدثته به، فأمر بإحضار الفتى
فأحضر من وقتها، واستعاده الحديث فأعاده عليه، فقال: هي في ذمتي حتى أزوجه
إياها، فطابت نفسه، وأقام معنا ليلتين حتى أصبح؛ وغداً جعفر إلى الرشيد، فحدثه
الحديث، فعجب منه، وأمر بإحضارنا جميعاً، فأحضرنا، وأمر بأن أغنيه الصوت،
فغنَّيته وشرب عليه، وسمع حديث الفتى، فأمر من وقته بالكتاب إلى عامل
الحجاز بإشخاص الرجل وابنته، وجميع أهله إلى حضرته، فلم يمضِ إلا مسافة
الطريق حتى أحضر، فأمر الرشيدُ بإبصاله إليه فأوصل، وخطب إليه الجارية للفتى،
وأقسم عليه ألا يخالف أمره، فأجابته، وزوجه إياها، وحمل إليه الرشيد ألف دينار
لجهازها، وألف دينار لنفقة طريقه؛ وأمر للفتى بألف دينار، وأمر جعفر لي وللفتى
بألف دينار؛ وكان بعد ذلك في جملة نُدماء^(٢) جعفر بن يحيى.

(١) الشهرة: ظهور الشيء في شئفة (٢) جمع نديم.

٧٧- نَعِيبُ الْغَرَابِ بِفِرَاقِهِمَا *

قال زياد بن عثمان الغطفاني : كُنَّا بِبَابِ بَعْضِ وُلَاةِ الْمَدِينَةِ ، فَعَرَضْنَا ^(١) مِنْ طُولِ الثَّوَاءِ ^(٢) ، فَإِذَا أَعْرَابِيٌّ يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ؛ أَمَّا مِنْكُمْ رَجُلٌ يَأْتِينِي أَعْلَمُهُ إِذْ غَرَضْنَا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ فَأُخْبِرُهُ عَنْ أُمِّ جَعْدَرٍ وَعَنِّي !

فَجِئْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : أَنَا الرَّمَّاحُ ^(٣) بْنُ أَبِرْدٍ ، قُلْتُ : فَأُخْبِرْنِي بِبَدَأِ أَمْرِكَ ؛ قَالَ : كَانَتْ أُمُّ جَعْدَرٍ مِنْ عَشِيرَتِي فَأَعْجَبَتْنِي ؛ وَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا خُلَّةٌ ^(٤) ، ثُمَّ إِنِّي عَقَبْتُ عَلَيْهَا فِي شَيْءٍ بَلَغَنِي عَنْهَا ؛ فَأَتَيْتُهَا فَقُلْتُ : يَا أُمَّ جَعْدَرٍ ؛ إِنَّ الْوَصْلَ عَلَيْكَ مَرْدُودٌ ؛ فَقَالَتْ : مَا قَضَى اللَّهُ فَهُوَ خَيْرٌ . فَلَبِثْتُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ سَنَةً .

وَذَهَبَتْ بِهِمْ نُجْمَةٌ فَتَبَاعَدُوا . وَاشْتَقْتُ إِلَيْهَا شَوْقًا شَدِيدًا ؛ فَقُلْتُ لَامْرَأَةٍ أَخِي لِي : وَاللَّهِ لَئِنْ دَنَيْتُ دَارُنَا مِنْ أُمِّ جَعْدَرٍ لَأَتَيْنَهَا ؛ وَلَأُطْلِبَنَّ إِلَيْهَا أَنْ تَرُدَّ الْوَصْلَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، وَلَئِنْ رَدَّتْهُ لَا نَقْضُهُ أَبَدًا !

وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَانِ حَتَّى رَجَعُوا ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا أَنَا بِبَيْتَيْنِ نَازِلَيْنِ إِلَى سَنْدٍ ^(٥) أَبْرَقَ طَوِيلٍ ، وَإِذَا امْرَأَتَانِ جَالِسَتَانِ فِي كِسَاءٍ وَاحِدٍ بَيْنَ

* الْأَغَانِي : ٢ - ٢٧٣

(١) غرضنا : ضجرنا (٢) الثواء : طول الإقامة (٣) كان الرماح بن أبرد أشعر غطفان في الجاهلية والإسلام ، عاصر الوليد بن يزيد ومدحه ، وأدرك أول الدولة العباسية ، قدح المنصور واشتهر بنسبته إلى أمه ميادة . توفي نحو سنة ١٤٠ هـ (٤) الخلة : الصداقة (٥) السند : ما ارتفع من الأرض قبل الجبل أو الوادي . والأبرق من الجبال : ما كان له لونان من سواد وبياض .

البيتين ؛ فجئتُ فسلمتُ ؛ فردَّت إحداها ولم ترد الأخرى ، وقالت : ما جاء بك يارمّاح إلينا ؟ ما كنّا حسيبنا إلا أنه قد انقطع ما بيننا وبينك . فقلت : إني جعلتُ على نذراً لئن دنتُ بأم جحدر دارٍ لآتينها ، ولأطلبن منها أن تردّ الوصلَ بيني وبينها ، ولئن هي فعلت لا نقضته أبداً - وإذا التي تكلمني امرأةٌ أخيها ، وإذا الساكنةُ أمٌ جحدر .

فقالَت امرأةٌ أخيها : فادخل مُقدِّم البيت ، فدخلتُ ، وجاءت من مؤخره فدنت قليلاً ، ثم إذا هي قد برزت ، فساعة برزت جاء غراب فنَّعب على رأس الأبرق^(١) ، فنظرت إليه ، وشهقت وتغيّر وجهها ، فقلت : ما شأنك ؟ قالت : لاشيء ؛ قلت : بالله إلا أخبرتني ؛ قالت : أرى هذا الغراب يخبرني أنا لا نجتمع بعد هذا اليوم إلا بد غير هذا البلد ، فتقبضت نفسي ، ثم قلت : جاريةٌ والله ، ما هي في بيت عيافة^(٢) ولا قيافة^(٣) .

ثم تروّجت^(٤) إلى أهلي ، فمكثتُ عندهم يومين ، ثم أصبحتُ غادياً إليها ، فقالت لي امرأةٌ أخيها : ويحك يارمّاح ! أين تذهب ؟ فقلت : إليكم ، فقالت : وما تريد ؟ قد والله زوّجتُ أم جحدر البارحة ، فقلت : بمن ؟ ويحك ! قالت : برجل من أهل الشام من أهل بيتها ، جاءهم من الشام فخطبها فزوّجها ، وقد حلت إليه !

(١) الأبرق : مكان مرتفع فيه حجارة ورمل وطين (٢) العيافة : زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها ، والمعروف بالعيافة من العرب بنو أسد وبنو لُحَب (٣) القيافة : تتبع الآثار وممرتها ، والمعروف بالقيافة بنو مدلج (٤) تروحت : سرت في وقت الرواح .

فمضيتُ إليهم فإذا هو قد ضرب سُرادقات ، فجلبتُ إليه فأنشدته ، وحدّثته
وعدتُ إليه إياماً ، ثم إنه احتملها ، فذهب بها ، فقلت :

أجارتنا إنَّ الخطوبَ تنُوبُ علينا ، وبعضَ الآمنينَ نُصيبُ
أجارتنا لستُ الغداةَ بيارحٍ ولكنَّ مقيمٌ ما أقام عسيبُ^(١)
فإن تَسأليني هل صَبَرْتُ فَإِنِّي صبورٌ على رَيْبِ الزمانِ صليِبُ^(٢)
جرى بانْبِتَاتِ^(٣) الحبلِ من أمِّ جَحْدِرٍ وطَبَّاءُ وطيرٌ بالفراقِ نَعُوبُ
نظرتُ فلم أَعْتَفْ^(٤) وعافَتْ فينْتِ لها الطيرُ قبلي ، والليِبُ لِيِبُ
فقلت : حرامٌ أن تُرى بعد هذه جميعينِ إلاَّ أنْ يُلَمَّ غريبُ
أجارتنا صَبْرًا ؛ فيارُبَّ هالكٍ تَقَطَّعُ من وجَدٍ عليه قلوبُ

ثم انحدرتُ في طلبها ، وطمعتُ في كليتها : « إلا أن نجتمع في بلدٍ غير
هذا البلد » .

فجئتُ فدُرَّتْ الشامُ زمانًا ، فتلقاني زوجها ، فقال : مالك لا تغسل ثيابك
هذه ! أُرسلُ بها إلى الدار تغسل ؛ فأرسلتُ بها .

ثم إنى وقفتُ أنتظر خروجَ الجاريةِ بالثيابِ ، فقالت أم جَحْدِرٍ لجاريتهما :
إذا جاء فأعلميني ؛ فلما جئتُ إذا أم جَحْدِرٍ وراء الباب ، فقالت : ويحك يا رماح !
قد كنتُ أحسبُ أن لك عقلاً ! أما ترى أمراً قد حِيلَ دونه ، وطابتْ أنفُسنا

(١) عسيب : اسم جبل بعالية نجد ، يقال : لا أفعل كذا ما أقام عسيب ، أى لا أفعله أبداً
(٢) الصليب : الشديد (٣) انبتات : انقطاع (٤) عاف الطير : زجرها ، وهو أن يعتبر
بأسمائها ومساقطها فيتسعد أو ينشام .

عنه ؟ انصرف إلى عشيرتك فإني أستحي لك من هذا المقام ؛ فانصرفت
وأنا أقول :

عسى إن حججنا أن نرى أم جحدرٍ وجمعنا من نخلتين ^(١) طريقُ
وتصطك أعضادُ المطى وبيننا حديثٌ مُسرٌّ دونَ كلِّ رفيقٍ ^(٢)

(١) النخلتان : واديان

(٢) في البيتين إقواء .

٧٨- نَخَلَتْ حُلُوانَ*

قال مُطِيع^(١) بن إياس : كنت بالرَّيِّ^(٢) مع سالم بن قُتَيْبَةَ ، وكانت لي جارية يقال لها جودانة

و كنت أنعشُّ امرأةً من بنات الدهاقين^(٣) ، كنتُ نازلاً إلى جنبها في دارها ، فلما خرج إبراهيم بن عبد الله بن الحسن - كتب المنصور إلى سالم يأمره باستخلاف رجل على عمله والقدوم عليه في خاصَّته على البريد ، فأمرني سالم بالخروج معه فاضطرت إلى بيع الجارية ، فبعتهَا ، ثم نَدِمْتُ بعد ذلك على خروجي ، وتمنيت أن أكون أقمت .

ثم نزلت حُلُوانَ^(٤) ، فجلست على العقبة أنتظر ثَقَلِي ، وعِنانُ دابتي في يدي ، وأنا مُسْتَنِدٌّ إلى نَخْلَةِ العقبة ، وإلى جانبها نخلة أخرى ، فتذكرت المرأة واشتقتها وقلت :

أَسْعِدَانِي يَا نَخْلَتِي حُلُوانَ وابكيا لي من رَيْبِ هذا الزمان
واعلمَا أنَّ رَيْبَهُ لم يزل يفرقُ بين الأُلفِ والجيران
ولعمري لو ذُقْتُمَا أَلَمَ الْفُرِّ قة أبكا كما الذي أبكاني

* معجم البلدان : ٣ - ٣٢٣ ، الأغاني : ١٢ - ١٠٣

(١) مطيع بن إياس : عربي الأصل يرجع نسبه إلى كنانة ، عاصر الدولتين : الأموية والعباسية ، كان ماجنا خديما ظريفا مديح النادرة . ولكنه متهم بالزندقة والفجور ، توفي سنة ١٦٦ هـ
(٢) الري : مدينة عظيمة ببلاد الجبال ؛ تخرج فيها كثير من عظماء المسلمين (٣) الدهقان : التاجر ، وزعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم (مغرب) وجمعه دهاقين (٤) حلوان : مدينة كانت مشهورة بالآف ، وهي غير حلوان مصر .

أشعِدْ دَانِي، وَأَيِّقِنَا نَحْصًا سوف يلتقا كما فتفرقا
 كم رمتني صروفُ هَذِي الليالي بفراقِ الأحبابِ والخِلالِ
 غيرَ أني لمْ تَلَقَ نفسي كما لا قيتُ من فُرْقَةٍ ابنة الدهقانِ
 جارة لي بالرَّيِّ تُذهب همِّي وَيُسَلِّي دَنُوها أحزاني
 فجعنتي الأيامُ أغبط ما كُنْتُ بِصَدْعٍ للبين غيرُ مُداني
 وبرغمي أنْ أصبحتْ لا تراها السَّعِينُ مِنِّي وأصبحتْ لا ترائي
 إنْ تَكُنْ ودَّعتْ فقد تركتْ بي لَهَبًا في الضميرِ ليس بِوَانِ
 كحريقِ الضَّرامِ في قَصَبِ الغيا ب رَمْتَهُ رِيحَانِ مُخْتَلِفَانِ^(١)
 وسمعتني سالم فقال : ويلك ! فيمن هذه الأبيات ؟ أفى جارينك ؟ فاستحييت
 أن أصدقه فقلت : نعم .
 فكتب من وقته إلى خليفته أن يبتاعها لي ، فلم ألبث أن ورد كتابه : إني
 وجدتُها قد تداولها الرجال فمزَّفتْ نفسي عنها .

(١) روى أن المهدي قال : قد أكلت الشعراء في نخلي حلوان ، ولهممت أن أمر بقطعها ،
 فبلغ قوله النصور ، فكتب إليه : بلغني أنك هممت بقطع نخلي حلوان ، ولا فائدة لك في قطعها ،
 ولا ضرر عليك في بنائها ، فأنا أعيذك بالله أن تكون النحس الذي يلقاها فتفرق بينهما .
 (١٥ - قصص - رابع)

٧٩ - وَارْحَمْنَا لِلْعَاشِقِينَ*

قال الجاحظ^(١) : ذُكِرَتْ لأمير المؤمنين المتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استتبشعَ مَنْظَرِي ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني .

وخرجتُ من عنده ، فلقيتُ محمد بن إبراهيم وهو يُريدُ الانصراف إلى مدينة السلام ، فعرض عليّ الخروجَ معه ، والانحدارَ في حرّاقته^(٢) ، فركبنا فيها ، فلما أتينا قَمَ نهر القاطول^(٣) ، وخرجنا من سأمراً^(٤) نصَّب سِتَارَتَهُ ، وأمر بالغناء ، فاندفعتْ عَوَادَةٌ فغنت :

كلُّ يومٍ قطيعةٌ وعُتَابُ ينقضي دهرنا ونحن غضابُ
ليت شِغْرِي أنا خُصِصْتُ بهذا دُونَ ذَا الخَلْقِ أم كذا الأَحْبَابُ !
وسكتت ، فأمر الطنبُورِيَّةُ فغنت :

وراحتُ للعاشقين ما إن أرى لهم مُعِينَا !
كم يُهْجَرُونَ وَيُصْرَمُونَ ن وَيُقَطَّعُونَ فَيَصْبِرُونَ !

* المسعودي : ٢ - ٣٧٨ ، نهاية الأرب : ٢ - ١٩٥ .

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر ، وعرف بالجاحظ لجحوظ عينيه ، كان إمام الأدباء في العصر العباسي ، وله أساليب ومذاهب وآراء في الأدب واللغة ، خاصة به ، ومؤلفاته كثيرة ، وتوفي سنة ٢٥٥ هـ (٢) الحراقة : نوع من السفن (٣) القاطول : نهر يتفرع من دجلة ، حفره الرشيد (٤) بلد على نهر دجلة بناه المعتصم سنة ٢٢١ هـ ، حينما ضاقت بغداد بأهلها .

فَقَالَتْ هَذِهِ الْقَوَادِدُ : فَيَصْنَعُونَ مَاذَا ؟ قَالَتْ : هَكَذَا يَصْنَعُونَ ، وَضَرَبَتْ
يَدَيْهَا إِلَى السَّتَارَةِ فَهَتَكَتْهَا ، وَبَرَزَتْ كَأَنَّهَا فَلَقَّةٌ قَرٌ ، فَزَجَّتْ بِنَفْسِهَا إِلَى الْمَاءِ ،
وَعَلَى رَأْسِ مُحَمَّدٍ غَلَامٌ يُضَاهِيهَا فِي الْجَمَالِ ، وَيِيْدُهُ مِذْبَئَةٌ ، فَانَى الْمَوْضِعَ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا ،
وَهِيَ تَمْرٌ بَيْنَ الْمَاءِ ، فَأَنشَأَ يَقُولُ :

أَنْتِ الَّتِي غَرَّقْتَنِي بِمَسَدِ الْقَضَا لَوْ تَعَلَّمِينَا
وَزَجَّ بِنَفْسِهِ فِي أَثَرِهَا ، فَأَدَارَ الْمَلَّاحُ الْحَرَّاقَةَ ، فَإِذَا بِهِمَا مُعْتِنَقَانِ ، ثُمَّ غَاصَا
فَلَمْ يُرَيَا !

فَهَالِ مُحَمَّدًا ذَلِكَ وَاسْتَعْظَمَهُ وَقَالَ : يَا عَمْرُو ، لَتَحْدُثَنِي حَدِيثًا يُسَلِّينِي عَنْ قَعْدِ
هَذَيْنِ ؛ وَإِلَّا الْحَقَّتْكَ بِهِمَا .

فَحَضَرَنِي حَدِيثُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَدْ قَعَدَ لِلْعِظَالِمِ ، وَرَضَتْ عَلَيْهِ
الْقِصَصُ ، فَمَرَّتْ بِهِ قِصَّةٌ فِيهَا : « إِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - أَنْ يَخْرُجَ
جَارِيَتُهُ فُلَانَةٌ حَتَّى تَغْنِيَنِي ثَلَاثُ أَصْوَاتٍ فَعَلْ » ؛ فَاعْتَظَ يَزِيدُ ، وَأَمَرَ مَنْ يَخْرُجُ
إِلَيْهِ ، وَيَأْتِيهِ بِرَأْسِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ بِرَسُولٍ آخَرَ بِأَمْرِهِ أَنْ يُدْخِلَ إِلَيْهِ
الرَّجُلَ ؛ فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ : مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : الثَّقَةُ
بِحِمْلِكَ ، وَالْاِتِّكَالُ عَلَى عَفْوِكَ . فَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ
إِلَّا خَرَجَ ، ثُمَّ أَمَرَ فَأَخْرَجَتِ الْجَارِيَةُ وَمَعَهَا عَوْدُهَا ، فَقَالَ لَهَا الْفَتَى غَنَى :

أَفَاطَمُ مَهَلًا بَعْضُ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَرْمَعْتَ صَرْمِي فَأَجْعَلِي
فَعْنَتَهُ ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : قُلْ ، قَالَ : غَنَى :

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ تَجْدِيًا فَقُلْتُ لَهُ يَا بِيهَا الْبَرْقُ ؛ إِنْ عَنكَ مَشْغُولٌ

فَنَتَتْه ، فَقَالَ : قُلْ ، قَالَ : تَأْمُرُ لِي بِرُطْلِ خَمْرٍ ، فَمَا اسْتَمْتُمْ شَرَابَهُ حَتَّى وَثَبَ
وَصَمَدٌ عَلَى أَعْلَى قُبَّةِ لِيَزِيدَ ، فَرَمَى بِنَفْسِهِ عَلَى دِمَاغِهِ فَمَاتَ !
فَقَالَ يَزِيدُ : إِنْ أَلَّهِهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! أُنْزِلُوا الْإِسْمَ الْجَاهِلَ ظَنُّنَا أَنِّي أَخْرَجْتُ
إِلَيْهِ جَارِيَّتِي وَأَرَدْتُهَا إِلَى مَالِي ، يَا غُلَامَانِ : خَذُوا بِبَيْدِهَا ، وَاحْمِلُوهَا إِلَى أَهْلِهَا إِنْ كَانَ
لَهُ أَهْلٌ ، وَإِلَّا فَبَيْعُوهَا وَتَصَدَّقُوا بِشَيْئِهَا عَنْهُ .
فَانْطَلَقُوا بِهَا ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ الدَّارَ ، نَظَرَتْ إِلَى حُفْرَةٍ فِي دَارِ يَزِيدَ قَدْ أُعِدَّتْ
لِلْمَطَرِ ، فَجَذَبَتْ نَفْسُهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَأَنْشَأَتْ تَقُولُ :
مَنْ مَاتَ عِشْقًا فَلَيْمَتْ هَكَذَا ! لا خـ ير في عِشْقٍ بِلَا مَوْتِ
نَمْ زَجَّجَتْ بِنَفْسِهَا عَلَى دِمَاغِهَا فَمَاتَتْ .
فَسَرَى عَنْ مُحَمَّدٍ ، وَأَحْسَنَ صَلَاتِي .

٨٠ - الله يعلم أنني كمد*

قال أبو العباس المبرد^(١) : دخلتُ في حديثي أنا وصديق لي من أهل الأدب إلى دَيْرٍ لَنَنْظُرَ إلى مجانين وُصِفُوا لنا فيه ، فرأيتُ منهم عجائب ، حتى اتَّهينا إلى شاب جالس حَجَرَةً^(٢) منهم ، نظيف الوجه والثياب على حصير نظيف ، بيده مرآة ومُشط وهو ينظر في المرآة ، وبُسرَّحَ لحيته ، فقالت : ما يُعْمِدُكَ ها هنا وأنت مُباين^(٣) لهؤلاء ؟ فرفع طرفاً وأمال آخر وأنشأ يقول :

الله يعلم أنني كمد لا أستطيع أبث ما أجدُ
نفساً لي : نفس تضمَّنْها بلد وأخرى حازها بلدُ
وأرى المقيمة ليس ينفعها صبر ولا يقوى لها جلدُ
وأظنُّ غائبتي كشاهدتي فكانها تجدد الذي أُجدُ

فقلت له : أراك عاشقاً . قال : أجل ، قلت : لمن ؟ قال : إنك لستول ! قلت : محسنٌ إن أخبرت . قال : إنَّ أبي عقد لي على ابنة عم لي فتوفي قبل أن تُزَفَّ إلى ، وخلف لي مالا عظيماً ، فقبض عُمِّي على جميع المال ، وحَبَسَنِي في هذا الدَّيرِ ، وزعم أني مجنون ، وقِيمُ الدار في خلال ذلك يقول لنا : احذروه فإنه الآن يتغير . ثم قال لي : بالله أنشدني شيئاً ، فإني أظنك من أهل الأدب ، فقالت : لرفيقي :

* أمالي الذجاجي : ١٠٥ ، نهاية الأرب : ٢ - ١٩٠

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد ، كان في عصره شيخ أهل النحو والمريية ، وإليه انتهى علمهما ، وكان قوي الذاكرة حسن العبارة ، فصيح اللسان ، توفي سنة ٢٧٥ هـ (٢) حجرة : فاحية .

(٣) مباين : مغاير .

أنشده فأنشأ يقول :

قيلتُ فإها على خوفٍ مُخَالَسَةٍ كقابس النار لم يشعر من العجل
ماذا على رصد^(١) في الدار لو غفلوا عني فقبلتها عشراً على مهل
غضى جفونك عني وانظري أتما^(٢) فإنما افتضح العشاق بالقل

فقال لي : أبو من أنت ؟ جعلت فداك ! فقلت : أبو العباس ، قال : يا أبا العباس : أنا وهذا الفتى في طرفين ؛ هذا مجاور من يهواه ، مستقبل لما يناله منه ، وأنا ناء مقصى ، فبالله أنشدني أنت شيئاً ، فلم يحضرني غير قول ابن أبي ربيعة :

قالت سُكينة والدموعُ ذوارفٌ تجري على الخدين والجلباب :
ليت المغيرة الذي لم أجزه فيما أطلت تصبّري وطلابي
كانت تردّ لنا المنى أيامنا إذ لا ألامُ على هوى وتصاب
خُبرتُ ما قالت فبت كأنما يرمى الحشا بصوائب النشاب
أسكن ما ماء الفرات وطيبه متى على ظمأٍ وحبٍّ شراب
بالذم منك وإن نأيت وقلما يرعى النساء أمانة الغياب

ثم قلت له : أنشدنا شيئاً آخر ، فأنشأ يقول :

أين لي أيها الطللُ عن الأحباب ما فعلوا
تري ساروا ؟ تري نزلوا بأرض الشام أرحلوا ؟

فقال له رفيقي - مجوناً ولعباً : ماتوا ، فقال : ويلك ! ماتوا ؟ فقال : نعم ! ماتوا ، فاضطرب واحمرت عيناه ، فجعل يضرب برأسه الأرض ، ويقول : ويلك ! ماتوا ؟ حتى هالنا أمره ، وانصرفنا عنه ، ثم عدنا بعد أيام فسألنا عنه صاحب الدير ، فقال : مازالت تلك حاله إلى أن مات .

(١) الرصد : الراصدون ، أي المراقبون . (٢) الأمم : اليسير .

٨١ - في دار المجانين*

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : ذُكِرَتْ للمتوكل منازعةٌ جرت بيني وبين الفتح بن خاقان في تأويل آية ، وتنازع الناس في قراءتها ، فبعث إلى محمد ابن القاسم - وكانت إليه البصرة ، فحملني إليه مكرماً .

فلما اجترأتُ بناحية النعمان بين واسط وبغداد ، ذُكِرَ لي أن بدير هرقل جماعةً من المجانين يعالجون ، فلما حاذَيْتُهُ دَعَتْنِي نفسي إلى دخوله ؛ فدخلتهُ ومعى شابٌّ ممن يُرْجَعُ إليه في دينٍ وأدبٍ ، فإذا أنا بمجنون من المجانين قد دنا إلي ؛ فقلت : ما يُقعدك بينهم ، وأنت بائنٌ عنهم ؟ فكسر جفنه ورفع عَقِيرَتَهُ^(١) وأنشأ يقول :

إِنْ وَصَفُونِي فَنَاحِلُ الْجَسَدِ أَوْ فَتَشُونِي فَأَيُّضُ الْكَبِدِ
أَضْعَفَ وَجْدِي وَزَادَ فِي سَقَمِي أَنْ لَسْتُ أَشْكُو الْهَوَى إِلَى أَحَدِ
وَضَعْتُ كَفِّي عَلَى فَوَادِي مِنْ حَرِّ الْأَسَى ، وَأَنْطَوَيْتُ فَوْقَ يَدِي
أَهٍ مِنْ الْحُبِّ أَهٍ مِنْ كَبِدِي إِنْ لَمْ أَمِتْ فِي غَدٍ فَبَعْدَ غَدِ
كَأَنَّ قَلْبِي إِذَا تَذَكَّرْتُمْ فَرِيصَةً بَيْنَ سَاعِدَيْ أُسْدِ
فَقُلْتُ : لَقَدْ أَحْسَنْتَ ، اللَّهُ دَرُّكَ ! زِدْنِي ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

مَا أَقْتُلُ الْبَيْنَ لِلنَّفُوسِ ! وَمَا أَوْجَعُ قَعْدَ الْحَبِيبِ لِلْكَبِدِ !
عَرَضْتُ نَفْسِي مِنَ الْبَلَاءِ لَمَّا أَسْرَفْتُ فِي مُتَهَجَّتِي وَفِي جِلْدِي
يَا حَسْرَتِي أَنْ أَمُوتَ مَعْتَقِلًا بَيْنَ اعْتِلَاجِ الْهَمُومِ وَالْكَمَدِ

* المسعودي : ٢ - ٣٨١ .

(١) العقيرة : الصوت .

فقلت : أحسنت ، لا فضَّ فوك ! زدني ، فأنشأ يقول :

الله يعلم أنني كمد لا أستطيعُ أثبتُ ما أجد
نفسان لي : نفسٌ تضمَّنهما بلدٌ وأخرى حازها بلد
وأرى المقيمة ليس ينفعها صبرٌ ؛ وليس يُعينها جلدُ
وأظنُّ غائبتي كشاهدتي فكانها نجدُ الذي أجد

فقلت : والله لقد أحسنت . فاستزددته ، فقال : أراك كلما أنشدتك استزدتني ،
وما ذاك إلا لقرط أدب ، وفراق شجن ، فأنشدني أنت أيضاً ، فقلت للذي معي :
أشده ؛ فأنشد يقول :

عذلٌ وبينٌ وتوديعٌ ومُرٌّ تحمل أي العيون على ذاليس تنهمل ؟
تا الله ما جلدي من بعدهم جلدٌ ولا اختزان دموعي عنهم يُخل
وددتُ أنَّ البحارَ السبع لي مدد وأن جسمى دموعٌ كلها همـل
وأنَّ لي بدلاً من كل جائحةٍ في كل جارية يوم النوى مُقل
لا درّ درّ انو ، لو صادفتُ جبلاً لانهدَّ منها وشيكاً ذلك الجبلُ
الهجر والبين والواشون والإبل طلائعٌ يتراى أنها الأجلُ

فقال المجنون : أحسنت ! وقد حضرني في معنى ما أنشدت إلى شعراً ،
أفأنشده ؟ قلت : هات ؛ فأنشأ يقول :

ترحلوا ثم نيطت دونهم سُجفُ لو كنتُ أملكهم يوماً لما رحلوا
يا حادي العيس ، مهلاً كي نودعها رفقاً ؛ قليلاً ؛ فني تودعها الأجلُ

ماراعنى اليوم شىء غيرُ فقدم حتى استقلت وطلال الدهر ، ما فعلوا
فقال الفتى الذى معى : ماتوا ، فقال المجنون : آه ، آه ! إن ماتوا فسوف أموت ؛
وسقط ميتاً ، فما برحتُ حتى غُسلَ وكفن ؛ وصليت عليه ودفنته .
ووردتُ سرّاً من رأى ، فأدخلت على المتوكل ؛ فسئلت عن بعض ما وردتُ له
فأجبت ، وبين يدى المتوكل البحترى الشاعر ؛ فابتدأ ينشده قصيدة يمدحه بها ،
وفى المجلس أبو العنيس الصيمرى^(١) ، فأنشد البحترى :

عن أنى تفرّ تبسم وبأى طرفٍ تحتكم
حسنٌ يضىء بحسنه والحسن أشبه بالكرم
يابانى المجتهد الذى قد كان قوَّضَ فانهدم
اسلمَ لدين محمدٍ فإذا سلمت فقد سلم
نلنا الهدى بعد العمى بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى مشى القمقرى للانصراف ، فوثب أبو العنيس ؛ فقال : يا أمير
المؤمنين ؛ تأمر برده ؛ فقد - والله - عارضته فى قصيدته هذه ا

فأمر برده ، فأخذ أبو العنيس ينشد :

من أىّ سلاحٍ تلتقم وبأى كفٍ تلتطم
أدخلت رأس البحترى أبى عبادة فى الرّحم

(١) محمد بن إسحاق بن إبراهيم الصيمرى ، نديم المتوكل ، كان أديباً ظريفاً عازفاً بالنجوم شاعراً
مجهّداً ، وهو من أهل الكوفة ، ولى قضاء الصيرة فنسب إليها . توفى سنة ١٧٥ هـ .

ووصل ذلك بما أشبهه من الشَّتمِ ، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ،
 وخص برجله اليسرى ، وقال : يُدفع إلى أبي العنْبَس عشرة آلاف درهم ؛
 فقال الفتح : يا سيدى ، البحترى الذى هُجى وأُسمع المكروه ينصرف خائباً !
 قال : ويدفع إلى البحترى عشرة آلاف درهم ؛ قال : يا سيدى ، وهذا البصرى
 الذى أَشْخَصْنَاهُ من بلده لا يشركهم فيما حَصَلُوهُ ؟ قال : ويدفع إليه عشرة
 آلاف درهم ! فانصرفنا كلنا فى شفاعة الهزل ، ولم ينفع البحترى جدُّه واجتهاده
 وحزمه .

ثم قال المتوكل لأبي العنْبَس : أخبرنى عن حمارك ووفاته ، وما كان من شعره
 فى الرؤيا التى رأيتها ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ كان أعقل من القضاة ، ولم
 يكن له جرّية ولا زلّة ، فاعتلّ على غفلة ، فمات منها ، فرأيت فيما يرى النائم
 فقلت له : يا حمارى ؛ ألم أُبرِّدْ لك الماء ، وأنقّ لك الشعير ، وأحسن إليك
 جهدى ؟ فلم متّ على غفلة ! وما خبرك ؟ قال : نعم ! لما كان فى اليوم الذى
 وقفت على فلان الصَّيْدَ لَانِ تَكَلَّمْتُ فى كذا وكذا ، مرّت بى أتان
 حسناء ، فرأيتها فأخذت بمجامع قلبى ؛ فعشقتها واشتدَّ وَجْدِي بها ، فمت كذا
 متأسفاً . فقلت له : يا حمارى ؛ فهل قلت فى ذلك شعراً ؟ قال : نعم ،
 وأنشدنى :

هام قلبى بأتانٍ عند باب الصيدلانى
 تيمّنى يوم رُحنا بثناياها الحسان

وبخدر ذي دلال مثل خد الشنفراني
فبيها ميت ولو عش ت إذن طال هوآني

فقلت : يا حماري ؛ فما الشنفراني ؟ فقال : هذا من غريب الخير ؟ فطرب
المتوكل وأمر الملهم والمغنين أن يغنوا ذلك اليوم بشعر الحمار ، وفرح في ذلك اليوم
فرحاً وسروراً لم ير مثله ، وزاد في تكرمة أبي العنابس وجائزته .

٨٢ - عِتَاب*

قال أبو الحسن البَغَاء .

بيننا أنا وصديق لي من قُرَيْشٍ نمشي بالبَلَّاط^(١) ليلاً ، إذا بطلَ نِسْوة في القمر ؛ فسمعتُ إحداهن تقول : أهو هو ! فقالت لها أخرى معها : إى والله إنه لهو هو ! فذنتُ مني ثم قالت : يا كهلُ ، قل لهذا الذى معك :

ليست لياليك في خَاخٍ^(٢) بمائدةٍ كما عهدتَ ولا أيام ذِي سَلَمٍ^(٣)

فقلت : أَجِبْ فقد سمعتَ . فقال : قد والله قُطِعَ بي وأُزِيجَ عليّ فأجِبْ عني ، فقلت :

فقلت لها : يا عزَّ كلِّ مصيبةٍ إذا وُطِّئت يوماً لها النفسُ ذَلَّتْ

ثم مضينا حتى إذا كُنَّا بِمَفْرِقٍ طَيِّقِينَ مضى الفتى إلى منزله ، ومضيتُ إلى منزلي ، فإذا أنا بِجُؤَيْرِيةٍ تجذب رداي ، فالتفتُ ، فقالت لي : المرأةُ التي كلمتها تدعوك ، فمضيتُ معها حتى دخلتُ داراً واسعة ، ثم صرتُ إلى بيتٍ فيه حصيرٌ ، وقد ثذتُ لي وسادة فجلستُ عليها . ثم جاءت جاريةٌ بوسادة مَثْنِيَّةٍ فطرحتها ، ثم جاءت المرأة فجلستُ عليها ، فقالت لي : أنت الحبيب ، قلتُ : نعم ، قالت :

* الأغانى : ٢ - ٥٨

(١) البَلَّاط : مكان بالمدينة

(٢) موضع يقال له : روضة خاخ بين الحرمين .

(٣) ذو سلم : موضع .

ما كان أفظَّ جوابك وأغلظه ! فقلت لها : ما حضرني غيره ، فسكتت ، ثم قالت : لا ، والله ما خلق الله خلقاً أحب إلي من إنسان كان معك ! فقلت لها : أنا الضامنُ ، لك عنه ما تحبين ، فقالت : هيهات أن يقع بذلك وفاء ! فقلت : أنا الضامنُ وعلى أن آتيك به في الليلة القابلة .

فانصرفت فإذا الفتى يبأى ، فقلت : ما جاء بك ! قال : ظننت أنها سترسلُ إليك ، وسألتُ عنك فلم أعرف لك خبراً ، فظننت أنك عندها ، فجلست أنتظرك ، فقلت له : وقد كان الذى ظننت ، وقد وعدتها أن آتيك فأمضى بك إليها في الليلة المقبلة .

فلما أصبحنا تهيأنا وانتظرنا المساء ، فلما جاء الليلُ رحلنا إليها ، فإذا الجارية منتظرة لنا ، فمضت أمامنا حين رأتنا حتى دخلت تلك الدار ودخلنا معها ، فإذا رائحة طيبة ومجلسٌ قد أُعدَّ ونُضد ، فجلسنا على وسائد قد بُدِئت لنا ، وجلست ملياً ثم أقبلت عليه ، فعاتبته ثم قالت :

وأنت الذى أخلفتني ما وعدتني وأسمت بي من كان فيك يلومُ
وأبرزتني للناس ثم تركتني لهم غرضاً أرمتي وأنت سليمُ
فلو كان قول يسكلمُ الجلدَ قد بدا بجِلدي من قول الوشاة كلومُ
نم سكتت وسكت الفتى هنيهة ثم قال :

غَدَرْتِ ولم أغدِرْ وخُفْتِ ولم أخُنْ وفي بعضِ هذا للمحب عزاء
جزيتك ضعفَ الودِّ ثم صرمتني فحبك من قلبي إليك أداء^(١)

(١) أداء نأدية : أوصله وقضاه ، والاسم الأداء .

فالتفتت إلى فقالت : ألا تسمع ما يقول ! قد خبرتك ، فغمزته أن كُفَّ
فكف ، ثم أقبلت عليه وقالت :

تجاهلت وصلى حين جدت^(١) عمايتي فهلا صرمت الحبل إذ أنا أبصرُ
ولى من قوى الحبل الذى قد قطعته نصيبٌ وإذ رأيت جميع موفرُ
ولكنما آذنت بالصَّرم بفتنة ولست على مثل الذى جئت أقدرُ

فقال :

لقد جعلت نفسى - وأنت اجترمتى وكنت أعز الناس - عنك تطيبُ
فبكت ، ثم قالت : أوقد طابت نفسك ! لا ، والله ما فيك بعدها
خيرٌ ، ثم التفتت إلى وقالت : قد علمت أنك لا تنى بضمانك ، ولا
ينى به عنك .

(١) جده الأمر : اشتد ، والمماية : الفواية والضلال .

٨٣ - يَا غَرِيبَ الدَّارِ عَنِ وَطَنِهِ*

قال جماعةٌ من أهل البصرة : خرجنا نريدُ الحج ، فلما كنا ببعض الطريق إذا غلام واقفٌ على الحجَّة^(١) ، وهو ينادى : أيها الناس ؛ هل فيكم أحدٌ من أهل البصرة ؟ فإلنا إليه وقلنا له : ما تريد ؟ قال : إن مولائى لما به يريدُ أن يُوصيكم ، فإلنا معه ، فإذا شخص ملقى على بُعد من الطريق تحت شجرة لا يحيرُ جواباً ، فإلنا حوله ، فأحسن بنا ، ورفع طرفه وهو لا يكاد يرفعه ضعفاً ، وأنشأ يقول :

يا غريبَ الدار عن وطنه مفرداً يبكى على شجته
كلما جدَّ البكاء به دبَّت الأرقامُ في بدنه

ثم أغمى عليه طويلاً ؛ وإنا لجلوس حوله إذ أقبل طائر ، فوقع على أعلى الشجرة ، وجعل يُفرِّد ، ففتح الفتى عينيه ، وجعل يسمع تغريد الطائر ثم قال :

ولقد زاد الفؤاد شجى طائر يبكى على فننه
شفه ما شفنى فبكى كلنا يبكى على سكنه

ثم تنفس تنفساً فاضت نفسه منه ، فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفناه ، وتولينا الصلاة عليه ، فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عنه ، فقال : هذا العباس ابن الأحنف !

* السعوى : ١ - ٢٨٥ ، تار الأزهار : ٨٢ .

(١) الحجَّة : جادة الطريق ، والجادة معظم الطريق (٢) كان العباس بن الأحنف عربياً شريف النسب ، لم يتكسب بالشعر ، وإنما ينظم ما يفيض في خاطره ، وأكثره في الغزل ، ولم يتجاوزهُ إلى مدح أو هجاء ، وكان له مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولعماليه عذوبة واطف ، توفي سنة ١٩٢ هـ .

البَابُ الثَّالِثُ

فِي الْقِصَصِ الَّتِي تَحْتَجُ لِمَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنْ شِدَّةِ
الْغَيْرَةِ عَلَى الْحَرِيمِ، وَبِالْغِ الْمَخَافَةِ مِنَ التَّهْمَةِ، إِغْلَاءً بِالشَّرَفِ
وَضِمَانًا لَوْفَرَةِ الْعَرَضِ، وَمَا جَرَّهُ بَعْضُ ذَلِكَ مِنْ إِزْهَاقِ
الْأَرْوَاحِ وَسَفْكَ الدِّمَاءِ، دَرَاءً لِلظَّنَّةِ، وَاتِّقَاءً لِلسَّمْعَةِ.

٨٤ - لا أحد اذل من جدیس*

كانت منازل طسّم في موضع اليمامة^(١)، وكان يملكهم عمليق، وكانت معهم جدیس، ولكن عمليقا في أول مملكته قد تمادى في الظلم والغشم^(٢) والسيرة بغير الحق.

وكانت امرأة من جدیس يقال لها هزيلة، ولها زوج يقال له ماشق، فطلقها وأراد أخذ ولد لها منها، فخاصمته إلى عمليق، فقالت: يا أيها الملك؛ إني حملته نساء، ووضعته دفعا، وأرضعته شفعاً؛ حتى إذا تمت أوصاله، ودنا فصّاله، أراد أن يأخذه مني كرهاً، ويتركني من بعده ورهاً^(٣).

فقال لزوجها: ما حجتك؟ قال: حجتى أيها الملك أنى قد أعطيتها المهر كاملاً، ولم أصب منها طائلاً، إلا وليداً خاملاً، فافعل ما كنت فاعلاً. فأمر بالفلان أن ينزع منها جميعاً ويجعل في غلمانة. فقالت هزيلة:

أتينا أخاطسّم ليحكم بيننا فأفقد حكماً في هزيلة ظالماً
لعمري لقد حُكمت لامتورعاً ولا كنت فيما يُبزم الحكم عالماً
ندمت ولم أندم وأنى لعزتي وأصبح بعلي في الحكومة نادماً

فلما سمع عمليق قولها أمر ألا تزوج بكر من جدیس وتهدى إلى زوجها

* مذهب الأغاني: ١ - ١، ابن الأثير: ١ - ٢٣، الخزانة: ٢ - ٢٣٥.

(١) اليمامة: بلاد دون المدينة في وسط الشرق عن مكة على ست عشرة مرحلة من البصرة

(٢) الغشم: الظلم (٣) وره كفرح: حق.

حتى يراها هو قبل زوجها ، فلقوا من ذلك بلاءً وجهداً وذللاً ، فلم يزل يفعل هذا حتى زوجت الشُّوس ، فلما أرادوا حملها إلى زوجها انطلقوا بها إلى عمليق وممها القيان يتغتنين :

ابْدَى بِعَمَلِيْق وَقَوْمِي فَارَكْبِي وبادري الصبح لأمرٍ مُعْجَب
فسوف تلقين الذي تطلبي وما ليكرٍ عنده من مهرٍ

فدخلت عليه ، ثم خلى سبيلها ، فخرجت إلى قومها شاقّة دِرْعها وهي في أقبح منظر ، وهي تقول :

لا أحدٌ أَذَلُّ من جدّيس أهكذا يُفْعَلُ بِالْعُرُوسِ !
يرضى بهذا بالقومي حرّ أهدي وقد أعطى وسبق المهر
لأخذة الموت كذا لنفسه خيرٌ من أن يُفْعَلَ ذا بعريه

وقالت - تحرّض قومها فيما أتى إليها :

أَيَجْمَلُ ما يُؤْتَى إلى فتياتِكُم وأنتم رجالٌ فيكم عددُ النمل
وتصبحُ تمشي في الدماء عُفَيْرَةٌ عشية زُفَّتْ في النساءِ إلى بَعْلٍ
ولو أنا كنّا رجالاً وكنتمُ نساءً لكنا لا نُقَرُّ بِذا الفِعْلِ
فموتوا كراماً أو أميتوا عدوّكم ودبُّوا للنارِ الحربِ بالحطبِ الجزل^(١)
وإلا فخذلوا بطنها ، وتمحلّوا إلى بلدٍ قفرٍ وموتوا من الهزل
فللبّين خيرٌ من تمادٍ على أذى والموتُ خيرٌ من مقامٍ على الذلّ
وإن أتمُّ لم تنضبوا بعد هذه فكونوا نساءً لاتعاب من الكحل

(١) الحطب الجزل : اليابس ، أو الغليظ العظيم منه .

ودونكم طيبُ العروسِ فإِنَّمَا خُلِقْتُمْ لِأَثْوَابِ العروسِ وللنَّسْلِ
فَبُعْدًا وَسُحْقًا لِلَّذِي لَيْسَ دَافِعًا وَيَخْتَالُ يَمْشِي بَيْنَنَا مِشْيَةَ الْفَحْلِ

فَلَمَّا سَمِعَ أَخُوهَا الْأَسْوَدُ — وَكَانَ سَيِّدًا مُطَاعًا — قَالَ لِقَوْمِهِ : يَا مَعْشَرَ
جَدِيسَ ، إِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَيْسُوا بِأَعَزَّ مِنْكُمْ فِي دَارِكُمْ إِلَّا بِمَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ صَاحِبِهِمْ
عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ ، وَلَوْلَا عَجْزُنَا وَإِدْهَانُنَا ^(١) مَا كَانَ لَهُ فَضْلٌ عَلَيْنَا ، وَلَوْ أَمْتَنَعْنَا
لَكَانَ لَنَا مِنْهُ النِّصْفُ ^(٢) ، فَأُطِيعُونِي فِيمَا أَمْرُكُمْ بِهِ ؛ فَإِنَّهُ عِزُّ الدَّهْرِ ، وَذَهَابُ ذُلِّ
الْعَمْرِ ؛ وَاقْبَلُوا رَأْيِي .

وَقَدْ أَحْمَى جَدِيسًا مَا سَمِعُوا مِنْ قَوْلِهِ ، فَقَالُوا : نُطِيعُكَ ، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ
أَكْثَرُ وَأَتْحَى وَأَقْوَى . قَالَ : فَإِنِّي أَصْنَعُ لِلْمَلِكِ طَعَامًا ثُمَّ أَدْعُوهُمْ لَهُ جَمِيعًا ،
فَإِذَا جَاءُوا يَرْتَفُلُونَ فِي الْحُلَلِ ثُرْنَا إِلَى سِيوفِنَا ، فَأَهْمَدَنَاهُمْ بِهَا . قَالُوا :
نَفْعَلُ .

وَصَنَعَ طَعَامًا كَثِيرًا ، وَخَرَجَ بِهِ إِلَى ظَهْرِ بَلَدِهِمْ ، وَدَعَا عَمَلِيْقًا وَسَأَلَهُ أَنْ يَتَفَدَّى
عِنْدَهُ هُوَ وَأَهْلَ بَيْتِهِ ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ ؛ وَخَرَجَ إِلَيْهِ مَعَ أَهْلِهِ يَرْتَفُلُونَ فِي الْحُلَى
وَالْحُلَلِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ ، وَمَدَّوْا أَيْدِيَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ أَخَذُوا سِيُوفَهُمْ
مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ ، فَشَدَّ الْأَسْوَدُ عَلَى عَمَلِيْقٍ فَقَتَلَهُ ، وَكُلَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى جَلِيسِهِ
حَتَّى أَمَاتُوهُمْ ؛ فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنَ الْأَشْرَافِ شَدُّوا عَلَى السَّفَلَةِ ، فَلَمْ يَدْعُوا مِنْهُمْ أَحَدًا ،
وَقَالَ الْأَسْوَدُ فِي ذَلِكَ :

ذَوْقِي بِبَغْيِكَ يَا طَسِمٌ مَجَلَّةٌ فَقَدْ أَتَيْتَ لِعَمْرِي أَعْجَبَ الْعَجَبِ

(٢) النصف: العدل في الأمور.

(١) الإدهان: إظهار خلاف ما يضر ، والفسخ

إنا أتينا فلم ننفك نقتلهم والبغى هيج منا سورة الغضب
ولن يعود علينا بغيرهم أبداً ولم يكونوا كذى أنف ولا ذنب
وإن رعيتم لنا قُرْبَى مؤكدة كُنَّا الأقارب في الأرحام والنسب

٨٥ - آجِب الدُّلْ*

قال عمرو بن^(١) هند صاحبُ الحيرة يوماً لجلسائه : هل تعلمون أنَّ أحدًا من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي ؟ قالوا : ما نعرفه إلا أن يكون عمرو^(٢) بن كلثوم التغلبي ، فإنَّ أمه ليلي بنت مُهل بن ربيعة وعمها كليب ، وزوجها كلثوم ، وابنها عمرو ؛ فسكت عمرو على ما في نفسه ، وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ، ويأمره أن تزور أمه ليلي أمه هند بنت الحارث .

فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان بني تغلب ، ومعه أمه ليلي ، فنزل على شاطئ الفرات ، وبلغ عمرو بن هند قدومه ، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته ، وصنع لهم طعاماً ، ثم دعا الناس إليه ، فقرب إليهم الطعام على باب السرادق ، وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخواص أصحابه في السرادق ، ويلي أم عمرو بن كلثوم معها في القبة ، وقال عمرو لأمه : إذا فرغ الناس من الطعام ، ولم يبق إلا الطرف^(٣) فنحى خدامك عنك واستخدم ليلى ومريها

* ابن الأثير : ١ - ٢٣١ ، بلوغ الأرب : ٢ - ١٤٢

(١) عمرو بن هند : ملك الحيرة في الجاهلية ، عرف بنسبته إلى أمه هند . ويلقب بالحرن ، وهو صاحب صحيفة التمس ، وقاتل طرفة بن العبد ، وكان شديد البأس ، كثير الفتك ، هابته العرب وأطاعته القبائل . وتوفي سنة ٥٧٨ م

(٢) عمرو بن كلثوم : صاحب المعلقة المشهورة ، وينتهي نسبه إلى تغلب ، وكان فارساً شاعراً ، وهو أحد فتاك العرب ، ومات قبل الإسلام بنحو نصف قرن (٣) الطرف : جمع طرفة : ماتعطيه غيرك ، ويراد به ما ينتقل به بعد الطعام .

فلتُناولك الشيء بعد الشيء ؛ ففعلت هند ما أمرها به ابنها ، فلما استدعى الطُرف
قالت هند ليلي : ناوليني الطَّبَق ! قالت : لَتَقُمُ . صاحبةُ الحاجة إلى حاجتها !
فألحّت عليها ، فقالت ليلي : واذلّاه يا آل تغلب ! فسمعها ولدُها عمرو بن كلثوم ؛
فثار الدمُ في وجهه ؛ والقوم يشربون ، فعرف عمرو بن هند الشرَّ في وجهه ،
وثار ابنُ كلثوم إلى سيفِ ابن هند وهو معلق بالسُّرَّادق - وليس هناك سيفٌ
غيره - فأخذه ، ثم ضرب به رأسَ عمرو بن هند فقتله ، وخرج فنادى يا آل تغلب !
فانتهبوا ماله وخيله ، وسبّوا النساء وساروا فاحرقوا بالحيرة^(١) .

(١) في هذه الواقعة قال عمرو بن كلثوم معاقته المشهورة :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خور الأندرينا

وقال فيها :

بأي مشيئة عمرو بن هند ترى أنا نكون الأردلينا
بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتردرينا
تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لأمك مقتولينا

٨٦ - أَجَبْنِ النَّاسَ وَأَحِيلِ النَّاسَ وَأَشْجَعِ النَّاسَ*

دخل عمرو^(١) بن معد يكرب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال له عمر :
يا عمرو؛ أخبرني عن أشجع من أقيمت . فقال : والله يا أمير المؤمنين لأخبرتك عن
أجبن الناس وأحيل الناس ، وأشجع الناس : خرجت مرة أريد الغارة ، فبينما أنا
أسيرُ بفرس مشدودٍ ، ورُمحٍ مَرَكُوزٍ ، وإذا رجلٌ جالسٌ ، وهو كأعظم ما يكون
من الرجال خَلَقًا ، وهو مُحْتَبٍ بسيف .

فقلت له : خُذْ حِذْرَكَ فَإِنِّي قَاتِلُكَ . فقال : ومن أنت ؟ قلت : أنا عمرو
ابن معد يكرب ، فشهِقَ شهقةً ، فمات . فهذا أجبنُ مَنْ رَأَيْتُ يا أمير المؤمنين .
وخرجتُ يومًا حتى انتهيتُ إلى حيٍّ ، فإذا أنا بفرسٍ مشدودٍ ، ورُمحٍ مَرَكُوزٍ ،
وإذا صاحبه في وَهْدَةٍ يقضى حاجة .

فقلت : خُذْ حِذْرَكَ فَإِنِّي قَاتِلُكَ . قال : مَنْ أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن
معد يكرب . قال : أبا ثور^(٢) ، ما أنصفتني ! أَنْتَ على ظهْرِ فرسك ، وأنا في بئرٍ ،
فأعطني عهداً أنك لا تقتلني حتى أركبَ فرسى ، وأخذَ حِذْرِي ؛ فأعطيته عهداً
ألا أقتله حتى يركبَ فرسه ، ويأخذَ حِذْرَهُ .

* نهاية الأرب : ٢ - ١٧٦ ، الفرر : ٢٢٧

(١) عمرو بن معد يكرب : فارس مشهور صاحب وقائع مذكورة ، في الجاهلية والإسلام . توفي
سنة ٢١ (٢) أبو ثور : كنية عمرو :

فخرج من الموضع الذى كان فيه ، حتى احتبى بسيفه وجلس . فقلت له :
ما هذا ؟ فقال : ما أنا براكب فرسى ، ولا بمقاتلك ، فإن نكثت عهدك فأنت
أعلم ، فتركته ومضيت .

فهذا يا أمير المؤمنين أحيل من رأيت !
ثم إنى خرجت يوماً آخر ؛ حتى انتهيت إلى موضع كنت أقطع فيه ، فلم أرَ
أحدًا ، فأجريت فرسى يميناً وشمالاً ، فظهر لى فارس :

فلما دنا منى إذا هو غلام قد أقبل نحو اليمامة . فلما قُرب منى سلم ؛ فرددت
عليه وقلت : من الفتى ؟ قال : أنا الحارث بن سعد ، فارس الشهباء ^(١) ؛ فقلت له :
خُذْ حِذْرَكَ ، فإنى قاتلك ، فقال : الويل لك ! من أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن
معد يكرب قال : الحقير الذليل ؟ والله ما يمنعنى من قتلِكَ إلا استصغارُك ، فتصاغرتُ
نفسى إلى وعظم عندى ما استقبلنى به .

فقلت له : خُذْ حِذْرَكَ ، فوالله لا ينصرف إلا أحدنا . قال : أغرب ^(٢) ،
ثَكَلْتُكَ أَمَك ! فإنى من أهل بيت ما نَسَكَلْنَا ^(٣) عن فارس قط ! فقلت : هو
الذى تسمع . قال : اختر لنفسك : إما أن تُطْرِدَ ^(٤) لى ، وإما أن أطرِدَ لك ؛
فاغتنمتها منه ، فقلت : أطرِد لى . فأطرد ، وحملت عليه ، حتى إذا قلت : إنى وضعتُ
الرُمَحَ بين كتفيه ، إذا هو قد صار حزاماً لفرسه ، ثم اتبعنى ، فقرع بالقناة رأسى ،
وقال : يا عمرو ؛ خُذْهَا إِلَيْكَ واحدة ، فوالله لولا أنى أكره قتلَ مثلك لقتلتُكَ ؛

(١) الشهباء : علم على فرس (٢) اغرب : تنح
(٣) ما نكلنا : ما جئنا (٤) أطردت الرجل : جعته طريداً لا يأمن .

فتصاغرْتُ إلى نفسي ، وكان الموتُ - والله يا أميرَ المؤمنين - أحبَّ إلىَّ مما رأيتُ ،
فقلت : والله لا ينصرفُ إلا أحدُنا ، فقال : اختر لنفسك ؛ فقلت : أطرِد لي .

فأطرِد لي ؛ فظننتُ أني قد تمكَّنتُ منه ، واتبعتُه حتى إذا قلت : إني قد
وضعتُ الرمحَ بين كتفيه ؛ فإذا هو قد صارَ لَبَبًا^(١) لفرسه ، ثم اتبعني فقرعَ رأسي
بالقناة ، وقال : يا عمرو ؛ خذها إليك ثانية . فتصاغرْتُ إلى نفسي ؛ فقلت : والله
لا ينصرفُ إلا أحدُنا .

فقال : اختر لنفسك . فقلت : أطرِد لي . فَأَطْرَدَ حتى إذا قلت : إني وضعتُ
الرمحَ بين كتفيه وثب عن فرسه ؛ فإذا هو على الأرض ؛ فأخطأته ومضيت .
فاستوى على فرسه ، واتبعتني فقرعَ بالقناة رأسي ، وقال : يا عمرو ؛ خذها إليك
ثالثة . ولولا أني أكره قتلَ مثلك لقتلتك .

فقلت له : اقتلني ، فإن الموت أحبُّ إلىَّ مما أرى بنفسي ، وأن تسمعَ فتیان
العرب بهذا . فقال : يا عمرو ؛ إنما العفو ثلاث ، وإني إن استمكنت منك الرابعة
قتلتك وأنشأ يقول :

وَكَذْتُ أَغْلَظًا مِنَ الْإِيمَانِ إِنْ عُدْتَ يَاعْمُرُو إِلَى الطَّمَّانِ
لَتَوْجِرَنَّ^(٢) لَهَبَ السَّنَانِ^(٣) أَوْلَا ، فَلَسْتُ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ!

فلما قال هذا كرهتُ الموت ، وهبته هيبةً شديدة ، وقلت : إن لي إليك
حاجة . قال : وما هي ؟ قلت : أكون لك صاحباً ، ورضيتُ بذلك يا أميرَ المؤمنين !

(١) اللبب : ما يشد في صدر الدابة ليمنع استئخار الرجل (٢) أوجره الرمح : طعنه به في فيه .

(٣) السنان : طرف الرمح .

قال : لست من أصحابي . فساكن ذلك والله أشدَّ عليَّ وأعظمَ مما صنع .
فلم أزل أطلبُ إليه حتى قال : ويحك ! وهل تدري أين أريد ؟ قلت : لا .
قال : أريدُ الموتَ عياناً . فقلت : رضيتُ بالموت معك . فقال : امضِ بنا ؛ فسيرنا
جميعَ يومنا وليلتنا حتى جئنا الليل ، وذهب شطرُهُ .

فوردنا على حيٍّ من أحياء العرب ، فقال لي : يا عمرو ، في هذا الحي الموت .
ثم أوماً إلى قُبَّة في الحي ، فقال : وفي تلك القُبَّة الموتُ الأحمر ؛ فإما أن تمسك
عليَّ فرسي ؛ فأنزل ، فأتي بحاجتي ، وإما أن أمسكَ عليك فرسك ؛ فتنزل فتأتي
بحاجتي . فقلت : لا ، بل انزل أنت ؛ فأنت أعرفُ بموضع حاجتك ؛ فرمى إليَّ
بعنان الفرس ونزل ، فرضيتُ لنفسى يا أمير المؤمنين أن أكون له سائساً .

ثم مضى حتى دخل القُبَّة ؛ فاستخرج منها جارية ، لم تر عيناى قط مثلها حسناً
وجالاً ؛ فحملها على ناقة ، ثم قال : يا عمرو . قلت : لبيك ! قال : عليك بزمام
الناقة .

وسرنا بين يديه ، وهو خلفنا حتى أصبحنا ، فقال لي : يا عمرو . قلت : لبيك !
ماتشاء ؟ قال : التفتُ ، فانظر هل ترى أحداً ؟ فالتفتُ ، وقلت : أرى جمالاً ،
قال : أغدَّ السير^(١) ، ثم قال لي : يا عمرو . قلت : لبيك ! قال : انظر ، فإن كان
القوم قليلاً ، فالجلد والقوة والموت . وإن كانوا كثيراً فليسوا بشيء . فالتفتُ ،
فقلت : هم أربعة أو خمسة . قال : أغدَّ السير ، وسمع وقع الخيل ؛ فقال لي : يا عمرو ،

(١) أغدَّ السير : أسرع فيه .

قلت : لبيك ! قال : كُنْ على يمين الطريق ، وقِفْ ، وحول وجوه دوابنا إلى الطريق ؛ ففعلت ، ووقفت على يمين الرَّاحلة ووقف هو عن يسارها .

ودنا القومُ منا ؛ فإذا هم ثلاثة نفر فيهم شيخ ، وهو أبو الجارية وأخواها وهما غلامان شابان ؛ فسلموا فرددنا السلام ، ووقفوا عن يسار الطريق .

فقال الشيخ : خلَّ عن الجارية يا بنُ أخي ؛ فقال : ما كنت لأخْلِيتها ، ولا لهذا أخذتها ؛ فقال لأصغرِ ابنيه : اخرج إليه ؛ فخرج وهو يجرُّ رمحاً ، وحمل عليه الحارث ، وهو يقول :

مِنْ دُونِ مَا تَرَجُّوه خَضِبِ الذَّابِلَ^(١) مِنْ فَارِسِ مُسْتَلِمٍ^(٢) مِقَاتِلِ ،
يُنْمِي إِلَى شَيْبَانَ خَيْرٍ وَائِلٍ مَا كَانَ سَبْرِي نَحْوَهَا بِيَاطِلٍ ؛
ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ ؛ فَطَعَنَهُ طَعْنَةً ، دَقَّ مِنْهَا صُلْبَهُ ؛ فَسَقَطَ مَيِّتًا .

فقال الشيخ لابنه الآخر : اخرج إليه يا بني ، فلا خيرَ في الحياة على الذل ، فخرج إليه وأقبل الحارث يقول :

لَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ كَانَتْ طَعْنَتِي ؛ وَالطَّعْنُ لِلْقِرْنِ الشَّدِيدِ هِمَّتِي
وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ فِرَاقِ خَلَّتِي فَقَتَلْتَنِي الْيَوْمَ وَلَا مَـذَلَّتِي ؛
ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ ، فَطَعَنَهُ طَعْنَةً ، سَقَطَ مِنْهَا مَيِّتًا .

فقال له الشيخ : خلَّ عن الظَّعِينَةِ^(٣) يا بنُ أخي ؛ فَإِنِّي لَسْتُ كَمَنْ رَأَيْتَ . قال :
مَا كُنْتُ لأَخْلِيَهَا وَلَا لِهَذَا قَصَدْتُ . فقال له الشيخ : اخْتَرْتُ يَا بنُ أَخِي ، فَإِنْ شِئْتَ

(١) الذابل : القنا الرقيق ، ويقصد بخضبه غمسه في الدم (٢) استلام الفارس : لبس اللأمة ؛ وهي الدرع (٣) الظعينة : المرأة ما دامت في الهودج .

طاردتك ، وإن شئت نازلتك ؛ فاعتنمها الفتى ونزل . ونزل الشيخ ، وهو يقول :

ما أرْتَجِي بعد فناء عُمرِي ؟ سأجعل السنين مثل الشهر
شيخٌ يحامى دون بيض الخدر^(١) إن استباح البيض قصم الظهر
سوف ترى كيف يكون صبري

فأقبل الحارث ، وهو يقول :

بعد أرْتَحَالِي وطويل سَفَرِي وقد ظفرتُ وشفيتُ صدري
والموتُ خيرٌ من لباس الغدرِ وإلعار أهديه لحي بكر
ثم دنا ، فقال له الشيخ : يا بن أخى ؛ إن شئت نازلتك ، وإن بقيت فيك
قوة ضربتني ؛ وإن شئت فاضربني ؛ فإن بقيت في قوة ضربتُك .

فاغتنمها الفتى ، فقال : وأنا أبدؤك . قال : هات . فرفع الحارثُ السيفَ ،
فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه ، ضرب بطنه ضربةً فقدَّ معاه ، ووقعت
ضربةُ الحارث في رأسه ؛ فسقطا ميتين .

فأخذتُ يا أمير المؤمنين أربعة أفراس ، وأربعة أسياف . ثم أقبلتُ إلى الناقة
فعددتُ أعنة الأفراس بعضها إلى بعض وجعلتُ أفودها . فقالت الجارية : يا عمرو ؛
إلى أين ؟ ولست لي بصاحب ، ولست أكن رأيت ، ولو كنت صاحبي لسلكت
سبيلهم ! فقلت : اسكتي ؛ قالت : فإن كنت صادقاً فأعطني سيفاً ورمحاً ؛ فإن
غلبتني فأنا لك ، وإن غلبك قتلتك .

(١) بيض الخدر : يريد به النساء .

فقلت لها : ما أنا بمعطيك ذلك ، وقد عرفت أصلك ، وجُراة قومك وشجاعتهم ،
فرمت بنفسها عن البعير ، وهى تقول :

أَبْعَدَ مَا شَيْخِي وَبَعْدَ إِخْوَتِي أَطْلُبُ عَيْشًا بَعْدَهُمْ فِي لَذَّةٍ ؟
هَلْ لَا تَكُونُ قَبْلَ ذَا مَنِينِي ؟

وأهوت إلى الرُّمَح ، فسكادت تنزعهُ من يدي . فلما رأيت ذلك خفتُ إن
هى ظفرت بى أن تقتلنى ، فقتلتها .

فهذا أشدُّ ما رأيته يا أمير المؤمنين . فقال عمر بن الخطاب : صدقت يا عمرو !

٨٧ - خَلَّ سَبِيلَ الْحُرَّةِ الْمَنِيعَةِ*

خرج دُرَيْدُ^(١) بن الصَّمَّةِ في فوارس بني جُشَمٍ يريد الغارة على بني كِنانة ،
فلما كان بِيوَادِ لبني كِنانة رُفِعَ له رجلٌ من ناحية الوادي معه ظُعِينَةٌ^(٢) . فلما
نظر إليه قال لفارسٍ من أصحابه : صَبَحَ به أن خلَّ عن الظُعِينَةِ وأنجُ بنفسك -
وهو لا يعرفه - فانتهى إليه الرجل وألَحَّ عليه ؛ فلما أبى ألقى زمام الراحلة ، وقال
للظُعِينَةِ :

سِيرِي عَلَى رِسْلِكَ . سِيرَ الْآمِنِ سِيرَ رَدَّاحٍ^(٣) ذَاتِ جَاشٍ سَاكِنِ
إِنَّ أَنْدِنَانِي دُونَ قِرْنِي^(٤) شَانِي^(٥) أَبْلِي بِلَانِي وَاخْـبُرِي وَعَايِنِي

ثم حمل على الفارس فصرَّعه ، واخذ فرسه فأعطاه الظُعِينَةُ . فبعث دُرَيْدُ
فارساً آخر لينظرَ ما صنع صاحبه ؛ فرآه صريعاً ، فصاح به ، فتصامَّ عنه فظنَّ
أنه لم يسمع فغشَّيه ، فالتقى زمام الراحلة إلى الظُعِينَةِ ! ثم حمل على الفارس فصرَّعه ،
وهو يقول :

خَلَّ سَبِيلَ الْحُرَّةِ الْمَنِيعَةِ إِنَّكَ لَاقٍ دُونَهَا رَيبَعَهُ

* الأغاني : ٤ - ١٢٩ ، الأملی : ٢ - ٢٧١ ، السط : ٢ - ٩١٠ ، العقد الفريد : ٣ - ٣٢٤
(١) دريد بن الصمة : سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم ، كان مظفراً ميمون النقية ، غزاً نحو
مائة عزوة ما أخفق في واحدة منها ، وأدرك الإسلام ولم يسلم . توفي سنة ٨ هـ (٢) الظُعِينَةُ .
المرأة ما دامت في الهودج (٣) امرأة رداح : عجزاء ثقيلة الأوراك تامة الخلق (٤) القرن :
الكف (٥) شاني : يعينني .

فِي كَنِّهِ خَطَّيَّةٌ ^(١) مُطِيعَةٌ أَوَّلًا فَخَذُّهَا طَعْنَةً سَرِيعَةً

فَالطَّمَنُ مِنِّي فِي الْوَغَى شَرِيعَةً

ثُمَّ حَمَلَ عَلَيْهِ فَصَرَعَهُ .

فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى دُرَيْدٍ بَعَثَ فَارِسًا آخَرَ ؛ لِيَنْظُرَ مَا صَنَعَا ، فَاتَهَى إِلَيْهِمَا ، فَرَأَاهُمَا صَرِيعَيْنِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ يَقُودُ ظَمِينَتَهُ ، وَيَجْرُ رُحْمَهُ ، فَقَالَ لَهُ الْفَارِسُ : خَلَّ عَنْ الظَّمِينَةِ . فَقَالَ لَهُمَا رِييعة : اقْصِدِي قَصْبَةَ الْبَيْتِ ، ثُمَّ أَقْبِلْ عَلَيْهِ فَقَالَ :

مَاذَا تَرِيدُ مِنْ شَتِيمٍ ^(٢) عَابِسٍ أَلَمْ تَرِ الْفَارِسَ بَعْدَ الْفَارِسِ

أَرَدَاهُمَا عَامِلُ رُحْمٍ يَابِسٍ

ثُمَّ طَعْنَهُ فَصَرَعَهُ ، فَانْكَسَرَ رُحْمُهُ .

فَارْتَابَ دُرَيْدٌ ، وَظَنَّ أَنَّهُمْ قَدْ أَخَذُوا الظَّمِينَةَ وَقَتَلُوا الرَّجُلَ ، فَلَحَقَ بِهِمْ فَوْجِدَ رِييعة ^(٣) بَنَ مَكْدَمَ لَا رُحْمَ مَعَهُ وَقَدْ دَنَا مِنَ الْحَيِّ ، وَوَجَدَ أَصْحَابَهُ قَدْ قُتِلُوا ، فَقَالَ لَهُ دُرَيْدٌ : أَيُّهَا الْفَارِسُ ؛ إِنْ مِثْلُكَ لَا يَقْتُلُ ، وَإِنْ الْخَيْلَ نَائِرَةً بِأَصْحَابِهَا ، وَلَا أَرَى مَعَكَ رُحْمًا ، وَأَرَاكَ حَدِيثَ السِّنِّ فَدُونُكَ هَذَا الرَّحْمُ ، فَإِنِّي رَاجِعٌ إِلَى أَصْحَابِي ، فَمُتَّبِعُهُمْ عَنْكَ .

فَاتَى دُرَيْدٌ أَصْحَابَهُ ، فَقَالَ : إِنْ فَارِسَ الظَّمِينَةِ قَدْ حَمَاهَا وَقَتَلَ فَوَارِسَكُمْ وَانْتَزَعَ رُحْمِي وَلَا طَمَعَ لَكُمْ فِيهِ ؛ فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ ، وَقَالَ دُرَيْدٌ :

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ حَامِيَ الظَّمِينَةِ فَارِسًا لَمْ يَقْتُلْ

(١) يَرِيدُ رُحْمًا ، وَالرَّمَاحُ تَنْسَبُ إِلَى الْخَطِّ ، تُغَرُّ بِالْبَجَرَيْنِ (٢) الشَّتِيمُ : الْأَسَدُ الْعَابِسُ .

(٣) رِييعة بَنَ مَكْدَمَ : هُوَ أَحَدُ فَرَسَانِ مَضَرَ الْعَدُوِّينَ ، وَشَجَاعَتُهُمُ الْمَعْهُورِينَ ، تَوَفَّى سَنَةَ ٥٨ هـ م .

أرْدَى فوارسَ لم يكونوا نَهْزَةً^(١) ثم استمرَّ كأنه لم يفْعَلْ
 متهاًلا تَبْدُو أَسِرَّةً وَجْهَهُ — مثل الحسامِ جَلَّتْهُ أَيْدِي الصَّيْقَلِ^(٢)
 يَرْجِي ظَمِينَتَهُ وَيَسْحَبُ رُحْمَهُ متوجّهاً يَمْنَاهُ نَحْوَ المنزل
 وترى الفوارسَ من مخافةِ رُحْمِهِ مثل البُعَاثِ^(٣) خَشِينَ وَقَعَ الْأَجْدَلِ^(٤)
 ياليت شعري مَنْ أبوه وأُمُّه؟ يا صاحٍ من يكُ مثله لا يُجْهَلُ
 فقال ربيعة :

إن كان يَنْفَعَكَ اليقينُ فسألني عَنْ الظمينةِ يَوْمَ وادي الأخرَمِ
 إذ هي لأوَّلِ مَنْ أَتَاهَا نَهْزَةً لولا طِعَانُ ربيعةَ بنِ مُكْدَمٍ
 إذ قال لي أذني الفوارسِ مَيْتَةً : خَلَّ الظَّمِينَةَ طَائِعاً لَا تَنْدَمُ
 فصرفتُ راحلةَ الظمينةِ نَحْوَهُ عَمْداً ليعلمَ بعضَ ما لم يعلمَ
 وهتكتُ بالرمحِ الطويلِ إِهَابَهُ^(٥) فهو صريعاً لليدين وللنمِ
 ومنحتُ آخرَ بَعْدِهِ جِيَاشَةً نجلاءَ فَاغْرَةً كَشِدْقِ الْأَضْجَمِ^(٦)
 ولقد شَفَعَتْهُمَا بآخرِ ثالثٍ وأبى الفِرَارَ لِي الغداةَ تَكْرُمِي

ثم لم يلبث امد ذلك بنو مالك بن كنانة رهط ربيعةَ بنِ مُكْدَمٍ أَنْ أَغَارُوا
 على بني جُشَمٍ رهطٍ دريدٍ ، ففتكوا وأَسْرُوا وَغَنَمُوا ، وأَسْرُوا دُرَيْدَ بن الصمة ،
 فأخفى نسبَهُ ، فبينما هو عندهم إذا جاء نسوة يتهادينَ إليه ، فصرختُ امرأةٌ منهن
 فقالت : هلكتُم وأهلكتم ، ماذا جرَّ علينا فرمنا ؟ هذا والله الذي أعطى ربيعةَ

(١) النَهْزَةُ : الشيء الذي هولاك معرض كالغنيمة ، يقال : فلان نهزة المختلس ، أي صيد لكل
 أحد (٢) الصيقل : جلاء السيوف وشحاذها (٣) البُعَاث : طائر أغبر (٤) الأجْدَل :
 الصقر (٥) إِهَابُهُ : جلده (٦) الضجَم : عوج في الفم ، وميل الشدق . ويشبه الجرح
 الواسع بالفم الأضخم .

٨٨ - عِنْدَ الْمَوْتِ *

مُحِلَّ هُدْبَةَ بْنِ خَشْرَمٍ ^(١) الْعُذْرِيُّ إِلَى مَعَاوِيَةَ ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ ^(٢) زِيَادَةَ بْنَ زَيْدِ الْعُذْرِيِّ ؛ وَتَقَدَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَخُو زِيَادَةَ ؛ فَادَّعَى عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : أَتَحِبُّ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ شِعْراً أَمْ نَثْراً ؟ قَالَ : بَلْ شِعْراً ؛ فَإِنَّهُ أَمْتَعُ أَفْقَالَ هُدْبَةَ :

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهَا هِيَ ضَرْبَةٌ	مِنَ السِّيفِ أَوْ إِغْضَاءِ عَيْنٍ عَلَى وَتَرٍ ^(٣)
عَمَدْتُ لِأَمْرِ لَا يُعِيرُ وَالِدِي	خَزَائِنَتَهُ ^(٤) وَلَا يُسَبُّ بِهِ قَبْرِي
رُمِينَا فَرَامِينَا فَصَادَفَ سَهْمُنَا	مَتْنِيَّةَ نَفْسٍ فِي كِتَابٍ وَفِي قَدْرِ
وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَالْتَنَا	وَدَاءَكَ مِنْ مَعْدَى وَلَا عَنكَ مِنْ قَصْرِ
فَإِنْ تَكُ فِي أَمْوَالِنَا لَا نَضِيقُ بِهَا	ذِرَاعَهَا وَإِنْ صَبْرٌ ^(٥) فَنَصْبُرُ لِلصَّبْرِ

فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : أَرَأَيْكَ قَدْ أَقْرَرْتَ يَا هُدْبَةُ أَقَالَ : هُوَ ذَاكَ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : أَقِذْنِي ^(٦) ؛ فَكَرِهَ ذَلِكَ مَعَاوِيَةَ ، وَضَنَّ بِهِدْبَةَ عَنِ الْقَتْلِ .

* رَقِبَةُ الْأَمَلِ : ٢ - ٢٣٩ ، السَّكَامِلُ : ٢ - ٣٠٣ .

(١) هُدْبَةُ : شَاعِرٌ إِسْلَامِيٌّ فَصِيحٌ مُتَقَدِّمٌ مِنْ بَادِيَةِ الْحِجَازِ ، وَكَانَ رَاوِيَةً لِلْحَطِيبَةِ ، وَكَانَ جَبِيلَ رَاوِيَةً هُدْبَةَ . وَأَمَّا زِيَادَةُ فَيَنْتَهَى نَسَبُهُ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ سَعْدٍ ، وَكَلَامُهُمَا شَاعِرٌ إِسْلَامِيٌّ كَانَ فِي عَهْدِ بَنِي أُمِيَّةٍ ، تَوَفَّى سَنَةَ ٨٥٤ هـ (٢) كَانَ مِنْ أَمْرِ قَتْلِ هُدْبَةَ لَزِيَادَةَ أَنَّهُمَا أَقْبَلَا مِنَ الشَّامِ فِي رَكْبٍ مِنْ قَوْمِهِمَا وَكَانَا يَتَعَاقَبَانِ سَوَى الْإِبِلِ ، فَرَجَزَ كَلَامُهُمَا بِأَخْرِ بَعْدَ يَقْبَحُ ذِكْرَهُ ، فَغَضِبَ هُدْبَةُ حَتَّى أَصَابَ مِنْهُ غُرَّةٌ فَقَتَلَهُ (٣) الْوَتَرُ : الثَّأْرُ (٤) الْحَزَايَةُ : الْاسْتَحْيَاءُ ، وَيُقَالُ : رَجُلٌ خَزْيَانٌ ، وَهُوَ الَّذِي عَمِلَ أَمْرًا قَبِيحًا فَاشْتَدَّ لِنَفْسِهِ حَيَاؤُهُ وَخَزَايَتُهُ (٥) الصَّبْرُ هُنَا : الْحَبْسُ حَتَّى يَمُوتَ (٦) أَقَادَ الْقَاتِلَ بِالْقَتِيلِ : قَتَلَهُ بِهِ .

وكان ابن زيادة صغيراً فوجه به إلى المدينة ؛ وقال : يحبس إلى أن يبلغ .
فلما بلغ كان والى المدينة سعيد بن العاص .
فمما وقف عليه من قسوته قوله :

ولما دخلت السجن يا أم مالك ذكرتك والأطراف في حلق سمر^(١)
وعند سعيد غير أن لم أبج به ذكرتك ، إن الأمر يذكر بالأمر

فسئل عن هذا القول ، فقال : لما رأيت نمر^(٢) سعيد ، ذكرت به نمرها .
ثم إنه عرض^(٣) على ابن زيادة عشر ديات ؛ فأبى إلا القود ، فلما خرج
بهذه ليقاد بالحرّة^(٤) ، جعل ينشد الأشعار ، فقالت له حتى^(٥) المدينة : ما رأيت
أقضى قاباً منك ! أتشد الأشعار وأنت يمضى بك إلى القتل ، وهذه خلفك كأنها
ظبي عطشان تولول - تعنى امرأته ؛ فوقف ووقف الناس معه ، فأقبل على
حتى فقال :

ما وجدت وجدى بها أم واحد ولا وجد حتى بابن أم كلاب^(٦)
رأته طویل الساعدین شمر دلا^(٧) كما انتعت^(٨) من قوة وشباب
فأغلقت حتى الباب في وجهه وسبته .

(١) الأطراف : يريد يديه ورجليه ، والحلق السر : القيود والأغلال (٢) كان سعيد من
أحسن الناس نفرا (٣) كان ممن عرض الديات عليه الحسين بن علي ، وعبد الله بن جعفر ،
وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ، وسائر القوم من قريش والأنصار (٤) موضع
بالمدينة (٥) حتى : اسم امرأة كانت معروفة بالمدينة ، والمدينة يائبات الياء ، نقل ياقوت : أنه
يقال : مدني ، لمن تحول عن المدينة وكان منها ، ومدني لمن أقام فيها (٦) ابن أم كلاب : زوج حتى ،
وكان شاباً تزوجته وكانت عجوزاً (٧) النقي : القوي (٨) المتعت من الدواب والناس :
الموصوف بما يفضل على غيره (اللسان - مادة نعت) .

الحال ! قال : نعم ، فأنشده :

ولا جازع من صرفه (١) المتقلب

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَكُونَنَّ لَهُ شُكْرًا

وہ جس سے کسی ایک میں بھی اسرار ہے

(7) لہذا اہل بیت کے

أوله : فبينما (٥) رتبه مات الق

فَقَالَتْ : قِفُوا عَنْهُ سَاعَةً ، ثُمَّ

الافعلُ مَرْنُوهُ فِي الرِّجَالِ مَحَلَّةٌ

شكركم قول بحق أبو يونس فقال نعمت

أُبْلِيَانِ الْيَوْمَ صَبْرًا مِنْ

ما أظنُّ الموتَ إلا

(۶) مالک الثمار و هیقالا : یستأجره لایع ، فیلجوع هیدو بدیو : سفالہ ثلثا (۱)

و بعد از آنکه در این باب، بنیاد تعلیمات و تربیت را بنا نهادیم (۶) ایضا به لفظان رسیده

(3) الحفظ : الحفظ هو حفظ الشيء في الذاكرة ، وهو من أهم وظائف العقل .

هذا : تم في راقه د وليا ت ليلي قنيديلا د قنيديلا قنيديلا قنيديلا : (٥) قنيديلا

(١٩) تصرف الكافر أو يخلد ثأله وقوايته (٢٠) حر ينجى (٢١) على الصليب (٢٢) مان: بالقد

فصل وذهب عنه (٤) الغنم : سيلان الشعر حتى تصيق به الحية والثفا (٥) البرع : المحاسن

لشعر من جانبي الجبهة (٦) العلم : قطع الأذن والأقرب من أصله . واسطخله : استأصله .

٨٩ - تَعْدُو الذَّنَابُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ *

حجَّ أبو الأسود ^(١) الدؤلى ومعه امرأته - وكانت جميلة - فبينما هي تطوف بالبيت إذ عرض لها عمر بن أبي ربيعة ، فأتت أبا الأسود فأخبرته ، فأتاه أبو الأسود فعاتبه ، فقال له عمر : ما فعلت شيئا ، فلما عادت إلى المسجد عاد فكلَّمها ؛ فأخبرت أبا الأسود فأتاه في المسجد وهو مع قومٍ جالسٌ فقال له :

وإني كَيْثَنِيَّيْنِي عن الجهل وانلحنا وعن شتم أقوامٍ خلائقُ أربعُ
حياء وإسلامٌ وبقيا ^(٢) وأننى كريم ، ومثلى قد يضرُّ وينفعُ
فشتانَ ما بينى وبينك إننى على كل حال أستقيم وتظلم ^(٣)

فقال له عمر : لستُ أعودُ يا عم لكلامٍ بها بعد هذا اليوم ، ثم عاد فكلَّمها ؛ فأتت أبا الأسود فأخبرته ، فجاء إليه فقال له :

أنتَ الفقى وابنُ الفقى وأخو الفقى وسيدنا لولا خلائقُ أربعُ
نُكولٌ عن الجلى ، وقربٌ من الخنا وبُخلٌ عن الجدوى ؛ وأنتَ تبع ^(٤)

ثم خرجت وخرج معها أبو الأسود مُشْتَمِلًا على سيف ، فلما رآها عمرُ أعرض عنها ، فتمثل أبو الأسود :

تَعْدُو الذَّنَابُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ وتثقى صَوْلَةُ المستأسدِ الحامى

* الأغاني : ١ - ١٤٨ .

(١) هو ظالم بن عمرو أبو الأسود الدؤلى الكنانى صاحب على وواضع النحو ، وصاحب النوادر المتنعة فى الآداب العربية . توفى سنة ٦٩ هـ (٢) يقال : أبقيت عليه بقيا : أشفقت عليه ورحمته (٣) ظلم : عرج وغمز فى مشيته (٤) يقال : هو تبع نساء ، إذا جد فى طلبهن .

٩٠- الأحوص وابن حزم الأنصاري*

شَبَّ الأحوص^(١) بامرأة يقال لها : أم جعفر ، فقال فيها :

أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرِ بأبياتكم ما درتُ حيثُ أدورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكن ذا الهوى إذ لم يُزَزْ لا بدَّ أن سيزورُ

وكان لأم جعفر أخ يقال له أيمنُ ، فاستعدى عليه ابن حزم الأنصاري وهو
وَالِي المدينة للوليد بن عبد الملك ، فبعث ابن حزم إلى الأحوص فأتاه - وكان
ابن حزم يُبغِضُه - فقال : ما تقول فيما يَقُولُ هذا ؟ قال : وما يقول ؟ قال : يزعم
أنك تُشَبُّ بأخته ، وقد فضحتَه وشهرَّت به ! فأنكر الأحوص ذلك .

فقال لهما : قد اشتبه على أمركا ؛ ولكنني أدفع إلى كل واحدٍ منكما سوطاً ،
ثم اجتليدا - وكان الأحوص قصيراً نحيفاً ، وكا أيمن طويلاً ضخماً - فاجتليدا ، فغلب
أيمنُ الأخوص فضربه حتى صرعه وأثمنه .

فلما رأى الأحوص تحامل ابن حزم عليه امتدح الوليد بن عبد الملك ، ثم
شخص إليه في الشام ، ودخل عليه وأنشده :

أَهْوَى أُمِّيَّةَ إِن شَطَّتْ وَإِنْ قَرِبَتْ يَوْمًا وَأَهْدَى لَهَا نَصْحِي وَأَشْعَارِي

* المقد الفريد : ٣ - ٢٩١ ، الأغاني : ٤ - ٢٣٨

(١) كان الأحوص شاعراً سمح الطبع ، سهل الكلام ، صحيح معاني الشعر ، ولشعره رونق
وديباجة صافية ، مع حلاوة وعذوبة ألفاظ ، إلا أنه كان قليل المروءة والدين ، هجاء للناس .
توفي سنة ١٠٥ هـ

ضرَّكم في ذلك الحين لينفَعَنكم اليوم . ثم كتب إلى عامل المدينة أن يردَّ جميع ما اقتطعه بنو أمية من ضياع بني حَزْم وأموالهم ، ويحسب لهم ما فاتهم من عطائهم ، وما استفلَّ من غلَّاتهم من يؤمئذ إلى اليوم ، فيخاف لهم جميع ذلك من ضياع بني مروان ، ويفرض لكل واحدٍ منهم في شَرَفِ العطاء ^(١) . ثم قال : على الساعة بعشرة آلاف درهم تُدْفَع إلى هذا الرجل لنفقته ؛ فخرج من عنده بما لم يخرج به أحدٌ ممَّن دخلوا عليه .

(١) كان شرف العطاء يؤمئذ مائتي دينار في السنة .

البَابُ الرَّابِعُ

فِي الْقِصَصِ الَّتِي أَرَادَ بِهَا الْكِتَابُ تَصْوِيرَ حَالَةِ
أَوْ شَخْصٍ، أَوْ مَجْلَسٍ، وَاخْتَرَعُوا لَهَا مِنَ الْكَلَامِ مَا يَبْلُغُ
إِرَادَتِهِمْ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْبَابِ مَا وَضَعُوهُ عَلَى أَلْسِنَةِ
الطَّيْرِ وَالْبَهَائِمِ، وَأَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ مِنْ مَحَاوِرَاتٍ وَأَحَادِيثٍ
تَحْمِلُ فِي أَثْنَائِهَا الْمَعْبَرَةَ وَالْمَعْظَةَ وَالنَّصِيحَ .

بها ، فدفع الله شرّها ، وبسرّ خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ تَلَكُؤُ وِشْمَاسٍ ^(١) ،
وتَهْمُ ^(٢) ونِفَاسٍ ^(٣) ، فَكَّرَ أَنْ يَتِمَّادَى الْحَالُ فَيَبْدُو الْعَوْرَةُ ، وَتَشْتَعِلَ الْجَمْرَةُ ،
وتتفرّق ذاتُ البَيْنِ ؛ فدعاني بحضرته في خلوةٍ - وكان عنده عمر بن الخطاب ،
رضي الله عنه وَحْدَهُ - فقال : يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ؛ مَا أَيْمَنَ نَاصِيَتَكَ ، وَأَبَيَّنَ الْخَيْرَ
بَيْنَ عَيْنَيْكَ طَالَمَا أَعَزَّ اللَّهُ بِكَ الْإِسْلَامَ ، وَأَصْلَحَ شَأْنَهُ عَلَى يَدَيْكَ ، وَلَقَدْ كُنْتُ
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَكَانِ الْمَحْضُوطِ ، وَالْحُلِّ الْمَنْبُوطِ ؛ وَلَقَدْ قَالَ فِيكَ
فِي يَوْمٍ مَشْهُودٍ « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ » ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ » ولم تزل
لِلدِّينِ مُلْتَجِئًا ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ مُرْتَجِيًا ، وَلِلْأَهْلِ رُكْنًا ، وَلِلْإِخْوَانِ رِذَاءًا .

قد أردتُكَ لأمرٍ خَطَرُهُ مَخُوفٌ ، وَإِصْلَاحُهُ مِنْ أَعْظَمِ الْمَعْرُوفِ ، وَلَئِنْ لَمْ
يَنْدَمِلْ جُرْحُهُ بِيَسَارِكَ وَرِقَّتِكَ ، وَلَمْ تَجِبْ ^(٤) حَيْثَ بَرُّقِيَّتِكَ ، وَقَعَ الْبِئْسُ ،
وَأَغْضَلَ الْبِئْسَ ، وَاحْتِجَجَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَا هُوَ أَمْرٌ مِنْهُ وَأُغْلِقُ ، وَأَعْسُرُ مِنْهُ وَأُغْلِقُ ،
وَاللَّهُ أَسْأَلُ تِمَامَهُ بِكَ وَنِظَامَهُ عَلَى يَدَيْكَ ، فَتَأْتِ ^(٥) لَهُ أَبَا عُبَيْدَةَ وَتَلَطَّفَ فِيهِ ،
وَانْصَحْ لَهْ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلِهَذِهِ الْعِصَابَةِ غَيْرَ آلٍ جُهْدًا ،
وَلَا قَالَ حَمْدًا ، وَاللَّهُ كَالِئِكَ وَنَاصِرُكَ ، وَهَادِيكَ وَمُبْصِرُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

امضِ إِلَى عَلِيٍّ ، وَاخْفِضْ لَهُ جَنَاحَكَ ، وَاغْضُضْ عَنْهُ صَوْتَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ
سَلَاةُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمَكَانُهُ مِنْ فَقْدِنَاهِ بِالْأَمْسِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَكَانُهُ

(١) الشَّمَّاسُ : المَعَانِدَةُ وَالْمَعَادَاةُ (٢) التَّهْمُ : مِنْ تَهَمَ الشَّيْءَ طَلَبَهُ وَتَحَسَّسَهُ (٣) نَافَسَ فِي
الشَّيْءِ : رَغِبَ فِيهِ عَلَى وَجْهِ الْمُبَارَاةِ وَالْمَفَاخِرَةِ (٤) تَجِبَ : تَقَطَّعَ (٥) تَأْتِ لَهُ : تَهَيَّأَ لَهُ وَأَتَتْهُ
مِنْ وَجْهِهِ .

وقل له : البحر مَفْرَقَةٌ ، والبرُّ مَفْرَقَةٌ ، والجوُّ أَكْلَفٌ ^(١) ، والليلُ أَغْدَفٌ ^(٢) ، والسماءُ جَلَوَاءٌ ^(٣) ، والأرضُ صَلْعَاءٌ ^(٤) ، والصمودُ مُتَعَذِّرٌ ، والمهبوطُ مُتَمَسِّرٌ ، والحقُّ عَطُوفٌ رَعُوفٌ ، والباطلُ عَنُوفٌ عَسُوفٌ ، والمُجِبُّ قَدَاحَةُ الشَّرِّ ، والضُّمْنُ رائدُ البَوَارِ ، والتعريضُ شِجَارُ القِتْنَةِ ، والقِيحَةُ ثَقُوبٌ ^(٥) العداوة ؛ وهذا الشيطانُ مُتَّكِيٌّ ، على شِمَالِهِ ، مُتَحَيِّلٌ ^(٦) بِيَمِينِهِ ، نَافِعٌ حِضْنِيهِ ^(٧) ، ينتظرُ الشَّتَاتِ والفُرْقَةَ ، ويدبُّ بين الأمة بالشُّحْنَاءِ والعداوة ، عِنَاداً لله عزَّ وجلَّ أولاً ، ولآدم ثانياً ، ولنبيِّهِ - صلى الله عليه وسلم - ودينه ثالثاً ، يُوسِّسُ بالفجور ، ويدلِّي بالنور ، ويمنِّي أهل الشرور ، يُوحِي إلى أوليائه زُخْرُفَ القول غروراً بالباطل ، دَآبّاً له منذ كان على عهد أبينا آدم ، وعادة له منذ أهانَه الله تعالى في سالفِ الدهر ، لا مَنجَى منه إلا بِمَعْزِ النَاجِذِ ^(٨) على الحق ، وَغَضٌّ الطرف عن الباطل ، وَوَطْءُ هَامَةِ عَدُوِّ الله بالأشدِّ فالأشدِّ ، والآكِدِ فالآكِدِ ، وإسلام النفس لله عز وجل في ابتغاء رضاه .

ولابد الآن من قولٍ ينفع إذ قد أضربَ السكوت ، وخيفَ غِبُّهُ ؛ ولقد أرشدك مَنْ أَفَاءَ ^(٩) صَالَتَكَ ، وَصَافَاكَ مِنْ أَحْيَا مَوَدَّتِهِ بِمِثَابِكَ ، وأراد لك الخيرَ مَنْ آثَرَ البقاءَ مَعَكَ .

ما هذا الذي تسوِّل لك نفسك ؟ ويدوِّي ^(١٠) به قلبُك ، ويلتوى عليه رأيُك ،

(١) أَكْلَفٌ : أسود تملوه حره (٢) أَغْدَفٌ : مظلم (٣) جَلَوَاءٌ : مصحية (٤) صَلْعَاءٌ : خالية لاشجر فيها (٥) ثَقُوبٌ : ما أشعل به (٦) التَحْيِيلُ : الاحتيال (٧) نَافِعٌ حِضْنِيهِ : أى مستعد لأن يعمل عمله من الشر (٨) غَضٌّ عليه بالنواجذ ، أى تمسك به (٩) أَفَاءَ : أرجع . (١٠) دوى الطائر : إذا دار في طيرانه .

(١) الكثرة غايته في خفضه عن الجبر (٦) (٢) الحدا التبيين في هذا التخليط (٣) (٤) المصنوع من أصل لا الظن (٥) :
 الشجر الملتف في الرامى ، والمهاد الاستغناء (٦) الخرق ما روي أنه من جنس عجمي (٧) وهو مثل بعض السبليل
 يندفع صاحبه (٨) الشنان : جمع شنة وهو القرية الخلق الصغيرة ، والقعة : الصورة يندفع
 عنها : (٩) (١٠) (١١) (١٢) (١٣) (١٤) (١٥) (١٦) (١٧) (١٨) (١٩) (٢٠) (٢١) (٢٢) (٢٣) (٢٤) (٢٥) (٢٦) (٢٧) (٢٨) (٢٩) (٣٠) (٣١) (٣٢) (٣٣) (٣٤) (٣٥) (٣٦) (٣٧) (٣٨) (٣٩) (٤٠) (٤١) (٤٢) (٤٣) (٤٤) (٤٥) (٤٦) (٤٧) (٤٨) (٤٩) (٥٠) (٥١) (٥٢) (٥٣) (٥٤) (٥٥) (٥٦) (٥٧) (٥٨) (٥٩) (٦٠) (٦١) (٦٢) (٦٣) (٦٤) (٦٥) (٦٦) (٦٧) (٦٨) (٦٩) (٧٠) (٧١) (٧٢) (٧٣) (٧٤) (٧٥) (٧٦) (٧٧) (٧٨) (٧٩) (٨٠) (٨١) (٨٢) (٨٣) (٨٤) (٨٥) (٨٦) (٨٧) (٨٨) (٨٩) (٩٠) (٩١) (٩٢) (٩٣) (٩٤) (٩٥) (٩٦) (٩٧) (٩٨) (٩٩) (١٠٠) (١٠١) (١٠٢) (١٠٣) (١٠٤) (١٠٥) (١٠٦) (١٠٧) (١٠٨) (١٠٩) (١١٠) (١١١) (١١٢) (١١٣) (١١٤) (١١٥) (١١٦) (١١٧) (١١٨) (١١٩) (١٢٠) (١٢١) (١٢٢) (١٢٣) (١٢٤) (١٢٥) (١٢٦) (١٢٧) (١٢٨) (١٢٩) (١٣٠) (١٣١) (١٣٢) (١٣٣) (١٣٤) (١٣٥) (١٣٦) (١٣٧) (١٣٨) (١٣٩) (١٤٠) (١٤١) (١٤٢) (١٤٣) (١٤٤) (١٤٥) (١٤٦) (١٤٧) (١٤٨) (١٤٩) (١٥٠) (١٥١) (١٥٢) (١٥٣) (١٥٤) (١٥٥) (١٥٦) (١٥٧) (١٥٨) (١٥٩) (١٦٠) (١٦١) (١٦٢) (١٦٣) (١٦٤) (١٦٥) (١٦٦) (١٦٧) (١٦٨) (١٦٩) (١٧٠) (١٧١) (١٧٢) (١٧٣) (١٧٤) (١٧٥) (١٧٦) (١٧٧) (١٧٨) (١٧٩) (١٨٠) (١٨١) (١٨٢) (١٨٣) (١٨٤) (١٨٥) (١٨٦) (١٨٧) (١٨٨) (١٨٩) (١٩٠) (١٩١) (١٩٢) (١٩٣) (١٩٤) (١٩٥) (١٩٦) (١٩٧) (١٩٨) (١٩٩) (٢٠٠) (٢٠١) (٢٠٢) (٢٠٣) (٢٠٤) (٢٠٥) (٢٠٦) (٢٠٧) (٢٠٨) (٢٠٩) (٢١٠) (٢١١) (٢١٢) (٢١٣) (٢١٤) (٢١٥) (٢١٦) (٢١٧) (٢١٨) (٢١٩) (٢٢٠) (٢٢١) (٢٢٢) (٢٢٣) (٢٢٤) (٢٢٥) (٢٢٦) (٢٢٧) (٢٢٨) (٢٢٩) (٢٣٠) (٢٣١) (٢٣٢) (٢٣٣) (٢٣٤) (٢٣٥) (٢٣٦) (٢٣٧) (٢٣٨) (٢٣٩) (٢٤٠) (٢٤١) (٢٤٢) (٢٤٣) (٢٤٤) (٢٤٥) (٢٤٦) (٢٤٧) (٢٤٨) (٢٤٩) (٢٥٠) (٢٥١) (٢٥٢) (٢٥٣) (٢٥٤) (٢٥٥) (٢٥٦) (٢٥٧) (٢٥٨) (٢٥٩) (٢٦٠) (٢٦١) (٢٦٢) (٢٦٣) (٢٦٤) (٢٦٥) (٢٦٦) (٢٦٧) (٢٦٨) (٢٦٩) (٢٧٠) (٢٧١) (٢٧٢) (٢٧٣) (٢٧٤) (٢٧٥) (٢٧٦) (٢٧٧) (٢٧٨) (٢٧٩) (٢٨٠) (٢٨١) (٢٨٢) (٢٨٣) (٢٨٤) (٢٨٥) (٢٨٦) (٢٨٧) (٢٨٨) (٢٨٩) (٢٩٠) (٢٩١) (٢٩٢) (٢٩٣) (٢٩٤) (٢٩٥) (٢٩٦) (٢٩٧) (٢٩٨) (٢٩٩) (٣٠٠) (٣٠١) (٣٠٢) (٣٠٣) (٣٠٤) (٣٠٥) (٣٠٦) (٣٠٧) (٣٠٨) (٣٠٩) (٣١٠) (٣١١) (٣١٢) (٣١٣) (٣١٤) (٣١٥) (٣١٦) (٣١٧) (٣١٨) (٣١٩) (٣٢٠) (٣٢١) (٣٢٢) (٣٢٣) (٣٢٤) (٣٢٥) (٣٢٦) (٣٢٧) (٣٢٨) (٣٢٩) (٣٣٠) (٣٣١) (٣٣٢) (٣٣٣) (٣٣٤) (٣٣٥) (٣٣٦) (٣٣٧) (٣٣٨) (٣٣٩) (٣٤٠) (٣٤١) (٣٤٢) (٣٤٣) (٣٤٤) (٣٤٥) (٣٤٦) (٣٤٧) (٣٤٨) (٣٤٩) (٣٥٠) (٣٥١) (٣٥٢) (٣٥٣) (٣٥٤) (٣٥٥) (٣٥٦) (٣٥٧) (٣٥٨) (٣٥٩) (٣٦٠) (٣٦١) (٣٦٢) (٣٦٣) (٣٦٤) (٣٦٥) (٣٦٦) (٣٦٧) (٣٦٨) (٣٦٩) (٣٧٠) (٣٧١) (٣٧٢) (٣٧٣) (٣٧٤) (٣٧٥) (٣٧٦) (٣٧٧) (٣٧٨) (٣٧٩) (٣٨٠) (٣٨١) (٣٨٢) (٣٨٣) (٣٨٤) (٣٨٥) (٣٨٦) (٣٨٧) (٣٨٨) (٣٨٩) (٣٩٠) (٣٩١) (٣٩٢) (٣٩٣) (٣٩٤) (٣٩٥) (٣٩٦) (٣٩٧) (٣٩٨) (٣٩٩) (٤٠٠) (٤٠١) (٤٠٢) (٤٠٣) (٤٠٤) (٤٠٥) (٤٠٦) (٤٠٧) (٤٠٨) (٤٠٩) (٤١٠) (٤١١) (٤١٢) (٤١٣) (٤١٤) (٤١٥) (٤١٦) (٤١٧) (٤١٨) (٤١٩) (٤٢٠) (٤٢١) (٤٢٢) (٤٢٣) (٤٢٤) (٤٢٥) (٤٢٦) (٤٢٧) (٤٢٨) (٤٢٩) (٤٣٠) (٤٣١) (٤٣٢) (٤٣٣) (٤٣٤) (٤٣٥) (٤٣٦) (٤٣٧) (٤٣٨) (٤٣٩) (٤٤٠) (٤٤١) (٤٤٢) (٤٤٣) (٤٤٤) (٤٤٥) (٤٤٦) (٤٤٧) (٤٤٨) (٤٤٩) (٤٥٠) (٤٥١) (٤٥٢) (٤٥٣) (٤٥٤) (٤٥٥) (٤٥٦) (٤٥٧) (٤٥٨) (٤٥٩) (٤٦٠) (٤٦١) (٤٦٢) (٤٦٣) (٤٦٤) (٤٦٥) (٤٦٦) (٤٦٧) (٤٦٨) (٤٦٩) (٤٧٠) (٤٧١) (٤٧٢) (٤٧٣) (٤٧٤) (٤٧٥) (٤٧٦) (٤٧٧) (٤٧٨) (٤٧٩) (٤٨٠) (٤٨١) (٤٨٢) (٤٨٣) (٤٨٤) (٤٨٥) (٤٨٦) (٤٨٧) (٤٨٨) (٤٨٩) (٤٩٠) (٤٩١) (٤٩٢) (٤٩٣) (٤٩٤) (٤٩٥) (٤٩٦) (٤٩٧) (٤٩٨) (٤٩٩) (٥٠٠) (٥٠١) (٥٠٢) (٥٠٣) (٥٠٤) (٥٠٥) (٥٠٦) (٥٠٧) (٥٠٨) (٥٠٩) (٥١٠) (٥١١) (٥١٢) (٥١٣) (٥١٤) (٥١٥) (٥١٦) (٥١٧) (٥١٨) (٥١٩) (٥٢٠) (٥٢١) (٥٢٢) (٥٢٣) (٥٢٤) (٥٢٥) (٥

تتطاول بالفخر ، والشَّفَارُ تُشَحِّدُ بِالْمَكْرِ ، والأرض تَمِيدُ بالخوف ، لا تَنْتَظِرُ عند
المساء صَبَاحًا ، ولا عند الصباح مَسَاءً ، ولا ندفعُ في نَحْرِ أَمْرٍ إِلَّا بعد أن نَحْسُوَ
الموتَ دونه ، ولا نبلغُ مُرادًا إِلَّا بعد الإياس من الحياة عنده ، فادِينَ في جميع ذلك
رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم ، والخال والعم ، والمال والنَّشَب ، والسَّبد
واللَّبد^(١) ، والِهَلَّة^(٢) والبِلَّة ، بِطِيبِ أَنْفُسٍ ، وَقُرَّةِ أَعْيُنٍ ، وَرُحْبِ أَعْطَانٍ ،
وَثَبَاتِ عِزَائِمٍ ، وَصِحَّةِ عُقُولٍ ، وَطَلَاقَةِ أَوْجِهٍ ، وَذَلَاقَةِ أَلْسُنٍ .

هذا مع خَفِيَّاتِ أسرار ، ومكنوناتِ أخبار ، كُنتَ عنها غَافِلًا ، ولولا سِنُّكَ
لم تكن عن شيء منها نَاقِلًا^(٣) ، وكيف وفؤادُكَ مَشْهُومٌ^(٤) ، وعودُكَ معجوم !
والآن قد بلغ الله بك ، وأنْهَضَ الخَيْرَ لك ، وجعل مرادَكَ بين يديكَ ، وعن علمٍ
أقول ما تسمع ، فارتقبْ زمانَكَ ، وَقَلِّضْ أَرْدَانَكَ^(٥) ، ودَعِ التَّعَسُّسَ والتَّجَسُّسَ
لِمَنْ لَا يَظْلَعُ^(٦) لك إذا خطا ، ولا يَنْزَحْزَحْ عَنْكَ إذا عَطَا^(٧) ؛ فالأمرُ غَضٌّ ؛
والنفوسُ فيها مَضٌّ ، وإنَّكَ أديمُ هذه الأمة ، فلا تَحْلَمْ^(٨) لَجَاجًا ، وسيفُها
العَضْبُ ، فلا تَنْبُ اغْوِجَاجًا ، وماؤُها العَذْبُ ، فلا تَحُلْ أُجَاجًا .

والله لقد سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر ، فقال لي :
يا أبا بكر ؛ هو لمن يرغبُ عنه لا لمن يُجَاحِشُ^(٩) عليه ، ولمن يتضاءلُ عنه لا لمن

(١) السبد : الشعر ، واللبد : الصوف . والمراد : تفديهِ بكل ما تملك (٢) يقال : جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة : أى لم يأتنا بشيء ، فاهلة من الفرح والاستهلال ، والبله من البلل والخير .
(٣) نكسل عن الشيء : نكص وجبن (٤) مشهوم : ذكى متوقد (٥) الأردان : جمع ردن : وهو أصل الكم ، أو الكم كله (٦) ظلع في مشيه : عرج وغمز (٧) عطا : مد إليك ، نقه وأقبل نحوك
(٨) حلم الجلد : فسد وثقب (٩) يطلبه ويدافع عنه .

يَتَنَفَّجُ^(١) إِلَيْهِ ؛ هُوَ لِمَنْ يُقَالُ هَوْلُكَ ، لَا لِمَنْ يَقُولُ هُوَ لِي .

ولقد شاورني رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصُّهْرِ ، فَذَكَرَ فِتْيَانًا مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقُلْتُ : أَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَلِيٍّ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي أَكْرَهُ لِفَاطِمَةَ مَيْعَةَ^(٢) شَبَابِهِ ، وَحِدَاثَةَ سِنِّهِ . فَقُلْتُ لَهُ : مَتَى كُنْفَتُهُ يَدُكَ ، وَرَعْتَهُ عَيْنُكَ ، حَفَّتْ بِهِمَا الْبَرَكَةُ ، وَأُسَيِّفَتُ عَلَيْهِمَا النِّعْمَةُ ؛ مَعَ كَلَامٍ كَثِيرٍ خَاطَبْتُهُ بِهِ ؛ رَغْبَةً فِيكَ ، وَمَا كُنْتُ عَرَفْتُ مِنْكَ فِي ذَلِكَ لَا حَوَاجًا^(٣) وَلَا لَوَاجًا ، فَقُلْتُ مَا قُلْتُ وَأَنَا أَرَى مَكَانَ غَيْرِكَ ، وَاحِدُ رَاحَتِهِ سِوَاكَ ، وَكُنْتُ إِذَا ذَاكَ خَيْرًا لَكَ مِنْكَ الْآنَ لِي .

وَلَمَّا كَانَ عَرَضُ بَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، فَلَمْ يَكُنْ مُعْرِضًا عَنْ غَيْرِكَ ؛ وَإِنْ كَانَ قَالَ فِيكَ فَمَا سَكَتَ عَنْ سِوَاكَ ؛ وَإِنْ تَلَجَّلَجَ^(٤) فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ فَهَلُمْ ، فَأُلْحِمْكُمْ مَرْضَى^(٥) ، وَالصَّوَابَ مَسْمُوعٌ ، وَالْحَقُّ مُطَاعٌ .

وَلَقَدْ نَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا ، وَهُوَ عَنِ الْمَصَابِيَةِ رَاضٍ ، وَعَلَيْهَا حَدِيبٌ ، يَسْرُهُ مَا سَرَّهَا ، وَيَسُوءُهُ مَا سَاءَهَا ، وَيَكِيدُهُ مَا كَادَهَا ، وَيَرْضِيهِ مَا أَرْضَاهَا ، وَيُسْخِطُهُ مَا أَسْخَطَهَا .

أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَدْعَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَقَارِبِهِ وَسُجَرَائِهِ^(٥) ، إِلَّا أَبَانَهُ بِفَضِيلَةٍ ، وَخَصَّهُ بِمِزْيَةٍ ، وَأَفْرَدَهُ بِحَالَةٍ ، لَوْ أَصْفَقَتِ الْأُمَةُ عَلَيْهِ لِأَجْلِهَا لَكَانَ عِنْدَهُ إِيَّالَهَا

(١) يتعالم ويرتفع إليه (٢) مائة الشباب : أوله (٣) أي ما كنت عرفت منك شيئاً (٤) تلجلج : تردد (٥) سجنائه : أصفياه .

وَكَفَّالْتَهَا^(١) . أَتَفْلَنُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ الْأُمَّةَ سُذًى بَدَدًا ؛ عَبَاهِلَ^(٢) مِبَاهِلَ ، طَلَاحَى^(٣) مَفْتُونَةً بِالْبَاطِلِ ، مَعْنُونَةً^(٤) عَنِ الْحَقِّ ؛ لَا رَائِدَ وَلَا ذَائِدَ ، وَلَا ضَابِطَ وَلَا حَائِطَ ، وَلَا سَاقِيَ وَلَا وَاقِيَ ، وَلَا هَادِيَ وَلَا حَادِيَ إِلَّا كَلَا ! وَاللَّهُ مَا اشْتَقَّ إِلَى رَبِّهِ ، وَلَا سَأَلَ الْمَصِيرَ إِلَى رِضْوَانِهِ وَقُرْبِهِ ؛ إِلَّا بَعْدَ أَنْ ضَرَبَ الْمَدَى ، وَأَوْضَحَ الْمُدَى ، وَأَبَانَ الصُّوَى^(٥) ؛ وَأَمَّنَ الْمَسَالِكَ وَالْمَطَارِحَ ؛ وَسَهَّلَ الْمُبَارَكَ وَالْمَهَائِغَ^(٦) ؛ وَإِلَّا بَعْدَ أَنْ شَدَخَ يَافُوخَ^(٧) الشَّرِّكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَشَرَمَ وَجْهَ النِّفَاقِ لَوَجْهِ اللَّهِ ، وَجَدَعَ أَنْفَ الْفِتْنَةِ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَتَفَلَ فِي عَيْنِ الشَّيْطَانِ بِعَوْنِ اللَّهِ ، وَصَدَعَ بِمَلَأٍ فِيهِ وَيَدِهِ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَبَعْدُ فَهَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ عِنْدَكَ ؛ وَمَعَكَ فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَدَارِ جَامِعَةٍ ، إِنْ اسْتَقَالُونِي لَكَ ، وَأَشَارُوا عِنْدِي بِكَ ، فَأَنَا وَاضِعٌ يَدِي فِي يَدِكَ ، وَصَائِرٌ إِلَى رَأْيِهِمْ فِيكَ .

وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى فَادْخُلْ فِيهَا دَخَلَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ ؛ وَكُنِ الْعَوْنَ عَلَى مَصَالِحِهِمْ ، وَالْفَاتِحَ لِمَعَايِقِهِمْ ، وَالْمُرْشِدَ لِمَضَالِحِهِمْ ، وَالرَّادِعَ لِعَوَايِتِهِمْ ؛ فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَالتَّنَاصُرِ عَلَى الْحَقِّ ، وَدَعَانَا نَقْضِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِصُدُورِ بَرِيئَةٍ مِنَ الْغُلِّ ؛ وَنَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى بِقُلُوبِ سَلِيمَةٍ مِنَ الضُّغْنِ .

(١) أَصْفَقُوا عَلَى كَذَا : أَطْبَقُوا ، وَآلَ عَلَى الْقَوْمِ إِيَالَةً : وَلَّى (٢) عَبَاهِلَ مِبَاهِلَ : مَهْمَلَةٌ
(٣) الطَّلَاحَى : السَّكَاةُ الْعَبِيَّةُ (٤) مَعْنُونَةٌ : مِنْ عَنَنْتَ الْفَرَسَ : حَبَسْتَهُ بِالْعَنَانِ (٥) الصُّوَى :
الْأَعْلَامُ (٦) الْمَهَائِغُ : الطَّرِيقُ (٧) الْيَافُوخُ : مَلْتَقَى عَظْمِ مَقْدَمِ الرَّأْسِ وَمُؤَخَّرِهِ .

وبعد فالتاس ثُمَامَةٌ^(١) فارفق بهم ؛ واخن عليهم ، ولين لهم ، ولا تُشَقْ
نفسك بنا خاصة منهم ؛ وانترك ناجيم^(٢) الحقد حصيداً ؛ وطائر الشر واقعاً ؛ وباب
الفتنة منلقاً ، فلا قال ولا قيل ؛ ولا لوم ولا تعنيف ، والله على ما نقول شهيد ،
وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عبيدة : فلما تأهبت للنهوض قال عمر - رضى الله عنه : كُنْ لَدَى
الباب هنيئة ، فلي معك دورٌ من القول ، فوَقَّفتُ وما أدري ما كان بعدى ، إلا
أنَّهُ لحقنى بوجه يُبْدِي تَهَلُّلاً ، وقال لى : قل لى : الرقادُ تحلةٌ ، والهوى
مقحمةٌ^(٣) ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحقٌ مشاعٌ أو مقسوم ، ونَبَأٌ ظاهر
أو مكتوم ؛ وإن أكيس الكيس من مَنَعَ الشاردَ تألفاً ، وقاربَ البعيدَ تطفناً ،
وَوَزَنَ كلَّ شَيْءٍ بِمِيزَانِهِ ، ولم يخلط خبره بعيانه ، ولم يجعل فتره مكان شبره ؛
ديناً كان أو دنياً ؛ ضلالاً كان أو هدى .

ولا خير فى عِلْمٍ مُسْتَمَلٍ فى جهل ، ولا خير فى معرفةٍ مَشُوبَةٍ بِنُكْرٍ .
ولسنا كَجِلْدَةٍ رُفِعَ^(٤) البعير بين العجان والذئب . وكل صالٍ فَبِنَارِهِ ؛ وكل
سَّيْلٍ فإلى قَرَارِهِ . وما كان مكوتُ هذه العصابة إلى هذه الغاية لى ، ولا
كلامها اليوم لفرقٍ أو رفقٍ . وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل ذى كبر ،
وقصم ظهر كل جبار ؛ وقطع لسان كل كذوب ، فإذا بعد الحق إم الضلال !

(١) الثامة : واحدة الثام ، وهو نبت ضعيف وهو على التشبيه . (٢) نجم : ظلم وظهر ،
والحصيد : المحصود (٣) قعم فى الأمر : رى بنفسه فيه فجأة بلا روية (٤) الرفق : أصل
الفخذ من باطن ، والعجان : الاست ، يريد أن منزلهم بين الأحياء ليست حقيرة مهينة .

ما هذه الخنزُوانة^(١) التي في فرّاش^(٢) رأسك ! ما هذا الشّجاء المعترض في مدارج
أنفاسك ! ما هذه القذّاة التي أَعْشَتْ ناظرَكَ ! وما هذه الوحرة^(٣) التي أَكَلَتْ
شراسيفك^(٤) ! وما هذا الذي لبست بسببه جِلْدَ النمر ، واشتَمَلت عليه بالشّحناء
والشُّكر !

ولسنا في كِسْرَوِيَّة كِسْرَى ، ولا في قيصريّة قَيْصَرَ ! تأمل لإخوان فارس
وأبناء الأصفر، قد جعلهم الله جَزَرًا^(٥) لسيوفنا، ودَرِيثَةً^(٦) لرماحنا، ومِرمَى لِطُعْمَانِنَا،
وتبعًا لسلطاننا ؛ بل نحن في نورِ نُبُوَّة ، وضياء رسالة ، وثمرّة حِكْمَة ، وأثرة رحمة ،
وعُنوان نعمة ، وظلّ عِصْمَة ، بين أمة مهديّة بالحق والصدق ، مأمونة على الرّتقِ
والفتقِ ، لها من الله قلبٌ أبى ، وساعد قوى ، ويدٌ ناصرة ، وعين ناظرة .

أنظُنْ ظنًّا يا على - أنّ أباحكر وثبَّ على هذا الأمرِ مُفْتَاتًا على الأمة ، خادعًا
لها أو مُتَسَلِّطًا عليها ! أتراه حلَّ عقودها ، وأحَالَ عقولها ! أتراه جعلَ نهارها ليلا ،
ووزنها كَيْلًا ، وَيَقْظَتَهَا رُقَادًا ، وصلاحتها فسادًا ! لا والله ! سَلَا عنها فَوَلِيَّتُ
له ، وتطامن لها فَلَصِيقَتُ به ، ومال عنها فمالت إليه ؛ واشمأزَّ دونها فاشتملت عليه ،
حَبْوَةً حَبَاهُ الله بها ، وعاقِبَةً بَلَّغَهُ الله إليها ، ونعمةً سَرَّ بِلَه الله جمالها ، وَيَدُّ أَوْجَب
اللهُ عليه شكرها ، وأمةً نظر الله به إليها ، والله أعلم بِخَلْقِهِ ، وَأَرْأَفُ بعباده ،
يختار ما كان لهم الخيرة .

وإنك بحيث لا يُجْهَلُ مَوْضِعُكَ من بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ولا يُجْحَدُ

(١) الخنزوانة : الكبش (٢) فرّاش الرأس : عظام رفاق تلى الفحف (٣) الوحرة : وزغة ،
والمراد العداوة والحقد (٤) الشراسيف : جمع شرسوف : وهو الطرف المشرف على البطن
من الضلع (٥) الجزر : كل شيء مباح للذبح (٦) الدريثة : الحلقة يتعلم عليها الطعن والرمي .

حَقُّكَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ ؛ وَلَكِنْ لَكَ مَنْ يَزَاحُكَ بِمَنْكِبٍ أَضْعَفَ مِنْ مَنْكِبِكَ ،
وَقُرْبَى أَمْسٍ مِنْ قُرْبَاكَ ، وَسَنْ أَعْلَى مِنْ سَنِّكَ ، وَشِبْهَ أَرْوَعٍ مِنْ شَيْبِنِكَ ،
وَسِيَادَةَ لَهَا أَصْلٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِرْعَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمَوَاقِفَ لَيْسَ لَكَ فِيهَا جَمَلٌ وَلَا
نَاقَةٌ ، وَلَا تُذَكَّرُ فِيهَا فِي مَقْدَمَةٍ وَلَا سَاقَةٍ ^(١) ، وَلَا تُضْرَبُ فِيهَا بِذِرَاعٍ وَلَا بِإِصْبَعٍ ،
وَلَا تُخْرَجُ مِنْهَا بِبَازِلٍ وَلَا هُبْعٍ ^(٢) ، وَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ حَبَّةَ قَلْبٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعِلَاقَةَ نَفْسِهِ ، وَعَيْيَةَ سِرِّهِ ، وَمَفْزَعَ رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ ، وَرَاحَةَ كَفِّهِ ،
وَمَرْمَقَ طَرَفِهِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَحْضَرِ الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؛ شُهْرَتُهُ
مَغْنِيَةٌ عَنِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ .

وَلَعَمْرِي إِنَّكَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَابَةً ، وَلَكِنَّهُ أَقْرَبُ
مِنْكَ قُرْبَةً ^(٣) ، وَالْقَرَابَةُ لَحْمٌ وَدَمٌ ، وَالْقُرْبَةُ نَفْسٌ وَرُوحٌ .

وَهَذَا فَرْقٌ عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلِذَلِكَ صَارُوا إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ . وَمَهْمَا شَكَّكَ
فِي ذَلِكَ ، فَلَا تَشْكُ فِي أَنْ يَدَّ اللَّهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، وَرِضْوَانَهُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ . فَادْخُلْ فِيمَا
هُوَ خَيْرُكَ الْيَوْمَ ، وَأَنْفَعُ لَكَ غَدًا ، وَالْفِظْ مِنْ فَيْكِ مَا يَلْقَى بِلَهَاتِكَ ، فَإِنْ يَكُ
فِي الْأَمَدِ طَوْلٌ ، وَفِي الْأَجْلِ فُسْحَةٌ ، فَسْتَأْكُلُهُ مَرِيئًا أَوْ غَيْرَ مَرِيءٍ ، وَتَشْتَرِبُهُ
هَنِيئًا أَوْ غَيْرَ هَنِيءٍ ، حِينَ لَا رَادَّ لِقَوْلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ آيِسًا مِنْكَ ، وَلَا تَابِعَ لَكَ إِلَّا
مَنْ كَانَ طَامِعًا فَيْكِ ، يَمْضُ ^(٤) إِهَابَكَ ، وَيَعْرُكُ ^(٥) أَدِيمَكَ ، وَيَزُرِّي عَلَى
هَدْيِكَ ، هُنَالِكَ تَقْرَعُ السَّنَّ مِنْ نَدَمٍ ، وَتَجْرَعُ الْمَاءَ مَمْرُوجًا بِدَمٍ ، وَحِينَئِذٍ تَأْسَى ^(٦)

(١) سَاقَةُ الْجَيْشِ : مُؤَخَّرُهُ (٢) الْبَازِلُ : الْجَمْلُ الْفَوَى الَّذِي دَخَلَ فِي سَفْتِهِ التَّاسِعَةِ ،
وَالْهَبْمُ : الْفَصِيلُ الَّذِي يَنْتُجُ فِي الصَّيْفِ فَيَكُونُ ضَعِيفًا (٣) الْقُرْبَةُ : الْوَسِيلَةُ (٤) يَمْضُ إِهَابَكَ :
يَحْرِقُ جِلْدَكَ (٥) يَعْرُكُ أَدِيمَكَ : يَدْلُكُ (٦) تَأْسَى : تَحْزَنُ .

على ما مضى من عمرك ودَارِجِ قوتك ، فتودّ أن لو سقيت بالكأس التي أيتها ،
وَرُدِدْتَ إلى حالتك التي استغويتها . والله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه ، وغيب
هو شاهدُه ، وعاقبة هو المرجو لسرّائها وضرائها ، وهو الولي الحميد ، الغفور
الودود .

قال أبو عبيدة : فتمشيتُ متزملًا^(١) ، أنوء كأنما أخطو على رأسي ، فرَقَا
من الفرقة ، وشفقًا^(٢) على الأمة حتى وصلت إلى عليّ رضي الله عنه في خلاء ،
فابتثته^(٣) بتيّ كله ، وبرئت إليه منه ، ورفقت به ؛ فلما سمعها ووعاها ، وسرت
في مفاصله حبيّاها قال : حَلَّتْ مُعْلَوِّطَةً^(٤) ، وولتُ مُخَرَّوْطَةً^(٥) ، وأنشأ يقول :
إِخْدَى لِيَا لَيْكٍ فِهَيْسِي^(٦) هَيْسِي لَا تَنْعَمِي اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسِ^(٧)

نعم يا أبا عبيدة ، أكلُ هذا في أنفس القوم ، ويحسّون به ، ويضطغنُون^(٨)
عليه !

قال أبو عبيدة :

فقلت : لا جوابَ لك عندي ، إنما أنا قاضٍ حقَّ الدّين ، ورائقُ
فتقّ المسلمين ، وسادّ ثُلُمَةِ الأمة ، بعلم الله ذلك من جُلْجُلَانٍ^(٩) قلبي ،
وقرارة نفسي .

فقال علي رضي الله عنه : والله ما كان قعودي في كسرِ هذا البيت قصداً

(١) متزملًا : تزمّل : تلفف (٢) الشفق : الشفقة (٣) أبثته السر : أظهرته له : والبت :
الحال (٤) معلوطة : مقتحمة من غير روية (٥) مخروطة : مسرعة (٦) هيسى : سبرى
أى سبر كان (٧) عرس القوم : نزلوا في آخر الليل للاستراحة (٨) أى يتطوون على الضغن
وهو الحقد (٩) جلجلان قلبي : أى حبته .

للخلاف ، ولا إنكاراً للمعروف ، ولا زريّة على مُسلمٍ ؛ بل لما قد وقّذني ^(١) به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقدِهِ . وذلك أني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدّ عليّ حزناً ، وذكرني شجناً ، وإنّ الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ، وقد عكفتُ على عهدِ الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرق ؛ رجاء ثواب مُعدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعمله ومشيتته ، وأمره ونهيهِ ، على أني ما علمت أنّ التظاهر على واقعٍ ، ولا عن الحق الذي سيقَ إلى دافع .

وإذ قد أفعِمَ الوادي بي ، وحشِدَ النّادي من أجلى ، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين وسرني . وفي النفس كلامٌ لولا سابقُ عقدٍ وسالفُ عهدٍ ، لشفيتُ غيظي بِخِنَصري وبِنَصري ؛ وخضتُ لجلته بِأخمصي ومفرقي ، ولكني مُلجَمٌ إلى أنّ ألقى الله ربّي ، وعنده اختسبُ ما نزل بي . وإني غاد إلى جماعتكم ، فبائعٌ صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءني وسرّكم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

قال أبو عُبَيْدَة : فعُدّتُ إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه ، فقصصت عليه القول على غرّه ^(٢) ، ولم أختزل شيئاً من حلوهٍ ومُرّه ؛ وبكرتُ غُدُوّةً إلى المسجد ، فلما كان صباح يومئذٍ إذا عليٌّ يَخترقُ الجماعةَ إلى أبي بكرٍ رضي الله عنهما ، فبائعه ، وقال خيراً ، ووصف جميلاً ، وجلس زميتاً ، واستأذن للقيام ، فمضى وتبعه عمر مُكرِّماً له ، مستثيراً لما عنده .

وقام أبو بكرٍ إليه فأخذ بيده وقال : إن عصابةً أنتَ منها يا أبا الحسن

(١) وقذه : تركه عليلاً ، وصرعه (٢) على غره : أي كما هو ، وكما قص علي .

لمعصومة ، وإن أمة أنت فيها لمرحومة ، ولقد أصبحت عزيزاً علينا ، كريماً لدينا ،
نخافُ الله إذا سخطت ، ورجوه إذا رضيت ، ولولا أنى شدَّهت^(١) لما أجبْتُ إلى
ما دُعيتُ إليه ، ولكنى خِفْتُ الفرقة ، واستثَّارُ الأنصار بالأمر على قريش ،
وأُعجِلْتُ عن حضورك ومشاورتك ، ولو كنتُ حاضراً لباعْتُك ولم أعدلْ بك ،
ولقد حطَّ الله عن ظهرك ما أثقلَ كاهلي به ، وما أسدَّ مَنْ ينظرُ الله إليه بالكفاية ؛
وإنا إليك لمُحتاجون ، وبفضلك عالمون ، وإلى رأيك وهديك في جميع الأحوال
راغبون ، وعلى حمايتك وحَفِظَتِكَ^(٢) معوّلون . ثم انصرف وتركه مع عمر ؛ فالتفت
على إلى عمر فقال :

والله ما قعدتُ عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيتهُ فرَقاً ، ولا أقولُ ما أقولُ
تَعَلَّةً^(٣) .

وإني لأعرف منتهى طرفي ، ومَحَطَّ قدمي ، ومَزِيعَ قوسي ، ومَوْقِعَ سهمي ؛
ولكن قد أَرَمْتُ^(٤) على فأسي ؛ ثِقَّةَ رَبِّي في الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنه : كَفَّفِكَ غَرْبَكَ ، واستوقِفْ سِرْبَكَ ، ودع
العَصِيَّ بلحائها ، والدَّلَاءَ على رشاها^(٥) ، فإننا من خلفها وورائها ، إن قَدَحْنَا
أَوْرَيْنَا ، وإن مَتَجَحْنَا أَرْوَيْنَا ، وإن قَرَحْنَا^(٦) أَدَمَيْنَا ، ولقد سميتُ أمائيلك^(٧)
التي لَفَزْتَ بها صادرة عن صدرِ أِكِلَ بالجوَى ، ولو شئتُ لَقُلْتُ على مَقَالَتِكَ
ما إن سَمِعْتَهُ نَدِمْتَ على ما قلتَ ، وزعمتُ أنك قعدتَ في كِنِّ بيتك لما وَقَدَكَ
به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من قَعْدِهِ ، فهو وَقْدَكَ ولم يَقْدُ غيرَكَ ! بل مصابه

(١) شدَّهت : دهشت (٢) الحَفِظَةُ : اسم بمعنى الحَافِظَةُ (٣) التَعَلَّةُ : ما يتعلل به
(٤) أَرَمْتُ الفرس على فأس اللجام : إذا عضها وقبض عليها ، وفأس اللجام : الحديد المَعْرُضَةُ منه
في الخنك ، يريد أنه كَتَمَ ما في نفسه (٥) الرِشَاءُ : حبيل الدلو (٦) قَرَحَ : جرح
(٧) أمائيل : جمع أمثولة ، تمثّل : إذا أنشد بيتاً ثم آخر ، ثم آخر وهي الأمثولة .

أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حقِّ مُصابه ألا تصدع شمل الجماعة بفرقة لا عصام لها ، ولا يؤمن كيدُ الشيطان في بقائها ، هذه العربُ حولنا ، والله لو تداعت علينا في صُبْح نهار لم نلتق في مسائه .

وزعمت أن الشوقَ إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرة دينه ، ومؤازرة أوليائه ، ومعاوشتهم .

وزعمت أنك عكفت على عهدِ الله تجمع ما تفرق منه ؛ فمن المكوف على عهد الله النصيحة لعبادِ الله ، والرافة على خَلْقِ الله ، وبذل ما يصلحون به ويرشدون عليه .

وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهر واقع عليك ، أي حقُّ لُط^(١) دونك ! قد سمعت وعلمت ما قال الأنصارُ بالأسس سرًّا وجهرًا ، وتقلبَت عليه بطنًا وظاهرًا ، فهل ذكرتُك أو أشادتُ بك ، أو وجدتَ رضامَ عنك ؟ هل قال أحدٌ منهم بلسانه : إنك تصلحُ لهذا الأمر ، أو أومأَ بعينه ، أو هم في نفسه ؟ أتظنُّ أن الناسَ ضلوا من أجلك ، وعادوا كفاراً زُهْدًا فيك ، وباعوا اللهَ تحاملاً عليك ؟ لا والله ! لقد جاءني عقيل بن زياد الخزرجي في نفرٍ من أصحابه ، ومعهم شرحبيل بن يعقوب الخزرجي وقالوا : إنَّ عليًّا ينتظر الإمامة ويزعمُ أنه أولى بها من غيره ، وينكر على مَنْ يعقِدُ الخِلافةَ ؛ فأنكرتُ عليهم ، ورددتُ القولَ في تحرِّم حيثُ قالوا : إنه ينتظر الوحي ، ويتوكَّف^(٢) مُناجاةَ الملك .

فقلت : ذاك أمرٌ طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أكان الأمر

(١) لُط : جحد

(٢) يتوكَّف : ينتظر .

معقوداً بأنشوطه^(١) ، أو مشدوداً بأطراف ليطه^(٢) ؟ كلا ! والله لا عجباً بحمد الله
إلا أفصححت ، ولا شوكاء إلا وقد تفتحت .

ومن أعجب شأنك قولك : « ولولا سالف عهدٍ وسابق عَقْد ، لشفيتُ
غيطي » ! وهل ترك الدين لأهله أن يشفوا غيظهم بيدٍ أو بلسان ؟ تلك جاهلية ،
وقد استأصل الله شأفتها ، واقتلع جرثومتها ، وهور^(٣) ليلها ، وغور سئيلها ،
وأبدل منها الرّوحَ والرّيحان ، والهدى والبرهان . وزعمت أنك مُلجَم ؛ ولعمري
إنَّ من اتقى الله ، وآثر رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانه ، وأطبق فاه ،
وجعل سعيه لما وراءه .

وأما قولك . إني لأعرفُ منزِع قوسي ، فإذا عرفت منزِع قوسك عرف
غيرك مضرب سيفه ومطمن رحمه ؛ وأما ما تزعمه من الأمر الذي جعله رسول الله
لك فتخلّفت إغذاراً إلى الله وإلى العارفة به من المسلمين ، فلو عرفه المسلمون لجفحوا
إليه ، وأصفقوا عليه ، وما كان الله ليجمعهم على العمى ، ولا ليضربهم بالضلال بعد
الهدى ، ولو كان لرسول الله فيك رأيٌ ، وعليك عزمٌ ، ثم بعثه الله ، فرأى اجتماع
أمته على أبي بكر لما سقه آراءهم ، ولا ضلل أحلامهم ، ولا آثر عليهم ، ولا
أرضاك بسخطهم ، ولأمرّك باتّباعهم والدخول معهم فيما ارتضوه لدينهم .

فقال على رضي الله عنه : مهلاً يا أبا حفص ، والله ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا
أريدُ نكته ، ولا أقررتُ ما أقررتُ وأنا أبتغي حولا عنه : وإنَّ أخسَرَ

(١) الأنشوطه : عقدة يسهل انحلالها إذا أخذ بأحد طرفيها افتتحت (٢) الليطه : قشرة
القصبه التي تليط بها أى تنزق (٣) هور : أذهب .

الناس صَفَقَةً عند الله مَنْ آثَرَ النِّفَاقَ ، واحتَضَنَ الشَّقَاقَ ، وفي الله خَلَفَ من كل فائتَ ، وعِوَضَ من كل ذاهبَ ، وسَلَوَةً عن كل حادثَ ، وعليه التَّوَكَّلُ في جميع الحوادثِ . ارجع يا أبا حفص إلى مجلسك فاقعَ القلبَ مَبْرُودَ الغليلِ ، فسيح اللِّبَانُ^(١) ، فصيح اللسان ؛ فليس وراء ما سمعتَ وقلتُ إلا ما يشدُّ الأزرَ ، ويحط الوزرَ ، ويضع الإصرَ^(٢) ، ويجمع الألفَةَ بِمُشِيئَةِ الله وحسن توفيقه .

قال أبو عُبَيْدَةَ : فانصرف عليّ وعمر رضي الله عنهما ، وهذا أصعب ما مر عليّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) .

(١) اللبان : الصدر (٢) الإصر : الذنب والثقل (٣) قال ابن أبي الحديد في نهاية هذه القصة : الذي يغلب على ظني أن هذه الرسائل والمحاورات والكلام كله موضوع مصنوع ، وأنه من كلام أبي حيان التوحيدى لأنه بكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة أشبه (انظر صفحة ٥٩٧ من ج ٢) .

٩٣- بِمَنْ أُسْتَجِيرُ مِنْ جَوْرِكَ؟*

جلس معاوية بن أبي سفيان في مجلس كان له بدمشق ، وكان ذلك الموضع مفتوح الجوانب يدخل منه النسيم ، فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات في يوم شديد الحر ، وقد اشتدَّ نفحُ الهجير^(١) ، إذ نظر إلى رجل يمشى نحوه وهو يتلظى بالنار من حرِّ التراب ، ويحجل في مشيه حافياً ، فتأمله معاوية وقال لجلسائه : هل خلق الله أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في هذه الساعة ؟ فقال بعضهم : لعله يقصد أمير المؤمنين ، فقال : والله لئن كان قاصدي سائلاً لأعطينه ، أو مستجيراً لأجيرنه ، أو مظلوماً لأنصرنه . . . يا غلام ؛ قف بالباب ؛ فإن طلبني هذا الأعرابي فلا تمنعه الدخول علي .

فخرج الغلام فَوَافَى الأعرابي ، وقال : ما تريد ؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ادخل ، فدخل وسلم على معاوية ، فقال له : ممن الرجل ؟ قال : من تميم ، قال : ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت ؟ قال : جئتُك مشتكياً وبك مستجيراً . قال : ممن ؟ قال : من مروان بن الحكم ، عاملك ، ثم أنشد هذه الأبيات :

معاوي ، يا ذا الفضل والحلم والعقل	وذا البرِّ والإحسان والجود والبذل
أتيتك لما ضاق في الأرض مذهبي	وأنكرت مما قد أصبت به عقلي
ففرج - كلاك الله - عني فإنتي	لقيت الذي لم يلقه أحد قبلي

* المختار من نوادر الأخبار « مخطوط » ، نهاية الأرب : ٢ - ١٥٦

(١) الهجير : نصف النهار عند اشتداد الحر .

وَحُذِّلِي - هَذَاكَ اللَّهُ - حَقٌّ مِنَ الَّذِي رَمَانِي بِسَهْمٍ كَانَ أُيْسِرُهُ قَتْلِي !
وَكُنْتُ أَرْجَى عَذْلَهُ إِنِّ أَتَيْتُ فَأَكْثَرَ تَرَدَّادِي مَعَ الْحَبْسِ وَالْكَبْلِ
سَبَّانِي سُعْدِي وَانْتَبَرَى لِخُصُومَتِي وَجَارَ وَلَمْ يَعْدِلْ وَغَاصَّبَنِي أَهْلِي
فَطَلَّقْتُهَا مِنْ جَهْدٍ مَا قَدْ أَصَابَنِي فَيْهَذَا ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنَ الْعَدْلِ ؟

فلما سمع معاوية إنشاده والنارُ تتوقد من فيه قال : مَهْلًا يَا أَخَا الْعَرَبِ ، اذْكُرْ
قِصَّتَكَ وَأَفْصَحْ عَنْ أَمْرِكَ .

قال : يا أمير المؤمنين ، كانت لي زوجة وهي ابنة عمي وكنت لها محبًّا وبها
كَلِفًا ؛ وكُنْتُ بِهَا قَرِيرَ الْعَيْنِ ، طَيِّبَ الْعَيْشِ ، وكانت لي صِرْمَةً^(١) من الإبل
أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى قِيَامِ حَالِي وَإِصْلَاحِ أَوْدِي^(٢) ؛ فأصابتنا سَنَةٌ ذاتُ قَحْطٍ شَدِيدٍ ،
أَذْهَبَتْ الْخُفَّ وَالظَّلْفَ ، وَبَقِيَتْ لَا أَمْلَكَ شَيْئًا ؛ فلما قَلَّ مَا بِيَدِي ؛ وَذَهَبَ حَالِي
وَمَالِي ، بَقِيَتْ مُهَانًا ثَقِيلًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ؛ قد أَبْعَدَنِي مَنْ كَانَ يَشْتَهِي الْقُرْبَ
مَنِي ، وَازْوَرَّ عَنِّي مَنْ كَانَ يَرْغَبُ فِي زِيَارَتِي !

فلما علم أبوها ما بي من سوء الحال وشرَّ المآل أخذها مني ، وسألني الفراق
وجعَدَنِي وَطَرَدَنِي ، وَأَغْلَظَ عَلَيَّ ؛ فَأَتَيْتُ إِلَى عَامِلِكَ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ مُتَّصِرِيخًا ،
وَبِهِ رَاجِيًا لِيَنْصُرَنِي ، فَأَحْضَرَ أَبَاهَا وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِي ، فَقَالَ : مَا أَعْرَفَهُ قَبْلَ الْيَوْمِ ،
فَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنْ رَأَى أَنْ يُحْضَرَهَا وَيَسْأَلَهَا عَنْ قَوْلِ أَبِيهَا فَلْيَفْعَلْ .

(١) الصرمة : القطعة من الإبل ، وهي ما بين العشرين إلى الثلاثين (٢) الأود : العوج .

فبعثت إليها مَرْوَانَ وأحضرها مجلسه ، فلما وقفت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب ؛ فصار لي خصماً وعلى مُنكراً ! واتهرني وأظهر لي الغضب وبعث بي إلى السجن ، فبقيت كأنما خررت من السماء في مكان سحيق !

ثم قال لأبيها : هل لك أن تزوجها مني على ألف دينار وعشرة آلاف درهم لك ؟ وأنا ضامن لك خلاصها من هذا الأعرابي . فرغب أبوها في البذل وأجابته لذلك !

فلما كان من الغد بعث إليّ وأخرجني من السجن ؛ وأوقفني بين يديه ، ونظر إليّ كالأسد الغضبان ؛ وقال : يا أعرابي ، طلق سعدى ؛ فقلت : لا أقدر على هذا ، فسلط عليّ جماعة من غلمانه ، فأخذوا يمدّونني بأنواع العذاب ، فلم أجد بداً من ذلك ففعلت ؛ ثم عادوا بي إلى السجن ؛ فسكنت فيه إلى أن انقضت عدتها ، فتزوجها ودخل بها . وقد أتيتك مستجيراً وإليك ملتهجئاً ثم أنشد :

في القلب مني نار	والنار فيها استعار !
والجسم مني سقيم	واللون فيه اصفرار
وفي فؤادي جحر	والجحر فيه شرار
والعين تبكي بشجوي	فدمعها مدرار
والحب داء عسير	فيه الطبيب يحار
تحملت منه عظيماً	فما عليه اضطبار
فليس ليلى ليل	ولا نهاري نهاري !

ثم اضطرب وخر مغشياً عليه ، وأخذ يتلو كالحية المقتولة ؛ فلما سمع كلامه وإنشاده قال : تعدي فظلم مَرْوَان بن الحكم في حدود الدين ، واجترأ على حرم

المسلمين ، ، ثم قال : والله يا أعرابي ، لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله قط ؛ ثم دعا بدواة وقرطاس ، وكتب إلى مروان بن الحكم : قد بلغني أنك اعتديت على رعيتك ، وانتهكت حرمة من حرم المسلمين ؛ وتعديت حدود الدين ، وينبغي لمن كان والياً أن يفضَّ بصره عن شهواته ، ويזجر نفسه عن لذاته ، وكتب في آخره :

ركبتَ أمراً عظيماً لست أعرفه	أستغفر الله من جور امرئ زاني
قد كنت تشبه صوفياً له كُتِبَ	من الفرائض أو آيات فرقان
حتى أتاني الفتى العذرى مُنتحِباً	يشكو إلى بحق غَيْرِ بُهتان
أعطى الإله عهداً لا أخيسُ بها	أولا فبرئتُ من دين وإيمان
إن أنت راجعتني فيما كتبتُ به	لأجملَنَّك لحماً بين عِقبان
طلق سعاداً ، ومجملها بمجَهَّزة	مع الكُميت ومع نصر بن ذبيان
فما سمعتُ كما بُلِّغْتُ من عجب	ولا فِعالك حقاً فعل إنسان

ثم طوى الكتاب وطبعه بخاتمه ، واستدعى الكُميت ونصر بن ذبيان - وكان يستنصرهما - في قضاء الحوائج لأماتهما - فأخذهما وساراً حتى قدما المدينة ؛ ودخلا على مروان وسالما إليه الكتاب ، فقضه وقرأه ، ثم ارتعدت فرائضه ، وطلَّقها في الحال وبَعَثَ بها إلى أمير المؤمنين ، وكتب إلى معاوية كتاباً فيه :

حوراء يقصر عنها الإصفُ إن وُصِفَتْ أقولُ ذلك في سرٍّ وإعلانٍ

فلما قرأه قال : لقد أحسن في الطاعة ؛ وأطنب في حسن الجارية .

ولما رأى معاوية الجارية رأى صورة لم ير مثلها في الحسن والقدر والجمال ؟ وخاطبها فوجدتها أفصح النساءِ بَعْدَ ذِئبة منطلق ، ثم قال : على بالأعرابي ؛ فأتى إليه

وهو على غاية من سوء الحال ، فقال : يا أعرابي ؛ هل لك عنها من سلوة ، وأعوّضك ثلاث جوارٍ مع كل جارية ألف دينار ، وأقسم لك من بيت المال في كل سنة ما يكفيك ويؤمنك على صحتهم ؟

فلما سمع الأعرابي كلام معاوية شفق شهقة ظن معاوية أنه قد مات ، ولما أفاق قال له : ما باللك ؟ فقال : شرّ بال ، وأسوأ حال ؛ استجرتُ بعدلك من جور ابن الحكم ، فبِئسَ استجيرُ من جورك ! ثم أنشد :

لا تَجْمَعَنَّيَ وَالْأَمْثَالُ تُضْرَبُ بِي كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالْفَارِ
ارْدُدْ سَعَادَةَ عَلَى حَيْرَانَ مَكْتَبِ يُبْمَسِي وَيَصْبِحُ فِي هَمٍّ وَتَذْكَارِ
قَدْ شَقَّه قَلَقٌ مَامَشْهُ لَهْ قَلَقٌ وَأُسْعِرَ الْقَلْبُ مِنِّي أَيْ إِسْعَارِ
كَيْفَ السُّلُوْ وَقَدْ هَامَ الْفُؤَادُ بِهَا وَأَصْبَحَ الْقَلْبُ عَنْهَا غَيْرَ صَبَارِ

ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أعطيتني ما حوته الخلافة ما اعتضتُه دون سعدى .

فقال معاوية : يا أعرابي ؛ إنك مُقِرٌّ أنك طلقته ، ومروان مُقِرٌّ أنه طلقها ، ونحن نختارها ، فإن اختارت سواك زوجناه بها ، وإن اختارتك رجعنا بها إليك . قال : افعل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ودعاها معاوية . وقال لها : ماتقولين يا سعدى ؟ أى أحب إليك ؟ أمير المؤمنين في عزّه وشرفه وسلطانه وقُصوره وما تصيرين عنده ، أم مروان بن الحكم في عَفْهِ وجوره ، أو هذا الأعرابي مع جُوعِهِ وفقره وسوء حاله ؟ فأنشدت هذين البيتين :

هذا وإن كان في فقرٍ وإضرارٍ أعزُّ عندى من قوى ومن جارى !
وصاحبِ التاجِ أو مروانَ عاملِهِ وكلُّ ذى درهمٍ عندى ودينارٍ
ثم قالت : والله يا أميرَ المؤمنين ؛ ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ، ولا لغدّرات
الأيام ؛ وإن لى معهُ صِجَّةٌ قديمةٌ لا تنسى ، ومحبةٌ لا تبلى ، وأنا أحقُّ من صبر
معهُ على الضَّراءِ ، كما تنعمتُ معهُ فى السَّراءِ .
فتعجَّب معاويةُ من عقلها ومروءتها ، وأمر لها بعشرة آلاف درهمٍ ، وردّها بَعَقْدِ
جديدٍ ، فأخذها الأعرابى وانصرفَ يقول :
خلّوا عن الطريق للأعرابى ألم ترقُّوا ويحكم ، بما بى !

٩٤ - خُدعة معاوية*

سمع يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بجمال زينب بنت إسحاق زوج عبد الله بن سلام القرشي ؛ وكانت من أجمل النساء في وقتها ، وأحسنهن أدباً ، وأكثرهن مالاً ؛ ففتن بها ؛ فلما عيل صبره ذكر ذلك لبعض خاصّة أبيه ، واسمه رفيق ، فذكر ذلك لمعاوية ، وقال له : إن يزيد قد ضاق ذرعاً بها .

فبعث معاوية إلى يزيد ، فاستفسره عن أمره ؛ فبث له شأنه ؛ فقال : مهلاً يا يزيد ؛ فقال له : علام تأمرني بالمهل وقد انقطع منها الأمل ؟ فقال له معاوية : فأين مرؤءتك وحجّاك وتُفّاك ؟ فقال : قد عيل الصبر ، ولو كان أحدٌ ينتفع فيما يُبتلى به من الهوى بتفّاه ، أو يدفع ما أقصده^(١) بحجّاه ، لكان أولى الناس به داود^(٢) حين ابتلى به .

فقال : أكنتم يا بني أمرك ؛ فإن البوّح به غير نافعك ؛ والله بالغ أمره فيك ، ولا بدّ مما هو كائن .

وأخذ معاوية في الاحتيال في تبليغ يزيد مُناه ؛ فكتب إلى زوجها عبد الله بن سلام - وكان قد استعمله على العراق : أن أقبل حين تنظرُ كتابي لأمرٍ فيه حظّك إن شاء الله تعالى ، فلا تتأخّر عنه .

* نهاية الأرب : ٦ - ١٨٠

(١) أقصده : أقصدت الرجل إذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطى . مقاتله (٢) يشير إلى داود عليه السلام ، حينما تزوج من خطيبة أحد جنوده ، ولقد عاتبه الله في ذلك ، فاستغفره ، فغفر له .

فَأَغَذَّ^(١) السَّيْرَ وَقَدِمَ ؛ فَأَنْزَلَهُ مَعَاوِيَةَ مَنْزِلًا كَانَ قَدْ هَيَّأَ لَهُ ، وَكَانَ عِنْدَ مَعَاوِيَةَ يَوْمَئِذٍ بِالشَّامِ أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَبُو الدَّرْدَاءُ ، فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : إِنْ أَلَّهِ قَدْ قَسَمَ بَيْنَ عِبَادِهِ قِسْمًا ، وَوَهَبَهُمْ نِعَمًا أَوْجِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا شُكْرَهُ ، وَحَتَمَ عَلَيْهِمْ حِفْظَهَا ، فُحْبَانِي مِنْهَا عَزَّ وَجَلَّ بِأَتَمِّ الشَّرَفِ وَأَفْضَلِ الذِّكْرِ ، وَأَوْسَعَ عَلَى الرِّزْقِ ، وَجَعَلَنِي رَاعِيَ خَلْقِهِ ، وَأَمِينَهُ فِي بِلَادِهِ ، وَالْحَاكِمَ فِي أَمْرِ عِبَادِهِ ، لِيَتَبَلَّوْنِي أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرَ ! وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلرَّءِ أَنْ يَتَفَقَّدَ وَيَنْظُرَ مِنْ اسْتِرْعَاءِ اللَّهِ أَمْرَهُ ، وَمَنْ لَا غِنَى بِهِ عَنْهُ .

وَقَدْ بَلَغَتْ لِي ابْنَةُ أَرِيدَ زَوَاجَهَا وَالنَّظَرَ فِي اخْتِيَارِ مَنْ يُبَاعِلُهَا^(٢) ، لَعَلَّ مِنْ يَكُونُ بَعْدِي يَقْتَدِي فِيهِ بِهَدْيِي ، وَيَتَّبِعُ فِيهِ أَثَرِي ؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَلِي هَذَا الْمَلِكَ بَعْدِي مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى تَعْضِيلِ الْبَنَاتِ^(٣) ؛ فَلَا يَرُونَ لَهَا كَفْنًا وَلَا نَظِيرًا . وَقَدْ رَضِيتُ لَهَا ابْنَ سَلَامٍ الْقُرَشِيَّ ؛ لَدِينَهُ وَشَرَفُهُ ، وَفَضْلُهُ وَمَسْرُوعَتُهُ وَأَدَبُهُ ؛ فَقَالَا لَهُ : إِنْ أَوْلَى النَّاسَ بِرِعَايَةِ نِعَمِ اللَّهِ وَشُكْرِهَا ، وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ فِيمَا اخْتَصَصَهُ لَأَنْتَ .

فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : فَاذْكُرَا لَهُ ذَلِكَ عَنِّي ! وَقَدْ كُنْتُ جَعَلْتُ لَهَا فِي نَفْسِي شُورَى ، غَيْرَ أَنِّي أَرْجُو أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ رَأْيِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَتَيَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ ، وَذَكَرَا لَهُ الْقِصَّةَ .

ثُمَّ دَخَلَ مَعَاوِيَةُ عَلَى ابْنَتِهِ ، وَقَالَ لَهَا : إِذَا دَخَلَ عَلَيْكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَأَبُو هُرَيْرَةَ ، فَعَرِّضَا عَلَيْكَ أَمْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَحَضَّاكَ عَلَى الْمَسَارَعَةِ إِلَى اتِّبَاعِ رَأْيِي

(١) أَغَذَّ السَّيْرَ وَفِيهِ : أَسْرَعَ (٢) يُبَاعِلُهَا : يَتَخَذُهَا زَوْجًا وَبَعْلًا (٣) تَعْضِيلُ الْبَنَاتِ : حَبْسُهُنَّ عَنِ الزَّوَاجِ ظُلْمًا .

فيه ؛ فقولى لها : إنه كفء كريم ، وقريب حميم ، غير أن تحتة زينب بنت إسحاق ، وأخاف أن يعرض لى من الغيرة ما يعرض للنساء ؛ فأتناول منه ما يسخط الله تعالى فيه ، فيعذبني عليه ، ولست بفاعلة حتى يفارقها .

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله ، وأعلماه بقول معاوية ، ردّها إليه بخطبان له منه ، فأتياه ؛ فقال : قد علمتا رضائى به ، وحرصى عليه ، وكنت قد أعلمتكما الذى جعلتُ لها فى نفسها من الشورى ؛ فادخلا عليها ، واغريضا عليها الذى رأيتُ لها .

فدخلا عليها وأعلماهما ، فقالت لهما ما قاله معاوية لها ؛ فرجعا إلى ابن سلام ، وأعلماه بما قالته .

فلما ظنّ أنه لا يمنعها منه إلا فراق زينب أشهدهما بطلاقها ، وأعادها إلى ابنة معاوية .

فأتيا معاوية ، وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجته ؛ رغبة فى الاتصال بابنته ؛ فأظهر معاوية كراهة فعله ، وفراقه لزينب ، وقال : ما استحسنّت له طلاق امرأته ، ولا أحببته ؛ فانصرفا فى عافية ، ثم عودا إليها ، وخذا رضاها .

فقاما ثم عادا إليه ؛ فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها ؛ وقال : لم يكن لى أن أكرهها ، وقد جعلتُ لها الشورى فى نفسها .

فدخلا عليها فأعلماهما بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرّها ؛ وذكر من فضله وكمال مروءته وكرم محتديه ؛ فقالت لهما : إنه فى قریش لرفيع القدر ، وقد تعرفان أنّ الأناة فى الأمور أرفق لما يُخاف من المحذور ؛ وإنى سائلة عنه حتى

أعرف دِخْلَةَ أمره ، وأعلمكم بالذي يُزِيِّنُهُ الله لي ، ولا قوة إلا بالله ، فقالا : وفقك الله ، وخار لك : وانصرفا عنها ، وأعلما عبد الله بقولها ، فأنشد :

فإن يك صدرُ هذا اليوم وليَّ فإنَّ غداً لناظره قريبُ
وتحدث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينب ، وخطبته ابنة معاوية ، ولأموه على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه .

ثم استحثَّ عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء ؛ فأتياها وقالا لها : اصنعي ما أنت صانعة واستخيري الله ، فإنه يهدي من استهداه ؛ فقالت : أرجو أن يكون الله قد خار لي ، وقد استبرأت^(١) أمره ، وسألت عنه ، فوجدته غير ملائم ولا مرافق لما أريد لنفسي .

ولقد اختلف من استشرته فيه ، فمنهم الناهي عنه ، ومنهم الأمر به ، واختلفهم أول ما كرهت .

فلما بلغاه كلامها علم أنه تخذوع ، وقال : ليس لأمر الله رادٌّ ، ولما لا بد منه صادق ؛ فإن المرء وإن كمل حِلْمُهُ ، واجتمع له عقله ، واستند رأيه ، ليس بدافع عن نفسه قدراً برأى ولا كيد ، ولعل ماسرّوا به واستجذلوا له لا يدوم لهم سروره ، ولا يصرف عنهم محذوره .

وذاع أمره ، وفشا في الناس . وقالوا : خدعه معاوية حتى طلق امرأته ! وإنما أرادها لابنه ، وقبحوا فعله .

(١) المعنى أنها استقصت جميع أموره حتى عرفت كل المعرفة .

فتمت مكيدته تلك ، لكن المقادير أتت بخلاف تدبيره ؛ وذلك أنه لما انقضت أقرأه^(١) زينب ، وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد ؛ فخرج حتى قدم الكوفة ، وبها يومئذ الحسين بن علي رضي الله عنهما ؛ فبدأ أبو الدرداء بزيارته ، وسلم عليه الحسين ، وسأله عن سبب مقدمه ؛ فقال :

وجهني معاوية خاطباً على ابنه يزيد زينب بنت إسحاق ؛ فقال له الحسين : لقد كنت أردت نكاحها ، وقصدت الإرسال إليها إذا انقضت أقرأوها ، فلم يمنعني من ذلك إلا تخير^(٢) مثلك ؛ فقد أتى الله بك ؛ فاخطب - رحمك الله - على وعليه ، لتتخير من اختاره الله لها ، وهي أمانة في عنقك حتى تؤديها إليها ، وأعطيتها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه ؛ فقال : أفعل إن شاء الله .

فلما دخل عليها أبو الدرداء ، قال : أيتها المرأة ؛ إن الله خلق الأمور بقدرته ، وكونها بعزته ، فجعل لكل أمر قدراً ، ولكل قدر سبباً ؛ فليس لأحد عن قدر الله محيص ، ولا للخروج عن أمره مهزب ؛ فكان مما سبق لك ، وقدر عليك ، الذي كان من فراق عبد الله بن سلام إياك ، ولعل ذلك لا يضرك ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ؛ وقد خطبك أمير هذه الأمة وابن ملكها ، وولى عهده والخليفة من بعده : يزيد بن معاوية ، والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب أهل الجنة ، وقد بلغك شأنهما وسناؤهما وفضلهما ، وقد جئتكم خاطباً عليهما فاخترى أيهما شئت .

فسكتت طويلاً ، ثم قالت : يا أبا الدرداء ؛ لو أن هذا الأمر جاءني وأنت

(١) المراد عدتها (٢) التخير : الانتقاء .

غائب لأشخصتُ فيه الرسل إليك ، واتبعتُ فيه رأيك ، ولم أقتطعه دونك ؛
فأما إذ كنتَ أنت المرسل ؛ فقد فوّضتُ أمرى بعد الله إليك وجعلتهُ في يديك ؛
فاخترتُ لى أرضاها لديك ، والله شاهد عليك ، فاقضِ في أمرى بالتحري ،
ولا يصدّنك عن ذلك اتباعُ هوى ، فليس أمرها عليك خفياً ، ولا أنت عما
طوّقتك غيباً .

فقال : أيتها المرأة ؛ إنما علىّ إعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك . قالت :
عفا الله عنك ! إنما أنا ابنة أخيك ، ولا غنى لى عنك ، فلا تمنعك رهبةُ أحدٍ عن
قول الحق فيما طوّقتك ، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك ؛ والله خير من
رُوعى وخيف ، إنه بنا خير لطيف .

فلما لم يجد بداً من القول والإشارة قال : أى بنية ؛ إن ابن بنت رسول الله
صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلىّ وأَرْضَى عندي ، والله أعلم بخيرها لك ..

قالت : قد اخترته وأردته ورضيته .

فتزوَّجها الحسين ، وساق لها مهرأ عظيماً . فبلغ ذلك معاوية ، فتعاضمه ولام
أبا الدرداء لوماً شديداً ، وقال : من يرسل ذا بَلَةٍ وعمى يركب خلاف ما يهوى .
ثم اطرح معاوية عبد الله بن سلام ، وقطع عنه جميع رَوَافِده ، لسوء قوله فيه ،
وتهمته أنه خدعه ، ولم يزل يَجْفُوهُ حتى عِيلَ صبره ، وقلَّ ما فى يده .

فرجع إلى العراق ، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه مالا عظيماً ، ودُرّاً ،
كثيراً ؛ فظن أنها تَجَحَّدُه ؛ لسوء فعله بها ، وطلاقها من غير شيء كان منها .

فلقى حسيناً فسلم عليه ، ثم قال : قد علمت ما كان من خبري وخبر زينب ، وإني كنت قد استودعتها مالا ، ولم أقبضه - وأثني عليها - وقال له : ذاكِرْها أمري ، واحضضها على ردّ مالي .

فلما انصرف الحسين إليها ، قال لها : قد قدّم عبد الله بن سلام ، وهو يُحسِنُ الثناء عليك ، ويحمل النّشرَ عنك في حسن صحبتك ، وما آنسَه قديماً من أمانتك ؛ فسرّني ذلك وأعجبنى ، وذكر أنه كان قد استودعك مالا ، فأدّى إليه أمانته ، ورُدّي عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقاً ، ولم يطلب إلا حقاً .

فقالت : صدق ، استودعني مالا لا أدري ما هو ، فأدفعه إليه بطابعه ، فأثني عليها حسين خبيراً ، وقال : ألا أدخله إليك حتى تتبرّئي إليه منه كما دفعه إليك ؟

ثم لقي عبد الله وقال : ما أنكرت مالك ، وإنها زعمت أنه بطابعك فأدخل إليها ، وتسلم مالك منها .

فقال : أو ما تأمر من يدفعه إليّ ؟ قال : لا ؛ بل تقبضه منها كما دفعته إليها . ودخل عليها حسين ، وقال : هذا عبد الله قد جاء يطلبُ وديعته ؛ فأخرجت إليه البدر ، فوضعتها بين يديه ، وقالت : هذا مالك ، فشكر وأثنى .

وخرج حسين عنهما ، وفضّ عبد الله بن سلام خواتم بدرّة^(١) ، وحتى لما من ذلك ، وقال : خُذِي فهو قليل مني ؛ فاستمبرا جميعاً ، حتى علّت أصواتهما

(١) البدره : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف .

أسفًا على ما ابتُلِيَ به ، فدخل الحسين عليهما ، وقد رقَّ لهما ، فقال :
أشهد الله أرى طلقتهما ؛ اللهم إنك تعلم أنى لم أتزوجها رغبة فى مالها ولا جمالها ،
ولكنى أردت إحلالها لبعْلِها .
فسألها عبد الله أن تصرف إلى حسين ما كان قد ساقه إليها من مهر ؛ فأجابته
إلى ذلك ؛ فلم يقبله الحسين ، وقال : الذى أرجوه من الثواب خيرٌ لى .
فلما انتقضت أقرؤها تزوجها عبد الله ، وحرّمها الله يزيدَ بن معاوية .

٩٥ - مَنْ صَدَقَ اللَّهُ "نَجَا" *

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أنه قال : إن ثلاثة نفرٍ انطلقوا إلى الصحراء فمَطَرَتْهم السماء ؛ فلجئوا إلى كهف في جبل ينتظرون إقلاع المطر ؛ فبينما هم كذلك إذ هبطت صخرةٌ من الجبل ، وجثمت على باب الغار فيئسوا من الحياة والنَّجاة ، فقال أحدهم : لينظر كلُّ واحدٍ منكم إلى أفضلِ عملٍ عملهُ فليذكره ، ثم ليدعُ الله تعالى عسى أن يرَّحِمنا وينجينا .

فقال أحدهم : اللهم إنك تعلم أنى كنت بارًّا بالدي ، وكنت آتيهما بغبوقهما ^(٢) فيفتَبِقَانِه ، فأبيت ليلةً بغبوقهما ، فوجدتهما قد ناما ، وكرهتُ أن أوقظهما ، وكرهت الرجوع ؛ فلم يزل ذلك دأبى حتى طلع الفجر ؛ فإن كنتُ عملتُ ذلك لوجهك ، فأفرج عنا ؛ فالت الصخرةُ عن مكانها حتى دخل عليهم الضوء .

وقال الآخر : اللهم إنك تعلم أنى هويت امرأة ، ولقيت في شأنها أهوالاً حتى ظفرتُ بها ، ولكنى تركتها خوفاً منك ؛ فإن كنتَ تعلم أنه ماحلنى على ذلك إلا مخافتك فأفرج عنا فانفرجت الصخرةُ حتى لو شاء القوم أن يخرجوا لقدروا .

* بجم الأمثال : ٢ - ١٦٧ .

(١) صدق الله : لاقى الله بالصدق ، وهو أن يحقق قوله عمله (٢) الغبوق : شراب العشى .

وقال الثالث : اللهم إني استأجرتُ أُجَرَاءَ ، فعملوا لي فوقَيتُهم
أجورَهم إلا رجلاً واحداً تركَ أُجْرَه عندى ، وخرج مُغاضباً ، فربيتُ أُجْرَه حتى
نما وبلغ مبلغاً ، ثم جاء الأجيرُ ، فطلب أُجْرَتَه ؛ فقلت : هاك ماترى من المال ؛
فإن كنتُ عملتُ ذلك لك فأفرج عنا ؛ فمالت الصخرة وانطلقوا سالمين ! فقال
صلى الله عليه وسلم : « من صدق نبأ » .

٩٦ - عمر بن أبي ربيعة في مَضْرِبِ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ *

كان عمر^(١) بن أبي ربيعة جالساً بمنى في فناء^(٢) مَضْرِبِهِ ، وِغْلَمَانُهُ حَوْلَهُ إِذْ أَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ بَرْزَةً^(٣) عَلَيْهَا أَثَرُ النِّعْمَةِ ؛ فَسَلَّمَتْ فَرَدَّ عَلَيْهَا عَمْرُ السَّلَامِ ، فَقَالَتْ لَهُ : أَنْتَ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةٍ ؟ فَقَالَ لَهَا : أَنَا هُوَ ؛ فَمَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَتْ لَهُ : حَيَّاكَ اللَّهُ وَقَرَّبَكَ ؛ هَلْ لَكَ فِي مُحَادَثَةِ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا ، وَأَتَمِّهِمْ خَلْقًا ، وَأَكْمِلِهِمْ أَدَبًا وَأَشْرَفِهِمْ حَسَبًا ! قَالَ : مَا أَحَبَّ إِلَيَّ ذَلِكَ ! قَالَتْ : عَلَى شَرْطٍ ! قَالَ : قُولِي ، قَالَتْ : تُنْكَحُنِي مِنْ عَيْنِيكَ فَأَشُدُّهُمَا وَأَقْوِدُكَ ، حَتَّى إِذَا تَوَسَّطْتَ الْمَوْضِعَ الَّذِي أُرِيدُ حَلَمْتَ الشَّدَّةَ ، ثُمَّ أَفْعَلُ ذَلِكَ بِكَ عِنْدَ إِخْرَاجِكَ حَتَّى أَنْتَهِيَ بِكَ إِلَى مَضْرِبِكَ ، قَالَ : شَأْنُكَ . فَفَعَلْتَ ذَلِكَ بِهِ .

قال عمر : فلما انتهت بي إلى المضرب الذي أرادت كَشَفْتُ عَنْ وَجْهِ فَبَإِذَا أَنَا بِامْرَأَةٍ عَلَى كُرْسَى لَمْ أَرَ مِثْلَهَا قَطُّ جَمَالًا وَكَمَالًا ، فَسَلَّمْتُ وَجَلَسْتُ ، فَقَالَتْ : أَنْتَ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةٍ ؟ قُلْتُ : أَنَا عَمْرُ ، قَالَتْ : أَنْتَ الْفَاضِحُ لِلْحَرَائِرِ ؟ قُلْتُ : وَمَا ذَاكَ - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ! قَالَتْ : أَلَسْتُ الْقَاتِلَ :

* الأغانى : ١ - ١٩٠ .

(١) هو عمر بن أبي ربيعة ، اختص شعره بوصف النساء وعد أنسب الشعراء ، وكان يقيم بمكة ويتعرض للحجاج ، وله في ذلك أخبار كثيرة . توفي سنة ٩٣ هـ . (٢) الفناء : الساحة على باب الدار . (٣) برزة : بارزة الجمال .

قالت : وعيش أخى ونعمة والدى لأنبهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خوف يمينها فتبسمت فعلت أن يمينها لم تخرج^(١)
فتناولت رأى لتعرف مسه بمخضب الأطراف غير مشنج^(٢)
فلثمت فاما آخذا بقرونها شرب الزيف^(٣) يرد ماء الحشرج^(٤)

ثم قالت : قم فاخرج عني ، ثم قامت من مجلسها وجاءت المرأة فشددت عيني ، ثم أخرجتني حتى انتهت بي إلى مضربى وانصرفت وتركته ، فخلت عيني وقد دخلني من السكابة والحزن ما الله به أعلم ؛ وبت ليلتي ؛ فلما أصبحت إذا أنا بها ، فقالت : هل لك في العود ؟ فقلت : شأنك ، ففعلت بي مثل فعلها بالأمس حتى انتهت بي إلى الموضع ، فلما دخلت إذا بتلك الفتاة على كرسي ، فقالت : إيه يا فضاح الحرائر ! قلت : بماذا - جعلني الله فداك ؟ قالت : بقولك : « وناهدة الثديين » .

ثم قالت : قم فاخرج عني .

فقلت فخرجت ثم رددت ، فقالت لي : لولا وشك الرحيل ، وخوف الفتوت ، ومحبتى لمناجاتك ، والاستكثار من محادثتك لأفصيتك ، هات الآن كلمنى وحدثنى وأنشدنى ، فكلمت أدب الناس وأعلمهم بكل شيء ، ثم نهضت

(١) لم تخرج : لم تضق ولم تكن جادة في حلفها (٢) مشنج : متقبض (٣) الزيف : المزوف ، وهو من عطش حتى يبست عروقه وجف لسانه (٤) الحشرج : النقرة في الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو :

وأبطأت العجوز وخَلَا لي البيت ، فأخذت أنظر ، فإذا أنا بتوزر^(١) فيه خُلُوق^(٢) ، فأدخلتُ يدي فيه ثم خَبَّأتُها في رُذْنِي^(٣) ؛ وجاءت تلك العجوز فشَدَّتْ عيني ونهضتُ بي تقودني ، حتى إذا صرتُ على باب المضرب ، أخرجت يدي فضربتُ بها على المضرب ثم صرتُ إلى مضربي ، فدعوتُ غِلْسانِي فقلت : أيكم يقفني على باب مضرب عليه خُلُوق ، كأنه أثر كَفٍ فهو حرٌّ وله خمسمائة درهم .

فلم ألبثُ أن جاء بعضهم فقال : قم ، فنهضتُ معه فإذا أنا بالسكفِ طرئية ؛ وإذا المضرب مضربُ فاطمة بنتِ عبد الملك بن مروان ، فأخذتُ في أَهْبَةِ الرحيل ، فلما نفرتُ نفرتُ معها فبصرتُ في طريقها بَقِيَابٍ ومضرب وهَيْئَةً جميلةً ، فسألتُ عن ذلك ، فقليل لها : هذا عمرُ بن أبي ربيعة ، فساءها أمره ؛ وقالت للعجوز التي كانت تُرْسِلُها إليه : قولي له : نَشَدْتُكَ اللهَ والرحمَ ألا تصحَبني ، وَيُنْحِكُ ! ما شأنُكَ ؛ وما الذي تُريد ؟ انصرف ولا تفضحني وتُشِيطُ^(٤) بدمك .

فسارت العجوز إليه فأدَّتْ إليه ما قالت لها فاطمة ، فقال : لست بمنصرف أو تُوجِّهُ إليّ بقميصها ، فوجهتُ إليه بقميص من ثيابها ، فزاده ذلك شَفَفًا ؛ ولم يزل يتبعهم ولا يخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرف ، وقال في ذلك :

ضاق الغدَاة بِحاجتي صدرى ويئستُ بعد تَقَارِبِ الأمرِ
وذكرتُ فاطمةَ التي عُلِّقَتْها عَرَضًا فيا لِخَوادِثِ الدهرِ
وكانَ فَاهاً عند رَفْدَتِها تجري عليه سُلَافَةُ الخمرِ

(١) التوزر : لئاء صغير . (٢) الخُلُوق : نوع من العايب . (٣) الرذن : الكم . (٤) أشاط بدمه : أهدره .

فسبت فؤادى إذ عرضتُ لها يومَ الرحيلِ بساحةِ القصرِ
بمزينِ رَدْعٍ^(١) العبيرِ به حسنَ الترائبِ^(٢) واضحِ النحرِ
وبجيدِ آدمٍ^(٣) شادينِ^(٤) خرقٍ^(٥) يرعى الرياضَ ببلدةٍ قفرٍ
لما رأيتُ مطيها حَزَقاً^(٦) خفقَ الفؤادُ وكنتُ ذا صبرٍ
وتبادرتُ^(٧) عيناى بعدمٍ وانهلَّ دمعهما على الصَّدْرِ
ولقد عصيت ذوى القرابة فيكم طرأ وأهلَ الوُدِ والصَّهرِ
حتى لقد قالوا وما كذبوا : أجننتَ أم بك داخل السُّحر !

(١) الردع : أثر الطيب في الجسد (٢) الترائب : جمع تريبة ، وهى موضع القلادة من الصدر .
(٣) الآدم : الأسمر (٤) شدن الظى : ترعرع وشب (٥) الخرق : الحائف المتعير
(٦) حَزَقاً : جماعات (٧) تبادرت : سالت دموعها .

٩٧ - عمارة *

كانت عند عبد الله^(١) بن جعفر جاريةٌ مُغَنِّيةٌ يقال لها عمارة ، وكان لها منه مكان لم يكن لأحدٍ من جواريه .

فلما وفد عبد الله بن جعفر على معاوية خرج بها معه ، فزاره يزيد ذات يوم فأخرجها إليه ، فلما نظر إليها وسمع غناءها وقعت في نفسه ، وجعل لا يمنعه من أن يبوح بما يجدُ بها إلا مكانُ أبيه ، مع يأسه من الظفر بها ، فلم يزل يكاتمُ الناس أمرها إلى أن مات معاوية ، وأفضى الأمرُ إليه ، فاستشار بعضَ سن قدم عليه من أهل المدينة وعامة مَنْ يثق به في أمرها ، وكيف الحيلةُ فيها ، فقيل له : إن أمر عبد الله ابن جعفر لا يُرام ، ومنزلته من الخاصة والعامة ومنك ما قد علمت ، وأنت لاتستجيز إكراهه ، وهو لا يبيعها بشيء أبداً ، وليس يُفني في هذا إلا الحيلة .

فقال : انظروا لي رجلاً عراقياً له أدبٌ وظرفٌ ومعرفة ، فطلبوه فأتوه به ؛ فلما دخل رأى بيانا وحلاوة وفهما ، فقال يزيد : إني دعوتك لأمرٍ إن ظفرتَ به فهو حظُّك آخر الدهر ، ويدُّ أكافئك عليها إن شاء الله ؛ ثم أخبره بأمره ، فقال له : عبد الله بن جعفر ليس يُرام ما في قلبه إلا بالخدِيعَةِ ، ولن يقدر أحدٌ على ما سألت ، فأرحوا أن أكونه والقوةُ بالله ، فأعني بالمال . قال : خذ ما أحببت .

* مصارع العشاق : ٣١٠

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كان كريماً جواداً ، يميل إلى سماع الغناء ، وأخباره في السكرم والسماع كثيرة ، توفي سنة ٩٠ هـ .

فأخذ من طُرف الشام وثياب مصر، واشترى متاعاً للتجارة من رقيق ودوابٍ وغير ذلك ؛ ثم شخص إلى المدينة ، فأناخ بعرصة^(١) عبد الله بن جعفر ، واكترى منزلاً إلى جانبه ، ثم توسّل إليه ، وقال : إني رجلٌ من أهل العراق قدمتُ بتجارة ، وأحببتُ أن أكون في عزّ جوارك وكنفك ، إلى أن أبيع ما جئتُ به .

فبعث عبدُ الله بن جعفر إلى قهرمانه : أن أكرم الرجل ، ووسّع عليه في نُزله^(٢) . فلما اطمأنَّ العراقي سلم عليه أياماً ، وعرفه نفسه ، وهياً له بغلةً فارحة ، وثياباً من ثياب العراق والطفاف ؛ فبعث بها إليه ، وكتب معها : « يا سيدي ؛ إني رجلٌ تاجرٌ ، ونعمةُ الله عليّ سابعة ، وقد بعثتُ إليك بشيء من تحف ، وثياب وعطر ، وبعثتُ ببغلة خفيفة العنان ، وطيفة الظهر ؛ فاتخذها لركوبك ؛ فأنا أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله إلا قبلت هديتي ، فإن أعظم أمني في سفرتي هذه أن أستفيد الأُنس بك ، والتحرُّم بمواصلتك .

فأمر عبد الله بقبض هديته ، وخرج إلى الصلاة ، فلما رجع مرّ بالعراقي في منزله فقام إليه ، وقبل يده ، واستكثر منه ، فرأى أدباً وظرفاً وفصاحة ، فأعجب به وسرّ بنزوله عليه ، فجعل العراقي في كل يوم يبعث إلى عبد الله بهدية طريفة . فقال عبد الله : جزى الله ضيفنا هذا خيراً ، فقد ملأنا شكراً ، وما نقدر على مكافأته .

(١) العرصة : كل بقعة بين الدور ليس بها بناء (٢) النزل : ما هي للضيف أن ينزل فيه .

وإنه لكذلك إلى أن دعاه عبد الله ، ودعا بعمارة في جواريه ، فلما طاب لهما المجلس وسمع غناء عمارة ، تعجب وجعل يزيد عجبه ، فلما رأى ذلك عبد الله سرَّ به إلى أن قال له : هل رأيت مثل عمارة ؟ قال : لا والله يا سيدي ، ما رأيتُ مثلها وما تصلح إلا لك ، وما ظننت أن يكون في الدنيا مثل هذه الجارية : حُسن وجه ، وحُسن عمل . قال : فكم تساوي عندك ؟ قال : ما لها ثمن إلا الخلافة ، قال : تقول هذا لتزيِّن لي رأياً فيها ، وتجتلب سروري ! قال له : يا سيدي ؛ والله إني لأحب سرورك ، وما قلت لك إلا الجِد ، وبعد فإني تاجرٌ أجمع الدراهم إلى الدراهم ، طلباً للربح ولو أعطيتها بعشرة آلاف دينار لأخذتها ، فقال له عبد الله : عشرة آلاف ؟ قال : نعم - ولم يكن في ذلك الزمان جارية بهذا الثمن - فقال له عبد الله : أنا أبيعكها بعشرة آلاف . قال : قد أخذتها . قال : قد وجب البيع . وانصرف العراقي .

فلما أصبح عبدُ الله لم يشعر إلا بالمسال قد جىء به ، فقيل لعبد الله : قد بعث العراقي بعشرة آلاف دينار ، وقال : هذا ثمن عمارة فردَّها ، وكتب إليه : إنما كنتُ أمزح معك ، ومما أعلمك أن مثلي لا يبيع مثلها ، فقال له : جعلتُ فداءك ! إن الجِد والمزَل في البيع سواء ، فقال له عبد الله : ويحك ! ما أعلم جاريةً تساوي ما بذلتَ ، ولو كنتُ بائعها من أحد لآثرتك ، ولكني كنتُ مازحاً ، وما أبيعها بملك الدنيا لحرمتها بي ، وموضعها من قلبي . فقال العراقي : إن كنتُ مازحاً فإني كنتُ جاداً ، وما اطلعتُ على ما في نفسك ، وقد

ملكته الجارية ، وبعثتُ إليك بثمنها ، وليست تحمل لك ، ومالي من أخذها من بدّ .

فما به إياها ، فقال له : ليست لي بينة ، ولكنني استخلفتك عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنبره ، فلما رأى عبدُ الله الجدّ قال : بئس الضيفُ أنت ! ما طرقتنا طارق ، ولا نزل بنا نازل ، أعظمُ بليةً منك ، أتخلفني فيقول الناس : اضطهد عبدُ الله ضيفه وقهره ، وأجأه إلى أن استخلفه ، أما والله لتعلمن أني سأعتصم في هذا الأمر بالصبر وحسن العزاء .

ثم أمر قهرمانه بقبض المال منه ، وبتهجير الجارية بما يشبهها من الخدم والثياب والطيب ، فجهزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار .

فقبض العراقى الجارية ، وخرج بها ؛ فلما برز من المدينة ، قال لها : يا عُمارة : إني والله ما ملكتك قط ، ولا أنت لي ، ولا مثلي يشتري جارية بعشرة آلاف دينار ، وما كنت لأقدم على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله فأسلمه أحب الناس إليه لنفسي ، ولكنني دسيس^(١) من يزيد بن معاوية ، وأنتِ له ، وفي طلبك بعث بي ، فاستتري مني .

ثم مضى بها حتى ورد دمشق ، فتلقاه الناسُ بجنابة يزيد ، وقد استخلف ابنه معاوية بن يزيد ؛ فأقام الرجلُ أياماً ، ثم تلطّف للدخول عليه ، فشرح له القصة — ولم يكن أحدٌ من بني أمية يعدل بمعاوية بن يزيد في زمانه نبلاً ونسكاً — فلما

: من تدسه لبأتبك بالأخبار .

أخبره قال : هي لك ، وكل مادفعه إليك من أمرها فهو لك ، وارجل من يومك
فلا أسمعُ بخبرك في شيء من بلاد الشام .

فرحل العراقي ، ثم قال للجارية : إني قلتُ لك ماقلت حين خرجتُ بك من
المدينة ؛ فأخبرتُك أنك ليزيد ، وقد صرتِ لي ، وأنا أشهد الله أنك لعبد الله بن
جعفر ، وأني قد ردّدتُك عليه ، فاستترى مني .

ثم خرج بها حتى قدم المدينة ، فنزل قريباً من عبد الله ، فدخل عليه بعضُ
خدمه ، فقال له : هذا العراقي ضيفُك الذي صنع بنا ماصنع ، وقد نزل العرصة
لا حيّاه الله ! فقال عبدُ الله : مه ! أنزلوا الرجل وأكرموه ! فلما استقرَّ بعث إلى
عبد الله : جعلت فداءك ! إن رأيتَ أن تأذن لي لأشأفك بشيء فعلت ؛ فأذن
له ؛ فلما دخل سلم عليه ، وقبّل يده فقرب به عبد الله ، ثم اقتص عليه القصة حتى إذا
فرغ ، قال : قد والله وهبتها لك قبل أن أراها وأضع يدي عليها ، فهي لك ومردودة
عليك ، وقد علم الله تعالى أني مارأيتُ لها وجهاً إلا عندك .

فبعث إليها ، فجاءت ، وجاء بما جهزها به موقراً ، فلما نظرتُ إلى عبد الله ،
خرّت مغشياً عليها ، وأهوى إليها عبد الله ، وخرج العراقي وتصابيح أهل الدار :
عمارة ! عمارة ! فجعل عبدُ الله يقول ، ودموعه تجري : أحلمُ هذا ؟ أحقُّ هذا ؟
ما أصدّق بهذا ! فقال له العراقي : جعلت فداءك ! قد ردها عليك إيثارك الوفاء ،
وصبرُك على الحق ، وانقيادك له .

فقال عبد الله : الحمد لله ، اللهم إنك تعلم أني نصبرت عنها ، وآثرت الوفاء ،

وَأَسَلْتُ لِأَمْرِكَ ! فَرَدَّتْهَا عَلَيَّ بِمَنْكَ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ . ثُمَّ قَالَ : يَا أَخَا الْعِرَاقِ ؛ مَا فِي
الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْكَ ، وَسَيَجَازِيكَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَقَامَ الْعِرَاقِيُّ أَيَّامًا وَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ غَنَمًا لَهُ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَقَالَ
لِقَهْرْمَانِهِ : احْمِلْهَا إِلَيَّ ، وَقُلْ لَهُ : اعْذِرْ ، وَاعْلَمْ أَنِّي لَوْ وَصَلْتُكَ بِكُلِّ مَا أَمْلَكَ لِرَأْيَتِكَ
أَهْلًا لَا أَكْثُرُ مِنْهُ ؛ فَرَحَلَ الْعِرَاقِيُّ مَحْمُودًا وَافِرَ الْمَالِ .

٩٨ - عمر بن أبي ربيعة في لبسة أعرابي*

قال عثمان بن إبراهيم الخطابي :

أتيتُ عمرَ بنَ أبي ربيعةَ بعد أن نَسَكُ بسنين ، وهو في مجلس قومه من
بنى مخزوم ، فانتظرتُ حتى تفرَّق القوم ، ثم دنوتُ منه ومعي صاحبٌ لي ظريف ،
وكان قد قال لي : تعالَ حتى نهيجه على ذكر الغزل ، فننظرُ هل بقيَ في نفسه
منه شيء ، فقال له صاحبي . يا أبا الخطاب ، أكرمك الله ؛ لقد أحسن العذري
وأجاد فيما قال . فنظر عمر إليه ثم قال له : وماذا قال ؟ قال : حيث يقول :

لو جُذَّ بالسيفِ رأسِي في مَوَدَّتِها لمَّ يَهْوِ سريعا نحوها رأيي
فارتاح عمرُ إلى قوله وقال : هاه ! لقد أجاد وأحسن . فقلت : والله درُّ جُنَادَةِ
العُذْرَى ! فقال عمر : حيث يقول ماذا ؟ ويحك ! فقلت : حيث يقول :

سَرَّتْ لِعَيْنِكَ سُلَى بَعْدَ مَفْغَاها	فِيَتْ مُسْتَنْبِها ^(١) مِنْ بَعْدِ مَسْرَاها
وَقُلْتُ : أَهْلا وَسَهْلا مَنْ هَذَا لَنَا	إِنْ كُنْتَ تَمَثَّلُهَا أَوْ كُنْتَ إِياها
تَأْتِي الرِّيحُ الَّتِي مِنْ نَحْوِ بِلَدَتِكُمْ	حَتَّى أَقُولَ دَنْتُ مِنْنا بَرِيَّاها
وَقَدْ تَرَأَخْتَ بِنَا عَنْهَا نَوَى قُذْفُ ^(٢)	هِيَاةَ مُصْبِحُها مِنْ بَعْدِ مُمَسَاها
مِنْ حُبِّها أَتَمْنَى أَنْ يُبْلِقِيَنِي	مِنْ نَحْوِ بِلَدَتِها نَاعِ فَيَنْعَاها
كَيْبَا أَقُولُ فِرَاقُ لا لِقَاءَ لَهُ	وَتُضْمِرُ النَفْسُ يَأْسًا ثُمَّ تَسْلَاها

* الأغانى : ١ - ١٧٤ ، الأمالى : ٢ - ٥٠ .
(١) مستنبها : مستيقظا (٢) نوى قذف : بعيدة .

ولو تموت لراعثنى وقلتُ ألا يا بؤس للموت ! ليت الموت أبقاها
قال : فضحك عمر ، ثم قال : وأبيك لقد أحسن وأجاد وما أبقى ، ولقد
هيجتُما على ساكننا ، وذكرتُما ما كان عني غائباً ، ولا حدثنكما
حديثاً حلوا :

بينما أنا منذ أعوام جالس إذ أتاني خالد الخريت فقال لي : يا أبا الخطاب ؛
مرت بي أربع نسوة قبيل العشاء يُرِدْنَ موضع كذا وكذا ؛ ولم أرَ مثلهنَّ في بدو
ولا حَضر ، فيهنَّ هندُ بنت الحارث المُرِّيَّة ، فهل لك أن تأتيهنَّ متكرراً ، فتسمع
من حديثهن ، وتتمتع بالنظر إليهن ، ولا يَعلَمَنَّ من أنت ؟ فقلت له : ويحك !
وكيف لي أن أخفي نفسي ؟ قال : تلبسُ لبسة أعرابي ؛ ثم تجلس على قعود^(١) ،
فلا يشعرنَّ إلا بك قد هجمت عليهن .

فعلتُ ما قال ؛ وجلست على قعود ، ثم أتيتهنَّ فسلمتُ عليهن ، ثم وقفتُ
بقرُبهن ، فسألنني أن أنشدن وأحدثن ، فأنشدتهن لكثيراً وجميل والأحوص
ونصيب وغيرهم ؛ فقلن لي : ويحك يا أعرابي ! ما أملحك وأظرفك ! لو نزلت
فتحدثت معنا يوماً هذا ! فإذا أمسيت انصرفت في حفظ الله !

فأنختُ بعيرى ، ثم تحدثتُ معهن ، وأنشدتهن فسررن بي وجذِلنَّ
بقرُبي ، وأعجبهنَّ حديثي ، ثم إنهن تَغامزن ، وجعل بعضهن يقول لبعض : كأننا
نعرف هذا الأعرابي ! ما أشبهه بعمر بن أبي ربيعة ! فقالت إحداهن : هو والله
عمر ! فمدت يدها فانزعَت عمامتي فألقتها عن رأسي ثم قالت لي : هيه يا عمر !

(١) القعود من الإبل : ما يقتعده الراعى في كل حاجة .

أتراك خدعتنا منذُ اليوم ! بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد ؛ فأرسلناه
إليك لتأتينا في أسوأ هيئة ، ونحن كما ترى . قال عمر : فحادثتهن ساعة ، ثم
انصرفت ، فذلك قولي :

ألم تسأل الأطـلالَ والمتربعا	بيطن ^(١) حُلَيَّاتٍ دوارس بَلَقَمَا
فبيخلن أو يُخْبِرَنَ بالعلم بعد ما	نكأن قوادا كان قِدَمًا مُفَجَّعَا
بهند وأترابٍ لهنـد إذ الهوى	جميعٌ وإذ لم نخش أن يتصدعا
وإذ نحن مثلُ الماء كان مِزاجه ^(٢)	كماصفق ^(٣) الساقى الرحيق المشعشعا ^(٤)
وإذ لا نطـيع العاذلين ولا نرى	لواشٍ لدينا يطلب الصرم ^(٥) موضعا
تنوءن حتى عاود القلب سقمه	وحتى تذكرت الحديث المودعا
فقلت لمطريهن بالحسن : إنما	ضررت فهل تشطيع نفعا فتنعفا
وهيجت قلبا كان قد ودع الصبا	وأشياعه ، فاشفع عسى أن تُشعفا
أئن كان ما قد قلت حقا فما أرى	كمثل الآلى أطریت في الناس أربعا
فقال : نعال انظر فقلت : وكيف لي	أخافُ مقاما أن يشيع فيشعفا
فقال : اكتفل ^(٦) ثم التيم وأت باغيا	فسلم ، ولا تكثُر بأن تتورعا
فإني سأخفي العين عنك فلا ترمى	مخافة أن يفسو الحديث فيسمعفا

(١) بطن حليات : اسم موضع قرب مكة (٢) مزاج الشراب . ما يمزج به (٣) التصفيق :
الترج (٤) الرحيق : أطيب الخمر ، والشمع : المزوج (٥) الصرم : القطع (٦) اكتفل
البعير : إذا أدار على موضع من ظهره كساء وركب عليه .

فأقبلتُ أهوى مثلَ ماقال صاحبي
فلما تواقفنا وسلمتُ أشرقتُ
تبالهنَّ بالعرفان لما عرفتني
وقربنَ أسباب الهوى لتيمن
فلما تنازعنا الأحاديثَ قلنَ لي :
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً
فما جئتنا إلا على وفقٍ موعود
رأينا خلاء من عيونٍ ومجلساً
وقلنَ : كريمٌ نال وصل كرائم
لموعده أزجى قعوداً موقفاً^(١)
وجوهٌ زهاها الحسنُ أن تتقنفا
وقلنَ امرؤ باغٍ أكلٌ وأوضعا^(٢)
يقبسُ ذراعاً كلما قسنَ إصبعا
أخفتَ علينا أن نغرَّ ونُخدعا ؟
إليكَ وبيننا له الشأنَ أجمعاً
على ملائمتنا خراجنا له معاً
دميث^(٣) الرباسهل المحلة ممرعا^(٤)
فحق له في اليوم أن يتمتعا^(٥)

(١) القعود الموقف : الذي يظهره آثار الجروح لكثرة ما حمل عليه وركب ، فهو بعير ذلول
(٢) أكل وأوضع : أسرع في سيره (٣) دمث السكان : سهل (٤) ممرع : مخصب
(٥) هذه القصيدة نفسها قصة ممتعة تتحدث عما كان في الشعر العربي من قصص .

٩٩- حَدِيثُ يَوْمِ الدَّوْحَةِ

قال حماد الراوية :

أتيت مكة ، جلستُ في حلقةٍ فيها عمرُ بن أبي ربيعة ، وإذا هم يتذاكرون العذريين^(١) وعشقمهم وصبايتهم ، فقال عمر : أحدثكم عن بعض ذلك :

كان لي خليلٌ من عذرة يقال له : الجعد بن مہجج ، ويكنى أبا مُسهر ، وكان يلقى مثلَ الذي ألقى من الصَّباة بالنساء والوجدِ بهنَّ ؛ على أنه كان لا عَهِراً الخلوَّة ، ولا سريعَ السَّلوَّة ؛ وكان يوافي الموسم في كل سنة ، فإذا رآث^(٢) عن وقته ترجعت عنه الأخبارُ ، وتوَكَّفت^(٣) له الأسفار^(٤) حتى يَقدِّم ؛ فغمَّني ذات سنةٍ إبطاؤه حتى قدِّم حُجَّاجُ عذرةٍ ، فأتيتُ القومَ أنشد^(٥) صاحبي ، وإذا غلام تنفَّس الصَّعداء ! ثم قال : أعن أبي المُسهر تَسأل ؟ قلت : عنه أسأل ، وإياه أردتُ . قال : هَيناه هَيناه ! أصبح والله أبو المسهر لا مؤيِّساً فيهمَل ، ولا مرجوًّا فيُعَلَّل ، أصبح والله كما قال القائل :

* الأغاني ١٠ - ٤٨ ، مصارع العشاق : ٥٦ ، العقد الفريد ٣ : ٣٨٤ ، تزيين الأسواق : ٢٤٨
(١) عذرة : قبيلة اشتهر فيها العشق . قيل لأعرابي : بمن أنت ؟ قال : من قوم إذا عشقوا ماتوا ، قال : عذري ورب الكعبة ! ثم قيل له : ولم ذلك ؟ قال : لأن في نساءنا صباحة ، وفي فتياتنا عفة . وقيل لعروة بن حزام : أصبح ما يقال فيكم : إنكم أرق الناس قلوباً ؟ قال : نعم ، والله لقد تركت ثلاثين شاباً في الحى ، قد خامرهم الموت ، ما لهم داء إلا الحب ! (٢) رآث : أبطل (٣) يقال : توَكَّف لفلان ، أى تعرض له حتى يلقاه (٤) قوم أسفار : ذوو سفر (٥) أنشده : أطلبه .

لعمرك ما حُبِّي لأسماء تاركى أَعِيشُ ولا أَقْضِى به فَأُمُوتُ

قلت : وما الذى به ؟ قال : مثلُ الذى بك ؛ من تهوُّركا فى الضلال ،
وجرَّ كما أذْيال الخسار ؛ فكأُنكأ لم تسمعا بجنةٍ ولا نار اقلت : مَنْ أَنْتَ مِنْهُ
يا بن أخى ؟ قال : أخوه . قلتُ : أما والله يا بن أخى ما يَمْنُوك أن تسلكَ مسلك
أخيك من الأدب ، وأنْ تركب منه مركبه إلا عَجَزَكَ عن مجاراته . ثم صرفتُ
وجهَ ناقتى وأنا أقول :

أراحمة حُجَّاج عُدرة وُجْهةً ولَمَّا يَرَحُ فى القوم جَمَد بن مِهْجَع
خَلِيلان نَشْكُو ما نَلاقى من الهوى متى ما يَقُل أَسْمَعُ وإن قلتُ يَسْمَعُ
أَلَا أيت شِعرى أَيْ شَيْء أَصابه فلى زفرات هِجْن ما يَبْنِ أضلعي
فلا يُبْعِدَنَّكَ اللهُ خِيلاً فَإِنِّى سَأَلِى كما لاقيت فى الحب مصرعى

ثم انطلقت حتى وقفتُ موقفى من عرفات ؛ فبينما أنا كذلك إذْ بِإنسان قد
تَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، وساءت هيئته ، فأدنى ناقتَه من ناقتى حتى خالف بين أعناقهما ، ثم
عانقنى حتى اشتد بكأؤُه ، فقلت : ما وراءك ؟ فقال : بَرَحَ العَذْلُ ، وطول المَطْلُ ،
ثم أنشأ يقول :

لئن كانت عديلة ذاتَ مَطلٍ لقد علمت بأن الحبَّ داء
ألم تنظرُ إلى تَغْيِيرِ جِسمى وأنى لا يفارقنى البكاء
وإنك لو تكلفتِ الذى بى لزال السُّرُّ وانكشف الغِطاء
وإن معاشرى ورجالَ قَوْمى حتوفهم الصبايةُ واللَّقاء

فقلت : يا أبا المسهر ؛ إنها ساعة تُضرب إليها أكبادُ الإبل من شرق الأرض
وغربها ، فلو دعوت الله كنت قميناً بحاجتك ، وأن تُنصر على عدوك ؛ فتركني
وأقبل على الدعاء ، فلما نزلت الشمس للغروب ، وهم الناس أن يفيضوا سمعته
يتكلم بشيء ، فأصغيتُ إليه ، فإذا هو يقول :

يا ربَّ كلِّ غَدوة وروحة من محرمٍ يشكو الصبا ونوحه
أنت حبيبُ الخلق يوم الدَّوْح

فقلت له : وما يومُ الدَّوْح ؟ قال : والله لأخبرنك ولو لم تسألني !

فيممنا نحو مُزدَلِفَة^(١) ، فأقبل على وقال : إني رجلٌ ذو مال كثير ؛ من نَعَمٍ
وشاء ، وقد خشيتُ على أموالِ النَّف ، فأتيتُ أخوالى كلباً ، فأوسعوا لي عن
صدر المجلس ، وكنتُ فيهم في خبر أحوالى ؛ ثم إني خرجتُ يوماً إلى ماء لهم ،
وركبتُ فرسى ، وسمطتُ^(٢) خلفي شراًباً كان أهدها إليّ بعضهم ، ثم مضيتُ حتى
إذا كنتُ بين الحى ومرعى النعم ، رفعتُ لي دَوْحَةً عظيمة ، فنزلتُ عن فرسى ،
وشدَّدته بفُصْنٍ من أغصانها ، وجلستُ في ظلِّها ؛ فبينما أنا كذلك إذ سطع غبارٌ
من ناحية الحى ، ورفعتُ لي شخوص ثلاثة ، ثم تبينتُ فإذا فارس بطرْدُ أتانين ،
فتأملتُهُ فإذا عليه درعٌ أصفر ، وعمامة خبز سوداء ، وإذا فروع شعره تضرب خصرية
فقلت : غلامٌ حديثُ عهدٍ بعُرس ، أعجلته لذة الصيد ، فترك ثوبه ؛ ولبس ثوبَ
امراته ؛ فما جاز على إلا يسيراً حتى طعن الأتان ، وأقبل راجعاً نحوى .

(١) مُزدَلِفَة : موضع بين عرفات ومنى ، سمي بذلك لأنه يتقرب فيه إلى الله تعالى (٢) سمط
الفرس : علقه .

فقلت له : إنك قد تعبتَ وأتعبتَ ، فلو نزلت ! فثنى رجله ونزل ، ثم شدَّ
فرسه بغصن من أغصان الشجرة ، وألقى رمحاً وأقبل حتى جلس ، فجعل يحدثني
حديثاً ذكرتُ به قولَ أبي ذؤيب :

وإنَّ حديثاً منكٍ لو تبذُلينه جَنَى النَّحْلِ في ألبانِ عُوذٍ^(١) مَطَافِلِ

فقمْتُ إلى فرسي فأصلحتُ من أمره ثم رجعتُ ، وقد حَسَرَ العِمَامَةُ عن رأسه ؛
فإذا غلامٌ كان وجهُهُ الدينار المنقوش ، فقلت : سبحانك اللهم ! ما أعظمَ قُدْرَتَكَ !
وأحسنَ صنْعَتَكَ ! فقال : مِمَّ ذاك ؟ قلت : مما راعني من جمالك ، وبهرني من
تُورِكَ . قال : وما الذي يروَعُكَ من حَبِيسِ التُّرابِ وأَكِيلِ الدَّوَّافِ ، ثم
لا يدري بعد ذلك أَيْنَعَمَ أم يَبْئَسَ ؟ قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً .

ثم تحدَّثْنَا ساعة ، فأقبل عليّ وقال : ما هذا الذي أرى قد سَمَطَتْ في سرجك ؟
قلت : شراب أهداه إلى بعض أهلِكَ ، فهل لك فيه من أرب ؟ قال : أنتَ وذاك ،
فأثبته به ، فشرب منه ، وجعل ينسكت أحياناً بالسوط على ثنياه ؛ فجعل والله
يتبيّن لي ظلُّ السوط فيهنّ ، فقلت : مهلاً ، فإنّي خائف أن تكسِرَهنّ ، فقال :
ولِمَ ؟ قلت : لأنهن رِقَاقٌ ، وهنّ عِذاب ؛ ثم رفع عَمِيرته يتغنّى :

إذا قبل الإنسانُ آخرَ يشتهي ثنياه لم يَأْتِمْ وكان له أجرا

فإن زاد زاد الله في حسناته مشاقيل يمحوا الله عنه بها الوزرا

(١) العوذ : الحديثات الناج ، والمطافل جمع مطفل : ذات الطفل .

ثم قام إلى فرسه ، فأصلح من أمره ، ثم رجع
قال أبو مُشهر : فبرقت لي بارقة تحت الدَّرْع ، فإذا ثدي ، فقلت : نشدتك
الله ! امرأة ! قالت : إني والله ؛ إلا أنني أكره المشير . ثم جلست ، فجعلت
تشرب معي ، وما أفقد من أنسها شيئاً ، فما لبثت إلا يسيراً حتى انتهت فرجة ،
فلأثت عمامتها برأسها ، وجالت في مثن فرسها ، وقالت : جزاك الله عن الصُّعبة
خيراً . قلت : أو ما تزوديني منك زاداً ، فناولتني يدها فقباتها ، فشمت والله منها
ريح المسك المفتوت ، فذكرت قول الشاعر :

كأنها إذا تقضى النومُ وانتبهتُ سحابةٌ مالهـا عينٌ ولا أثرُ

ثم قلت لها : وأين الموعد ؟ قالت : إن لي إخوة شُرمًا ، وأبًا غيورًا ،
والله لأن أسرك أحبُّ إلي من أن أضرك ، ثم انصرفت ، فجعلت أتبعها
بصرى حتى غابت ، فهي والله يابن أبي ربيعة حلتني هذا الحل ، وأبلغتني هذا
المبلغ !

قال عمر : فقلت له : يا أبا المسير ؛ إن الغدر بك مع ما تذكر للمليح ، فبكي
واشدَّ بكاءً . فقلت : لا تبك ، فما قلت لك ما قلت إلا مازحاً ، ولو لم أبلغ في
حاجتك بمالي لسميت في ذلك حتى أقدر عليه ، فقال : خيراً .

قال عمر : فلما انقضى الموسم شدتُ على ناقتي ، وشدتُ على ناقتي ، ودعوت
غلامي ، فشدتُ على بعيره ، وحملت عليه قبة حمراء من أدم^(١) ، كانت لأبي ربيعة
الحزومي ، وحملت معي ألف دينار ومطرف^(٢) خَزَرٍ ، وانطلقنا حتى أتينا بلاد كلب ،

(١) الأدم : الجلد

(٢) المطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام .

فَذَسَدْنَا أبا الجارية ، فوجدناه في نادى قومه ، وإذا هو سيّدُ الحى ، وإذا الناس حوله ، فوقفتُ على القوم ، فسألتُ فردَّ الشيخ السلام ، ثم قال : مَنْ الرجل ؟ قلت : عمر بن أبى ربيعة بن المغيرة ، فقال : المعروف غير المنكر ! فما الذى جاء بك ؟ قلت : خاطباً ، قال : الكفء والرغبة ، قلت : إني لم آتِ ذلك لنفسى من غير زهادة فيك ، ولا جهالة بشرفك ؛ ولكنى أتيتُ فى حاجة ابن أختكم العذرى ، وما هو ذاك . فقال : والله إنه لكفء الحسب ؛ رفيع البيت ، غير أن بنائى لم يقعن إلا فى هذا الحى من قريش .

فَوَجَّهْتُ لذلك ، وعَرَفْتُ النخبر فى وجهى ، فقال : أما إني صانع بك ما لم أصنعه مع غيرك ، قلت : وما ذاك ؟ فنشلى مَنْ شكر . قال : أخيرها ، فهى وما اختارت ، ثم خيرها ، فقالت : وما كنتُ لأستبدَّ برأى دون القرشى ، فالخيارُ والحكم له . فقال لى : إنها قد ولّتك أمرها ، فاقضى ما أنت قاض . فحمدت الله عز وجل وأثنتُ عليه ، وقلت : اشهدوا أنى قد زوجتُها من الجعد بن مهجع ، وأصدقتهُ هذا الألف الدينار ، وجعلتُ تكريمها العبد والبعير والقبة ؛ وكسوتُ الشيخ المطرف ، وسألتُهُ أن يبنى بها فى ليلته ؛ فأرسل إلى أمها ؛ فقالت : أخرج ابنتى كما تخرج الأمة ! فقال الشيخ : قومى فى جهازها ، فما برحت حتى ضربت القبة فى وسط الحرم ؛ ثم أهديتُ إليه ليلاً ؛ وبِتَ عند الشيخ ؛ فلما أصبحتُ أتيتُ القبة ، فصيحّتُ بصاحبى فخرج إلى وقد أثر السرورُ فيه ، فقلت : كيف كنتَ بعدى ؟ وكيف هى بعدك ؟ فقال لى : أبَدتُ لى والله كثيراً مما كانت

أخفته عني يوم لقيتها ؛ فقلت : أقيم على أهلك ، بارك الله لك فيهم ، وانطلقت
وأنا أقول :

كفيت أخى العذرى ما كان نأبه وإنى لأعجاء النوائب حمال
فقال العذرى :

إذا ما أبو الخطاب خلى مكانه فأنى لدنيا ليس من أهلها عمرا

١٠٠- لَوْلَا فَصَّاحَتُهُمْ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ*

أمر الحجاج^(١) صاحبَ حَرَسِهِ أن يطوف بالليل ؛ فمن رآه بعد العشاء سكران ضربَ عنقه ؛ فطاف ليلةً من الليالي ، فوجد ثلاثةَ فتيانٍ يتمايلون ، وعليهم أمارات السُّكْرِ ؛ فأحاطت بهم الغلمان ، وقال لهم صاحبُ الحرس : من أنتم حتى خالفتم أمرَ أمير المؤمنين ، وخرجتم في مثل هذا الوقت ؟ فقال أحدهم :

أنا ابنُ من دانتِ الرقابُ له ما بين مخزومٍها وهاشمِها
تأتيه بالرغمِ وهي صاغرةٌ يأخذ من مالها ومن دميها

فأمسك عنه ، وقال : لعله من أقارب أمير المؤمنين ! ثم قال للآخر : وأنت من تكون ؟ فقال :

أنا ابنُ لمن لا تنزلُ الدهرَ قِدرُهُ وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناسَ أفواجاً إلى ضوءِ ناره فمنهم قيامٌ حولها وقعودٌ

فأمسك عنه ، وقال : لعله ابن أشرف العرب . ثم قال للآخر : وأنت من تكون ؟ فأنشد على البديهة :

أنا ابنُ لمن خاضَ الصفوفَ بعزمِهِ وقومها بالسيفِ حتى استقامتِ
ورَكَبَاهُ لا ينفكُ رِجْلَاهُ منها إذا الخيلُ في يومِ الكريهةِ ولَّتِ

* مجازي الأدب : ٣ - ١٥

(١) الحجاج بن يوسف : نشأ بالطائف ، وولى العراق والفرق ، وهلك بواسط سنة ٩٥ .

فأمسك عنه أيضاً ، وقال : لعله ابن أشجع العرب ؛ واحتفظ عليهم .
فلما كان الصباح رفع أمرهم إليه ؛ فأحضرهم ، وكشف عن عالم ؛ فإذا الأول
ابن حجاج ، والثاني ابن فوّال ، والثالث ابن حائك !
فتمعجب من فصاحتهم ، وقال لجلسائه : علموا أولادكم الأدب ، فوالله لولا
فصاحتهم لضربت أعناقهم .

١٠١- يَوْمَ دَارَةِ جُلْجُلْ

قال الفرزدق ^(١) : أصابنا بالبصرة مطر جَوْد ^(٢) ، فلما أصبحت ركبْتُ بفلتي ،
وسرتُ إلى المَرَبْد ^(٣) ، فإذا أنا بآثار دوابٍ ، وقد خرجت إلى ناحية البرية ، فظننتُ
أنهم قوم خرجوا للنزهة وهم خُلُقَاءُ أن يكون معهم سُفْرَةٌ ^(٤) ، فاتبعْتُ آثارهم حتى
انتهيت إلى بغال عليها رحائل ^(٥) موقوفة على غدير ، فأسرعتُ إلى الغدير ، فإذا فيه
نسوة مستنقعات في الماء ، فقلت : لم أراك اليوم قط ولا يوم دارة جُلْجُلْ ،
وانصرفت مستحيياً .

فناديتني : يا صاحبَ البغلة ؛ ارجعْ نسألك عن شيء ، فرجعتُ إليهنّ ، فقعدن
في الماء إلى حُلوقهنّ ، ثم قلن : بالله إلا ما أخبرتنا ، ما كان من حديث دارة جلجل .

قلت : حَدَّثَنِي جدي - وأنا يومئذ غلامٌ حافظ - أن امرأ القيس كان عاشقاً
لابنة عمه - ويقال لها عُنيزة - وأنه طلبها زماناً فلم يصل ، حتى كان يوم الغدير -
وهو يوم دارة جلجل - وذلك أن الحَيَّ تحمّلوا ، فتقدم الرجال ، وتخلف النساء
والخدم والثقل ؛ فلما رأى ذلك امرؤ القيس تخلف بعدما سار مع رجال قومه غُلُوَّةً ،
فكمن في غابة من الأرض حتى مرَّ به النساء ، وفيهن عُنيزة ، فلما وَرَدَن الغدير

* العقد الفريد : ٤ - ٣٥٢ .

(١) هو أبو فراس همّام بن غالب نشأ بالبصرة وأخذهُ أبوه برواية الشعر ونظمه فرواه ونبغ
فيه . مات سنة ١١٠ هـ . (٢) الجود : المطر الغزير (٣) المربد : سوق بالبصرة ، كان يعقد
لبيع ، وفيه ينشد الشعر (٤) السفرة : طعام المسافر (٥) الرحالة : السرج .

قلن : لو نزلنا واغتسلنا في هذا الغدير فذهب عنا بعض الكلال ! فنزلن في الغدير ، ثم تجردن فوقفن فيه ، فاتاهن امرؤ القيس ، فأخذ ثيابهن فجمعها ، وقعد عليها ، وقال : والله لا أعطى جاريةً منك ثوبها ، ولو قعدت في الغدير يومها حتى تخرج متجردة فتأخذ ثوبها ، فأبين ذلك عليه حتى تعالى النهار ، وخشين أن يقصرن عن المنزل الذي يردنه ، فخرجن جميعاً غير عئيزة ، فناشدته الله أن يطرح ثوبها ، فأبى ، فخرجت فنظر إليها مُقبله مدبرة ، وأقبلن عليه ، فقُلن له : إنك عذبتنا وحَبَسْتَنَا وأَجَعْتَنَا ، قال : فإن نحرْتُ لكنَّ ناقتي أتاكن معي ؟ قلن : نعم ، فجرد سيفاً فمَرَّقَها ونحرها ، ثم كسَّطها ، وجمع الخدم حطباً كثيراً ، فأَجَّجْنَ ناراً عظيمة ، فجعل يقطع أطايبها ، ويُلقى على الجمر ، ويأكلن ويأكل معهن ، ويشرب من فَضْلَةِ كانت معه ، ويسقيهن وَيَنْبِذُ إلى العبيد من الكباب ^(١) ، فلما أرادوا الرحيل قالت إحداهن : أنا أحمل طِنْفَستَه ، وقالت الأخرى : أنا أحمل رَحْلَه ونساعده ، فتقسمن متاعه وزاده ، وبقيت عئيزة لم تحمل له شيئاً ، فقال لها : يا بنت الكرام ؛ لا بد أن تحمليني معك ، فإني لا أطيق المشى ، فحملته على غارب بعيرها ، فكان يحنح إليها فيميل حذوها ^(٢) ، فتقول : « عقرت بعيري ، فانزل » ، وفي ذلك يقول :

ألا ربُّ يومٍ لي من البيضِ صالحٍ ولا سيما يوم بدارةٍ جُلجُلٍ ^(٣)
ويوم عقرتُ للعذاري مطيتي ^(٤) فيأعجباً من كورها المتحمِّل

(١) الكباب : ضرب من قلى اللحم (٢) الحدج : مركب للنساء كالخففة (٣) دارة جاجل : مكان بنجد (٤) مطيته : ناقته ، والعذاري : الأبقار ، والكور : الرجل ، والمتحمل : المحمول .

فَظَلَّ الْمَذَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَحْمِ كَهْدَابٍ^(١) الدَّمَقْسُ الْمَقْتَلُ
وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخَذَرَ^(٢) خِذَرَ عَنِيْزَةٍ فَقَالَتْ : لَكَ الْوِيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي^(٣)
تَقُولُ وَقَدْ مَالَ النَّبِيْطُ^(٤) بِنَا مَعًا عَقَرْتُ^(٥) بَعِيْرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَانْزِلِ
فَقُلْتُ لَهَا : سِيرِي وَأَرْخِي زِمَامَهُ وَلَا تُبْعِدِيْنِي مِنْ جَنَّاكَ الْمُعَلَّلِ^(٦)

(١) هداب الدمقس : أطراف الحرير ، والمقتل : المقتول (٢) الخدر : المودج ، وهو في الأصل الستر (٣) مرجلي من أرجلته : صيرته راجلا . وقبل معناه فأضحى بين رجالي .
(٤) النبيط : الرجل (٥) عقرت بعيري : أدميت ظهره لثقلك (٦) الجنى : الثمر ، والمعلل : المطيب مرة بعد أخرى .

١٠٢ - دَعْنِي وَرَبِّي الَّذِي لَا يَخْلُ وَلَا يَذْهَلُ*

لما بلغ الوليد^(١) بن يزيد أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك قد شرّد عنه القلوب ، واستجاش^(٢) عليه أهل اليمن ، ونازعه في ملكه ؛ احتجب عن سُمتاره ، ودعا في بعض الليالي خادماً له ؛ فقال له : انطلق متذكراً حتى تقف ببعض الطُّرُق ؛ وتأمل من يمرُّ بك من الناس ؛ فإذا رأيت كهلاً رثَّ الهيئة ؛ يمشي الهوينى ؛ وهو مُطْرِق ، فسلم عليه ؛ وقل له في أذنه : أمير المؤمنين يدعوك ؛ فإن أَسْرَعَ في الإجابة فأتني به ، وإن استرأب^(٣) فدعه ، واطلب غيره ؛ حتى تجد رجلاً على الشرط الذي ذكرت لك .

فانطلق الخادم ؛ فأتاه برجل على الشرط .

فلما دخل الرجل على الوليد حيّاه بتحية الخلافة ، فأمره الوليد بالجلوس والدُّنُو منه ؛ وصبر إلى أن ذهب رَوْعُهُ ، وسكن جَأَشُهُ ، ثم أقبل عليه ، فقال له : أتَحْسِنُ المسامرةَ لا مافاء ؟ فقال . نعم يا أمير المؤمنين . فقال الوليد : إن كنت تُحْسِنُها فأخبرنا ماهي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ المسامرةُ إخبار لمنصتٍ ، وإنصاتٌ لمُخبرٍ ؛ ومفاوضة فيما يعجب ويليق .

* ثمرات الأوراق : ١٧٤

(١) كان الوليد بن يزيد - ويكنى أبا العباس - ماجناً سفيهاً قطع دهره باللهو والفزل ، ويقول أشعار الفنين يعمل فيها الألمان . مات مقتولاً سنة ١٢٦ هـ (٢) استجاش أهل اليمن : حملهم على الهياج (٣) استرأب به : رأى منه ما يريبه .

قال له الوليد : أحسنت ! لا أزيدك امتحاناً ! قل : أسمع لقولك .

فقال السكهل : نعم يا أمير المؤمنين ؛ ولكن المسامرة صنفان لا ثالث لهما : أحدهما الإخبار بما يوافق خيراً مسموعاً ، والثاني الإخبار بما يوافق غرضاً من أغراض صاحب المجلس ، وإني لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين طريقةً فأنحو نحوها ، وألزم أسلوبها .

فقال الوليد : صدقت ، وهانحن أ ولاء نقترح لك ماتقتفيه .

قد بلغنا أن رجلاً من رعييتنا سعى في ضرر ملكنا ، فأثر سعيه ؛ وشق ذلك علينا ، فهل سمعت ذلك ؟ فقال السكهل : نعم يا أمير المؤمنين ! فقال له الوليد : قل الآن على حسب ما سمعت ، وعلى ما ترى من التدبير .

فقال : بلغني عن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان : أنه لما ندب الناس لقتال ابن الزبير ؛ وخرج بهم متوجّهاً إلى مكة - حرمها الله - استصحب عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان عمرو قد انطوى على فساد نيّة ، وخُبث طويّة ، وطماعيّة في نيل الخلافة ، وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان قد فطن لذلك ، إلا أنه كان يحترمه .

ولما بعد أمير المؤمنين عن دمشق تمارض عمرو بن سعيد ، واستأذن في العود إلى دمشق ؛ فأذن له .

فلما دخل عمرو دمشق صعد المنبر ، فخطب الناس خطبةً ، نال فيها من الخليفة ، واستولى على دمشق ، ودعا الناس إلى خلع عبد الملك ؛ فأجابوه إلى ذلك ،

وبابعد ، وحصن بعد ذلك سور دمشق وحى حوزتها .

فبلغ ذلك عبد الملك ، وهو متوجه إلى ابن الزبير ؛ وبلغه مع ذلك : أن وإلى
حصن قد نزع يده من الطاعة ؛ وأن أهل الثغور قد تشوفوا للخلاف ؛ فأحضر
وزرائه ؛ فأطلعهم على ما بلغه ، وقال لهم : دمشق قد استولى عليها عمرو بن سعيد ،
وهذا عبد الله بن الزبير قد ملك الحجاز والعراق واليمن ومصر وخراسان ، وهذا
النعمان بن بشير أمير حمص ، وزفر بن الحارث أمير فلسطين قد خرجا عن الطاعة
وباغوا الناس لا بن الزبير .

فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم ، فقال لهم عبد الملك : ما لكم
لا تنطقون ؟ هذا وقت الحاجة إليكم .

فقال أفضلهم : وددت أن أكون طيراً على عود من أعواد نهماء حتى تنقضي
هذه الفتن !

فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه قام ، وأمرهم بلزوم موضعهم ، وركب منفرداً ،
وأمر جماعة من شجعانه أن يتبعوه متباعدين ، ففعلوا .

وسار عبد الملك حتى انتهى إلى شيخ ضعيف ، سبي الحال ، وهو يجمع
سماً^(١) ؛ فسلم عليه عبد الملك وآتته بحديثه ، ثم قال له : أيها الشيخ ، ألك علم
بنزول هذا العسكر ؟ فقال الشيخ : وما سؤالك عنه ؟ فقال عبد الملك : إني
أردت الانتظام في سلكه ! فقال له : إني أرى عليك سمة الرياسة ، فينبغي لك

(١) السماق ، كرمون : ثمر يشهى .

أن تصرف نفسك عن هذا الرأي ؛ فإن الأمير الذي أنت قاصده قد انحلت
عُرًا مُلكه ؛ والسلطان في اضطرابٍ أموره كالبحر إذا هاج !

فقال عبد الملك : أيها الشيخ ؛ قد تآقت نفسي إلى صحبة هذا الأمير ؛ فهل
لك أن تُرشدني إلى رأي ؟ فقال له الشيخ : إن هذه النازلة التي نزلت بهذا الأمير
من النوازل التي لا تنفذ فيها العقول ، وإني لأكره أن أرد مسألتك بالخبيثة . فقال
له عبد الملك : قل جزاك الله خيراً !

فقال الشيخ : إذا قصدت هذا الأمير ، وانتظمت في سلكه ؛ فانظر في أمره
فإن رأيت أنه قد أصرَّ عليَّ قصده ابن الزبير فاعلم أنه مخذول فاجتنبه ؛ وإن رأيت أنه قد
رجع من حيث جاء ، وترك قصده الأول ؛ فارح له النصر والسلامة .

فقال عبد الملك : يا شيخ ، وهل رجوعه إلى دمشق إلا كسيره إلى ابن
الزبير ؟ قال الشيخ : إن الذي أشكل عليك لواضح ! وهأنذا أزيل عنك اللبس ؛
إن عبد الملك إذا قصد ابن الزبير كان في صورة ظالم ؛ لأن ابن الزبير ما وثب له
على مملكة ؛ فإذا قصد ابن سعيد كان في صورة مظلوم ؛ لأنه نكث ببيعة ، وخان
أمانته ، ووثب على دار ملك لم تكن له ولا لأبيه من قبله ؛ بل كانت لعبد الملك
ولأبيه من قبله ؛ وعمر وعلينا متمدن .

وفي الأمثال : سمين الغضب مهزول ! ، وولي الغدر معزول ، وسأضرب
لك مثلاً يشفي النفس . ويزيل اللبس :

زعموا أن ثعلباً كان يستي ظالمًا ، وكان له جحر يأوي إليه ، وكان مُفتَبطاً به ؛

فخرج يوماً يبتغي ماياً كل ، ثم رجع ؛ فوجد فيه حياة ، فانتظر خروجها ، فلم تخرج ؛ فلم أنها استوطنته ، وأما لم يمكنه السكنى معها ذهب يطلب لنفسه مأوى ؛ فأتته به السير إلى جحر حسن الظاهر ، حصين في أرض منيعة ذات أشجار ملتفة وماء معين^(١) ؛ فأعجبه ، وسأل عنه ؛ فقالوا : هذا الجحر يملكه ثعلب اسمه مفوض ، وأنه ورثه عن أبيه ؛ فساداه ظالم فخرج إليه ، ورحب به ، وأدخله إلى جحره ، وسأله عن حاله ؛ فقص عليه خبره مع الحية ؛ فرق له مفوض ، وقال له : الموت خير من الحياة في العار ، والرأي عندي : أن تنطلق معي إلى مأواك الذي أخذ منك غضباً ، حتى أنظر إليه ، فلملى أهدى إلى مكيدة تخلص بها مأواك .

فانطلقا معاً إلى ذلك الجحر ؛ فتأمل مفوض ، وقال لظالم : اذهب معي فبِت الليلة عندي لأنظر لياتي هذه فيما يسبح من الرأي والمكيدة .

ففعلاً ذلك ، وبات مفوض مفكراً ، وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض فرأى من سمته ، وطيب هوائه وحصانته ما اشتد به حرصه عليه ، وطفق يدبر في حيلة لاغتصابه ، وتنفى مفوض عنه .

فلما أصبحا قال مفوض لظالم : إني رأيت ذلك الجحر بعيداً من الشجر والماء فأصرف نفسك عنه ، وهلم أعينك على احتقار جحر في هذا المكان المشتبه .

فقال ظالم : غير هذا ممكن ؛ لأن لي نفساً تهلك لبعد الوطن حينئذ ؛ فلما سمع مفوض

(١) ماء معين : جار .

مقالة ظالم ، وما يتظاهر به من الرغبة في وطنه ، قال : إني أرى أن نذهب يومنا هذا ،
فنحتطب حطباً ، ونربط منه حزمتين ، فإذا جاء الليل انطلقنا إلى بعض هذه الخيام ؛
فأخذنا قَبَسَ نار ، واحتملنا الحطب والقَبَسَ إلى مسكنك ؛ فنجعل الحزمتين في بابه ،
ونُضِرِم النار ؛ فإن خرجت الحية احترقت ، وإن لزمت الجُحْرَ قتلها الدخان .

يقال له ظالم : نعمَ الرأي !

فذهبا واحتطبا حزمتين ، ولما جاء الليل انطلق مفوض إلى ظاهر تلك الخيام ،
فأخذ قَبَساً ؛ فعمد ظالم إلى إحدى الحزمتين ، فأزالها إلى موضعٍ غيبها فيه ، ثم جرَّ
الحزمة الأخرى إلى باب مسكن مفوض ، فسده بها سداً مُحْكَمًا ، وقدّر في نفسه
أن مفوضاً إذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول إليه لخصاتته ، فإذا يئس منه ذهب فنظر
لنفسه مأوى .

وكان ظالم قد رأى في منزل مفوض طعاماً ادّخره لنفسه ؛ فعوّل على أنه يفتاتُ
به إن حاصره مفوض ، وهو من داخل ؛ وأذهله الشرّ والحرصُ عن فساد هذا
الرأي .

ثم إن مفوضاً جاء بالقَبَسَ فلم يجد ظالماً ؛ فظن أنه قد حمل إحدى الحزمتين
تخفيفاً عنه ، وأنه سبقه إلى مسكنه الذي فيه الحية ، إشفاقاً عليه ، فشق ذلك عليه ،
وظهر له من الرأي أن يُبادرَ إليه ويلحقه ؛ ليحمل معه الحطب .

فوضع القَبَسَ بالقرب من الحطب ، ولم يشعر أن الباب مسدود به ؛ لشدة
الظلمة ؛ فما بعدُ عن الباب إلا وضوء النار وشدة الدخان قد لَحِقَ به ، فعاد وتأمّل
الباب ؛ فرأى الحطب قد صار ناراً ؛ فعلم مكيدة ظالم ، ورآه قد احترق من داخل

الجحر ، وحق به مكره ؛ فقال : هذا الباحث على حثفه ^(١) يظلفه .
ثم إن مفوضاً صبر حتى انطفأت النار ؛ فدخل جحره ؛ فأخرج جنة ظالم ؛
فألقاها ؛ واستوطن جحره آمناً .

فهذا المثل ضربته لك ؛ لأنه ملائم لفعل عمرو بن سعيد في بغيه ومخادعته
عبد الملك وحيلته في أخذ دار ماسكه وتحصينها منه .

فلما سمع عبد الملك حكمة الشيخ في ضرب أمثاله سرّ بذلك سروراً عظيماً ،
ثم أقبل عليه ؛ فقال : جزيت عني خيراً ؛ وإني أريد أن تجعل بيني وبينك موعداً
وتعرفني مكانك ؛ لألقاك به بعد يومى هذا .

فقال الشيخ : وما تريد بذلك ؟ فقال له عبد الملك : إني أريد مكافأتك على
ما كان منك ؛ فقال الشيخ : إني أعطيت الله عهداً ألا أقبل منة لبخيل .

فقال عبد الملك : ومن أين علمت أنى بخيل ؟ قال : لأنك أخرت صلاتي مع
القدرة ؛ فما عليك لو وصلتني ببعض ما عليك ؟ فقال عبد الملك : أنسم لقد ذهلت !
ثم نزع سيفه ، وقال له : أقبل منى هذا واحرص عليه ؛ فقيمته عشرون ألف درهم .
فقال الشيخ : إني لا أقبل صلة ذاهل ، فدعنى وربى الذى لا يذهل ولا يبخل ؛
فهو حسبي !

فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عظم في عينه ، وعلم فضله في دينه ، فقال له :
أنا عبد الملك ؛ فارفع حوائجك إلى ، فقال الشيخ : وأنا أيضاً عبد الملك ؛ فهل ترفع
حوائجنا إلى من أنت وأنا له عبدان .

فانطلق عبدالملك وعمل برأى الشيخ ؛ فأنجح الله قصده ، وانتصر على أعدائه .
فلما سمع الوليد ما أخبره به الكهل استرجع عقله ، واستظرف أدبه ، واستحسن
محاضرتة ، وسأله عن نفسه ؛ فتسمى له وانتسب ؛ فلم يعرفه الوليد ، فاستحيا منه ،
وقال له : من جمل مثلك في رعيته ضاع .

فقال له الكهل : يا أمير المؤمنين ؛ إن الملوك لا تعرف إلا من تعرف إليها ،
ولزم أبوابها .

فقال له الوليد : صدقت ، ثم أمر له بصدقة مَجَلَّة ، وعهد إليه في ملازمته ؛
فكان يتمتع بأدبه وحكمته .

١٠٣ - أبو جعفر المنصور في المرأة *

قال شبيب بن شيبنة : حججت عام هلك هشام ؛ وولى الوليد بن يزيد ، وذلك سنة خمس وعشرين ومائة ، فبينما أنا مُريحٌ ناحيةً من المسجد ، إذ طلع من بعض أبوابه فتى أسمر ، رقيق السمة ، موفور الامة ^(١) ، خفيف اللحية ، رجب الجبهة ، أفنى ^(٢) بين القنا ، أعين ^(٣) كأن عينيه لسانان ينطقان ، يخالط أبهة الأملاك ^(٤) يزىء النساك ، تقبله القلوب ، وتتبعه العيون ، يعرف الشرف في تواضعه ، والعفو ^(٥) في صورته ، واللُب ^(٦) في مشيته ؛ فما ملكتُ نفسي أن نهضتُ في أثره ، سائلا عن خبره ، وسبقني فتحرمت بالطواف ؛ فلما سبغ ^(٧) قصد المقام ، فركع وأنا أراءه ببصرى ، ثم نهض منصرفا ، فكان عينا أصابته ، فكبا كبوة دُميت لها إصبه ؛ فقعدها القرُفُصاء ، فدنوتُ منه متوجِّعا لما ناله ، متصلا به ؛ أمسحُ رجله من التراب ، فلا يمتنع على ، ثم شقت حاشية ثوبه ، فعصبتُ بها إصبه ، وما ينكر ذلك ولا يدفعه ، ثم نهض متوكِّئا على ، وانقدتُ له أماشيته ، حتى إذا أتى دارا بأعلى مكة ابتدره رجلان تكاد صدورهما تنفرج من هيئته ، ففتحاه له الباب فدخل واجتذبنى ، فدخلتُ بدخوله ، ثم خلى يدي ، وأقبل على القبلة ، فصلى ركعتين أوجز فيهما في تمام .

* العقد الفريد : ٣ - ٢٨٩

(١) الامة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن (٢) قنا الألف : ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه (٣) الأعين : عظيم سواد العين في سعة (٤) الأملاك : الملوك . والأبهة : العظه والكبر (٥) العفو : الفضل (٦) اللب : العقل (٧) سبغ الشيء : جعله سبعة .

ثم استوى في صدر مجلسه فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أتم صلاة وأطيبها ، ثم قال : لم يخف على مكانك منذ اليوم ولا فعلاك بي ؛ فمن تكون يرحمك الله ؟ قلت : شبيب^(١) بن شذبة التميمي . قال : الأهتمي ؟ قلت : نعم . فرحب وقرب ، ووصف قومي بأبين بيان وأفصح لسان ، فقلت له : أنا أجلك - أصلحك الله - عن المسألة ، وأحب المعرفة ! فتبسم وقال : لطف أهل العراق ! أنا عبد الله^(٢) بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ! فقلت : بأبي أنت وأمي ! ما أشبهك بنسبك ، وأدلك على منصبك ! ولقد سبق إلى قلبي من محبتك ما لا أبلغه بوصفي لك قال : فاحمد الله يا أخا تميم ، فإننا قوم يُسَمِّدُ الله بحبنا مَنْ أَحَبَّهُ وَيُشَقِّقُ بُبُغْضَانَا مَنْ أَبْغَضَهُ ، ولن يستل الإيمان إلى قلب أحدكم حتى يحب الله ويحب رسوله ، وإن ضعفنا عن جزائه قوى الله على أدائه .

فقلت له : أنت تُوصَفُ بالعلم ، وأنا مِنْ سَمَلَتِهِ ، وأيامُ الموسم ضيقة ، وشغل أهل مكة كثير ، وفي نفسي أشياء أُحِبُّ أَنْ أَسْأَلَ عَنْهَا ، أفتأذن لي - جعلت فداك ! قال : نحن من أكثر الناس مستوحشون ، وأرجو أن تكون للسَِّرِّ موضعاً وللأمانة داعياً ، فإن كنت كما رجوت فافعل !

فقدَّمت من وثائق القول والإيمان ما سكن إليهِ ، فتلا قول الله : ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ . ثم قال : سل عما بدا لك

(١) هو خطيب البصرة في زمانه ، نشأ في البصرة ، وامتاز بشائبة نفس ، وسخاء كف ، وحسن تواضع ، عرف أبا جعفر المنصور قبل خلافته ، ثم اتصل به بعدما فجعله في حاشية ولي عهده المهدي حتى ولي المهدي الخلافة ، فصار من خيرة سماره وجلسائه ، إلى أن مات سنة ١٧٠ هـ (٢) أبو جعفر المنصور .

قلت : ما ترى فيمن على الموسم - وكان عليه يوسف بن محمد بن يوسف النخعي -
فتنفس الصعداء وقال : عن الصلاة خلفه تسألني ، أم كرهت أن يتأمر^(١) على
آل الله من ليس منهم ؟ قلت : عن كيلا الأمرين .

قال : إن هذا عند الله لعظيم ، فأما الصلاة ففرض لله تعبد به خلقه ، فأد
ما فرض الله تعالى عليك في كل وقت مع كل أحد ، وعلى كل حال ، فإن الذي
ندبك لحج بيته وحضور جماعته وأعياده لم يخبرك في كتابه بأنه لا يقبل منك
نسكا إلا مع أكل المؤمنين إيماناً ؛ رحمة منه لك ؛ ولو فعل ذلك بك ضاق الأمر
عليك ؛ فاسمح بسمح لك . ثم كررت في السؤال عليه ؛ فما احتجت أن أسأل
عن أمر ديني أحداً بعده .

ثم قلت : يزعم أهل العلم أنها ستكون لكم دولة ؛ فقال : لا شك فيها ؛ تطلع
طلوع الشمس ، وتظهر ظهورها ؛ فنسأل الله خيرها ونعوذ بالله من شرها ، فخذ
بخط لسانك ويدك منها إن أذركتها . قلت : أويتخلف عنها أحد من العرب وأنتم
ساداتها ؟ قال : نعم ، قوم يابون إلا الوفاء لمن اصطلمهم ، ونأبي إلا طلباً بحقنا
فننصر ويؤخذون ؛ كما نصر بأولنا أولهم ؛ ويخذل بمخالفتنا من خالف منهم ؛
فاسترجعت ، فقال : سهل عليك الأمر « سنة الله التي قد خلت من قبل ،
ولن تجد لسنة الله تبديلاً » ، وليس ما يكون لهم بحاجز لنا عن صلة أرحامهم ،
وحفظ أعقابهم ؛ وتجديد الصنعة . قلت : كيف تسلم لهم قلوبكم ؛ وقد قاتلوا مع
عدوكم ؟ قال : نحن قوم حبيب إلينا الوفاء وإن كان علينا ، وبغض إلينا الغدر

(١) تأمر : تسلط .

وإن كان لنا ، وإنما يشدّ عنا منهم الأقل ، فأما أنصار دولتنا ونقباء شيعتنا ، وأسراء جيوشنا ، فهم مواليتهم ، وموالى القوم من أنفسهم ، فإذا وضعت الحرب أوزارها صفّحنا عن المسىء ، ووهبنا للرجل قومه ، ومن اتصل بأسبابه ؛ فتذهب المنازعة ، وتخبو الفتنة ، وتطمئن القلوب .

قلت : ويقال إنه يُبتلى بكم من أخلص لكم المحبة . قال : قد روى أن البلاء أسرع إلى محبتنا من الماء إلى قراره . قلت : لم أرد هذا . قال : فله ؟ قلت : تقعون بالولى ، وتحظون بالعدو . قال : من يسعدُ بنا من الأولياء أكثر ، ومن يسلم لنا من الأعداء أقل وأيسر ، وإنما نحن بشر ، وأكثرنا أذن ولا يعلم الغيب إلا الله ، وربما استترت عنا الأمور ، فنقع بما لا نريد ، وإن لنا لإحساناً يأسو^(١) الله به ما نكلم^(٢) ، ويرم^(٣) ما نثلم ، ونستغفر الله مما لا نعلم ، وما أنكرت من أن يكون الأمر على ما بلغك ، ومع الولى التعرز والإدلال ؛ والثقة والاسترسال ، ومع العدو التحرز والاحتياى ، والتذلل والاعتياى ؛ وربما أمل المدل ؛ وأخل المسترسل ، وتجانب المقارب ، ومع المقة^(٤) تكون الثقة ، وعلى أن العاقبة لنا على عدونا ، وهى لوليتنا ، وإنك لسئول يا أخا تميم .

قلت : إنى أخاف ألا أراك بعد اليوم . قال : إنى لأرجو أن أراك وترانى كما تحب عن قريب إن شاء الله . قلت : عجّل الله ذلك ! قال : آمين ! قلت : ووهب لى السلامة منكم فإنى مجيبكم . قال : آمين ؛ وتبسم ! وقال : لا بأس عليك ما أعاذك الله من ثلاث . قلت : وما هى ؟ قال : قدح فى الدين ، أو هتك للملك ، أو تهمة فى حرمة . ثم قال : احفظ عنى ما أقول لك : اصدق وإن ضررك الصديق ،

(١) يأسو : يداوى (٢) نكلم : نبحر (٣) يرم : يصلح (٤) المقة : المحبة .

وانصح وإن باعدك النصيح ، ولا تجالس عدونا وإن أحظينا فإنه مخذول ،
ولا تمخذل ولينا فإنه منصور ؛ واصحبنا بترك الماكرة ، وتواضع إذا رفعوك ، وصل
إذا قطعوك ، ولا تسخف فيمقتوك ، ولا تنقبض فيحشموك^(١) ، ولا تبدأ حتى
يبدءوك ، ولا تخطب الأعمال ، ولا تتعرض للأموال ؛ وأنا راض من عشيتي هذه ،
فهل من حاجة ؟ فنهضت لوداعه فودعته ، ثم قلت : أترقب لظهور الأمر وقتاً ؟
قال : الله المقدر الوقت ، فإذا قامت النوحتان بالشام فهما آخر العلامات . قلت :
وما هما ؟ قال : موت هشام العام ، وموت محمد بن علي^(٢) مستهل ذي القعدة .
قلت : فهل أوصى ؟ قال : نعم ، إلى أخيه إبراهيم .

قال : فلما خرجت ، فإذا مولى له يتبعني حتى عرف منزلي ، ثم أتاني بكسوة
من كسوته ، فقال : يأمرك أبو جعفر أن تصلي في هذه .

قال شبيب : وافترقنا ، فوالله ما رأيته إلا وحرسيان قابضان على يذنياني
منه في جماعة من قومي لأبايعه ، فلما نظر إلى أثبتي^(٣) ، ثم قال : خلّيا عن
صحّت مودته ، وتقدمت حرمته ، وأخذت قبل اليوم بيعته ، فأكبر الناس ذلك
من قوله ، ووجدته على أول عهده لي .

ثم قال لي : أين كنت عني في أيام أخى أبي العباس ؟ فذهبت أعتذر .
قال : أمسك ؛ فإن لكل شيء وقتاً لا يعدوه ، ولن يفوتك إن شاء الله حفظُ

(١) فيسمعوك ما تكره (٢) هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي
القرشي والد السفاح والمنصور، وكان يرأس جماعة سرية تدعوا بآبي العباس واعتقله هشام بن عبد الملك
حين انكشف أمره فات معتقلاً (٣) عرفني حق المعرفة .

مودتك ، وحق مسابقتك ، فاختر بين رزق يسعك ، أو عمل يرتفعك . قلت :
أنا حافظ لوصيتك . قال : وأنا لها أحفظ ؛ إنما نهيتك أن تخطب الأعمال ، ولم
أنهك عن قبولها . قلت : الرزق مع قرب أمير المؤمنين أحب إلى . قال : ذلك
لك ، وهو أجمل لقلبك ، وأودع لك ، وأعنى إن شاء الله .

ثم قال : هل زدت في عيالك بعدى شيئاً ؟ وكانت قد سألت عنهم
فذكرتهم له . فعجبت من حفظه ! ثم قلت : الفرس والخادم ! قال : قد ألحقنا
عيالك بعيالنا ، وخادمك بخادمنا ، وفرسك بخيلنا ، ولو وسعني لملت لك من بيت
المال ، وقد ضممتك إلى المهدي ، وأنا أوصيه بك فإنه أفرغ لك مني .

١.٤ - وَاعِظْ أَبِي جَعْفَرَ الْمَنْصُورَ*

بينما المنصور يطوف ليلًا ، إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور
البغى والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ! فخرج المنصور ،
فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرَّجُل يدعوهُ ، فصلى الرجل ركعتين ،
واستلم الركن ^(١) ، وأقبل مع الرسول ؛ فسلم عليه بالخلافة .

فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغى والفساد في الأرض ؟
وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني ^(٢) ،
قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها ، وإلا
احتجرت منك ، واقتصرت على نفسي ، ففيها لي شغل .

فقال : أنت آمن على نفسك ؛ قل ! فقال : إن الذي دخله الطمع حتى حال
بينه وبين ما ظهر من البغى والفساد أنت ! قال : ويحك ! وكيف يدخلني الطمع ،
والصفراء والبيضاء في قبضتي ، وألحوا والحامض عندي ؟ قال : وهل دخل أحد
من الطمع ما دخلك ! إن الله تبارك وتعالى استزعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلت
أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر ؛
وأبواباً من الحديد ، وحجبة معهم السلاح ؛ ثم سجت نفسك فيها عنهم ، وبعثت

* عيون الأخبار : ٢ - ٣٣٣ .

(١) استلم الركن : لمسه ؛ بالقبلة أو باليد . (٢) ما أرمضني : ما أوجعني وآلمني .

عَمَّا لَكَ فِي جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا ، وَقَوَّيْتَهُمْ بِالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ وَالسُّكْرَاعِ ^(١) ،
وَأَمَرْتَ بِالْأَلَّا يَدْخُلَ عَلَيْكَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، نَفَرْتُ سَمِيَّتَهُمْ وَلَمْ تَأْمُرْ بِإِيصَالِ
الْمَظْلُومِ ؛ وَلَا الْمَلْهُوفِ ، وَلَا الْجَائِعِ الْعَارِي ، وَلَا الضَّعِيفِ الْفَقِيرِ ، وَلَا أَحَدًا إِلَّا وَلَهُ فِي
هَذَا الْمَالِ حَقٌّ .

فَلَمَّا رَأَى هَؤُلَاءِ النِّفَرُ الَّذِينَ اسْتَخْلَصَتْهُمْ لِنَفْسِكَ ، وَآثَرْتَهُمْ عَلَى رِعِيَّتِكَ ،
وَأَمَرْتَ الْأَلَّا يُحْجَبُوا عَنْكَ - تَجَنَّبِي الْأَمْوَالِ وَتَجْمَعُهَا وَلَا تَقْسِمُهَا قَالُوا : هَذَا قَدْ
خَانَ اللَّهُ ، فَمَا بَالُنَا لَا نَخُونُهُ ، وَقَدْ سَجَنَ لَنَا نَفْسَهُ !

فَأْتَمَرُوا بِالْأَلَّا يَصِلَ إِلَيْكَ مِنْ عِلْمِ أَخْبَارِ النَّاسِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَرَادُوا ، وَلَا يُخْرِجَ
لَكَ عَامِلٌ فَيُخَالِفَ أَمْرَهُمْ إِلَّا قَصَبُوهُ ^(٢) عِنْدَكَ ، وَنَفَوْهُ حَتَّى تَسْقُطَ مَنْزِلَتُهُ وَيَصْغُرَ
قَدْرُهُ ؛ فَلَمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَعَنْهُمْ أَعْظَمَهُمُ النَّاسَ وَهَابُومَ ؛ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ
صَانَقَهُمْ عَمَّا لَكَ بِالْهَدَايَا وَالْأَمْوَالِ ، لِيَقْوُوا بِهَا عَلَى ظُلْمِ رِعِيَّتِكَ .

ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ذُووُ الْقُدْرَةِ وَالثَّرَةِ مِنْ رِعِيَّتِكَ ، لِيَنَالُوا بِهِ ظُلْمَ مَنْ دُونِهِمْ ؛ فَامْتَلَأَتْ
بِلَادُ اللَّهِ بِالطَّمَعِ ، بَغْيًا وَفُسَادًا ، وَصَارَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ شُرَكَاءَكَ فِي سُلْطَانِكَ ، وَأَنْتَ
غَافِلٌ ؛ فَإِنْ جَاءَ مُتَظَلِّمٌ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ مَدِينَتِكَ ؛ فَإِنْ أَرَادَ رَفْعَ قِصَّتِهِ
إِلَيْكَ عِنْدَ ظَهْوَرِكَ وَجَدَكَ قَدْ نَهَيْتَ عَنْ ذَلِكَ ؛ وَأَوْقَفْتَ لِلنَّاسِ رِجَالًا يَنْظُرُ فِي
مِظَالِمِهِمْ ؛ فَإِنْ جَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ فَبَلَغَ بِطَانَتِكَ خَبْرَهُ سَأَلُوا صَاحِبَ الْمِظَالِمِ
أَلَّا يَرْفَعَ مِظْلَمَتَهُ إِلَيْكَ ؛ فَإِنَّ الْمُتَظَلِّمَ مِنْهُ لَهُ بِهِ حُرْمَةٌ ، فَأَجَابَهُمْ خَوْفًا مِنْهُمْ .

فَلَا يَزَالُ الْمَظْلُومُ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ وَيَلُودُ بِهِ ، وَيَشْكُو وَيَسْتَفِيثُ ، وَهُوَ يَدْفَعُهُ
وَيَعْتَلُّ بِهِ ، فَإِذَا أُجْهِدَ وَأُخْرِجَ وَظَهَرَتْ صَرْخَ بَيْنَ يَدَيْكَ ؛ فَضَرْبُ ضَرْبًا

(١) السُّكْرَاعُ : السَّلَاحُ ، وَقِيلَ : هُوَ اسْمٌ يَجْمَعُ الْخَيْلَ وَالسَّلَاحَ (٢) قَصَبُوهُ : عَابَوْهُ وَشَتَمُوهُ .

مُبَرَّحًا ؛ لِيَكُونَ نِكَالًا لغيره ؛ وَأَنْتَ تَنْظُرُ فَلَا تُتَذَكَّرُ ، فَمَا بَقَاةُ الْإِسْلَامِ
بَعْدَ هَذَا !

وَقَدْ كُنْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَسَافِرُ إِلَى الصِّينِ ، فَقَدِمْتُهَا مَرَّةً ، وَقَدْ أَصِيبَ مَلِكُهَا
بَسَمْعِهِ ؛ فَبَكَى يَوْمًا بِكَاءٍ شَدِيدًا ، فَخَتَّهُ جَلَسَاؤُهُ عَلَى الصَّبْرِ ، فَقَالَ : أَمَّا إِنِّي لَسْتُ أَبْكِي
لِلْبَلِيَّةِ النَّازِلَةِ بِي ، وَلَكِنِّي أَبْكِي لِمَظْلُومٍ بِالْبَابِ بِصَرْخٍ وَلَا أَسْمَعُ صَوْتَهُ ، ثُمَّ قَالَ :
أَمَّا إِذَا ذَهَبَ سَمْعِي ؛ فَإِنْ بَصُرِي لَمْ يَذْهَبْ ! نَادُوا فِي النَّاسِ إِلَّا يَلْبَسَ ثَوْبًا أَحْمَرَ
إِلَّا مَتَظَلَّمٌ . ثُمَّ كَانَ يَرْكَبُ الْفِيلَ طَرَفِي نَهَارَهُ وَيَنْظُرُ هَلْ يَرَى مَظْلُومًا !

فَهَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ غَلَبَتْ رَأْفَتُهُ بِالْمُشْرِكِينَ شُحَّ نَفْسِهِ ؛ وَأَنْتَ
مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ ، ثُمَّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ لَا تَغْلِبُ رَأْفَتُكَ بِالْمُسْلِمِينَ عَلَى شُحِّ نَفْسِكَ إِنْ
كُنْتَ إِنَّمَا تَجْمَعُ الْمَالَ لَوْلَدِكَ ، فَقَدْ أَرَاكَ اللَّهُ عِبْرًا فِي الطِّفْلِ بِسُقْطِ مَنْ بَطْنِ أُمِّهِ ، وَمَالَهُ
عَلَى الْأَرْضِ مَالٌ ، وَمَا مِنْ مَالٍ إِلَّا وَدُونَهُ يَدٌ شَحِيحَةٌ تَحْوِيهِ ؛ فَمَا يَزَالُ اللَّهُ يُلَطِّفُ
بِذَلِكَ الطِّفْلَ حَتَّى تَعْظُمَ رَغْبَةُ النَّاسِ إِلَيْهِ ؛ وَلَسْتُ بِالَّذِي تُعْطِي ، بَلِ اللَّهُ يُعْطِي مَنْ
يَشَاءُ مَا يَشَاءُ ، وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّمَا أَجْمَعُ الْمَالَ لِتَشْدِيدِ السُّلْطَانِ فَقَدْ أَرَاكَ اللَّهُ عِبْرًا فِي
بَنِي أُمِيَّةٍ ؛ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا جَمَعُوا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَأَعَدُّوا مِنَ الرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ
وَالْكُرَاعِ ، حَتَّى أَرَادَ اللَّهُ بِكُمْ مَا أَرَادَ ، وَإِنْ قُلْتَ : إِنَّمَا أَجْمَعُ الْمَالَ لِطَلْبِ غَايَةٍ هِيَ
أَجْسَمُ مِنَ الْغَايَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا ، فَوَاللَّهِ مَا فَوْقَ مَا أَنْتَ فِيهِ إِلَّا مَنْزِلَةٌ لَا تَدْرِكُ إِلَّا
بِخِلَافِ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَلْ تَعَاقِبُ مَنْ عَصَاكَ بِأَشَدِّ مِنَ الْقَتْلِ ؟

قَالَ الْمَنْصُورُ : لَا . قَالَ : فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِالْمَلِكِ الَّذِي خَوَّلَكَ مَلِكَ الدُّنْيَا وَهُوَ لَا يَعْاقِبُ
مَنْ عَصَاهُ بِالْقَتْلِ ! وَلَكِنْ بِالْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، قَدْ رَأَى مَا قَدْ عَقَدَ عَلَيْهِ قَلْبُكَ

وعملته جوارحك ، ونظر إليه بصرك ، واجترحته يداك ، ومشت إليه رجلاك ؛ هل
بغنى عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انزعته من يدك ودعاك إلى الحساب !
فبكى المنصور وقال : يا ليتني لم أخلق ! ويحك ! فكيف أحتال لنفسي ؟ قال :
يا أمير المؤمنين ؛ إن للناس أعلاماً يمزعون إليهم في دينهم ، ويرضون بهم ؛ فاجعلهم
بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك يسدّدوك ، قال : قد بعثت إليهم فهرّبوا مني .
فقال : خافوا أن تحملهم على طريقتك ؛ ولكن افتح بابك ، ومهّل حجابك ،
وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ النية والصدقات مما حلّ وطاب ، واقسمه بالحق
والعدل على أهله ، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ، ويسعدوك على صلاح الأمة .
وجاء المؤذنون فسلموا عليه ، فصلى ، وعاد إلى مجلسه وطُلب الرجل فلم يوجد !

١.٥ - لِمَاذَا سُلِبُوا الْمُلْكُ*

سَمَرَ المنصورُ ذاتَ ليلةٍ ، فذكرَ خلفاءَ بني أمية وسيرهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة ؛ حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين ، وكانت همتهم - مع عظم شأنِ الملك وجلالةِ قدره - قَصْدَ الشهوات ، وإيثارَ اللذات ، والدخول في معاصي الله ومساخطه ، جهلاً باستدراج الله ، وأمناً لمكره ، فسلبهم الله العزَّ ، ونقل عنهم النعمة .

فقال له صالح بن علي : يا أمير المؤمنين ؛ إن عبدَ الله بن مروان لما دخل النوبة هارباً فيمن تبعه ، سأل ملك النوبة عنهم ، فأخبر ، فركب إلى عبد الله فكلّمه بكلام عجيب في هذا النحو ، لا أحفظه ، وأزعجه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ، ويسأله عن ذلك .

فأمر المنصور بإحضاره ، وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قدِمنا أرضَ النوبة ، وقد أخبر الملك بأمرنا ، فدخل على رجل أفنى^(١) الأنف ، طووال ، حسن الوجه ، فقعده على الأرض ، ولم يقرب الثياب ، فقلت : ما يمنُّك أن تقعدَ على ثيابنا ؟ قال : لأنني ملك ، ويحق على الملك أن يتواضع لعظمة الله إذا رفعه الله ، ثم قال : لأي شيء تشربون الخمر وهي محرمة عليكم ؟ قلت : اجتراً على

* المعقد الفريد : ٣ - ١٩٣ ، عيون الأخبار : ١ - ٢٠٥ ، ابن أبي الحديد : ٢ - ٢١٦

(١) قفا الأنف : ارتفاع أعلاه ، واحديداب وسطه .

ذلك عبيدنا وغلما ننا وأتباعنا ؛ لأنّ الملك قد زال عنا . قال : فلم تطأون الزروع بدوابكم ، والفسادُ محرم عليكم في كتابكم ؟ قلت : يفعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم . قال : فلم تلبسون الدّيباج والحريز ، وتستعملون الذهب والفضة ، وذلك محرمٌ عليكم ؟ قلت : ذهبَ الملكُ عنا ، وقلّ أنصارُنا ؛ فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا ، فلبسوا ذلك على الكُفرة منا .

قال : فأطرق مليّاً ، وجعل يقلّبُ يده ، وينكت الأرض ويقول : عبيدنا وأتباعنا وقومٌ دخلوا في ديننا ، وزال الملكُ عنا ! يردده مراراً .

ثم قال : ليس ذلك كذلك ؛ بل أنتم قومٌ قد استحللتم ما حرّم الله ، وركبتم ما نهاكم عنه ، وظلمتم من ملّكتهم أمرهم ؛ فسلبكم الله العز ، وألبسكم الذل بذنوبكم ، والله فيكم نقمة ان تبلغ غايته ، وأخاف أن يحل بكم العذاب ، وأنتم ببليدي ، فيصيبني معكم ؛ وإنما الضيافة ثلاثة أيام ، فتزودوا ما احتجتم ، وارتحلوا عن بلدي .

١٠٦ - جعفر البرمكي والرّشيد

قال إبراهيم بن المهدي : قال لي جعفر بن يحيى ^(١) يوماً : إنني استأذنتُ أمير المؤمنين في الحجامة ، وأردتُ أن أخلُوَ بنفسِي ، وأفرَّ من أشغال الناس ، وأتوحدَ ^(٢) ، فهل أنت مساعدِي ؟ قلتُ : جعلني الله فداك ! أنا أسعدُ بمساعدتك وآسُ بمخالّتك ^(٣) ، فقال : بَكَرْ إلى بُكورِ الغراب .

قال : فأتيتُ عند الفجر الثاني ، فوجدتُ الشمعة بين يديه ، وهو قاعدٌ ينتظرني لليعاد ؛ فصلّينا ، ثم أفضنا في الحديث حتى أتى وقت الحجامة ، فأتى الحجامُ ، فحجمنا في ساعة واحدة ، ثم قدم إلينا الطعام ، فطعمنا ، فلما غسلنا أيدينا خلع علينا ثيابَ النادمة ، وضُمُّخنا ^(٤) بالخلوق ؛ وظللنا بأسرَّ يومٍ مرَّ بنا .

ثم إنه تذكر حاجةً ، فدعا الحاجب ؛ فقال له : إذا جاء عبدُ الملك القهرمان ، فأذن له ، فلتسِ الحاجبُ . وجاء عبد الملك بن صالح ^(٥) الهاشمي - على جلالته وسنّه وقدره - فأذن له الحاجب ، فما راعنا إلا طلعةُ عبد الملك بن صالح ! فتغيّر لذلك وجهُ جعفر ، وتنفّص عليه ما كان فيه .

* العقد الفريد : ٣ - ٢٦٨

(١) جعفر بن يحيى كان عالي القدر عظيم الكرم ، ذا منزلة قريبة عند الرشيد ، فصيحاً لساناً ، قتله الرشيد سنة ١٨٧ هـ (٢) توحّد : بقى مفرداً (٣) الخالة : المصادقة (٤) تضمخ بالخلوق : تاطخ به ، والخلوق : نوع من الطيب . (٥) عبد الملك بن صالح : أمير من أمراء بني العباس ، تولى عدة ولايات ، ثم عزله الرشيد حين علم أنه يطمع في الخلافة ، توفي سنة ١٩٦ هـ

فلما نظر إليه عَبْدُ الْمَلِكِ على تلك الحالة دعا غلامه ، فدفع إليه سيفه
وسَوَّادَه ^(١) وعمامته ، ثم جاء فوقف على باب المجلس ، فقال : اصنعوا بنا
ما صنعتُم بأنفسكم .

قال : فجاء الغلام ، فطرح عليه ثيابَ المنادمة ، ودعا بطعام فطيم ، ثم دعا
بالشراب ، فشرب ثلاثاً ، ثم قال : ليخفف عني فإنه شيء ما شربته قط ، فهلَّلَ
وجه جعفر فرحاً - وقد كان الرشيد حاورَ عبد الملك على المنادمة ، فأبى ذلك ،
وتنزَّه عنه - ثم قال له جعفر بن يحيى : جعلني الله فداك ! قد تفضلتَ وتطوَّلتَ ،
فهل من حاجة تبلغُها مقدرتي ، وتحيط بها نعمتي ، فأقضيها لك مكافأة لما صنعت ؟
قال : نعم ؛ إنَّ قلبَ أمير المؤمنين عاتبٌ عليّ ، فتسأله الرضا عني . فقال : قد
رضى عنك أمير المؤمنين . ثم قال : وعلى أربعة آلاف دينار . قال : هي
حاضرةٌ ، ولكن من مالِ أمير المؤمنين أحبَّ إليّ من مالي . قال : وابنُ إبراهيم
أحبُّ أن أشدَّ ظهره بمصاهرة أمير المؤمنين . قال : قد زوجته أمير المؤمنين
ابنته الغالية . قال : وأحبُّ أن تحفُّقَ الألوية على رأسه بولاية . قال : وقد ولَّاه
أمير المؤمنين مصرَ ؛ فانصرف عبد الملك ، ونحن نعجب من إقدام جعفر على الرشيد
من غير استئذان .

فلما كان الفدُ وقفنا على باب أمير المؤمنين ، ودخل جعفر فلم يلبث أن دُعِيَ
بأبي يوسف القاضي ، ومحمد بن الحسن ، وإبراهيم بن عبد الملك ، فعقد له على ابنة
الرشيد ، وحملت البدر ^(٢) إلى عبد الملك ، وكتب سجل إبراهيم على مصر .

(١) سواد الأمير : ثقله ومتاعه (٢) البدر : كسبي فيه ألف دينار .

وخرجَ جعفرَ فأشار إلينا ، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه نزل ونزلنا بنزوله ،
فالتفت إلينا وقال : تملقتُ قلوبكم بأول أمر عبد الملك فأحببتم أن تعرفوا آخره ،
وإني لما دخلتُ على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه سألتني عن أمسى ، فابتدأت
أحدثه بالقصة من أولها إلى آخرها ، فجعل يقول : أحسنَ والله ؛ ثم قال :
فما أجبتُه ؟ فجعلت أخبره وهو يقول في كل شيء : أحسن . وخرج إبراهيم والياً
على مصر !

١٠٧- إخوان الصفا*

روى أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد :

ذكروا أن فتياناً كانوا مجتمعين في نظام واحد ، كلهم ابنُ نعمةٍ ؛ فذكر ذاكرٌ منهم ، قال : كنا أكثرينا داراً شارعاً^(١) على أحد طرق بغداد المعمورة بالناس ، وكنا نفلس^(٢) أحياناً ، ونؤسّر أحياناً ، على مقدار ما يمكن الواحد من أهله ، وكنا لا نُذكر أن تقع مشورتنا على واحد منا إذا أمسكته ، ويبقى الواحد منا لا يقدر على شيء ، فيقوم به أصحابه الدهر الأطول ، وكنا إذا أيسرنا أكلنا من الطعام ألبنه ، ودعونا الملهمين والملهيات ؛ وكان جلوسنا في أسفل الدار ، فإذا عدنا الطرب جالسنا في غرفة لنا نتمتع منها بالنظر إلى الناس ، وكنا لا نُخل^(٣) بالنبيذ في عُسر ولا يسر .

فإنا لكذلك يوماً إذا بفتى يستأذن علينا ، فقلنا له : اصعد ؛ فإذا رجل نظيف حُلُو الوجه ، سَرِيّ الهيئة ، ينبيء رؤاؤه أنه من أبناء النعم ، فأقبل علينا ، وقال : إني سمعت مجتمعكم وحسن منادمتكم ، وصحة ألفتكم ، حتى كأنكم أدرجتم في قالب واحد ، فأحييت أن أكون واحداً منكم ، فلا تحنثموا^(٤) عني .

* العقد الفريد ٤ : - ٣٤٥

(١) دار شارع ، أي على طريق نافذ (٢) أفلس الشخص : إذا لم يبق معه مال (٣) لا نخل بالنبيذ : لا نتركه (٤) احتشم عنه ومنه : انقبض .

وصادف ذلك منا إقتاراً من القوت وكثرة من النبيذ - وقد كان قال لغلّام له :
أول ما يأذنون لي أن أكون كأحدهم هات ما عندك ، فغاب الغلام عنا غير كثير ،
ثم أتانا بسلة خيزران ، فيها طعّام المطبخ من جدى ودجاج وفراخ ورُقاق
وشنّان^(١) ومخلّب^(٢) وأخلة^(٣) ؛ فأصبنا من ذلك ؛ ثم أفضنا في شرابنا ، وانبسط
الرجل ؛ فإذا أحلى خلق الله إذا حدث ، وأحسنهم استماعاً إذا حدث ، وأمسكهم
عن ملاحاة إذا خولف ، ثم أفضينا منه إلى أكرم مخالقة ، وأجل مساعدة ، وكنا
ربما امتحنناه بأن ندعوه إلى الشيء الذي نعلم أنه يكرهه ، فيُظهر لنا أنه لا يحب
غيره ، ويُرَى ذلك في إثراق وجهه ؛ فكنا نغنى به عن حسن الغناء ، ونقدّارس
أخباره وآدابه ، فشغلنا ذلك عن تعرّف اسمه ونسبه ، فلم يكن منا إلا تعرّف
الكنية ، فإنا سألناه عنها ، فقال : أبو الفضل .

وقال لنا يوماً بعد اتصال الأنس : ألا أخبركم بم عرفتكم ؟ قلنا : إنا لنحبّ
ذلك . قال : أحببت جارية في جواركم ؛ فكنتُ أجلس لها في الطريق ألتمس
اجتيازها ، فأراها حتى أخلقني الجلوس على الطريق ، ورأيت غرفتكم هذه ،
فسألت عن خبرها ، فخبّرتُ عن ائتلافكم وتماثلتكم ، ومساعدة بعضكم بعضاً ،
فكان الدخول فيما أنتم فيه أسراً عندي من الجارية ، فسألناه عنها فخبّرتنا ،
فقلنا له : نحن نظنّ سرك بها ، فقال : يا إخواني ؛ إني والله على ما ترون مني من

(١) الشنان : الماء البارد (٢) المخلّب : العسل (٣) الأخلة : جمع خلال ، وهو
العود الذي يتخلل به .

شدة الشغف والكلف بها ما قدَّرت فيها حراماً قط ، ولا تقديري إلا مطاولتها
ومصابتها إلى أن يمنَّ الله على بثرة فاشتريها .

فأقام معنا شهرين ، ونحن على غاية الاغتراب بقربه ، والسرور بصحبته إلى
أن اختلس منا ، فنالنا بفراقه ثكل مُحض ، ولوعة مؤلمة ، ولم نعرف له منزلاً
نلتصقه فيه ؛ فكدَّر علينا من العيش ما كان طاب لنا به ، وقبحَ عندنا ما كان
حسنً بقربه ، وجعلنا لا نرى سروراً ولا غمّاً إلا ذكرنا السرور بصحبته ، والغم
بمفارقتة ؛ فكنا فيه كما قال الشاعر :

يذكُّرُنيهم كلَّ خير رأيته وشرِّ فأفكُّ منهم على ذكر

فغاب عنا زهاء عشرين يوماً ؛ فبينما نحن مجتازون يوماً من الرصافة^(١) إذا هو
قد طلع في موكب نبيل ، وزيّ جليل ، فلما بصُر بنا انحطَّ عن دابَّته ، وانحطَّ
غلمانُه ، ثم قال : يا إخواني ؛ والله ما هنا لي عيشٌ بعدكم ، ولستُ أميط لكم عن خبري
حتى آتي المنزل ، ولكن ميلوا بنا إلى المنزل ، فلنا مسه ، فقال : أعرفكم أولاً
بنفسي ، أنا العباس^(٢) بن الأحنف ، وكان من خبري بعدكم أني خرجت إلى
منزلي من عندكم ، فإذا الشرطةُ محيطةُ بي فمضى بي إلى دار أمير المؤمنين ، فصرتُ
إلى يحيى بن خالد ، فقال لي : ويحك يا عباس ! إنما اخترتُك من ظرفاء الشعراء
لقرب مأخذك وحسنِ تأتيك ، وإن الذي ندمتُك له من شأنك ، وقد عرفتُ
خطرات الخلفاء ، وإني أخبرك أن ماردة هي الغالبة على أمير المؤمنين اليوم ،

(١) الرصافة : علة ببغداد (٢) كان منشؤه ببغداد وكان صاحب غزل ، ويشبه من المتقدمين
عمر بن أبي ربيعة ولم يكن يمدح ولا يهجو . توفي سنة ١٩٢ هـ .

وأنه جرى بينهما عتب ، فهي بذلة المشوق تأبى أن تعتذر ، وهو بعز الخلافة
وشرف الملك يأبى ذلك ، وقد رمت الأمر من قبلها فأغياى ، وهو أخرى أن
تستعبده الصباية ؛ فقل شعراً سهلاً يسهل عليك هذه السبيل .

ثم دعانى إلى أمير المؤمنين فصرت إليه ، وأعطيت قرطاساً ودواة ؛ فاعتراى
الزَمْع^(١) ، وتعدرت على كل عروض ، ونفرت عنى كل قافية ؛ ثم انفتح لى شىء
والرسل تتعقبى ، فجاءتنى أربعة أبيات رضىتها ، وقعت صحيحة المعنى ، سهلة
الألفاظ ، ملائمة لما طُلب منى ، فقلت لأحد الرسل : أبلغ الوزير أنى قلت أربعة
أبيات ، فإن كان بها مقنع وجهت بها ؛ فرجع إلى الرسول بأن هاتها ، فنى أقل
منها مقنع ، وفى ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير ذلك الروى ، فكتبت
الآيات الأربعة فى صدر الرقعة ، وعقبت بالبيتين فقلت :

العاشقان كلاهما متغضب	وكلاهما متوجّد متعّب
صدت مغاضبة وصد مغاضباً	وكلاهما مما يعالج متعب
راجع أحببتك الذين هجرتهم	إن التيم قلّسا يتجنب
إن التجنب إن تطاول منكما	دب السلو له وعزّ المطلب

ثم كتبت تحت ذلك :

لا بد للعاشق من وقفة	تكون بين المهجر والصّرْم
حتى إذا المهجر تمادى به	راجع من بهوى على رغم

ثم وجهت بالكتاب إلى يحيى بن خالد ، فدفعه إلى الرشيد ، فقال : والله

(١) الزمّع : رعدة تأخذ بالإنسان .

مارأيتُ شعراً أشبه بما نحن فيه من هذا ، والله لكأني قصّدتُ به ، فقال له يحيى :
 وأنت والله يا أمير المؤمنين المقصود به ، هذا يقوله العباس بن الأحنف في هذه القصة ؛
 فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قوله : « راجع من يهوى على رَغمٍ » : استغرب ضحكاً حتى
 سمعتُ ضحكك ، ثم قال : إى والله ! أراجع على رَغمٍ ، يا غلام ؛ هاتِ نعلِي ؛ فنهض
 وأذهله السرور عن أن يأمر لي بشيء ؛ فدعاني يحيى ، وقال : إن شعرك قد وقع
 بغاية الموافقة ، وأذهل أمير المؤمنين السرور عن أن يأمر لك بشيء ؛ ثم جاء غلام
 فسارّه ، فنهض وثبت مكانه ، فنهضتُ بنهوضه ، ثم قال : يا عباس ؛ أمسيتَ أنبلَ
 الناس ، أتدرى ما سارني به هذا الرسول ؟ قلت : لا ، قال : ذكر لي أن ماردة
 تلقت أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه ، ثم قالت له : يا أمير المؤمنين ؛ كيف كان هذا ؟
 فناولها الشعر ، وقال : هذا أتى بي إليك ، قالت : فمن يقوله ؟ قال : عباس
 ابن الأحنف ، قالت : قِيمَ كوفي ؟ قال : ما فعلت شيئاً بعد ، قالت : إذن والله
 لا أجلسُ حتى يكافأ . قال : فأمر المؤمنين قائم لقيامها ، وأما قائم لقيام أمير المؤمنين ،
 وهما يتناظران في صِلتك ، فهذا كله لك ، قلت : مالى من هذا إلا الصلة ! فقال :
 هذا أحسنُ من شعرك . قال : فأمر لي أمير المؤمنين بمالٍ كثير ، وأمرت لي ماردة
 بمالٍ دونه ، وأمر لي الوزير بمالٍ دون ما أمرت به ، وُحِيتُ على ماترون من الظُّهر ،
 ثم قال الوزير : من تمام اليدِ عندك ألا تخرج من الدار حتى يكون لك من هذا المال
 ضياع ، فاشتريتُ لي ضياعاً بعشرين ألف درهم ، ودفع لي بقية المال ؛ فهذا الخبر
 الذى عاتقني عنكم ؛ فلهوا حتى أقاسمكم الضياع ، وأُفرقَ فيكم المال . فقلنا له : هناك
 الله ؛ فكل منا يرجع إلى نعمةٍ من أيه ، فأقسم وأقسمنا . قال : فامضوا بنا إلى

الجارية حتى نشتريها ، فشيننا إلى صاحبها ، وكانت جارية جميلة حلوة ، لا تحسن شيئاً ، أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل ؛ وكانت تساوى على وجهها خمسين ومائة دينار ، فلما رأى مولاها ميل المشتري استام بها خمسمائة ، فأجبتاه بالمعجب ؛ لخطّ مائة ، ثم خطّ مائة ، ثم قال العباس : يا فتيان ، إني والله أحتشم أن أقول بعد ما قلتم ، ولكنها حاجة في نفسي ، بهما يتم سروري فإن ساعدتم فعلت ، قلنا له : قل ، قال : هذه الجارية أنا أعطينها منذ دهر ، وأريد إيثارة نفسي بها ، فأكره أن تنظر إلى بعين من قد ما كس في ثمنها ، دعوني أعطه بها خمسمائة دينار كما سأل ، قلنا له : وإنه قد خط مائتين : قال : وإن فعل : قال : فصادفت من مولاها رجلاً حراً ، فأخذ ثلاثمائة ، وجهزها بالمائتين ، فزال إلينا محسناً حتى فرّق الموت بيننا .

١٠٨- لَا أَحِبُّ تَخْدِيشَ وَجْهِ الصَّاحِبِ*

زعمت العرب أن الثعلب رأى حجراً أبيض بين لَصْبَيْنِ^(١) ، فأراد أن يقتال به الأسد ، فأتاه ذات يوم ، فقال له يا أبا الحارث ، الفئيمة الباردة ! شحمة رأيتها بين لَصْبَيْنِ ، فكرهت أن أدنومنها ، وأحبت أن تتولى ذلك أنت ! فسلم لأريكها !

فانطلق به حتى جاء به إليها ؛ فقال : دونك يا أبا الحارث !

فذهب الأسد ليدخل ، فضاق به المكان ؛ فقال له الثعلب : ادفع برأسك ! فأقبل الأسد يدفع برأسه حتى نشب ، فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر .

ثم أقبل الثعلب يخدش خَوْرَانَهُ^(٢) ؛ فقال الأسد : ما تصنعُ يا ثُعَالَة^(٣) ؟ قال : أريد لأسنقذك ؛ قال : فمن قبل الرأس إذن ! فقال الثعلب : لا أحب تخديش وجه الصاحب !

* مجمل الأمثال : ٢ - ١٧١

(١) اللص : الثعب الصغير في الجبل (٢) المراد مؤخره (٣) ثعالة : لقب الثعلب .

١٠٩- حُكُومَةُ الضَّبِّ*

زعموا أن أرنبا التقطت تمرة ؛ فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضب ؛ فقال الأرنب : يا أبا الحِسل ^(١) ا قال : « سميما دعوتِ » . قالت : أتيناك لِنُحْتَكِمَ إليك . قال : « عَادِلًا حَكَمْتُمَا » . قالت : فاخرج إلينا . قال : « فِي بَيْتِهِ يُوْتَى الْحُكْمُ » ، قالت : إني وجدت تمرة ، قال : حُلُوةٌ فَكُلِيهَا . قالت : فاختلسها الثعلب . قال : « لِنَفْسِهِ بَغَى الْخَيْرَ » ، قالت : فلطمته . قال : « بِحَقِّكَ أَخَذْتَ » ، قالت : فَلَطَمَنِي ، قال : « حُرًّا انْتَصَرَ » ، قالت : فاقض بيننا ؛ قال : قد قضيت !

* مجمع الأمثال : ٢ - ١٧

(١) كنية الضب ، والحسل : ولد الضب .

١١٠- أَعْلَمَكَ ثَلَاثَ خِصَالٍ*

قالوا : إن رجلاً صاد قُبْرَةً ؛ فقالت : ما تريد أن تصنع بي ؟ قال : أذهبك وآكلك ؛ قالت : والله ما أشقى من قَرَم^(١) ، ولا أشبِع من جوع ، ولكني أعلمك ثلاث خِصَالٍ ؛ هي خيرٌ لك من أكلِي : أما الأولى فأعلمك إياها وأنا في يدك ، وأما الثانيةُ فإذا صرْتُ على الشجرة ؛ وأما الثالثةُ فإذا صرْتُ على الجبل .

فقال : هاتِي الأولى ، قالت : لا تَلْمَنَنَّ على ما فات ؛ فغلاًها ؛ فلما صارت على الشجرة ؛ قال : هاتِي الثانية ؛ قالت : لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل ، فقالت : يا شقي ؛ لو ذبحتني لأخرجت من حوصلي دُرَّتَيْن وزنُ كل واحدة ثلاثون مثقالاً ؛

فعضت على يديه وتلهمت تلهمًا شديدًا ، وقال : هاتِي الثالثة ، فقالت : أنت قد نسيت الإثنين ، فما تصنع بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تلهنَّ على ما فات ؛ وقد تلهمت ، أو لم أقل لك : لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون ؛ وأنا ولحي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً ؛ فكيف صدقت أن في حوصلي درتين كل واحدة منهما ثلاثون مثقالاً ؛ ثم طارت وذهبت .

* ابن أبي الحديد : ٤ - ٣٧٤ .

(١) القرم : شدة شهوة اللحم .

١١١ - مجير أم عامر*

خرج قوم إلى الصيد في يوم حار ؛ فإنهم لكذلك ؛ إذ عرضت لهم أم عامر^(١) - وهي كينة الضبع - فطردوها ؛ فأتبعتهم حتى ألبسوها إلى خباء أعرابي ، فاقترحتهم ؛ فخرج إليهم الأعرابي وقال : ما شأنكم ؟ قالوا : صيدنا وطريدتنا ؛ فقال : كلاً ؛ والذي نفسى بيده لا تصلون إليها ما ثبت قائم سيفي في يدي ، فرجعوا وتركوه ، وقام إلى لقة^(٢) فخلبها ، وماء فقرب منها ، فأقبلت تلغ مرة في هذا ومرة في هذا حتى رويت واستراحت ، فبينما الأعرابي نائم في جوف بيته ، إذا وثبت عليه فبقرت بطنه ، وشربت دمه وتركته !

فجاء ابن عم له يطلبه ، فإذا هو بئر في بيته ؛ فالتفت إلى موضع الضبع ، فلم يرها ، فقال : صاحبتى والله ، فأخذ قوسه وكناته واتبعها ، فلم يزل حتى أدركها فقتلها وأنشأ يقول :

ومن صنع المعروف مع غير أهله يلاقى الذى لاقى مجير أم عامر !

* بجم الأمثال : ٢ - ٨٢

(١) عامر : جرو الصبع ، وأم عامر : كنيته .

(٢) اللقة : الناقة المألوبة الفزيرة اللبن ، ولا يوصف به .

١١٢ - كَيْفَ أَعَاوِدُكَ وَهَذَا أَثْرَفَأْسُكَ؟*

حكى أن أخوين كانا في إبل لما ، فأجذبت بلادهما ، وكان بالقرب منهما وادٍ خصيب ، وفيه حية تَحْمِيهِ من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان ؛ لو أني أتيت هذا الوادى المَكْلَى^(١) فرعيتُ فيه إبل وأصلحتُها ، فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لا يهبط ذلك الوادى إلا أهلكته ؟ قال : فوالله لأفعلن ! فهبط الوادى ورعى به إبله زماناً .

ثم إن الحية نهشته فقتلته ، فقال أخوه : والله ما في الحياة بعد أخى خير ، فلا طابن الحياة ولا قلنّها أو لا تبعن أخى ، فهبط ذلك الوادى وطلب الحية ليقتلها ؛ فقالت الحية : أأست ترى أنى قتلت أخاك ؟ فهل لك في الصلح فأدعك بهذا الوادى تكون فيه وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت ؟ قال : أو فاعلة أنت ! قالت : نعم . قال : إني أفعل ، وحلف لها وأعطاها الموائيق لا يضرها ، وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالاً ، ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى ؟ ثم عمد إلى فأس فأخذها ؛ ثم قعد لها ؛ فررت به فتبعها ، ففصر بها فأخطأها ، ودخلت الجحر ، ووقعت الفأس فوق جحرها فأثرت فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار ؛ فخاف الرجل شرها وندم ؛ فقال لها : هل لك أن تتوائق وتعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : « كيف أعاوِدُكَ وهذا أثْرَفَأْسُكَ ! »^(٢) .

* بجمع الأمثال : ٢ - ٨٢ .

(١) المَكْلَى : الكثير الكلاء . (٢) سارت مثلاً .

١١٣- حَكِيم*

لما مات بعضُ الخلفاء ، اختلفت الروم ، واجتمعت ملوكها ؛ فقالوا : الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض ، فتمكننا الغيرة^(١) منهم والوثبةُ عليهم ، وعَقَدُوا لذلك المشورات ، وترجعوا فيه بالمناظرات ، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر .

وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة غائباً عنهم ، فقالوا : من الحزم عرضُ الرأى عليه ؛ فلما أخبروه بما أجمعوا عليه ، قال : لا أرى ذلك صواباً ؛ فسألوه عن علة ذلك ؛ فقال : في غدٍ أخبركم .

فلما أصبحوا أتوا إليه ، وقالوا : قد وعدتنا أن تخبرنا في هذا اليوم بالرأى فيما عوَّلنا عليه ؛ فقال : سمعاً وطاعة ! وأمر بإحضار كلبين عظيمين ، كان قد أعدَّهما ؛ ثم حرَّش^(٢) بينهما ، وحرَّض كلَّ واحد منهما على الآخر ؛ فتواثبا وتهارشا^(٣) ، حتى سالت دماؤهما .

فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده ، وأرسل على الكلبين ذئباً كان قد أعدَّه لذلك ، فلما أبصرهما تركا ما كانا فيه ، وتآلفت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه .

* المستطرف : ١

(١) الغيرة : النفلة
(٢) التحريش : الإغراء
(٣) المهارشة : تحريش الكلاب بعضها على بعض .

فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال : مثلكم مع المسلمين مثلُ هذا
الذئب مع الكلاب ؛ لا يزال الهرج^(١) بين المسلمين ما لم يظهر
لهم عدو من غيرهم ؛ فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم ، وتآلقوا على
العدو .

فاستحسنوا قوله ، واستصوبوا رأيه ، واتبعوا مشورته .

(١) الهرج : الفتنة والاختلاط

البَابُ الْخَامِسُ

في القصص التي يعرف بها مذهبهم في شياطين الشر
وأصوات الجن في الفياقي، وأحاديثهم عن القول، ورؤية
من رآها منهم، وما إلى ذلك مما يصور سعة أخيلتهم،
وسعيهم وراء المجهول بأجنحة التفكير والتصور.

١١٤ - تَابِطُ شَرًّا يَقْتُلُ الْغُولَ

قال عمرو بن أبي عمرو والشيباني : نزلت على حَيٍّ من فَنَمٍ ، فسألته عن خبر تَابِطٍ شَرًّا ^(١) ، فقال لي بعضهم : وما سؤالك عنه ؟ أتريد أن تكون لِيصًا ! قلت : لا ، ولكن أريد أن أعرف أخبارَ هؤلاء العدائين فأتحدث بها . فقالوا : نُحدثُكَ بخبره :

إنَّ تَابِطَ شَرًّا كان أَعْدَى ذِي رِجْلَيْن وذِي سَاقَيْن وذِي عَيْنَيْن ، وكان إذا جاع لم يَقُمْ له قَائِمَةٌ ، فكان ينظر إلى الطِّبَاءِ فيَنْتَقِي على نظره أَمْتَمَنَهَا ، ثم يجرى خلفه فلا يَفُوتُهُ حتى يَأْخُذَهُ فيَذْبَحُه بِسِيفِهِ ، ثم يشويه فيأكله .

وإنما سمي تَابِطُ شَرًّا ؛ لأنه فيما حكى لنا : لَقِيَ الْغُولَ في لَيْلَةٍ ظُلُمَاءٍ في مَوْضِعٍ يقال له : رَحَى بَطَّان ^(٢) ، في بِلَادِ هُذَيْلٍ ، فأخذتْ عليه الطريق ، فلم يزل بها حتى قَتَلَهَا ، وبات عليها . فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه ، فقالوا له : لقد تَابِطَ شَرًّا ، وقال في هذا :

أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ فَيَسَانُ فَنَمٍ بما لاقيتُ عند رَحَى بَطَّانٍ
وَأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي بِسُهْبٍ ^(٣) كالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانٍ
فَقُلْتُ لَهَا : كِلَانَا نَضُو أَيْنَ ^(٤) أخو سَفَرٍ فَخَسَّ لِي مَكَارِ

* الأغانى : ٨ - ٢٠٩ ، البلدان : ٤ - ٢٣١
(١) هو ثابت بن جابر ، شرا لقبه ، توفي نحو سنة ٨٠ ق . هـ (٢) رَحَى بَطَّان : موضع لهذيل (٣) السهم الإعياء والتعب .
ة ، والصحصحان : ما استوى من الأرض وأوسع (٤) الأين :

فشدت شدة نحوى فأهوى لها كفى بمصقول يمانى
فأضر بها بلا دهن فخرت صريعاً لليدين وللجيران^(١)
فقال: عذقت لها: رويداً^(٢) مكانك ا إني ثبت الجنان
فلم أنفك متكناً عليها لأنظر مضيقاً ماذا أتانى
إذا عينان فى رأس قبيح كراس الهر مشقوق اللسان
وساقاً مخدج وشواة كلب^(٣) وثوب من عباء أو شنان

(١) الجران للبحر : مقدم عنقه من مذبحه إلى منخره (٢) زعمت العرب أن الفول إذا ضربت ضربة واحدة ماتت بها ، فإذا ضربت ضربة أخرى عاشت (٣) مخدج : ناقص الخلق ، والشواة : جلدة الرأس ، والشنان : جمع شن وهو القربة الخلق .

١١٥- رُبُّ "الأعشى" *

قال جرير بن عبد الله البجلي : سافرت في الجاهلية فأقبلتُ على بَعيرى ليلةً أريد أن أسقيه ، فجعلت أريدهُ على أن يتقدم ، فوالله ما يتقدم ، فتقدمت فدنوتُ من الماء وعَقَلْتُهُ ، ثم أتيتُ الماء فإذا قومٌ مشوّهُون عند الماء فقعدت .
فبينما أنا عندهم إذ أتاهم رجل أشدُّ تشويهاً منهم فقالوا : هذا شاعرهم . فقالوا له : يا فلان ؛ أنشدْ هذا فإنه خفيف ؛ فأنشد :

* ودّعْ هريرة إن الركب مُرْتَحِلُ *

فلا والله ما خرم منها بيتاً واحداً ، حتى انتهى إلى هذا البيت :
تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريحٍ عِشْرِقٍ زَجِلُ^(٢)
فأعجب به . فقلت : من يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا . قلت : لولا ما تقول لأخبرتكَ أن أعشى بنى ثعلبة أنشدنيها عاماً أوّلَ بنجران . قال : فإنك صادق ، أنا الذى ألقىتها على لسانه ، وأنا مسحّل صاحبه ، ماضاع شعر شاعر وضعه عند مَيِّمون ابن قيس !

* الأغاني : ٩ - ١٥٦

(١) الرثى : الجنى (٢) الوسواس : صوت الحلى ، والعشريق : شجيرة مقدار ذراع ، لها أكمام فيها حب صفار إذا جفت فمرت بها الريح تحرك الحب ، فسمي له خشخشة على الحصى . شبه وسواس حليها بصوته إذا ضربته الريح . والزجل : رفع الصوت بالغارب ، والزجل بالكسر : صفة منه .

١١٦- هاجِس الأعشى*

قال الأعشى^(١) : خرجتُ أريدُ قَيْسَ بنَ مَعْدٍ يَكْرِبُ بِحَضْرِ مَوْتٍ ، فَضَلَّمْتُ
 فِي أَوَائِلِ أَرْضِ الْبَيْنِ ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ سَلَكَتُ ذَلِكَ الطَّرِيقَ قَبْلُ ، فَأَصَابَنِي مَطَرٌ ،
 فَرَمَيْتُ بِبَصْرِي أَطْلُبُ مَكَانًا أَلْجَأُ إِلَيْهِ ، فَوَفَعْتُ عَيْنِي عَلَى خَبَاءٍ^(٢) مِنْ شَعَرٍ ،
 فَقَصَدْتُ نَحْوَهُ ، وَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ عَلَى بَابِ الْخَبَاءِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَى
 السَّلَامِ ، وَأَدْخَلَ نَاقَتِي خَبَاءً آخَرَ كَانَ بِجَانِبِ الْبَيْتِ ، فَحَطَّطْتُ رَحْلِي وَجَلَسْتُ ،
 فَقَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَقْصِدُ ؟ قُلْتُ : أَنَا الْأَعْشَى ، أَتَقْصِدُ قَيْسَ بنَ مَعْدٍ يَكْرِبُ
 فَقَالَ : حَيَّاكَ اللَّهُ ! أَظُنُّكَ امْتَدَحْتَهُ بِشَعْرٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَأَنْشِدْنِيهِ ، فَأَبْتَدَأْتُ
 مطلع القصيدة :

رَحَلْتُ سُمِّيَّةَ غُدْوَةً أَجْمَلَهَا غَضَبًا عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بَدَا أَمَّا

فلما أنشدته هذا المطلع قال : حسبك ! أهذه القصيدة لك ؟ قلت : نعم ، قال :
 مَنْ سُمِّيَّةُ الَّتِي تَنْسُبُ بِهَا ؟ قُلْتُ : لَا أَعْرِفُهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ اسْمُ الْفَتَى فِي رُوعِي^(٣) ؛
 فَنَادَى : يَا سُمِّيَّةُ ؛ اخْرُجِي ، وَإِذَا جَارِيَةٌ خَمَاسِيَّةٌ^(٤) قَدْ خَرَجْتُ ، فَوَقَفْتُ وَقَالَتْ :

* خزانة الأدب : ٣ - ٥٤٩ (طبعة بولاق) .

(١) هو أبو بصير ميمون الأعشى بن قيس بن جندل القيسي من فحول شعراء الجاهلية ، وطال
 عمره حتى كان الإسلام ، فأعد قصيدة يمدح بها النبي وقصده بالحجاز فلفيه كفار قريش وصدوه عن
 وجهه على أن يأخذ منهم مائة فاقة حمراء ، ورجع إلى بلده ففعل ، ولما قرب من اليمامة سقط عن
 ناقته فدقت عنقه ومات (٢) الحباء من الأبنية : يكون من وبر أو صوف أو شعر .

(٣) الروع : القلب والعقل (٤) خماسية : طولها خمسة أشبار .

ما تريد يا أبت ؟ قال : أنشدني عمك قصيدتي التي مدحتُ بها قيس بن معد يكرب ،
ونسبتُ بك في أولها ، فاندفعت تُنشدُ القصيدة حتى أتت على آخرها لم تخرم منها
حرفاً ، فلما أتمتها قال : انصرفي ، ثم قال : هل قلت شيئاً غير ذلك ؟ قلت : نعم ،
كان بيني وبين ابن عمي لي يقال له يزيد بن مُسهر ، ما يكون بين بني العم ،
فهبجاني وهجوته فأفحمتُه . قال : ماذا قلت فيه ؟ قلت :

ودع هُريرة إن الركبَ مُرتحلٌ وهل تُطيقُ وداعاً أيُّها الرَّجُلُ !
فلما أنشدته البيتَ الأول ، قال : حَسْبُكَ ! مَنْ هُريرةُ هذه التي نسبتَ بها ؟
قلت : لا أعرفها وسبيلها سبيل التي قبلها ؛ فنادى : يا هُريرة ؛ فإذا جاريةٌ قريبة
السنِّ من الأولى خرجتُ ، فقال : أنشدني عمك قصيدتي التي هجوتُ بها يزيد بنَ
مسهر ، فأنشدتها من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفاً ، فسقط في يدي وتحيّرت
وتفشتني رعدة .

فلما رأى ما نزل بي قال : لِيُفْرِخْ رَوْعُكَ ^(١) يا أبا بصير ؛ أنا هاجسك مسحل
ابن أثانة ، الذي ألقى على لسانك الشعر .

قال الأعشى : فسكنتُ نفسي ورجعتُ إلى ، وسكن المطر ، فدلتني على
الطريق ، وأراني سمتَ مقصدي ، وقال : لَا تَمُجْ يَمِيناً وَلَا شِمَالاً حتى تقع ببلاد
قيس .

(١) ليفرخ روعك : ليذهب رعبك وفزعك ، فإن الأمر ليس على ما تحاذر .

١١٧- عبيد بن الأبرص والشجاع*

قال القاضي يحيى بن أكرم : دخلت يوماً على هارون الرشيد ، وهو مطرق
سفكر ، فقال لى : أتعرف قاتل هذا البيت :

الخبر أبقي وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص ! فقال :
أخبرنى عنه . فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ حدث عبيد قال :

كنتُ فى بعض السنين حاجًا ، فلما توسطت البادية فى يوم شديد الحر سمعتُ
ضجّة عظيمة فى القافلة ألحقتْ أولها بآخرها ، فسألتُ عن القصة ، فقال لى رجل
من القوم : تقدم ترّ ما بالناس . فتقدّمتُ إلى أول القافلة فإذا أنا بشجاع^(١) أسود
فاغريّ فاه كالجدع ، وهو يخور كما يخور الثور ، ويرغو كُرْغاء البعير ؛ فهالنى أمره ،
وبقيت لا أهدى إلى ما أصنع ؛ فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى ، فعارضنا
ثانيًا ؛ ولم يحسّر أحد من القوم أن يقربه ، فقلتُ : أفدى هذا العالم بنفسى ،
وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة منه .

فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسللت سيفى ، فلما رآنى قربتُ منه سكن ،
وبقيت متوقعًا منه وثبة يبتلعنى فيها ، فلما رأى القربة فتح فاه ، فجعلت فم القربة

* المختار من نوادر الأخبار (مخطوط) ، الأغاني : ١٩ - ٨٦ ، المستطرف : ١ - ٢٤٤ .
(١) الشجاع : الذكر من الحيات .

في فيه ، وصبتُ الماء كما يُصب في الإناء . فلما فرغت القرية تسبب في
الرمل ومضى ؛ فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا ،
ومضينا لحجنا .

ثم عُدنا في طريقنا ذلك ، وحططنا في منزلنا ذلك ، في ليلة مظلمة مُدْهِمَةٌ ،
فأخذت شيئاً من الماء وعدلتُ إلى ناحية عن الطريق ، فأخذتني عيني ؛ فنمتُ
مكاني ؛ فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً ، وقد ارتحلوا ، وبقيتُ منفرداً
لم أر أحداً ، ولم أهدِ إلى ما أفعله ، وأخذتني حيرة ، وجعلت أضطربُ ، وإذا
بصوت هاتف أسمعُ صوته ولا أرى شخصه يقول :

يأيها الشخصُ المضلُّ مركبُه ما عنده من ذى رشادٍ يصحُّبه
دونك هذا البكرُ منا تركبه وبكرُك اليمون حقاً تجنِّبه^(١)
حتى إذا ما الليل زال غيَّبه^(٢) عند الصباح في الفلا تسدِّبه^(٣)

فنظرت فإذا ببكرٍ قائم عندي وبكرى إلى جانبي ، فأنخته وركبته ،
وجنبتُ بكرى ؛ فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة ، وانفجر الفجر ،
ووقف البكر ، فعلت أنه قد حان نزولى فتحوات إلى البكر ، وقلت :

يأيها البكرُ قد أنجيت من كرب ومن همومٍ تفضل المدلج الهادى
ألا فخيرنى بالله خالقنا من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى

(١) جنب البعير : قاده إلى جنبه (٢) الغيب : شدة سواد الليل (٣) سبب الشيء :
تركه .

وارجع حميداً فقد بَلَّغْتَنَا مِنَّا بوركتَ من ذى سنام رانح غادى
فالتفت البكر إلى ، وهو يقول :

أنا الشجاعُ الذى أَلْفَيْتَنِي رَمِيضاً والله يكشفُ ضرَّ الحائر الصَّادى
فجَدْتَ بالماءَ لما ضَبَّ حَامِلُهُ نصف النهار على الرَّمْضاءِ فى الوادى
الخيرُ أبقى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ
هذا جزاؤك مِنَّا لا يُمنُّ به لك الجميلُ علينا إنك البادى

فعجب الرشيدُ من قوله ، وأمر بالقصة والأبيات فكَتَبَتْ ، وقال : لا يضيع
المعروف أين وُضِعَ !

١١٨ - وَمَنْ عَبِيدُ لَوْلَا هَبِيدٌ*

قال رَاوٍ :

خرجتُ على بعيرٍ لي صعب يمرّ لا يُملِّكني من أمرٍ نفسي شيئاً ، حتى مرّ على جماعةٍ ظباء في سفحِ جبل ، على قُلَّتِهِ رجلٌ عليه أطمَارٌ^(١) ، فلما رأته الظباء هربت ، فقال : ما أردت إلى ما صنعت ؟ إنكم لتعرضون بمن لو شاء قدّعكم^(٢) عن ذلك ! فداخلى عليه من الغيظ ما لم أقدر أن أحمله ، فقلت : إن تفعل بي ذلك لا أرضى لك ؛ فضحك ، ثم قال : امض - عافاك الله - لبالك .

فجعلت أردد البعير في مراعى الظباء ، لأغضبه ، فنهض وهو يقول : إنك جليد القلب ؛ ثم أتاني فصاح ببعيري صيحة ، ضرب بجرّانه^(٣) الأرض ، ووثبتُ عنه إلى الأرض ، وعلمت أنه جانٌّ ، فقلت : أيها الشيخ ؛ إنك لأسوأ مني صنيعاً ؛ فقال : بل أنت أظلم وألأم ، بدأت بالظلم ، ثم لوّمت في تركك المضي ، فقلت : أجل ! عرفتُ خطي ، قال : فاذا ذكر الله فقد رُغفناك ، وبذكر الله تطمئن القلوب ، فذكرت الله تعالى ، ثم قلت دهشاً : أتروى من أشعار العرب شيئاً ؟ فقال : نعم ، أروى وأقول قولاً فائقاً مبرّزاً ، فقلت : فأرني من قولك ما أحببت ؛ فأنشأ يقول :

* الجمهرة : ٢٣

(١) الأطمَار : جمع طمر ، وهو الثوب الخلق (٢) قدّعكم : كفكم ومنعكم (٣) جران البعير : مقدم عنقه من مذبجه إلى منخره .

طاف الخيالُ علينا ليلةَ الوادى من آل سلمى ولم يُلِمَّ بميعاد
إني اهتديت إلى مَنْ طال ليلُهُم في سَبَسَبٍ^(١) ذات دَكْدَكٍ وأَعْقَادٍ^(٢)
يكلّفون سُراها كلَّ يَمَلَّةٍ^(٣) مثل المَهَاةِ إذا ما حثَّها الحادى
أبلغ أبا كَرَبٍ^(٤) غنى وأسرته قولا سَيَذْهَبُ غَوْرًا بعد إنجاد
يا عمرو؛ ماراح من قومٍ ولا ابتكروا إلا وللموتِ فى آثارهم حادى
لا أعرفنك بعد اليوم تندُبني وفى حِيَاثِي ما زوّدتنى زادى
أما حَمَامُكَ يوماً أنت مُدْرِكُهُ لا حَاضِرٌ مُفْلِتٌ منه ولا بادى

فلما فرغ من إنشاده قلت : لهذا الشعر أشهر فى معدّة بن عدنان من ولد الفرس
الأبلى^(٥) فى الدُّهُم^(٦) العِراب^(٧) ، هذا لبَعِيد بن الأبرص الأسدى ، فقال : ومن
عَبِيد لولا هَبِيد ! فقلت : ومن هَبِيد ؟ فأنشأ يقول :

أنا ابنُ الصّلام أدعى الهَبِيد حبوت القوافى قرّمتى^(٨) أسد
عبيداً حبوتُ بمأثورةٍ وأنطقتُ بِشِراً^(٩) على غير كَدٍّ
ولا فى بِمُدْرِكٍ رهطُ الكُمَيْتِ^(١٠) ملاذاً عزيزاً ومجداً وجَدٍّ
منحنامُ الشعر عن قُدْرَةٍ فهل تشكرُ اليومَ هذا مَعْد !

فقلت : أما عن نفسك فقد أخبرتنى ، فأخبرنى عن مُدْرِك ، فقال : هو مُدْرِك
ابن واغم صاحب الكُمَيْت ، وهو ابن عمى ، وكان الصّلام وواغم من أشعر الجن .

(١) السبَسَب : المفازة (٢) الدكدك : أرض فيها غلط ، الأعقاد : جمع عقد ، مانعقد من الرمل
(٣) البعملة : الناقة النجيبة (٤) أبو كرب : عمرو بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار
(٥) الأبلق . ما فيه سواد وبياض (٦) الدُّهُم : السود (٧) العراب : الأصيلة (٨) القرم :
السيد ، ويريد بقرى أسد عبيدا وبشرا فهما من قبيلة أسد (٩) بشرا : هو بشر بن أبى
خازم الشاعر (١٠) الكُمَيْت : هو الكُمَيْت بن زيد الأسدى .

ثم قال : لو أنك أصبت من لبنٍ عندنا ! فقلت : هات ، أريد الأنسَ به ، فذهب
فأتاني بعُسٍّ^(١) فيه لبنٌ ظبي ، فكرهته لزُهوته^(٢) ، فقلت : إليك ! وبججتُ
ما كان في في منه ، فأخذه ثم قال : امض راشداً مصاحباً ، فوليت منصرفاً ،
فصاح بي من خلفي ؛ أما إنك لو شربت ما في العُسِّ ، لأصبحت أشعر قومك .
قال : فندمت على أني لم أشرب ما في عُسِّه في جوفي على ما كان من زُهوته ،
وأنشأت أقول في طريقى :

أسفت على عُسِّ الهبيد وشربه لقد حرمتنيهِ صروف المقاديرِ
ولو أننى إذ ذاك كنتُ شربته لأصبحتُ في قومي لهم خيرَ شاعر

(١) عس : لبناء (٢) الزهومة : رائحة منذنة غير مقبولة .

١١٩- لَافِظُ بِنِ لَاحِظُ ! *

حدّث أحد الرواة قال : خرجت في طلب لِقَاح^(١) لي على فَحْلٍ كَأَنَّهُ قَدَن^(٢) ،
يمرُّ بي يسبق الريح ، حتى دفعت إلى خيمة وإذا بفنائها شيخٌ كبيرٌ ، فسَلَّمْتُ فلم يردَّ
عليّ ، فقال : من أين ؟ وإلى أين ؟ فاستحمته ؛ إذ بَنَجِلَ بردُ السلام ، وأسرعَ إلى
السؤال ، فقلت : مِن ههنا ! وأشرْتُ إلى خلفي ، وإلى ههنا ! وأشرت إلى أمامي ؛
فقال : أَمَّا مِن ههنا فنعم ، وأما إلى ههنا فوالله ما أراك تبتهج بذلك ، إلا أن يسهل
عليك مُدَاراة من تردّ عليه ! قلت : وكيف ذلك أيها الشيخ ؟ قال : لأن الشكلَ
غير شكليّ ، والزىّ غير زيك ، فضرب قلبي أنه من الجن ، وقلت : أتروى من
أشعار العرب شيئاً ؟ قال : نعم وأقول ، قلت : فأنشدني - كالمستهزئ به ! فأنشدني
قول امرئ القيس :

قفا نَبَك من ذِكْرِي حبيبٍ ومَنْزِلٍ بِسِقْطِ^(٣) اللّوى بين الدّخولِ فَحَوْمَلٍ
فلما فرغ قلت : لو أن امرأ القيس يُنْشَرُ لَرَدَّعَكَ عن هذا الكلام . فقال :
ماذا تقول ؟ قلت : هذا لامرئ القيس ، قال : لستُ أولَ من كُفِرَ نعمة أسداها !
قلت : ألا تستحي أيها الشيخ ، أَلِمْثَلِ امرئ القيس يقال هذا ؟ قال : أنا والله
مَنْحَتُهُ ما أعجبك منه ! قلتُ : فما اسمك ؟ قال : لَافِظُ بِنِ لَاحِظُ ، فقلت : اسمان
منكران ! قال : أجل ! فاستحمتُ نفسي له ، بعد ما استحمته لها ، وأنسْتُ به

* الجهرة : ٢٣

(١) اللقاح : الإبل (٢) القدن : القصر (٣) سقط اللوى والدخول وحومل : مواضع

بنجد .

لطول محاورتي إياه ، وقد عرفت أنه من الجنّ ، فقلت له : مَنْ أشعرُ العرب ؟
فأنشأ يقول :

ذهب ابنُ حُجْرٍ^(١) بالقريض وقوله ولقد أجاد فما يُعَابُ زياد^(٢)
لله هاذر إذ يجودُ بقوله إن ابن ماهر بعدّها لجوادُ

قلت : من هاذر ؟ قال : صاحب زياد الذّبياني وهو أشعر الجنّ ، وأضنهم بشعره ،
ولقد علم بنية لي قصيدة له من فيه إلى أذنّها ، ثم صرخ بها : اخرُجِي فدى لك
ما ولدت حواء ! فقلت له : ما أنصفت أيها الشيخ ، فقال : ما قلتُ بأساً ، ثم رجعت
إلى نفسي فعرفتُ ما أراد ، فسكت ، ثم أنشدتني الجارية :

نأت بسعادَ عنك نوى شطون^(٣) فباتت والفؤادُ بهـ — حزين

حتى أتت على قوله منها * كذلك كان نوحٌ لا يخونُ * قال : لو كان رأى قوم
نوحٍ فيه كَرَأى هاذر ما أصابهم الفرق ! لحفظت البيتَين ، ثم نهض بي الفحل
فعدتُ إلى لقاحي .

(١) ابن حجر : امرؤ النيس (٢) زياد : النايضة الذبياني (٣) شطون : جميدة .

١٢٠- تابع زهير بن أبي سلمى

قال علي بن الجهم القرشي : دخلتُ على المتوكل يوماً ، وهو جالسٌ وحده ، فسلمتُ عليه فردَّ السلام ؛ وأجلستُني ، فخان مني التفاتة ، فرأيتُ الفتح بن خاقان^(١) واقفاً في غير رتبته التي كان يقوم فيها ، متكئاً على سيفه مُطْرِقاً ، فأنكرتُ حاله ، فكنتُ إذا نظرتُ إليه نظرتُ إلى الخليفة ، فإذا صرفتُ وجهي ، إلى الخليفة أطرق . فقال : يا علي ، أنكرت شيئاً ؟ قلتُ : نعم يا أمير المؤمنين ! فقال : ما هو ؟ قلتُ : وقوفُ الفتح في غير رتبته التي كان يقوم فيها !

قال : سوء اختياره أقامه ذلك المقام . قلتُ : ما السببُ يا أمير المؤمنين ؟ قال : خرجتُ من عند قبيجة^(٢) آنفاً ، فأسررتُ إليه سرّاً ، فإداني السرُّ إذ عادَ إلى ! قلتُ : لعلَّك أسررتَه إلى أحد غيره يا أمير المؤمنين ! قال : ما كان هذا ؟ قلتُ : فلعلَّ مُستَمِعاً استمعَ عليكما ! قال : ولا هذا أيضاً .

فأطرقتُ ملياً ؛ ثم رفعتُ رأسي ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، قد وجدتُ له مما هو فيه مخرجاً ! قال : ما هو ؟ قلتُ : حدثنا الفضل بن دُكَيْنٍ ، قال أبو الجوزاء : طَلَمْتُ امرأتِي في نفسي ، وأنا في المسجد ، ثم انصرفتُ إلى دارِي ، فقالتُ لي امرأتِي : أطلَمْتَنِي

* معجم الأدباء : ١٦ - ١٨٠

(١) هو الفتح بن خاقان بن أحمد القائد ، كان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب ، وكان من أولاد الملوك ، اتخذهُ المتوكل أخاً ، وكان يقدمه على جميع أولاده وقتل مع المتوكل سنة ٢٠٧ هـ . وهو غير الفتح بن خاقان الأندلسي (٢) قبيجة : جارية المتوكل .

يا أبا الجوزاء ؟ قلتُ : من أين لك هذا ؟ قالت : خبرتني جارتى الأنصارية اقلت :
ومن خبرها بذلك ؟ قالت : ذكرت أن زوجها خبرها بذلك !

فغدوتُ على ابن عباس فقصصت عليه القصة ؛ فقال : علمتُ أن وسواس^(١)
الرجل يحدثُ وسواس الرجل ، فمِنْ ههنا يَفْشُو السر .

قال أبو نعيم : فكان في نفسى من هذا شيء حتى حدثني حمزة الزيات ،
قال : خرجت سنة من السنين أريد مكة ، فلما جُرْتُ في بعض الطريق ضلَّتُ
راحلتى ، فخرجتُ أطلبُها ، فإذا بائنين قد قبضاً على ، أحسَّ حَسَمَها ؛ وأسمعُ
كلامهما ، ولا أرى شخصَهما ! فأخذاني وجاءا بي إلى شيخ قاعدٍ على تَلَمَّةٍ^(٢) من
الأرض ، حسن الشَّيْبَةِ ؛ فسَلَّمْتُ عليه فردَّ السلام ؛ فأفرخ^(٣) رُوعى ؛ ثم
قال : مِنْ أين ؟ وإلى أين ؟ فقلت : من الكوفة أريد مكة .

قال : ولم تخَلَّفْتِ عن أصحابك ؟ فقلتُ : ضلَّتُ راحلتى فجئتُ أطلبُها !
فرفع رأسه إلى قوم على رأسه ؛ فقال : زامِلَةٌ^(٤) ؛ فأنيختُ بين يدي ؛ ثم
قال لى : أتقرأ القرآن ؟ قلت : نعم ! قال : هاته ! فقرأت حتى انتهيت إلى هذه
الآية : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجَزْءِ ﴾ يستمعون القرآن ؛ فلما حضروه قالوا :
أنصتوا ، فلما قُضِيَ ولَّوْا إلى قومهم منذرين .

فقال لى : على رِسْلِكَ ! تدرى كم كانوا ؟ قلت : اللهم لا ! قال : كنا أربعة ؛
وكنْتُ المخاطِبَ لهم فقلت : « يا قومنا أجيئوا داعى الله » .

(١) وسواس الرجل : الشيطان الذى يوسوس له . والوسوسة : الصوت الخفى والمهمس
(٢) التلعة : ما ارتفع من الأرض (٣) الروع : القلب ، وأفرخ : أخرج ما به من خوف
(٤) منادى محذوف منه حرف النداء ، اسم ناقلته .

ثم قال لى : أتقول الشعر ؟ قلت : اللهم لا ! قال : أفترويه ؟ قلت : نعم ! قال . هاته ! فأنشدته قصيدة :

أَمِنْ أُمٍّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُتَشَلِّمِ^(١)

فقال : لمن هذه ؟ قلت : زهير بن أبى سلمى ! قال : الجنى ؛ قلت : بل الإنسى ! مراراً :

فرفع رأسه إلى قومٍ على رأسه ، فقال : زهير ! فأتى بشيخٍ كأنه قطعة لحمٍ ؛ فألقى بين يديه ، فقال له : يا زهير ! قال : لبيك ! قال : « أَمِنْ أُمٍّ أَوْفَى » لمن ؟ قال : لى ! قال : هذا حمزة الزياتُ يذكرُ أنها زهير بن أبى سلمى الإنسى ، قال : صدق هو ، وصدقت أنت !

قال : وكيف هذا ؟ قال : هو إلفى من الإنس ، وأنا تابعه من الجن ، أقول الشيء فألقيه فى وَهْمِهِ ، ويقولُ الشيء فأخذه عنه ؛ فأنا قائلها فى الجن ، وهو قائلها فى الإنس .

قال أبو نعيم : فصدق عندي هذا الحديثُ حديثُ أبى الجوزاء إن وسواس الرجل يحدث وسواس الرجل ! فمن ها هنا يفشو السر !

فاستفرغ^(٢) المتوكل ضحكاً ، وقال : إلىَّ يا فتحُ ! فصبَّ عليه خلماً^(٣) ، وحلَّ على شيء من الظَّهْرِ ، وأمر له بمال ، وأمر لى بدون ما أمرته به . فانصرفت إلى منزلى ، وقد شاطرني الفتح ما أخذ ، فصار الأكثر إلىَّ ، والأقلَّ عنده .

(١) أم أوفى : على حذف مضاف ، أى آمن منازل أم أوفى ، والدمنة ما بقى من انثار الديار ، وحومانة الدراج : ماء فى طريق البصرة إلى مكة ، والمتشلم : موضع أول أرض الصمان (٢) بذل جهده فى الضحك (٣) ما يخلع على الإنسان من الثياب وغيره .

١٢١- حاتم يقرى الضيف بعد موته*

مرّ نفرٌ من عبد القيس بقبر حاتم^(١) ، فزّلوا قريباً منه ، فقام إليه رجل يقال له أبو الخيّبري^(٢) ، وجعل يركض^(٣) برجله قَبْرَهُ ؛ ويقول : اقرّنا ، فقال له بعضهم : ويلك ! ما يدعوك أن تعرض لرجل قد مات ؟ قال : إن طيئاً تزعم أنه ما نزل به أحدٌ إلا قرّاه ، ثم أجبنهم الليل ، فناموا .

فقام أبو الخيّبري فزعاً ، وهو يقول : وارا حلتاه ! فقالوا له : مالك ؟ قال : أتاني حاتم في النوم ؛ وعقر ناقتي بالسيف ؛ وأنا أنظرُ إليها ، ثم أنشدني شعراً حفظته ، يقول فيه :

أبا الخيّبري ، وأنت امرؤ ظلومُ العشيـرة شتّامُها
أتيت بصحبك تبغى القرى لدى حُفرةٍ قد صدّت^(٤) هامُها
أتبغى لي الدمّ عند المبيت وحوالك طيٌّ وأنعامُها
فإنّا لنشبعُ أضيافنّا وتأتى المطى فنعتامُها^(٥)

* بلوغ الأرب : ١ - ٧٤ .

(١) هو حاتم بن عبد الله من قبيلة طيء ، وهو من أجواد العرب ، وله أخبار كثيرة في السخاء مشهورة ، حتى جرى ذكره مجرى الأمثال ، وكان مع ذلك شاعراً وشجاعاً ، توفي سنة ٥٠٦ م .
(٢) قال ن القاموس : كُتِبَ له ولد بخير . وخير : حصن قرب المدينة (٣) ركض الرجل ركضاً من باب قتل : ضرب برجله (٤) صدّت : صوتت . والهامة : طير تزعم العرب أنه يصيح على قبر الميت القتل ، فلا يفتأ ينادى بثأره حتى يؤخذ به (٥) نعتامها : عمت الإبل ، واعتنت ، واستعنت : إذا حلبت عشاء .

فقاموا ، وإذا ناقة الرجل تَكُوس ^(١) عقيراً ، فانتحروها وباتوا يأكلون ،
وقالوا : قرأنا حاتم حياً وميتاً !

وأردفوا أصحابهم ، وانطلقوا سائرين ، وإذا برجلٍ راكبٍ بعيراً وهو يقول
آخر ، قد لحقه ، وهو يقول : أيكم أبو الخَيْرِ ؟ قال الرجل : أنا ! قال : فخذ هذا
البعير ؛ أنا عدى بن حاتم ؛ جاءني حاتم اليوم في النوم ، وزعم أنه قرأكم بناقته ،
وأمرني أن أحملك ؛ فشأنك والبعير ^(٢) !

ودفعه إليهم وانصرف .

(١) تكوس : كاس البعير ، مشى على ثلاث قوائم وهو معرج (٢) إلى هذه القصة أشار
ابن دارة الغطفاني في قوله يمدح عدى بن حاتم :

أبوك أبو سفانة الخير لم يزل	لن شبحتى مات في الخير داعياً
به تضرب الأمثال في الشر ميتاً	وكان له إذ ذاك حياً مصاحباً
قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به	ولم يقر قبر قبله الدهر راكباً

١٢٢- جَارُ مَالِكِ بْنِ حَرِيمٍ

خرج مالك بن حريم في نفر من قومه يريدون عكاظ ، فاصطادوا ظبيًا ، وأصابهم عطش شديد ، فأنهوا إلى موضع ، فقصدوا الظبي ، وجعلوا يشربون من دمه من العطش ، فلما ذهب دمه ذبحوه ، وخرجوا في طلب الخطب ، وكمن مالك في خبائه فأثار بعضهم شجاعاً^(١) ، فأقبل منساباً حتى دخل رَحْل مالك ، فلاذ به ، وأقبل الرجل في أثره ؛ وقال : يا مالك ، استيقظ فإن الشجاع عندك ؛ فاستيقظ مالك ، ونظر إلى الشجاع ، فإذا هو يُلَوِّذُ^(٢) به ؛ فقال للرجل : عزمتُ عليك إلا تركته ، فكف عنه وأنساب الشجاع إلى مأمنه ، وأنشأ مالك يقول :

وأوصاني الحريم بعزٍّ جارى وأمنه وليس به امتناع
وأدفع ضيمه وأذبُّ عنه وأمنه إذا منع المتاع

ثم ارتحلوا واشتدَّ بهم العطش ، وإذا بهاتف يهتف بهم ويقول :

يا أيها القوم لا ماء أمامكم حتى تسوموا المطايا يومها التغباً
ثم اعدلوا شامةً فالماه عن كشبٍ عينٌ رَواء وماء يذهب اللغباً^(٣)
حتى إذا ما أصبتم منه ريحكم فاسقوا المطايا ومنه فاملثوا القرباً

فعدلوا شامة ، فإذا هم في عين خَرَّارة في أصل جبل ، فشربوا وسقوا إبلهم .

* بلوغ الأرب : ٢ - ٣٦٢

(١) الشجاع : الذكر من الحيات (٢) يقال : لاذ به : لجأ إليه (٣) الشامة : ضد البينة والكشب : القرب ، واللغب : التعب .

وحملوا ربيهم حتى أتوا عكاظ ، ثم أقبلوا حتى انتهوا إلى ذلك الموضع ، فلم يروا شيئاً ، وإذا بهاتف يقول :

يا مالٍ عني جزاك الله صالحةً	هذا وداعٌ لكم مني وتسايمٌ
لا تزهدن في اصطناع الخير مع أحدٍ	إن الذي يحرم المعروف محرومٌ
من يفعل الخير لا يعدم مغيبته	ما عاش ، والكفر بعد الغيب مذموم
أنا الشجاع الذي أنجيت من رهقٍ	شكرتُ ذلك إن الشكر مقسوم

ثم طلبوا العين فلم يجدوها .

١٢٣ - الجن وابن الحمارس*

كان عبيد بن الحمارس السكبي رجلاً شجاعاً ، وكان نازلاً بالسماوة^(١) ، أيام الربيع ، فلما حَسَرَ الربيع ، وقلَّ ماؤه ، وأقامت أنواؤه ، تحمل^(٢) إلى وادي تَبَل^(٣) فرأى روضة وغديراً ، فقال : روضة وغدير وخطب يسير ، وأنا لما حويتُ مجير .

فنزّل هناك ، وله امرأتان : اسم إحداها الرّباب ، والأخرى خولة ؛ فقالت له خولة :

أرى بلدة قفراً قليلاً أُنيسُهمها وإنا لنَخْشَى-إن دجا الليلُ-أهلها
وقالت له الرّباب :

أرّنتك برأيي ، فاستمع عنك قوائها ولا تأمنن جنّ الفَريف^(٤) وجهها
فقال مجيباً لها :

ألستُ كميّاً^(٥) في الحروب مجرباً شجاعاً إذا شُبَّتْ له الحربِ مجرباً^(٦)
سرباً إلى الهيجا^(٧) إذا حَسَّ^(٨) الوغى فأقسم لا أغدو الفـدير مُنْكَباً^(٩)
ثم صعد إلى جبل تَبَل فرأى شَيْهَةً^(١٠) ، فرماها فأَقْعَصَهَا^(١١) ، ومعهما ولدها
فارتبطه ؛ فلما كان الليل هتف به هاتف من الجن :

* بلوغ الأرب : ٢ - ٣٥٥ ، ابن أبي الحديد : ٤ - ٤٤٨

(١) السماوة : بادية قرب الشام (٢) تحمل : سافر (٣) نيل : واد على أميال بسيرة من الكوفة ، وأعلى متصل بسماوة كلب (٤) الفريف : الخلفاء (٥) السكبي : الشجاع (٦) المحرب . صاحب الحرب (٧) الهيجا : الحرب (٨) حس : اشتد وصلب في القتال (٩) نكب : عدل (١٠) الشيهة : الأتقى من القناذ (١١) أقصمها : قتلها مكانها .

يا بن الحمارس قد أسأت جوارنا
وعقرت لقعته^(١) وقذت فصيلها
ونزلت مرعى شائنا وظله تننا
فلنطرقنك بالذى أوليتننا
وركبت صاحبنا بأمر منقطع
قوداً عنيفاً فى المنيف الأرفع
والظلم فاعله وخيم المرتع
شراً يبيك وما له من مدفع

فأجابه ابن الحمارس :

يامدعى ظلمى ، ولست بظالم
لا تطعموا فيما لدى فما لكم
استمع لديق مقالتى وتسمع
فيا حويت وحزته من مطمع

فأجابه الجنى :

ياضارب اللقحة^(٢) بالمضب الأفل^(٣)
وساقك الحين إلى جن تبلى
قد جاءك الموت ووافق الأجل
فاليوم أقوى^(٤) وأغيبك الحيل

فأجابه ابن الحمارس :

يا صاحب اللقحة هل أنت بجلى
وكثرة المنطق فى الحرب فشل
ليث ليوث ، وإذا هم فعل
من كان بالمقوة^(٥) من جن تبلى
مستمع منى فقد قلت انخلطن
هيبت قنقماً^(٦) من القوم بطلن
لا يرهب الجن ولا الإنسان أجل
من كان بالمقوة^(٦) من جن تبلى

فسمعها شيخ من الجن ؛ فقال : لا والله لا نرى قتل إنسان مثل هذا ، ثابت
القلب ، ماضى العزيمة ! فقام ذلك الشيخ فأنشد :

(١) اللقحة : الناقة (٢) المضب : السيف (٣) الأفل : المنم (٤) أقوى : افتقر
(٥) القنقما : السيد (٦) المقوة : المحلة .

يا ابن الحمارس قد نزلت بلادنا
فبدأتنا ظلمًا بقر لقوحنا
فاعمد لأمر الرشد واجتنب الردى
واغرم لصاحبنا لقوحًا متبعا
فأجابه ابن الحمارس :

الله يعلم حيث يرفع عرشه
أما ادعائك ما ادعيت فإني
فأتممت^(٢) فيها مالنا ونزلتها
فلقد صاحبكم علينا فمطه
ثم غرم للجن لقوحًا متبعا^(٣) .

إني لأكره أن أصيب أثامًا
جئت البلاد ولا أريد مقاما
لأريح فيها ظهرنا أياما
ما قد سألت ولا نراه غراما

(١) الأثام : الإثم (٢) أسام المال : أرماء . والمال (هنا) : الإبل (٣) قال ابن أبي الحديد
بعد إيراد هذه القصة في شرح نهج البلاغة : وهذه الحكاية وإن كانت كذبا إلا أنها تتضمن أدبا،
وهي من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها وإمتاعها .

١٢٤- حَارِسُ مَالِ ابْنِ الْخَشْرَمِ*

خرج نُجَيْحُ الْيَزْبُوعِيُّ يوماً إلى الصيد ، فمرض له حمارٌ وَخَشٍ فَاتَّبَعَهُ ، حتى دفع إلى أَكْمَةٍ ، فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد في أَطْمَارٍ^(١) ، بين يديه ذهب وفضة ودُرٌّ وياقوت . فدنا منه نُجَيْحٌ ؛ فتناول منها بعضها ، فلم يستطع أن يحرّك يده حتى ألقاها ؛ فقال : يا هذا ؛ ما الذي بين يديك ؟ وكيف تستطيعُ حملَه ؟ أَلَيْكَ هَوَامٌ لغيرك ؟ فإني أعجب مما أرى ، أجواد أنت فتجود لنا ، أم بخيل فأعذرُك ؟ فقال الأعمى : كيف تطلب مال رجل قد غاب منذ سنتين ، وهو سعد بن خَشْرَم ، فَأَتَنِي بِسَعْدٍ يعطيك ماتشاه .

فانطلق نُجَيْحٌ مسرعاً ، قد استعير فُؤَادَهُ ، حتى وصل إلى مَحَلَّتِهِ^(٢) ، ودخل خِباءَهُ ، فوضع رأسه ، ونام لما به من النعم ؛ لا يدري مَنْ سَعْدُ .

فأناه في منامه آت ؛ فقال له : يَا نُجَيْحُ ؛ إِنَّ سَعْدَ بْنَ خَشْرَمٍ فِي حَيٍّ مُحَلَّمٍ مِنْ وَلَدِ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَ ؛ فخرج وسأل عن بني مُحَلَّمٍ ، ثم سأل عن خَشْرَمٍ ، فإذا هو بشيخ قاعد على باب خِباءِهِ ، فحيَّاه نُجَيْحٌ ، فردَّ عليه ، فقال له نُجَيْحٌ : من أنت ؟ قال : خَشْرَمُ بْنُ شِمَّاسٍ . قالَ : وَأَيْنَ ابْنُكَ ؟ قال : خرج في طلب نُجَيْحِ الْيَزْبُوعِيِّ ؟

* المحاسن والأضداد : ٦٩

(٢) المحلة : منزل القوم .

(١) الأطمار : الملابس البالية

وذلك أن آتيا أثناء في منامه ، فحدثه أن مالا له في نواحي بني يربوع لا يعلم به إلا نجيح ، فضرب نجيح بطن فرسه ، وهو يقول :

أطلبني من قد عناني طلابه فياليتني ألقاك سعد بن خشرم
أنت بني يربوع تبني لقاءنا وقد جئت - كي ألقاك - حتى تحلم
فلما دنا من محله استقبال سعدا ، فقال له : أيها الراكب ؛ هل لقيت سعدا في
بني يربوع ؟ فقال : أنا سعد ؛ فهل تدلني على نجيح ؟ قال : أنا نجيح ! وحدثه
بالحديث ؛ ثم قال : الدال على الخير كفاعله .

فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان ؛ فتوارى الرجل الأعمى حين أبصرهما ، وترك
المال ، فأخذه سعد كله ، فقال له نجيح : ياسعد ؛ قاسمني ، فقال له : اطوع عن مالي
كشحا ! وأبي أن يعطيه شيئا ، فانتضى نجيح سيفه ، وجعل يضربه ، حتى برد ؛
فلما وقع قتيلاً تحوّل الرجل الحافظ للمال سِعْلَةً^(١) ، وأعاد المال إلى مكانه ؛ فلما
رأى نجيح ذلك ولّى هارباً إلى قومه !

(١) السعلة : الفول أو ساحرة الجن .

١٢٥ - فِي مَوْتِ أُمِّيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ*

لَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ أُمِّيَّةَ بْنْتَيْهَ وَهَرَبَ بِهِمَا إِلَى أَقْصَى
الْبَيْنِ ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الطَّائِفِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَشْرَبُ مَعَ إِخْوَانٍ لَهُ فِي قَصْرِ غَيْلَانَ هُنَاكَ إِذْ
سَقَطَ غَرَابٌ عَلَى شُرْفَةٍ فِي الْقَصْرِ ، فَتَعَبَّ نَعْبَةً ؛ فَقَالَ أُمِّيَّةُ : بِفَيْكَ
الْكُثْكُثُ^(١) ! فَقَالَ أَصْحَابُهُ : مَا يَقُولُ ؟ قَالَ : يَقُولُ : إِنَّكَ إِذَا شَرَبْتَ الْكَأْسَ
الَّتِي بِيَدِكَ مِتَّ . فَقُلْتُ : بِفَيْكَ الْكُثْكُثُ ، ، ثُمَّ نَعَبَ نَعْبَةً أُخْرَى ، فَقَالَ أُمِّيَّةُ
نَحْوَ ذَلِكَ ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ : مَا يَقُولُ ؟ قَالَ : زَعَمَ أَنَّهُ يَقَعُ عَلَى هَذِهِ الْمَرْبَلَةِ^(٢) أَسْفَلَ
الْقَصْرِ ، فَيَسْتَنِيرُ عَظْمًا فَيَبْتَلَعُهُ فَيَشْجَى بِهِ فَيَمُوتُ ، فَقُلْتُ نَحْوَ ذَلِكَ . فَوَقَعَ الْغَرَابُ
عَلَى الْمَرْبَلَةِ ، فَأَثَارَ الْعَظْمَ ، فَيَشْجَى بِهِ فَمَاتَ .

فَانْكَسَرَ أُمِّيَّةُ ، وَوَضَعَ الْكَأْسَ مِنْ يَدِهِ ، وَتَغَيَّرَ لَوْنُهُ ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ :
مَا أَكْثَرَ مَا سَمِعْنَا بِمِثْلِ هَذَا وَكَانَ بَاطِلًا ! ثُمَّ الْخُؤَا عَلَيْهِ حَتَّى شَرَبَ الْكَأْسَ ،
فَمَالَ وَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أَفَاقَ ، ثُمَّ قَالَ : لَا بَرِيءَ فَأَعْتَذَرَ ، وَلَا قَوِيٌّ فَأَنْتَصَرَ ، ثُمَّ
خَرَجَتْ نَفْسُهُ .

* الْأَغَانِي : ٤ - ١٣٣

(١) الْكُثْكُثُ : التَّرَابُ (٢) مَوْضِعُ السَّرَجِينِ .

١٢٦- فِي بَحْرِ الْخَزَرِ*

قال ميمون الأمدى : ركبت بحر الخزر أريد بلداً حتى إذا ما كنت منه غير بعيد لُجِّج^(١) مركبنا ، فاستاقته ريح الشمال شهراً في اللجة ، ثم انكسر بنا ، فوقعت أنا ورجل من قريش إلى جزيرة في البحر ليس بها أنيس .

فجعلنا نطوف حتى أشرَفْنَا على هُوَّة ، وإذا بشيخ مستند إلى شجرة عظيمة ، فلما رأنا تَحَشَّش^(٢) وأناف إلينا ! ففرغنا منه ، ثم دنونا نحوه ، وقلنا : السلام عليك أيها الشيخ ! قال : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فأنسنا به ، فقال : ما خطبُكُما ؟ فأخبرناه ، فضحك وقال : ما علمي هذا الموضع أحد من ولد آدم قط ، فمن أنما ؟ قلنا : من العرب ، قال : بأبي وأمي العرب ، فمن أيها ؟ قلت : أما أنا فرجل من خزاعة ، وأما صاحبي فمن قريش . قال : بأبي قريش وأُثَمِّدُهَا ! قال : يا أخا خزاعة ، هل تدري من القائل :

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ^(٣) إِلَى الصَّفَا أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهُمْ — فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَاثِرُ

قلت : نعم ، ذلك الخارث بن مضاض الجرهمي قال : ذلك مؤدِّيها ، وأنا

* الجهرة : ٢٦

(١) لُجِّجَت السفينة : خاضت اللجة : ولجة البحر : مظهره (٢) تَحَشَّش : تحرك ، أناف : أشرف (٣) الحجون : جبل بمكة ومقبرة .

قائلها في الحرب التي كانت بينكم معشر خزاعة وبين جرهم .

يا أخا قريش ؛ أولد عبد المطلب بن هاشم ؟ قلت : أين يذهب بك ، رحلك
الله ، فرّبا وعظم وقال : أرى زمانا قد تقارب إبانة ، أفؤلد ابنه عبد الله ؟ قلنا :
وأين يذهب بك ، إنك لنسألنا مسألة من كان في الموتى .

قال : فتزايد ، ثم قال : فابنه محمد الهادي ؟ قلت : هيهات ! مات رسول الله
صلّى الله عليه وسلم منذ أربعين سنة .

فشهق حتى ظننا أن نفسه قد خرجت ، وانخفض حتى صار كائفرخ ، وأنشأ
بقول :

ولرب راج حيل دون رجائه ومؤمل ذهب به الآمال

ثم جعل ينوح ويبكى ، حتى بلّ دمه لحيته ، فبكينا لبكائه ، ثم قال :
ويحكما ! فمن ولى الأمر بعده ؟ قلنا : أبو بكر الصديق ، وهو رجل من خير أصحابه
قال : ثم من ؟ قلنا : عمر بن الخطاب ، قال : أفن قومه ؟ قلنا : نعم . قال : أما إن
العرب لا تزال بخير ما فعلت ذلك !

١٢٧- نجى "سواد بن قارب" *

وفد سوادُ بن قارب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ فسلم عليه فردّ السلام ، فقال عمر : يا سواد ! قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : ما بقى من كهانتك ؛ فغضب ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ ما أظنك استقبلت بهذا الكلام غيرى ؛ فلما رأى عمرُ الكراهية في وجهه قال : يا سواد ؛ إن الذى كنّا عليه من عبادة الأوثان أعظم من الكهانة ، فحدثنى بحديث كنت أشتى أن أسمعك منك .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، بينما أنا فى إبل بالسراة ، وكان لى نجي من الجن ؛ إذ أتانى فى ليلة وأنا كالنائم ، فرّكضنى برجله ، ثم قال : قم يا سواد ، فقد ظهر بتهامة نبيّ يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، قلت : تنح عنى فإنى ناعس ؛ فولى عنى وهو يقول :

عجبت للبين وتطلّابها وشدّها العيس بأكوارها^(٢)

تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن ككفارها

فارحل إلى الصفوة من هاشم بين روايبها وأحجارها

ثم لما كان فى الليلة الثانية أتانى ؛ فقال مثل ذلك القول ، فقلت : تنح عنى

فإنى ناعس ، فولى عنى وهو يقول :

عجبت للجن وتخّبارها وشدّها العيس بأقتابها^(٣)

* بلوغ الأرب : ٢ - ٣٠٣ ، الجمهرة : ٢٥

(١) النجى : من يأتى بالقول السر (٢) الأكوار : جمع كور ، وهو الرحل (٣) الأتّاب : جمع قتب ، وهو ما يوضع على سنام البعير.

تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم ليس قدامها كأذناها

ثم أتاني في الليلة الثالثة ، فقال مثل ذلك ، فقلت : إني ناعس ، فولى عنى
وهو يقول :

عجبت للجن وإيجاسها^(١) وشدها العيش بأحلاسها^(٢)
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم واسمُ بعينيك إلى راسها

قال سواد : فلما أصبحت يا أمير المؤمنين أرسلتُ لناقةً من إبل ،
فشددتُ عليها ، وأتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمتُ وبايعتُ ، وأنشأتُ
أقول :

أتاني نجي بعد هذه^(٣) ورقدتُ ولم يكُ فيما قد بلوتُ بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلتُ أذاك رسول من لوى بن غالب
فشمزت عن ذيل الإزار وأرقلتُ^(٤) بي الذعلب^(٥) الوجناء بين السباب
فأشهد أن الله لا رب غيره وأنت مأمون على كل غائب
وأنت أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يابن الأكرمين الأطائب

(١) أوجس : وقع في نفسه الخوف (٢) المجلس : كساء رقيق يكون تحت البرذعة بمنزلة
المرشحة (٣) الهدى : السكون (٤) أرقلت : أسرع (٥) الذعلب : الناقة السريعة
شبهت بالذعلبة وهي النعامة لسرعتها (السان مادة ذعلب) ، والوجناء : الشديدة . والسباب ،
جمع سبب : المفازة .

فرّني بما أحببت يا خيرَ مرسلٍ وإن كان فيما قلتَ شيبُ الذوائبِ
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعةٍ بمغنٍ فتيلًا عن سوادِ بن قارب

ففرح رسول الله وأصحابه بمقاتلي فرحاً شديداً حتى رُئى الفرح في وجوههم ؛
فوثب إليه عمر فالتزمه ، وقال : قد كنت أحبُّ أن أسمع هذا الحديث منك ،
فهل يأتيك رثيك اليوم ؟ فقال : منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله
تعالى من الجن ؛

١٢٨ - ليلي الأخيلىة على قبر توبة*

مرّت ليلي الأخيلىة^(١) مع زوجها بقبر توبة بن الحمير ، فقال لها : هذا قبر الكذاب الذى قال :

ولو أن ليلي الأخيلىة سلّمت على ودونى جندلّ وصفائح
لسلّمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدّى من جانب القبر صائح
فقلت : دعه ، فقال : أقسمت عليك إلا ما دنوت منه فسلّمت عليه فأبت ،
فكرر عليها ذلك ، فلما تقدّمت إلى القبر ، وقالت : السلام عليك يا توبة ، طار من
جانب القبر طائر كان هناك ، وزقا ونقر منه جل ليلي ، فوقعت من أعلاه فاندقت
عنقها وماتت من وقتها !

* ديوان الصبابة : ١٨٤ .

(١) هي ليل بنت عبد الله من بني الأخيل بن عامر ، من النساء المتقدمات في الشعر ، وكان توبة ابن الحمير يهواها ، وقال فيها الشعر الكثير ثم تزوجها ، توفيت سنة ٨٠ هـ .

١٢٩- جَانِ يَخْتَطِفُ فَتَاةً*

حدث زياد بن النضر الحارثي قال : كنا على غدير لنا في الجاهلية ، ومعنا رجل من الحنّ يقال له : عمرو بن مالك ، معه بنية له شابة ، على ظهرها ذؤابة ، فقال لها أبوها : خذي هذه الصّحفة ، ثم ائتي الغدير ، فجيئنا بشيء من مائه .

فانطلقت فواقفها عليه جان فاختطفها ، فذهب بها ؛ فلما فقدناها نادى أبوها في الحنّ ، فخرجنا على ثل صعب وذلول^(١) ، وقصدنا كل شعب^(٢) ونقب ، فلم نجد لها أثراً ؛ ومضت على ذلك السنون ، حتى كان زمنُ عمر بن الخطاب ، فإذا هي قد جاءت ، وقد عفا^(٣) شعرها وأظفارها ، وتغيّرت حالها ، فقال لها أبوها : أي بنية ؛ أنى كنت ؟ وقام إليها يقبلها ، ويشم ريحها ، فقالت : يا أبت ؛ أتذكر ليلة الغدير ؟ قال : نعم ! قالت : فإنه واقفني عليه جان ، فاختطفني ، فذهب بي ، فلم أزل فيهم ، حتى إذا كان الآن غزاه هو وأهله قوماً مشركين ، أو غزاهم قوم مشركون فجعل الله تبارك وتعالى نذراً إن هم ظفروا بعدوهم أن يعتقني ويردّني إلى أهلي فظفروا ؛ فحملني فأصبحتُ عندكم ، وقد جعل بيني وبينه أمارةً ، إن احتجتُ إليه أن أولول بصوتي ، فإنه يحضرني .

* المنتقى من أخبار الأصمعي : ١٣

(١) الصعب : الجبل المعصى ، والذلول : الجبل الهادى . (٢) الشعب : الطريق في الجبل ، ومسيل الماء في بطن أرض ، أو ما تخرج بين الجبلين (٣) عفا شعرها : كثر وطال .

فأخذ أبوها من شعرها وأظافرها ، وأصلح من شأنها ، وزوجها رجلاً من أهله ؛ فوقع بينها وبينه ذات يوم ما يقع بين المرأة وبعلها فعيّرهما ، وقال : يا مجنونة ! والله ، إن نشأت إلا في الجن .

فصاحت وولوت بأعلى صوتها ، فإذا هاتفٌ يهتف : يا معشر بنى الحارث ؛ اجتمعوا وكونوا حيّاً كريماً ، فاجتمعنا فقلنا : ما أنت - رحمك الله ؟ فإننا نسمع صوتاً ولا نرى شخصاً ! فقال : أنا راب^(١) ، فلانة ، رعيّتها في الجاهلية بحسبي ؛ وصنّتها في الإسلام بديني ، والله إن نلتُ منها محرماً قط ! واستغاثت في هذا الوقت ، فحضرتُ فسألناها عن أمرها ، فزعمت أن زوجها عيّرَها بأن كانت فينا ، ووالله ، لو كنت تقدمت إليه لفقأتُ عينيه ! فقلنا : يا عبد الله ؛ لك الحياء والجزاء والكفاة ! فقال : ذلك إليه (يعني الزوج) !

فقامتُ إليه عجوز من الحمى ، فقالت : أسألك عن شيء ، فقال : سَلِي ! قالت : إن لي بنيةً أصابتها حصبة^(٢) ، فتمزّقَ رأسها ، وقد أخذتها حُمى الربع^(٣) ؛ فهل لها من دواء ؟ قال : نعم ! اعمدى إلى ذباب الماء الطويل القوائم الذي يكون على أفواه الأنهار ، فخذى منه واحدة ، فاجعلها في سبعة ألوان عهن^(٤) ، من أصفرها وأحمرها وأخضرها وأسودها ، وأبيضها وأكحلها وأزرقها ، ثم افتلّ ذلك الصوف بأطراف أصابعك ، ثم اعقديه على عضدك ؛ ففعلت أمها ذلك ، فسكانما شطت من عقال !

(١) راب : كافل (٢) الحصبة : بثر يخرج بالجسد (٣) الربع في الحمى : أن تأخذ يوماً وتدع يومين ، ثم تجيء في اليوم الرابع (٤) العهن : الصوف .

١٣. لا بقاء للإنسان*

لبس سليمان^(١) بن عبد الملك يوم الجمعة في ولايته لباساً شهيراً به ، وتعطّر ودعا بتخت^(٢) فيه عمام ، ويده مرآة ، فلم يزل يعمّ بواحدة بعد أخرى حتى رضى بواحدة منها ، فأرخى من سدولها ، وأخذ بيده محصرة^(٣) ، وعلا المنبر ناظراً في عطفه ، وجمع جمعه ، وخطب خطبته التي أرادها ، فأعجبته نفسه ، فقال : أنا الملك الشاب ، السيد المهاب ، الكريم الوهاب ، فتمثلت له جارية من بعض جواريه ، فقال لها : كيف ترين أمير المؤمنين ؟ قالت : أراه منى النفس ، وقرّة العين ، لولا ما قال الشاعر ! قال : وما قال الشاعر ؟ قالت :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقي غير أن لا بقاء للإنسان
أنت من لا يرى بيننا منك شيء علم الله - غير أنك فان

فدمعت عيناه وخرج على الناس باكياً ، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بالجارية ، فقال لها : ما دعاك إلى ما قلت لأمر المؤمنين ؟ قالت : والله ما رأيت أمير المؤمنين اليوم ، ولا دخلت عليه ؟ فأكبر ذلك ، ودعا بقيمة جواريه ، فصدقها في قولها ، فراع ذلك سليمان ، ولم ينتفع بنفسه ، ولم يمكث بعد ذلك إلا مدّة حتى توفى .

* مروج الذهب : ١ - ١٦٣ .

(١) سليمان بن عبد الملك من خلفاء بني أمية ، كانت أيامه أيام فتح وغزو وكان فصيحا بليغا ، إلا أنه كان نهما ، توفى سنة ٩٦ هـ (٢) التخت : وطء نعان فيه الثياب (٣) المحصرة ما يتوكأ عليه كالمعصا ونحوها ، وما يأخذه الملك بشير به إذا خاطب ، والمخيط إذا خطب .

١٣١- الغريضة يتلقى غناءه عن الجن*

قال مولى لآل الغريضة^(١) :

حدثتني بعض موليائي وقد ذكرن الغريضة فترحن عليه وقلن : جاءنا يوماً يحدثنا بحديث أنكرناه عليه ، ثم عرفنا بعد ذلك حقيقة ، وكان من أحسن الناس وجهاً صغيراً وكبيراً ، وكنا نلقى من الناس عتقاً بسببه ، وكان ابن سريج في جوارنا فدفعناه إليه فلقن الغناء ، وكان من أحسن الناس صوتاً ففتن أهل مكة بحسن وجهه مع حسن صوته ؛ فلما رأى ذلك ابن سريج نحا عنه ، وكان بعض موليائه تعلمه النياحة ، فبرز فيها ، فجاءني يوماً فقال : نهتني الجن أن أنوح ، وأسمعتني صوتاً عجيباً ، فقد ابتليت عليه لحناً فاسمعه مني ، واندفع ففنى بصوت عجيب في شعر المرار الأسدي :

حلفتُ لها بالله ما بين ذى الغضا وهضب القنان^(٢) من عوانٍ ولا بكرٍ
أحبُّ إلينا منك دلاً وما نرى به عند آيلٍ من ثوابٍ ولا أجرٍ

فكذبناه وقلنا : شيء فكرفيه وأخرجه على هذا اللحن ، فكان في كل يوم يأتينا فيقول : سمعتُ البارحة صوتاً من الجن بترجيع وتقطيع قد بنيت عليه صوت كذا وكذا بشعر فلان ، فلم يزل على ذلك ونحن نذكر عليه ؛ فإننا كذلك أيلة

* الأغاني : ٢ - ٣٧٣

(١) اسمه عبد الملك ، والغريضة لقبه ، كان يضرب بالعود ، وينقر بالدف أخذ الغناء عن ابن سريج ثم فاق عليه ، وتوفي في خلافة سليمان بن عبد الملك (٢) القنان : جبل لبني أسد .

وقد اجتمع جماعة من نساء أهل مكة في جمع تمرنا فيه ليلتنا ، والغريض يغنيننا
بشعر عمر بن أبي ربيعة :

أَمِنْ آلِ زَيْنَبَ جَدِّ الْبُسْكَورِ نَعَمْ فَلِأَيِّ هَوَاهَا تَصِيرُ
إِذْ سَمِعْنَا فِي بَعْضِ اللَّيْلِ عَزِيفًا عَجِيبًا وَأَصْوَاتًا مُخْتَلِفَةً ذَعَرَتْنَا وَأَفْرَعَتْنَا ، فَقَالَ لَنَا
الْغَرِيضُ : إِنْ فِي هَذِهِ الْأَصْوَاتِ صَوْتًا إِذَا نَمْتُ سَمِعْتُهُ ، وَأَصْبَحُ فَأُبْنِي عَلَيْهِ غِنَايَ ،
فَأَصْغَيْنَا إِلَيْهِ ، فَإِذَا نَعْمَتُهُ نَعْمَةُ الْغَرِيضِ بَعَيْنَهَا ، فَصَدَقْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ .

١٣٢ - شَيْطَانُ أَبِي نُوَّاسٍ*

قال رَزِينُ السَّكَّاتِبِ : اجتمعنا يوماً أنا وأبو نُوَّاسٍ ^(١) وعلى بن الخليل في سوق الكَرْنَجِ ^(٢) ، وكنا نجتمع وتتناشد الأشعار وتذاكر الأخبار ونتحدث بها ، فقال أبو نُوَّاسٍ : أَذْبَرَ مَنْ كَانَ فِي نَفْسِي ، وكان أَسْرَعَ الْخَلْقِ فِي طَاعَتِي ؛ فما أدرى ما أَحْتَالَ له ؟ فقال علي بن الخليل يمازحه : يا أبا علي ؛ سل شيخك وأستاذك يُعْطِّفُهُ عَلَيْكَ ؛ فقال له أبو نُوَّاسٍ : من تَعْنِي ؟ قال : من أنت في طاعته ليلك ونهارك - يعني إبليس - ، فإن لم يَقْضِ لَكَ هذه الحاجة ، فما ينبغي لك أن تسأله مسألة ، ولا أن تُقَرِّ عَيْنَهُ بِمَعْصِيَةٍ . فقال : هو أسدٌ رأياً من أن يُخِلَّ بِي أو يَحْذُلْنِي ، وانقضى مجلسنا ذلك .

فلما كان بعدَ أيام اجتمعنا في ذلك الموضع ، وأخذنا في أحاديثنا ، فضحك أبو نُوَّاسٍ ، فقلنا له : ما أضحكك ؟ فقال : ذكرت قول علي بن الخليل يومئذ : سَلْ شَيْخَكَ يُعْطِفُهُ عَلَيْكَ ، حينئذ قد سألتُه يا أبا الحسن ، فقضى الحاجة ، وما مضت والله ثلاثة حتى أتاني من غير أن أبعث إليه ومن غير أن أستزيره ، فعاتبني واسترَضَانِي ، وكان الغضب مني والتجنى ، وأحسب الشيخ - يعني إبليس -

... المأمون : ٣ - ٢٣٣

(١) وهو الحسن بن هاني ، رحل إلى بغداد ، واتصل فيها بالخلفاء من بني العباس ، وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية ، وأخرجه من اللهجة البدوية ، توفي سنة ١٩٢ هـ .
(٢) من أسواق بغداد .

كان يتسمع علينا في وقت كلامنا ، وقد قلت أبيتا في ذلك ؛ فقلنا : هاتها ،
فأنشد :

لما جفاني الحبيبُ وامتنعتُ	عني الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدَّ شوقي فكاد يقتلني	ذكرُ حبيبي والهمُّ والفكرُ
دعوتُ إبليسَ ثم قلت له	في خلوةٍ والدموعُ تنحدرُ :
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد	أفرح جفني البكاء والسهرُ
إن أنت لم تلق لي المودةَ في	صدر حبيبي وأنت مقتدرُ
لا قلتُ شعراً ولا سمعتُ غنا	ولا جرى في مفاصلي السكر ^(١)
فما مضتُ بعد ذاك ثالثة	حتى أتاني الحبيبُ يعتذرُ
فيالها مَنَّةٌ لقد عظمتُ	عندي لإبليس ما لها خطرُ

(١) السكر : السكر .

١٣٣ - إبليس في ضيافة إبراهيم الموصلي*

قال إبراهيم بن إسحاق الموصلي :

سألت الرشيد^(١) أن يهب لي يوماً في الجمعة لا يبعث فيه إلى بوجه ولا بسبب لأخلو فيه بجواري وإخواني ، فأذن لي في يوم السبت ، وقال لي : هو يوم أستثقله ، قاله فيه بما شئت ؛ فأقمت يوم السبت بمنزلي وتقدمت في إصلاح طعامي وشرابي بما احتجت إليه ، وأمرت بوابي فأغلق الأبواب ، وتقدمت^(٢) إليه ألا يأذن علي لأحد .

فبينما أنا في مجلسي والخدم قد حَفَّوْا بي وجَوَّارِي يتردَّدُن بين يدي ، إذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال ، عليه قميصان ناعمان وخُفَّان قصيران ، وعلى رأسه قلنسوة لاطئة^(٣) ، وبيده عسكازة مُمَقَّمة بِفِيضَةٍ ، وروائح المسك تفوح منه حتى ملأ البيت والدار ، فداخني بدخوله عليّ - مع ما تقدمت فيه - غيظاً ما تداخني قطُّ مثله وهمتُ بطرد بوابي ومن حجبني لأجله ، فسلم عليّ أحسن سلام ؛ فرددت عليه ، وأمرته بالجلوس فجلس ، ثم أخذ بي في أحاديث الناس وأيام العرب وأحاديثها وأشعارها حتى سلَّى ما بي من الغضب ، وظننت أن غلماي تَحَرَّوْا مسرَّتي بإدخالهم مثله عليّ لأدبه وظرفه .

(*) الأغاني : ٥ - ٢٣١ ، ذيل زهر الآداب : ٢٦٤

(١) أعظم خلفاء بني العباس ، وأكبرهم شأنًا ، كان محافظاً كثيراً للجهاد وافر العطاء . توفي سنة ١٩٣ . (٢) تقدمت إليه : أمرته . (٣) اللاطئة : قلنسوة صغيرة تُلزق بالرأس .

فقلتُ : هل لك في الطعام ، فقال : لا حاجة لي فيه ، فقلت : هل لك في
الشراب ، فقال : ذلك إليك ، فشربتُ رطلاً وسقيتهُ مثله ، فقال لي : يا أبا إسحاق ؛
هل لك أن تُغني لنا شيئاً من صَنَعَتِكَ وما قد نَفَقْتُ^(١) به عند الخاصِّ والعام ؟
ففاظنى قوله ، ثم سهلتُ على نفسي أمره ، فأخذتُ العود فجسَّتهُ ثم ضربتُ
فغَنَيْتُ ، فقال : أحسنت يا إبراهيم ! فازداد غيظي وقلت : مارضى بما فعله من
دخوله على بغير إذن واقتراحه أن أُغْنِيه حتى سَمَّاني ولم يُسَكِّنِي ولم يُجِمل مخاطبتي !
ثم قال : هل لك أن تزيدنا ؟ فتَدَمَّمتُ^(٢) فأخذتُ العود فغَنَيْتُ ، فقال : أَجَدْتُ
يا أبا إسحاق ! فَأَنِمَّ حتى نَكَافَيْتُكَ وَنَغْنَيْتُكَ ، فأخذتُ العود وتغَنَيْتُ وتحَفَّظْتُ
وقمتُ بما غَنَيْتُهُ إياه قياماً تاماً ما تحَفَّظْتُ مثله ، ولا قمتُ بغناء كما قمتُ به له بين يَدَيَّ
خليفة قط ولا غيره ، لقوله لي : أَكافَيْتُكَ ، فطرب وقال : أحسنت يا سيدي ،
ثم قال : أَتأذن لعبدك بالغناء ؟ فقلت : شأنك ، واستضعفتُ عقله في أن يغنيَني
بمحضرتي بعد ماسمعه مني ، فأخذ العود وجسَّه فوالله لَخِلَّتْهُ يَنطِقَ بلسان عربي لِحُسْنِ
ماسمعه من صوته ثم تَغَنَّى :

ولى كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ مَن يَبِيعُنِي بها كَبِدٌ لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوحِ
أَبَاهَا عَلَى النَّاسِ لَا يَشْتَرُونَهَا وَمَن يَشْتَرِي ذَا عِلَّةٍ بِصَحِيحٍ ؟
أَتُنُّ مِنَ الشَّوْقِ الَّذِي فِي جَوَانِبِي أَنِينَ غَصِيصٍ بِالشَّرَابِ جَرِيحِ

قال إبراهيم : فوالله لقد ظننتُ الحيطانَ والأبوابَ وكلَّ مافي البيتِ يحببه

(٢) تَذَمُّمُ الرَّجُلِ : اسْتَكْفٌ ، وَيُقَالُ ، لَوْ لَمْ أَتْرَكَ

(١) نَفَقْتُ : يَرِيدُ سَارَ ذِكْرِكَ بِهِ
الْكُذْبُ تَأْتِي لَمْ تَرَ كُنْتَ تَدْمِي .

وَيُغْنِيَّ مَعَهُ مِنْ حُسْنِ غَنَائِهِ ، حَتَّى خِلْتُ وَاللَّهِ أَنِّي أَسْمَعُ أَعْضَائِي وَثِيَابِي تُجَاوِبُهُ ؟
وَبَقِيْتُ مَبْهُوتًا لَا أَسْتَطِيعُ الْكَلَامَ وَلَا الْجَوَابَ وَلَا الْحَرَكَةَ لِمَا خَالَطَ قَلْبِي ،
ثُمَّ غَنَى :

أَلَا يَا حِمَامَاتِ اللَّوَى عُذْنٌ عَوْدَةٌ فَإِنِّي إِلَى أَصْوَاتِكُنَّ حَزِينٌ
فَعُذْنٌ فَلَمَّا عُذْنٌ كِذْنٌ يُمِيتُنِي وَكِدْتُ بِأَسْرَارِي لِمَنْ أُبِينُ
دَعْوَنَ بَرْدَادِ الْهَدِيرِ كَأَنَّهَا سَقِينٌ حُمِيًّا أَوْ بَهْنٌ جُنُونٌ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ حَامِئًا بَكِينٌ وَلَمْ تَدْمَعْ لِمَنْ عَمِيونُ

فَكَادَ ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ ، عَقْلِي أَنْ يَذْهَبَ طَرَبًا وَارْتِيَا حَا لَمَّا سَمِعْتُ ، ثُمَّ غَنَى :

أَلَا يَا صَبَا نَجْدٍ مَتَى هِجَّتِ مِنْ نَجْدٍ لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجْدًا عَلَى وَجْدٍ
أَنَّ هَنْتَ وَرَقًا فِي رَوْنَقِ الضُّحَا^(١) عَلَى قَنَنَ غَضَّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّندِ^(٢)
بَسَكَيْتَ كَمَا يَبْكِي الْحَزِينُ صَبَابَةً وَذُبَّتَ مِنَ الْحَزَنِ الْمَبْرِّحِ وَالْجَهْدِ
وَتَدَّ زَعَمُوا أَنَّ الْحُبَّ إِذَا دَنَا يُمَلِّ وَأَنَّ النَّأْيَ يَشْفِي مِنَ الْوَجْدِ
بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشْفَ مَا بَنَا عَلَى أَنَّ قَرَبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُيْدِ
عَلَى أَنَّ قَرَبَ الدَّارِ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا كَانَ مِنْ تَهْوَاهُ لَيْسَ بِذِي عَهْدِ

ثُمَّ قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ ؛ هَذَا الْغَنَاءُ فَخْذُهُ وَانْحَ نَحْوُهُ فِي غَنَائِكَ وَعِلْمُهُ جَوَارِيكَ ،
فَقُلْتُ : أَعِذْهُ عَلَيَّ ، فَقَالَ : لَسْتُ تَحْتَاجُ ، قَدْ أَخَذْتَهُ وَفَرِغْتَ مِنْهُ ، ثُمَّ غَابَ مِنْ
بَيْنِ يَدَيَّ ، فَارْتَعْتُ وَقَمْتُ إِلَى السَّيْفِ فَجَرَّدْتَهُ ، وَعَدْتُ نَحْوَ أَبْوَابِ الْحَرَمِ فَوَجَدْتُهَا
مُغْلَقَةً ، فَقُلْتُ لِلْجَوَارِي : أَيُّ شَيْءٍ سَمِعْتُنَّ عِنْدِي ؟ فَقُلْنَ : سَمِعْنَا أَحْسَنَ غَنَاءٍ

(١) رَوْنَقُ الضُّحَا : حُسْنُهُ وَإِشْرَاقُهُ (٢) الرَّندُ : شَجَرٌ طَيِّبُ الرَّائِحَةِ .

سَمِعَ قَطًّا ، فخرجتُ متحيراً إلى باب الدار ، فوجدته مُغلقاً ؛ فسألتُ البوابَ عن الشيخ . فقال لي : أى شيخ هو ؟ والله ما دخل إليك اليوم أحد ، فرجعتُ لِأَتأملُ أمرى ، فإذا هو قد هَتَفَ بى من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا إسحاق ، أنا إبليس وأنا كنتُ جليستُك ونديمتُك اليوم ، فلا تُرَعِ .

فركبتُ إلى الرشيد وقلت : لا أطرفه أبداً بطُرْفَةٍ مثل هذه ، فدخلتُ إليه فحدثته بالحديث ، فقال : وَيَمْحُك ! تأملْ هذه الأصوات ، هل أخذتها ؟ فأخذتُ العود أمتحنها ، فإذا هى راسخة فى صدرى كأنها لم تزل ، فطرب الرشيد وجلس يشرب ولم يكن عزم على الشراب ، وأمر لى بصليةٍ وخُملانٍ وقال : الشيخ كان أعلم بما قال لك من أنك أخذتها وفرغت منها ، فليته أمتعنا بنفسه يوماً واحداً كما أمتعك !

١٣٤ - دِعبِل بن عَلِيٍّ وَرَجُلٌ مِنَ الْجِنِّ*

قال دِعبِل ^(١) بن عليٍّ : لما هربتُ من الخليفة بت ليلةً بنيسابور وحدي ،
وعزمتُ علي أن أعملَ قصيدةً في عبد الله بن طاهر في تلك الليلة ؛ فإني لفي ذلك ؛
إذ سمعتُ - والباب مرودٌ عليّ - من يقول : السلام عليكم ورحمة الله ، انجُ
يرحمك الله ، فاقشعرَّ بدني من ذلك ، ونالني أمرٌ عظيم ، فقال لي : لا ترُع ، عافاك
الله ، فإني رجل من إخوانك من الجن من ساكني اليمن ، طرأ إلينا طاريٌ من
أهل العراق ، فأنشدنا قصيدتك :

مَدَارِسُ آيَاتٍ خَلَتْ مِنْ تِلَاوَةٍ وَمَنْزِلٌ وَحَى مُقْفِرِ الْعَرَصَاتِ
فَأُحِبِّتُ أَنْ أَسْمِعَهَا مِنْكَ ، قَالَ : فَأَنْشَدْتَهُ إِيَّاهَا ، فَبَكَى حَتَّى خَرَّ ، ثُمَّ قَالَ :
رَحِمَكَ اللَّهُ ، أَلَا أَحَدَّثُكَ حَدِيثًا يَزِيدُ فِي نَيْتِكَ ، وَيُعِينُكَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِمَذْهَبِكَ ؟
قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : مَكُنْتُ حِينَئِذٍ أَسْمَعُ بِذِكْرِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ ، فَصُرْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ
فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :
« عَلِيٌُّّ وَشِيعَتُهُ هُمُ الْفَائِزُونَ » ، ثُمَّ وَدَّعَنِي لِيَنْصَرِفَ ، فَقُلْتُ لَهُ : يَرْحُمُكَ اللَّهُ ، إِنْ
رَأَيْتَ أَنْ تَخْبِرَنِي بِاسْمِكَ فَافْعَلْ ، فَقَالَ : أَنَا ظَبْيَانُ بْنُ عَامِرٍ !

* الأغانى : ٧ - ٣٩

(١) شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان ، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزراءهم ولا أولادهم ولا
ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن ، توفى سنة ٢٤٦ هـ .

البَابُ السَّادِسُ

في القصص التي تسرُّد بارعَ الملح التي أثرت عن الحمقى
والمجانين، وتفصل روائع النواذر التي فاضت بها أفرايح
الطفيليين والمتنبئين، وما يشبه ذلك مما فيه راحة للنفوس،
ونشاط للخواطر.

١٣٥- أَنْفُكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَجْدَعُ*

دفع الربيع بن كعب المازني فرساً كان قد أبرَّ^(١) على التحليلِ كرمًا وجودة إلى أخيه كَيْش لِيَأْتِيَ به أهله ، وكان كَيْش مشهوراً بالحق ، وقد كان رجلٌ من بني مالك يقال له : قُرَاد بنُ جرم ، قدم على أصحاب الفرس ؛ ليصيب منهم غُرَّةً فيأخذها ، وكان داهية ؛ فشكث فيهم مقيماً ؛ لا يعرفون نسبه ، ولا يظهره هو . فلما نظر إلى كَيْش راكباً الفرس ركب ناقته ، ثم عَارَضَهُ^(٢) ، فقال : يا كَيْش ؛ هل لك في عَانَةٍ^(٣) لم أر مثلاً سِمْناً ولا عِظْماً ، وعَيْرٍ^(٤) فيها الذهب ؛ فأما الآن فتروح بها إلى أهلك ، فتملاً قدورهم وتفرح صدورهم ؛ وأما العيرُ فلا افتقار بعده !

قال له كَيْش : وكيف لنا به ؟ قال : أنا لك به ، وليس يُدْرِك إلا على فرسك هذا ، ولا يرى إلا بَلِيلٍ ، ولا يراه غيري !
قال كَيْش : فَنُدُونَكِهِ ! قال : نعم ، وأمسِك أنت راحلتى .
فركب قراد الفرس ، وقال : انتظرنى فى هذا المكان إلى هذه الساعة من غد .
قال : نعم !

ومضى قراد ؛ فلما توارى أنشأ يقول :

ضَيَّعْتَ فِي الْعَيْرِ ضَلَالًا مُهْرًا لَتَطْعَمَ الْحَى جَمِيعًا عَيْرًا كَا

* مجمع الأمثال : ٢ - ٢٢٦

(١) أبر على أصحابه : علام (٢) عارضه : سَارَّ خِيَالَهُ (٣) العانة : القطيع من حمر الوحش

(٤) العير : القافلة تحمل الميرة .

فسوف تأتي بالمهوان أهلَسكا وقبل هذا ما خدعتُ الأنوكا^(١)
 فلم يزل كيش ينتظر حتى أنسى من غَدِهِ وجاع . فلما لم يرَ له أثراً انصرف
 إلى أهله ، وقال في نفسه : إن سألتني أخى عن الفرس ، قلت : تحوّل ناقةً !
 فلما رآه الربيعُ عرف أنه خُدع عن الفرس ؛ فقال له : أين الفرس ؟ قال : تحوّل
 ناقةً ! قال : فما فعل السرج ؟ قال : لم أذْكر السرج فأطلب له عِلَّةً !
 فصصره الربيع ليقْتله ؛ فقال له قنفذ بن جَمَوْنَة : ألهُ عما فانتك ، فإن أنفَكَ
 منك وإن كان أجْدَع^(٢) !

وقدم قراد بن جرم على أهله بالفرس ، وقال في ذلك :

يؤمِّلُ غيراً من نضارٍ وعَسَجَدٍ	فهل كان لى فى غير ذلك مطم
وقلتُ له : أُمْسِكْ قُلُوصى ^(٣) ولا تَرِمِمْ ^(٤)	خِدَاعاً له إذ ذوالمساكيد يَخْدَعُ
فأصبح يَرْمى الخافقين بطَرْفه	وأصبح تَحْتِي ذوأفانين ^(٥) جُرْشَع ^(٦)

(١) أنوك : أحق (٢) صارت مثلاً : يضرب لمن يلزمك خيره وشره ، وإن كان ليس بمستنعم
 انقرب . (٣) القلوص من الإبل : الشابة (٤) لا ترم : لا تبرج (٥) الأفانين : أجم أفنان ،
 وأفنان جمع فَنَن ، وهو الحصلة من الشعر ، يقول : إنه ذو خصل من الشعر فى ناصيته وذنبه
 (٦) الجرشم . العظيم من الحيل .

١٣٦- أَبُورَافِعَ لَا يَكْذِبُ فِي نَوْمٍ وَلَا يَقْظَةٍ*

حكى أن امرأة أبي رافع^(١) رأتَه في نومها بعد موته ، فقال لها : أتعرفين فلانًا الصَّيرفي^(٢) ؟ قالت له : نعم ، قال : فإن لي عليه مائتي دينار .

فلما انذهبت غدت إلى الصَّيرفي فأخبرته ، وسألته عن المائتي الدينار ! فقال : رحم الله أبارافع ، والله ما جرت بيني وبينه معاملة قط !

فأقبلت إلى مسجد المدينة فوجدت مشايخ من آل أبي رافع ، كلهم مقبول القول ، جأز الشهادة ، فقضت عليهم الرؤيا ، وأخبرتهم خبرها مع الصَّيرفي ، وإنكاره لما ادَّعاه أبو رافع .

قالوا : ما كان أبو رافع ليكذب في نوم ولا يقظة ! قرَّبي صاحبك إلى السلطان ، ونحن نشهدُ لك عليه .

فلما علم الصيرفي عزمَ القوم على الشهادة لها ! وعلم أنهم إن شهدوا عليه لم يبرح حتى يؤديها ، قال لهم : إن رأيتم أن تصلحوا بيني وبين هذه المرأة على ما ترونه فافعلوا ، قالوا : نعم ، والصلحُ خيرٌ ، ونعمَ الصلحُ الشَّطْرُ ، فأدَّ إليها مائة دينار من المائتين ، فقال لهم : أفعَل ، ولكن اكتبوا بيني وبينها كتابًا يكون وثيقةً لي ،

* العقد الفريد : ٤ - ٢٠٤

(١) أبو رافع : مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وآل أبي رافع من فضلاء أهل المدينة وخيارهم ، مع بله فيهم وعى شديد (٢) الصيرفي : صراف الدراهم .

قالوا : وكيف تكون هذه الوثيقة ؟ قال : تكتبون لى عليها أنها قبضت منى مائة دينار صلحا عن مائتى الدينار التى ادعاها أبو رافع فى نومها ، وأنها قد أبرأتنى منها ، وشرطت على نفسها ألا ترى أبأ رافع فى نومها مرة أخرى ، فیدعى على بغير هذه المائتى الدينار ؛ فتجىء بفلان وفلان يشهدان علىّ لها . فلما سمعوا الوثيقة انتدبه القوم لأنفسهم ، وقالوا : قبّحك الله ، وقبح ما جئت به !

١٣٧- أَهْلِكَ أَعْلَمُ بِكَ*

كان لأبي الأسود^(١) الدؤلي دُكان^(٢) إلى صدر الجبل يجلس فيه وحده ،
ويضع بين يديه مائدة ، ويدعو إليها كل من يمر به ، وليس لأحد أن يجلس ،
فينصرفون عنه .

فمرّ به صبيٌّ من الأنصار ، فقال له أبو الأسود : هلمَّ إلى الغداء يا فتى ! فأتى
إليه ، فلم يَرِ موضعاً يجلس فيه ، فتناول المائدة فوضعها في الأرض ؛ ثم قال :
يا أبا الأسود ، إن كان لك في الغداء حاجة فانزل ، وأقبل الفتى يأكل ، حتى أتى
على جميع ما في المائدة ، وسقطت آخر الطعام من يده لقمةً على الأرض فأخذها ،
وقال : لا أدعُها للشياطين ! فقال أبو الأسود : والله ماتدعُها للملائكة المقربين ،
فكيف تدعُها للشياطين ؟ ثم قال له : ما سُمِّك ؟ قال : نُقمان . فقال أبو الأسود :
أهلك كانوا أعلم زمانهم إذ سَمَّوكَ بهذا الاسم ؛ ولم يَعدْ إلى ما كان يصنع !

* ذيل زهر الآداب : ١٦٧

(١) هو : ظالم بن عمرو ، وأبو الأسود كنيته ، وكان قد أدرك حياة النى ، وسافر إلى البصرة على
عهد عمر ، واستعمله على بن أبي طالب على البصرة وكان شيعياً ، وهو أول من وضع المربية ،
توفي سنة ٦٩ هـ . (٢) الدكان : الدكة المبنية للجلوس عليها .

١٣٨ - المقادير تصير العبي خطيباً *

وُصف عند الحجاج ^(١) رجلاً بالجهل ؛ وكانت له إليه حاجة ، فقال في نفسه :
لَا خُتَيْرَته ! ثم قال له حين دخل عليه : أعصامي أنت أم عظامي ^(٢) ؟ فقال الرجل :
أنا عظامي وعظامي ، فقال الحجاج : هذا أفضلُ الناس ، وقضى حاجته وزاده ،
ومكث عنده مُدَّة .

ثم باحثه فوجده أجهلَ الناس ، فقال له : تصدقني وإلا قتلْتُكَ ، قال له :
قُلْ ما بَدَأَ لك وأصدقك ! قال : كيف أجبتني بما أجبت لَمَّا سألتك عما سألت ؟
قال له : والله لم أعلم : أعصامي خير أم عظامي ! فخشيتُ أن أقول أحدهما فأخطيء
فقلتُ : أقول كليهما ، فإن ضررتني أحدهما نفعتني الآخر ؛ فقال له الحجاج عند ذلك :
المقاديرُ تصيرُ العبيّ خطيباً !

* بحج الأمثال : ٢ - ٢٦٠

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي : قائد خطيب ، ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام ،
وهو مشهور بشدته ، تولى سنة ٩٥ هـ (٢) يريد : أشرفت بنفسك أم تفتخر بأبائك الذين
صاروا عظاماً .

١٣٩- لَنْ شَكَرْتُمْ لَا زِيدَنْكُمْ*

أخذ الحجاج إصاً أعرابياً ؛ فضربه سبعة سوط ، فكلما قرعه بسوط قال :
اللهم شكراً ! فأتاه ابنُ عم له فقال : والله مادعا الحجاج إلى التمادى في ضَرْبِكَ
إلا كثرةُ شُكْرِكَ ، لأن الله تعالى يقول : « لَنْ شَكَرْتُمْ لَا زِيدَنْكُمْ » ؛ فقال :
أهذا هو في كتاب الله ؟ فقال : اللهم نعم ، فأنشأ الأعرابي يقول :
يارب لا شُكْرَ فلا تَزِدْنِي أسرفتُ في شُكْرِكَ فاعفُ عني
باعدْ ثواب الشاكرين مني
فبلغ قوله الحجاج ، فخلّى سبيله .

١٤. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَسَخَكَ كَلْبًا *

كان لأبي حَيَّةَ النَّمَيْرِيَّ ^(١) سيفٌ ليس بينه وبين الخشب فَرْقٌ ، كان يسميه « لُعَابَ الْمَنِيَّةِ » فحكى عنه بعض جيرانه أنه قال : أشرفتُ عليه ليلة وقد انتَضَاهُ ؛ وهو واقفٌ بباب بيتٍ في داره ، وقد سمع فيه حِسًّا ، وهو يقول : أيها المَفْتَرُّ بِنَا ، المجترى علينا ، بئس والله ما اخترتَ لنفسك ! خيرٌ قليل ، وسيفٌ صَاقِلٌ « لُعَابُ الْمَنِيَّةِ » الذي سمعتَ به مشهورة صَوَاتِهِ ، لا تُخَافُ نَبُوْتَهُ ، اخرج بالعفو عنك ، لا أدخِلُ العقوبة عليك ! إني والله إن أدعُ قَيْدًا تَمَلَأُ القِضَاءُ عليك خَيْلًا وَرَجُلًا ^(٢) ، سبحان الله ! ما أكثرها وأطيبها ! والله ما أنتَ ببعيدٍ من تابعتها ، والرسوبِ في تَيَّارِ لَجَّتِهَا .

وهبَّتْ ريحٌ ففتحت الباب ، فخرج كلبٌ ، فارتدَّ وجهه ، وشغَر ^(٣) برجليه ، وتبادرتُ إليه نساء الحى فقلن : بأبا حَيَّةَ ، لِيُفْرِخَ رَوْعُكَ ^(٤) ! إنما هو كلبٌ ، فجلس وهو يقول : الحمد لله الذي مَسَخَكَ كَلْبًا ، وكفاني حربًا .

* الأغاني : ١٥ - ٦١ ، ابن أبي الحديد : ٢ - ٤١ .

(١) هو الهيثم بن الربيع ، شاعر مجيد من مخضري الدولتين الأموية والعباسية ، مدح خلفاء عصره .
 خيما ، وكان فصيحاً راجزاً ، له أخبار وكانت به لوثة ، وكان من أجبن الخلق توفي نحو سنة ١٦٠ هـ .
 (٢) الرجل : جمع راجل . وهو ضد الفارس (٣) شغَر : رفع إحدى رجليه (٤) لينكشف عنك فزعك .

١٤١- يَوْمُ الْحِسَابِ*

قال أحد الرواة :

كان في زمن المهدي^(١) رجل صوفي ؛ يركب قَصْبَةً في كل جمعة يومين :
الاثنين والخميس ، فإذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حُكْم ولا
طاعة ، فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان .

شاهدته يوماً وقد صعد تلاً ؛ فنادى بأعلى صوته : ما فعل النبيون والمرسلون ؟
اليسوا في أعلى عليين ؟ فقالوا : بلى ! قال : هاتوا أبا بكر الصديق ؛ فأخذ غلام
فأجلس بين يديه ، فقال : جزاك الله خيراً أبا بكرٍ عن الرعية ، فقد عدلت وقمت
بالقسط ، وخلفت محمداً - عليه السلام - في حُسن الخلافة ، ووصلت حبيل الدين
بعد حلٍ وتنازعٍ ، وفرغت منه إلى أوثق عروة وأحسن ثقة ، اذهبوا به إلى أعلى
عليين !

ثم نادى : هاتوا عمر ، فأجلس بين يديه غلام ، فقال : جزاك الله خيراً
يا أبا حفص عن الإسلام ، قد فتحت الفتوح ، ووسعت النىء ، وسلكت سبيل
الصالحين ، وعدلت في الرعية ، اذهبوا به إلى أعلى عليين بحذاء أبي بكر .

* العقد الفريد : ٤ - ١٩٨

(١) محمد بن عبد الله من خلفاء الدولة العباسية في العراق ، ولى بعد وفاة أبيه وقام في الخلافة

عشر سنين ومات سنة ١٦٩ هـ .

ثم قال : هاتوا عثمان ؛ فَأَتَى بِغلام فأجلس بين يديه ، فقال له : خَلَطْتَ في تلك السنين ، ولكن الله تعالى يقول : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » . ثم قال : اذهبوا به إلى صاحبيه في أعلى عليين .

ثم نادى : هاتوا علي بن أبي طالب ، فأجلس بين يديه غلام ؛ فقال له : جزاك الله عن الأمة خيراً أبا الحسن فأنت الوصي ، وولي النبي ، بَسَطْتَ العدل ، وزهدت في الدنيا ، واعتزات النِّيء ، فلم تَخْمِشْ فيه بناب ولا ظفر ، وأنت أَبُو الذُّرِّيَّةِ المباركة ، وزوج الزكية الطاهرة ، اذهبوا به إلى أعلى عليين .

ثم قال : هاتوا معاوية ، فأجلس بين يديه غلام ؛ فقال له : أنت القاتل عمار ابن ياسر وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، وأنت الذي جعل الخلافة مُلْكًا ، واستأثَرَ بالنِّيء ، وحكم بالهَوَى ، وبَطَرَ بالنعمة ، وأنت أولُ مَنْ غَيَّرَ سُنَّةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونَقَضَ أحكامه ، وقام بالبغي ؛ اذهبوا به فَأَوْقِفُوهُ مع الظَّالِمَةِ .

ثم قال : هاتوا يزيد ؛ فأجلس بين يديه غلام ؛ فقال له : أنت الذي قتلت أهلَ الحَرَمِ^(١) ، وأُبْحَتَ المدينة ثلاثة أيام ، واتهكتَ حُرَمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآويت المُنَجِّدين ، وبُوءْتَ باللعة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمثلتَ بشعرِ الجاهلية :

لَيْتَ أَشْيَاخِي بِبَسْدِرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ^(٢) مِنْ وَقَعِ الْأَسَلِ^(٣)

(١) موضع بظاهر المدينة بها كانت وقعة الحرة أيام يزيد . (٢) الخزرج : إحدى قبيلتي الأنصار

(٣) الأسل : الرماح

وَقَتَلْتَ حُسَيْنًا ، وَحَمَلْتَ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَايَا عَلَى حَقَائِبِ^(١) الْإِبِلِ ، أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ !
وَلَمْ يَزَلْ يَذْكُرُ وَالِيًا بَعْدَ وَالٍ حَتَّى بَلَغَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَقَالَ : هَاتُوا عُمَرَ ، فَأَتَى بَغْلَامٌ ، فَأَجْلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا عَنِ الْإِسْلَامِ ؛ فَقَدْ أَحْيَيْتَ الْمَذْلُومَ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَأَلَنْتَ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ؛ وَقَامَ بِكَ عَمُودُ الدِّينِ عَلَى سَاقٍ بَعْدَ شِقَاقٍ وَنِفَاقٍ ، أَذْهَبُوا بِهِ فَأَلْحِقُوهُ بِالصَّدِيقِينَ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ كَانَ بَعْدَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ إِلَى أَنْ بَلَغَ دَوْلَةَ بَنِي الْعَبَّاسِ ، فَسَكَتَ ، فَقِيلَ لَهُ : هَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : فَبَلَغَ أَمْرُنَا إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ ! ارْفَعُوا حِسَابَ هَؤُلَاءِ جَمْلَةً ، وَاقْذِفُوا بِهِمْ فِي النَّارِ جَمِيعًا !

(١) الحقيبة : الرفادة في مؤخر الثوب ، وكل ما شد في مؤخر رجل أو ثوب فقد احتجب .

١٤٢ - إِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا*

ركب محمد بن سليمان^(١) يوماً بالبصرة وسوار القاضي يسايره في جنازة ابن عم له ، فاعترضه مجنون يعرف برأس النعجة ، فقال له : يا محمد ؛ أَمِنْ الْعَدْلِ أَنْ تَكُونَ نَحْلُتُكَ^(٢) فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ أَلْفِ دَرَاهِمٍ ، وَأَنَا أَطْلُبُ بَصْفَ دَرَاهِمٍ فَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ ؟

ثم التفت إلى سوار فقال : إِنْ كَانَ هَذَا عَدْلًا فَأَنَا أَكْفُرُ بِهِ ؟ فَأَسْرِعْ إِلَيْهِ غُلَامَانُ مُحَمَّدٌ ؛ فَكَفَّهِمْ عَنْهُ ، وَأَمْرٌ لَهُ بِمِائَةِ دَرَاهِمٍ !

فلما انصرف محمد وسوار معه اعترضه رأس النعجة فقال : لَقَدْ كَرَّمَ اللَّهُ مَنَصِبَكَ^(٣) ، وَشَرَّفَ أُبُوتَكَ ، وَحَسَّنَ وَجْهَكَ ، وَعَظَّمَ قَدْرَكَ ، وَأَرْجَوَانِ يَكُونُ ذَلِكَ خَيْرَ يَرِيدِهِ اللَّهُ بِكَ !

فدنا منه سوار فقال : يَا خَبِيثَ ؛ مَا كَانَ هَذَا قَوْلًاكَ فِي الْبُدَاءَةِ ! فَقَالَ لَهُ : سَأَلْتُكَ بِحَقِّ اللَّهِ وَبِحَقِّ الْأَمِيرِ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي فِي أَى سُورَةٍ هَذِهِ الْآيَةُ : « فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ » ؟ قَالَ : فِي « بَرَاءَةِ » قَالَ : صَدَقْتَ ؛ فَسَبَّيْهِ اللَّهُ وَرَسُولَهُ مِنْكَ ! فَضَحِكَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ حَتَّى كَادَ يَسْقُطُ عَنْ دَابَّتِهِ !

* السعدي : ٢ - ٢٦٣

(١) محمد بن سليمان بن علي العباسي : أمير البصرة ولها في أيام المهدي ، واستمر إلى أن توفى فيها ، وكان غنياً نبيلاً سميت نفسه إلى الخلافة ؛ وصده عن الجهر بطليها ما كانت عليه من القوة أيام المهدي والرشيدي ، توفى سنة ١٧٣ هـ (٢) الحلة : العظيمة (٣) المنصب : الأصل .

١٤٣ - مَا اخْتَارَ غَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ*

شكا اليزيدي ^(١) إلى المأمون خَلَّةً ^(٢) أصابته وَدِينًا لِحَقِّهِ ، فقال : ما عندنا في هذه الأيام ما إِنْ أعطيناكَه بلغتَ به ما تُريدُ ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الأمر قد ضاقتْ عليّ ، وإن غُرَمائي قد أزهقوني ، قال : فرمُ لنفسك أمراً تنلُ به نفعاً .

فقال : لك منادمون ، فيهم ما إن حرَّ كُتُّه نِلْتُ منه ما أُحِبُّ ، فأطلق لي الحيلةَ فيهم ، قال : قل ما بدّا لك ؛ قال . فإذا حضروا وحضرت فمرُّ فلاناً الخادم أن يوصل إليك رُقعتي ، فإذا قرأتها فأرسل إليّ : دخولك في هذا الوقت متعذر ؛ ولكن اختر لنفسك من أحببت .

فلما علم اليزيدي بمجلوس المأمون ، واجتماع ندمائه إليه ، وتيقن أنهم في سرورهم أتى الباب فدفع إلى ذلك الخادم رقعةً قد كتبها ، فأوصلها إلى المأمون فقرأها ، فإذا فيها :

يا خيرَ إخواني وأصحابي	هذا الطَّغْيَلُ لدى البابِ
خُبِّرَ أن القومَ في لذَّةٍ	يصبُّو إليها كلُّ أوابِ
فصيّروني واحداً منكم	أو أخرجوا لي بعضَ أثرابي

* عصر المأمون : ١ - ٣٣٣

(١) اليزيدي : يحيى بن المبارك بن المغيرة من علماء العربية والأدب ، اتصل بالرشيد فعهد إليه في تأديب المأمون فمات إلى أيام خلافته ، توفي سنة ٢٠٢ هـ (٢) الخلة : الحاجة والفقر .

فقرأها المأمون على مَنْ حَضَرَهُ ؛ فقالوا : ما ينبغي أن يدخل هذا الطفيلي على مثل هذه الحالة ؛ فأرسل إليه المأمونُ : دخولك في هذا الوقت متعذر ، فاختر لنفسك من أحببت تناديه .

فقال : ما أرى اختياراً غير عبد الله بن طاهر ، فقال له المأمون : قد وقع اختياره عليك ؛ فسير إليه . قال : يا أمير المؤمنين ؛ فما أكون شريك الطفيلي ! قال : ما يمكن ردّ أبي محمد عن أمرين ، فإن أحببت أن تخرج وإلا فافتد نفسك !

فقال : يا أمير المؤمنين ؛ له على عشرة آلاف درهم ا قال : لا أحسب ذلك يُقْنِعُهُ منك ومن مُجَالستك ؛ قال : فلم يزل يزيد عشرة عشرة ، والمأمونُ يقول له : لا أرضى له بذلك ، حتى بلغ مائة ألف ، فقال له المأمون : فمَجِّلْهَا له ؛ فكتب له بها إلى وكيله ، ووجه معه رسولاً ، فأرسل إليه المأمون : قبض هذه في مثل هذه الحال أصلح لك من منادمته على مثل حاله ، وأنفع عاقبة .

١٤٤- أَرَى اللَّهَ يُعْطِيكَ وَيَنْسَانِي*

خرج الرشيد إلى الحج فلما كان بظاهر الكوفة إذ أبصر بهلولاً^(١) المجنون على قصبَةٍ ، وخلفه الصبيان وهو ينادي ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقيل له : بهلول المجنون ، فقال : كنت أشتري أن أراه ، فادعوه مِن غير تزويج فذهبوا إليه وقالوا : أجب أمير المؤمنين ؛ فلم يجب ، فذهب إليه الرشيد ، وقال : السلام عليك يا بهلول ، فقال : عليك السلام يا أمير المؤمنين ، فقال : دعوتك لاشتياقي إليك ، فقال بهلول : لكنت لم أشتق إليك ! فقال الرشيد : عطني يا بهلول ، فقال : وجم أعظك ؟ هذي قصورهم وهذي قبورهم ! فقال الرشيد : زدني فقد أحسنت ! فقال يا أمير المؤمنين : مَنْ رزقه الله مالاً وجمالاً ، فمفّ في جماله ، وواسى في ماله كُتب في ديوان الأبرار ، فظن الرشيد أنه يريد شيئاً ؛ فقال : قد أمرنا لك أن تقضى دينك ، فقال : لا ، يا أمير المؤمنين ، لا يقضى الدين بدين ، أرزِدِ الحق على أهله ، واقض دين نفسك من نفسك ، قال : فإننا قد أمرنا أن يُجرى عليك . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أَرَى اللَّهَ يُعْطِيكَ وَيَنْسَانِي ! ثم وتى هارباً .

* عقلاء المجانين : ٦٩

(١) هو بهلول بن عمرو ، كان من عقلاء المجانين ، ولد ونشأ بالكوفة واستقدمه الرشيد وغيره من الخلفاء لسماع كلامه ، وله كلام مليح ، ونوادر وأشعار ، توفي سنة ١٩٠ .

١٤٥ - طِفِيلِي فِي حَضْرَةِ الْمَأْمُونِ*

أمر المأمون أن يُحمل إليه عشرة من الزنادقة سُمُّوا له من أهل البصرة، فجمعوا فأبصرهم طِفِيلِي، فقال: ما اجتمعوا إلا لِصَنِيعٍ، فدخل في وسطهم، ومضى بهم الموكلون، حتى انتهوا إلى زورقٍ قد أُعِدَّ لهم، قال الطِفِيلِي: هي نزهةٌ، فدخل معهم الزورق، فلم يكن بأسرع من أن يقيدوا، وقيد معهم الطِفِيلِي.

ثم سیرَ بهم إلى بغداد، فأدخلوا على المأمون، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجلاً رجلاً؛ ويأمر بضرب أعناقهم، حتى وصل إلى الطِفِيلِي، وقد استوفى المدة، فقال للموكلين: ما هذا؟ قالوا: والله ماتدرى، غير أننا وجدناه مع القوم، فحُتْنَا به فقال له المأمون: ما قِصَّتُكَ ويليكَ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا أعرفُ من أقاويلهم شيئاً، وإنما أنا رجلٌ طِفِيلِي، رأيتهُم مجتمعين، فظننتُ صَنِيعاً يُدْعَوْنَ إليه. فضحك المأمون، وقال: يؤدَّب!

وكان إبراهيم بن المهدي قائماً على رأس المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي أدبته، وأحدثك بحديثٍ عجيب عن نفسي، قال: قل يا إبراهيم.

قال: يا أمير المؤمنين، خرجتُ من عندك يوماً؛ فطُفْتُ في سِكَكِ بغداد متطرفاً، حتى انتهيت إلى موضع كذا، فشمت من قُتَارِ^(١) أبازير قُدُورٍ

* العقد الفريد: ٤ - ٢٣٧، نهاية الأرب: ٣ - ٢٣٢

(١) القُتَار: ريح القدر والشواء، والأبازير: التوابل.

قد فاح ؛ فتأقت نفسي إليها ، وإلى طيب ريحها ، فوقفتُ إلى خياط ، فقلت له :
 لمن هذه الدار ؟ فقال : لرجل من التجار . قلت : ما اسمه ؟ قال : فلان ابن فلان ،
 فرميتُ بطرفي إلى الدار ؛ فإذا شباك به جارية ذات منظر حسن ، فبهت ساعةً
 ثم أدركني ذهني ، فقلت للخياط : أهو ممن يشرب النبيذ ؟ قال : نعم ، وأحسب
 أن عنده اليوم دعوة ، وهو لا يُنادم إلا تجاراً مثله مستورين .

فإني لكذلك ، إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب ، فقال لي
 الخياط : هؤلاء مُنادماه ، فقلت : ما اسمهما وما كُناها ؟ فقال : فلان وفلان ،
 فخرٌ كنتُ دأبتي وداختهما ، وقلت : جُعِلتُ فداكما ، قد استبسطا كما أبو فلان ،
 وسائرتهما حتى بلغنا الباب ، فأجلاني وقد ماني ؛ فدخلتُ ودخلا .

فلما رأني صاحب المنزل معهما لم يشك أني منهما ؛ فرحّب بي وأجلسني في
 أفضل المواضع ، فجيء يا أمير المؤمنين بمائدةٍ عليها خبزٌ نظيف ، وأتينا بتلك
 الألوان ، فكان طعامها أطيبَ من ريحها ، ثم رُفع الطعام ، وجيء بالوضوء ، ثم
 صرنا إلى مجلس النادرة ، وجعل صاحب المنزل يلطفُ بي ؛ ويميلُ على الحديث ؛
 حتى إذا شربنا أفداحاً خرجت علينا جاريةٌ ، كأنها بدّر فأقبلت ؛ وسلمتُ
 غير خجلَةٍ ، وثنيت لها وسادةً ، فجلستُ عليها ؛ وأتى بالعودِ فوضِعَ في حجرها ؛
 فجسّته فاستقبّلتُ حذقها في جمّتها ، ثم اندفعت تُغنّي :

توهّمها طرفي فأصبح خدّها وفيه مكان الوهم من نظري أثرُ
 نصافحها كفي فتبوّأ كنفها فمن مسّ كفي في أناملها عقرُ^(١)

(١) العقر : الجرح .

فهيبت يا أمير المؤمنين بلأبلى ، وطربت لحسن شعرها ، ثم اندفعت
نفسى :

أشرت إليها هل عرفت مودتى ؟ فردت بطرف العين : إني على العهد
فحدثت عن الإظهار عمداً لئلا يسرها وحادثت عن الإظهار أيضاً على عمد

فصحت يا أمير المؤمنين ، وجاءنى من الطرب ما لم أملك نفسى معه ، ثم
اندفعت فغنت الصوت الثالث :

أليس عجيباً أن بيتاً يضمى وإياك لا نخلو ولا تكلم !
سوى أغين تشكو الهوى بحفونها وتقطع أكباد على النار تضرم
إشارة أفواه وغمز حواجب وتكسر أجفان وكف نسلم

فحدثها والله يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء ، وإصابتها لمعنى
الشعر ، فقلت : بقى عليك يا جارية ، فضربت بالعود على الأرض ، وقالت : متى
كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء ؟ فندمت على ما كان منى ، ورأيت القوم قد
تغيروا لى ، فقلت : أما عندكم عود غير هذا ؟ قالوا : بلى ، فأتيت بعود فأصلحت
من شأنه ثم غنيت :

ما للمنازل لا يجبن حزينا أصممن أم قدم البلى قبلينا ؟
راحوا العشية روحة منكورة إن متن متنا أو حين حينا

فما استنمته يا أمير المؤمنين حتى قامت الجارية ، فأكبت على رجلي تقبأهما ،
وقالت : معذرة يا سيدى ، فوالله ما سمعت أحداً يغنى هذا الصوت غناءك ، وفعل

مولاهما وأهل المجلس كفعلها ، وطرب القوم واستحثوا الشرب فشربوا ، ثم اندفعت أغنى :

أفي الحق أن تمشي ولا تذكريني وقد هممت عيناى من ذكرها الدما
إلى الله أشكو بخلها وسماحي لها عسل منى وتبذل علقما
فردي مصاب القلب أنت قتلتيه ولا تتركيه ذاهل العقل مغرما

فطرب القوم حتى خرّجوا من عقولهم ، فأمسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا ، ثم غنيت الثالث :

هذا يحبك مطايا على كمدية عبرى مدامعه تجرى على جسده
له يد تسأل الرحمن راحته مما به ويد أخرى على كبده

فجعلت الجارية تصيح : هذا الفناء والله يا سيدى ، لا ما كنا فيه منذ اليوم . وقال صاحب المنزل : يا سيدى ؛ ذهب ماضى من أيام ضياعا ، إذ كنت لا أعرفك ، فمن أنت ؟ ولم يزل يبلح على حتى أخبرته الخبر ، فقام وقبل رأسى ، وقال : وأنا أعجب أن يكون هذا الأدب إلا لملك ! وإني جالس مع الخليفة ولا أشعر ، ثم سألنى عن قصتى ، فأخبرته حتى بلغت إلى تلك الجارية التى رأيتها ، فقال للجارية : قولى لفلانة : تنزل ، فلم تنزل تنزل جواريه واحدة واحدة ، فأنظر إلى كفها ومعصمها ، وأقول : ليست هذه ! حتى قال : والله ما بقى غير أختى وأمى ، والله لأزانهما ؛ فمجمبت من سعة صدره ، فقلت : جعلت فداك ! ابداً بالأخت قبل الأم ، فعسى أن تكون هى .

فبرزت ، فلما رأيت كَفَّها وَمَعَصَمَها ، قلت : هذه هي ! فأمر غلمانَه ، فساروا إلى عشرة مشايخ من جَلَّةِ جيرانه ؛ فأقبل بهم ، وأمر ببذرتين فيهما عشرون ألف درهم ؛ ثم قال للمشايخ : هذه أُختي فلانة ، أشهدكم أني قد زوجتُها من سيدي إبراهيم ابن المهدي ؛ وأمهرتُها عنه عشرين ألف درهم ، فرضيت وقبلت الزواج ، فدفع إليها بذرة ، وفرَّق الأخرى على المشايخ وصرفهم ، ثم قال : يا سيدي ، أمهد بعض البيوت ! فأخشمني ما رأيت من كرمه ، فقلت : أخضرُ عمارية^(١) وأحملها إلى منزلي . فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتبعها من الجهاز ما ضاقت عنه بيوتنا ، فأولدتها هذا القائم على رأس أمير المؤمنين - يشير إلى ولده .

فعجب المأمون من كرم الرجل ، وألحقه في خاصة أهله ، وأطلق الطفيلي ، وأجازَه .

(١) العمارية : هودج يجلس فيه .

١٤٦- أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ*

تنبأ رجل حتى أيام المأمون ، وادّعى أنه إبراهيم الخليل ، فقال له المأمون :
إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين . قال : وما براهينه ؟ قال : أضربت
أه ناري ، وألقي فيها ؛ فصارت عليه برداً وسلاماً ، ونحن نوقد لك ناراً ، ونطرحك
فيها ، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمناً بك . قال : أريد واحدة أخف من
هذه ! قال : فبراهين موسى ! قال : وما براهينه ؟ قال : ألقى عصاه فإذا هي حية
تسمى ! وضرب البحر بها فانقلب ! وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء ، قال :
وهذه علي أصعب من الأولى ! قال : فبراهين عيسى ، قال : وما هي ؟ قال :
إحياء الموتى ؟ قال : مكانك قد وصلت ! أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكثم ،
وأحييه لكم الساعة !

فقال يحيى : أنا أول من آمن بك وصدق !

١٤٧- أبودلف وجعيفران الموسوي*

قال علي بن يوسف : كنتُ عند أبي دلف^(١) القاسم بن عيسى العجلي ،
فاستأذنَ عليه حاجبُه لجعيفران^(٢) الموسوس ، فقال له : أى شيء أصنع بموسوس ؟
قد قضينا حقوقَ العقلاء ، وبقي علينا حقوقُ المجانين ! فقلتُ له : جُمِلتُ فداء
الأمير ، موسوس أفضلُ من كثيرٍ من العقلاء ، وإن له لساناً يُتَقى ، وقولاً ماثوراً
يَبْقَى . فالله الله أن تَحْجُبَهُ ! فليس عليك منه أذى ولا ثقل ؟ فأذنَ له . فلما
مَثَلَ بين يديه قال :

يا أَكْرَمَ الْعَالَمِ مَوْجُوداً ويا أَعَزَّ النَّاسِ مَفْقُوداً
لما سَأَلْتُ النَّاسَ عَنْ وَاحِدٍ أَصْبَحَ فِي الْأُمَّةِ مَحْمُوداً
قالوا جميعاً : إنه قَاسِمٌ أَشْبَهَ آبَاءَ لَهُ صِيْدَا^(٣)
لو عَبَدُوا شَيْئاً سِوَى رَبِّهِمْ أَصْبَحَتْ فِي الْأُمَّةِ مَعْبُودَا
لَا زِلْتَ فِي نَعْمَى وَفِي غِبْطَةٍ مُكْرَمَاً فِي النَّاسِ مَعْدُودَا

فأمر له بِكُسْوَةٍ وبألف درهم فلما جِيءَ بالدراهم أخذ منها عشرة وقال : تأمر
القَهْرْمَانَ^(٤) أَنْ يُعْطِيَنِ الْبَاقِيَ مُفَرَّقَاً كُلَّمَا جِثْتُ ؛ لثَلَا تَضِيعَ مِنِّي ، فقال للقهرمان :

* الأغانى : ٨ - ٦٤

(١) أبو دلف : هو أحد قواد الأمن ثم المعتصم من بعده ، كان كريماً مرياً جواداً ممدحاً
شجاعاً . مقدماً ذا وقائع مشهورة ، وصنائع ماثورة ، وله مشاركة في الفناء ، توفي سنة ٢٢٦ هـ .
(٢) ولد جعيفران ببغداد ونشأ بها ، ثم سكن سر من رأى ، وكان أديباً شاعراً مطبوعاً ، وغلبت
عليه المرة السوداء فاختلط في أوقاته ، ثم كان إذا أفاق تاب إليه عقله وطبعه فقال الشعر الجيد .
(٣) الأصيد : الملك ، وزافع رأسه كبيراً (٤) القهرمان : هو المسيطر الحفيظ على ما تحت
يده ، وهو من أمناء الملك وخاصته .

أعطيه المال ، وكلما جاءك فأعطيه ما شاء حتى يفرّق الموت بيننا ، فبكي عند ذلك
جُميفران وتنفس الصُّعداء وقال :

يَمُوتُ هَذَا الَّذِي أَرَاهُ وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ نَفْسَادُ
لَوْ غَيْرُ ذِي الْعَرْشِ دَامَ شَيْءٌ لِدَامِ ذَا الْمُنْضِلِ الْجَوَادُ

ثم خرج . فقال أبو دُلف : أنت كنت أعلم به مني .

قال : وَغَيْرَ^(١) عَنِّي مَدَّةٌ ثُمَّ لَقِيتَنِي ، وقال : يَا أَبَا الْحَسَنِ ؛ مَا فَعَلَ أَمِيرُنَا
وَسَيِّدُنَا ؟ وَكَيْفَ حَالُهُ ؟ فَقُلْتُ : بِخَيْرٍ وَعَلَى غَايَةِ الشُّوقِ إِلَيْكَ . فَقَالَ : أَنَا وَاللَّهِ
يَا أَخِي أَشَوْقٌ . وَلَكِنِّي أَعْرِفُ أَهْلَ الْعُسْكَرِ وَشَرَّهُمْ وَالْحَاحِمْ ؛ وَاللَّهِ مَا أَرَاهُمْ
يَتْرَكُونَهُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ وَلَا يَتْرَكُهُ كَرَمُهُ أَنْ يَخْلِبَهُمْ مِنَ الْعَطِيَّةِ حَتَّى يَخْرُجَ قَاسِمًا .
فَقُلْتُ : دَعِ هَذَا عَنْكَ وَزُرْهُ ؛ فَإِنْ كَثُرَ السُّؤَالُ لَا تَضُرُّ بِمَالِهِ . فَقَالَ : وَكَيْفَ ؟ أَهْوَى
أَيْسَرُ مِنَ الْخَلِيفَةِ ؟ قُلْتُ : لَا . قَالَ : وَاللَّهِ لَوْ تَبَدَّلَ^(٢) لَمْ الْخَلِيفَةُ كَمَا يَتَبَدَّلُ أَبُو دُلْفٍ
وَأُطْعِمَهُمْ فِي مَا كَمَا يُطْعِمُهُمْ لِأَفْقَرِهِمْ فِي يَوْمَيْنِ ، وَلَكِنْ أَسْمَعُ مَا قُلْتَهُ فِي وَقْتِي هَذَا .
فَقُلْتُ : هَاتِهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ ! فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَبَا حَسَنِ بَلَنْتَنُ قَاسِمًا بَأْنِي لَمْ أَجْفُهُ عَنْ قِلَآ^(٣)
وَلَا عَنْ مَلَالٍ لِإِثْيَانِهِ وَلَا عَنْ صُدُودٍ وَلَا عَنْآ
وَلَكِنْ نَعَفْتُ عَنْ مَالِهِ وَأَصْفَيْتُهُ^(٤) مِدْحَتِي وَالشَّنَا
أَبُو دُلْفٍ سَيِّدٌ مَاجِدٌ سَنِيُّ الْعَطِيَّةِ رَحْبُ الْفِنَا

(١) غبر : مكث وذهب ضد (٢) الابتذال : ضد العناية (٣) القلا : البنس .
(٤) أصفيتها مدحتي : أخلصتماله .

كريم إذا أُنْتَابَهُ الْمُعْتَقُونَ ن عَمَّهُمْ بِجَزِيلِ الْجَبَا^(١)

قال : فأبلغتها أبا دلف ، وحدثته بالحديث الذي جرى . فقال لي : قد لقيته منذ أيام ، فلما رأيته وقفت له وسلمت عليه وتحفّيت^(٢) به ؛ فقال لي : سِرْ أيتها الأمير على بركة الله ، ثم قال لي :

يا معدي الجود على الأموال ويا كريم النفس في الفعال

قد صُنِّتَنِي عَنْ ذِلَّةِ السُّؤَالِ بِجُودِكَ الْمُؤْنِي عَلَى الْأَمَالِ

صانك ذو العزة والجلالِ مِنْ غَيْرِ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي

قال : ولم يزل يختلفُ إلى أبي دلف ويَبْرَهُ حتى افترقا .

(١) الجباء : السطاء (٢) تحنن به : بالغ في إكرامه .

١٢٨ - رَمَيْتُ بِهِ فِي بَطْنِكَ*

قال دِغْبِيلُ^(١) : أَقْنَا يَوْمًا عِنْدَ سَهْلِ بْنِ هَارُونَ ، فَأَطْلَنَّا الْحَدِيثَ حَتَّى اضْطَرَّ .
الْجُوعُ إِلَى أَنْ دَعَا بَعْدَانَهُ ، فَأَتَيْتِ بِصَفْحَةٍ عِذِّ مُلَيَّةٍ^(٢) ، فِيهَا مَرَّتِي لَحْمَ دِيكَ عَاسٍ^(٣)
هَرِمٍ ، لَيْسَ قَبْلُهَا وَلَا بَعْدَهَا غَيْرُهَا ، لَا تَحْزُرُ^(٤) فِيهِ السَّكِينُ ، وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِ الْأَضْرَاسُ .
فَأَطْلَعَ فِي الْقَصْعَةِ ، وَقَلَبَ بَصَرَهُ فِيهَا ؛ فَأَخَذَ قِطْعَةً خُبْزٍ يَابِسٍ ؛ فَقَلَّبَ بِهَا
جَمِيعَ مَا فِي الصَّفْحَةِ فَفَقَدَ الرَّأْسَ ؛ فَبَقِيَ مُطَرِّقًا سَاعَةً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى الْغُلَامِ ،
وَقَالَ : أَيْنَ الرَّأْسُ ؟ قَالَ : رَمَيْتُ بِهِ ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : مَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تَأْكُلُهُ ،
وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ ! قَالَ : وَلَئِي شَيْءٌ ظَنَنْتَ ذَلِكَ ؟ فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَمَقْتُ مِنْ يَرْمِي بِرَجُلِهِ ؛
فَكَيْفَ مِنْ يَرْمِي بِرَأْسِهِ !

وَالرَّأْسُ رَيْسٌ ، وَفِيهِ الْحَوَاسُ الْخَمْسُ ، وَمِنْهُ يُصْبِحُ الدِّيكُ ، وَلَوْلَا صَوْتُهُ
مَا أُرِيدَ ، وَفِيهِ عُرْفُهُ الَّذِي يُتَبَرَّكُ بِهِ ، وَفِيهِ عَيْنُهُ الَّتِي يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ ؛ فَيُقَالُ :
« شَرَابٌ كَعَيْنِ الدِّيكِ » ، وَدِمَاغُهُ عَجَبٌ لَوْجَمِ الْكُلْيَةِ ، وَلَنْ تَرَى عَظْمًا قَطْ
أَهْشَ مِنْ عَظْمِ رَأْسِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ مِنْ مُبِيلٍ أَنَّكَ لَا تَأْكُلُهُ فَإِنْ عِنْدَنَا مِنْ يَأْكُلُهُ
أَوْ مَا عَمِلَتْ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ طَرَفِ الْجَنَاحِ وَمِنْ السَّاقِ وَالْعُنُقِ !

انْظُرْ أَيْنَ هُوَ ! قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَيْنَ هُوَ ، رَمَيْتُ بِهِ ؛ قَالَ : لَكِنِّي أَدْرِي
أَنَّكَ رَمَيْتَ بِهِ فِي بَطْنِكَ ، وَاللَّهِ حَسْبُكَ !

* عيون الأخبار: ٣ - ٢٥٩

(١) كَانَ شَاعِرًا مَجِيدًا ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ بَذِيءَ اللِّسَانِ أَوَّلَ بِالْهَجْوِ وَالْحَطِّ مِنْ أَقْدَارِ النَّاسِ ، كَانَ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّكِينِ بْنِ زَيْدٍ وَأَبِي سَعْدِ الْخَزَوِيِّ مَنَاقِضَاتٌ ، وَمَاتَ سَنَةَ ٢٤٦ هـ (٢) عَدَمِيَّةٌ :
قَدِيمَةٌ (٣) الْعَاسِي : الَّذِي أَسْنَى حَتَّى جَفَّ وَصَلَبَ (٤) لَا تَحْزُرُ : لَا تَقْطَعُ .

١٤٩ - لَوْ عَلِمْتُ بِحَالِهِ لَوَلَجْتُ عَلَيْهِ!*

قال بشر بن سعيد : كان بالبصرة شيخٌ من بني نهشل نزل بيني أخت له في سَكَّةَ بنى مازن ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك في شهر رمضان ، وبقيت النساء يصلين في المسجد ، فلم يبقَ في الدار إلا كلب يعس^(١) ، فرأى بيتاً فدخل وانصق^(٢) الباب ، فسمع الحركة بعرض الإمام ، فظنوا أن لصاً دخل الدار .

فذهبت إحداهن إلى الشيخ ، وليس في الحى رجلٌ غيره ، فأخبرته فقال : ما يتنقى اللصُّ منّا ؟ ثم أخذ عصاه وجاء حتى وقف على باب البيت فقال : إيه ياملاًمان^(٣) ! أما والله إنك بي لعارف ، وإني بك أيضاً لعارف ، فهل أنت إلا من لصوص بنى مازن ، شربت حامضاً خبيثاً ، حتى إذا دارت الأقداحُ في رأسك مننتك نفسك الأمانى ، وقلت : أطرقُ بنى عمرو ، والرجالُ خلوف ، والنساء يصلين في مسجدهن ، فأسرقهن ، سوءة لك ! والله ما يفعل هذا الأحرار ! ليس والله ما مننتك نفسك ، فاخرج وإلا دخلتُ عليك فصدمتك منى العقوبة ، وإيمُ الله لتخرجنَّ أو لأهتفنَّ هتفةً مشنومة يلتقى فيها الحيان : عمرو وحنظلة ، ويحى سعدٌ بمدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من هاهنا ومن هاهنا ، ولئن فعلتُ لتكوننَّ أشأمَ مولود .

* عيون الأخبار : ١ - ١٦٧ ، الحيوات : ٢ - ٨٤

(١) كلب عسوس : طلوب - أياكل (٢) انصق : أغلق (٣) الملامان اللثيم .

فلما رأى أنه لا يجيبه أخذته باللين ، وقال : اخرج بأبي وأمي ! إني والله ما أراك تعرفني ، ولو عرفتني لقنعت بقولي واطمأننت إلى ! أنا عروة بن مرثد ؛ أبو الأعز ، وأنا خال القوم ، وجِلْدَةُ ما بين أعينهم ، لا يعصونني في أمر ، وأنا لك بالذمة ^(١) كفيلٌ خفير ، أصيِّرُك بين شَحْمَةِ أذني وعَاتِقِي ، لا تُضَارَ ؛ فاخرج فأت في ذمتي ، وإلا فإن عندى قَوْصَرَيْنِ أهداهما إلى ابن أختي البارِّ الوصول ، فخذ إحداهما فانتبذها حلالاً من الله تعالى ورسوله !

وكان الكلبُ إذا سمعَ الكلامَ أطْرَقَ ، وإذا سكّت وثب يريد المخرج ؛ فتضاحك أبو الأعز ، ثم قال : يا أَلَامَ الناس وأَوْضَمهم ؛ لا أَرَى إلّا أني الليلة في وادٍ وأنت في آخر ، إذا قلت لك : السوداء والبيضاء تَسْكُت وتَطْرُق ، فإذا سكّت عنك تريدُ المَخْرَجَ ، والله لتخرجنَّ بالمفْوَعِ عَنْكَ ، أو لِأَلِجَنَّ ^(٢) عليك البيت بالعقوبة ؛ فلما طال وقوفه جاءت جاريةٌ من إماء الحى ، فقالت : أغرابي مجنون والله ! ما أرى في البيت شيئاً ، ودفعت فخرج السكاب شداً ، وحادَ عنه أبو الأعز ، ساقطاً على قفاه ! ثم قال : أما و

محاله لَوَلَجْتُ عليه !

(٢) ولم " : دخل .

(١) الذمة : العهد والأمان .

١٥٠- وَعَلَىٰ أَيْضًا*

قال أبو الحسن : كان عندنا بالمدينة رجلٌ قد كثر عليه الدين حتى تَوَارَى من غُرْمَائِهِ ، وَلَزِمَ مَنْزِلَهُ ، فَأَتَاهُ غَرِيمٌ لَهُ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَسِيرٌ فَتَلَطَّفَ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا تَجْعَلُ لِي إِنْ أَنَا دَلَلْتُكَ عَلَى حِيلَةٍ تَصِيرُ بِهَا إِلَى الظُّهُورِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ غُرْمَائِكَ ؟ قَالَ : أَقْضِيكَ حَقَّكَ وَأَزِيدُكَ مِمَّا عِنْدِي مِمَّا تَقَرَّبَ بِهِ عَيْنُكَ . فَتَوَثَّقَ مِنْهُ بِالْإِيمَانِ ، فَقَالَ لَهُ : غَدًا قَبْلَ الصَّلَاةِ مُرْ خَادِمَكَ يَكْنُسُ بِأَبْكَ وَفَنَاءَكَ ، وَيُرْشُ وَيَبْسِطُ عَلَى دَكَانِكَ حُصْرًا ، وَيَضَعُ لَكَ مُتَسَكًّا ، ثُمَّ اجْلِسْ وَكُلْ مِنْ يَمْرِؤِكَ عَلَيْكَ وَيَسْلَمْ تَنْبَحُ لَهُ فِي وَجْهِهِ ، وَلَا تَزِيدَنَّ عَلَى الثُّبَاحِ أَحَدًا كَاثِمًا مِنْكَ ، وَلَوْ كَلِمَةً أَحَدٍ مِنْ أَهْلِكَ أَوْ خَدَمِكَ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ غَرِيمٍ أَوْ غَيْرِهِ ، حَتَّى تَصِيرَ إِلَى الْوَالِي ، فَإِذَا كَلِمَتُكَ فَانْبَحْ لَهُ ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تَزِيدَهُ أَوْ غَيْرَهُ عَلَى الثُّبَاحِ ، فَإِنَّ الْوَالِي إِذَا أُيْقِنَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْكَ جَدًّا لَمْ يَشْكُ أَنَّهُ قَدْ عَرَضَ لَكَ عَارِضٌ مِنْ مَسَرٍّ فَيُخْلِي عَنْكَ .

فَفَعَلَ ، فَمَرَّ بِهِ بَعْضُ جِيرَانِهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ؛ فَانْبَحَ فِي وَجْهِهِ ؛ ثُمَّ مَرَّ آخَرُ فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى تَسَامَعَ غُرْمَاؤُهُ ؛ فَأَتَاهُ بَعْضُهُمْ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى الثُّبَاحِ ، ثُمَّ آخَرُ وَآخَرُ ؛ فَتَعَلَّقُوا بِهِ فَرَفَعُوهُ إِلَى الْوَالِي : فَسَأَلَهُ الْوَالِي فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى الثُّبَاحِ ، فَرَفَعَهُ مَعَهُمْ إِلَى الْقَاضِي فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ أَيَّامًا ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ الْعِيُونَ . فَلَمَّا نَفَسَهُ ، وَجَعَلَ لَا يَنْطِقُ بِحَرْفٍ سِوَى الثُّبَاحِ .

فلما رأى القاضى ذلك أمر بإخراجه ، ووضع عليه العيونَ فى منزله ، وجعل لا ينطقُ بحرفٍ إلا النباح ، فلما تقرر ذلك عند القاضى أمر غرماءه بالكف عنه ، وقال : هذا رجل به لَم ؛ فكث ما شاء الله تعالى .

ثم إن غريمه الذى كان علمه الحيلة أتاه متقاضياً لعدته ، فلما كلمه جعل لا يزيدُه على النباح ! فقال له : ويلك يا فلان ! وعلى أيضاً . وأنا علمتك هذه الحيلة ، فجعل لا يزيدُه على النباح ؛ فلما يئس منه انصرف غير آمل فيما يطالبه به .

١٥١- كَذِبٌ يَكْذِبُ !*

قال الجاحظ^(١) : حدثني محمد بن يسير^(٢) عن والي كان بفارس قال : بينما هو يوماً في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب جهده^(٣) ، إذ نجم^(٤) شاعر من بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرظه^(٥) ومجده . فلما فرغ قال : قد أحسنت ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ؛ ففرح الشاعر فرحاً قد يستطار^(٦) له .

فلما رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع . اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده ! فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ! أعطه يا فلان أربعين ألفاً . فكاد الفرح يقتله . فلما رجعت إليه نفسه قال له : أنت - جعلت فداك - رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحاً زدتنني في الجائزة . وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر له ! ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً ، تأمر له بأربعين ألف درهم ! قال : ويلك ! وتريد أن تعطيه شيئاً ؟ قال :

* البخلاء : ١ - ٥٩ (طبعة دار الكتب

(١) عمرو بن بحر ، ولد بالبصرة ، كتب شهر من أن تحصى ، توفي سنة ٢٥٥ هـ (٢) شاعر بصرى (٣) أي احتجب عن الناس ما أمكنه الاحتجاب (٤) نجم : ظهر (٥) قرظه : مدحه (٦) يستطار له : يذهر منه .

وَمِنْ إِنْفَازِ أَمْرِكَ بَدَ ؟ قَالَ : يَا أَحَقُّ ؛ إِنَّمَا هَذَا رَجُلٌ مَرَّرَنَا بِكَلَامٍ وَسَرَرْنَا
بِكَلَامٍ ؛ هُوَ حِينَ زَعَمَ أَنِّي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ ، وَأَشَدُّ مِنَ الْأَسَدِ ، وَأَن لِّسَانِي أَقْطَعُ
مِنَ السِّيفِ ، وَأَنَّ أَمْرِي أَنْفَذُ مِنَ السَّيِّئَانِ ، جَمَلَ فِي يَدِي مِنْ هَذَا شَيْئًا أَرْجِعُ بِهِ
إِلَى شَيْءٍ ؟ أَلَسْنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ كَذَبَ ؟ وَلَكِنَّهُ قَدْ مَرَّرَنَا حِينَ كَذَبَ لَنَا . فَتَحْنُ
أَيْضًا نَسْرَهُ بِالْقَوْلِ ، وَنَأْمُرُ لَهُ بِالْجَوَائِزِ ، وَإِنْ كَانَ كَذِبًا ؛ فَيَكُونُ كَذِبٌ بِكَذِبِ ،
وَقَوْلٌ بِقَوْلٍ . فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ كَذِبٌ بِصَدَقٍ ، وَقَوْلٌ بِفَعْلٍ ، فَهَذَا هُوَ
الْخَسْرَانُ الَّذِي مَا سَمِعْتَ بِهِ !

١٥٢- ذَهَبَ الْحِمَارُ بِأُمِّ عَمْرٍو*

قال الجاحظ : دخلت يوماً مدينةً ، فوجدت فيها مملأً في هيئة حسنة ، فسلمتُ عليه ، فردّ عليّ أحسنَ رد ، ورحب بي ؛ فجلست عنده ، وباحثته في القرآن ؛ فإذا هو ماهرٌ فيه ، ثم تفأخّنا الفقه والنحو وأشعار العرب ؛ فإذا هو كامل الآداب ؛ فقلت : سأختلفُ إليه وأزوره .

وجئت يوماً لزيارته ، فإذا بالكتاب ^(١) مُغلّق ، ولم أجده ؛ فسألتُ عنه ، فقيل : مات له ميتٌ ؛ فخرن عليه ، وجلس في بيته للعزاء .

فذهبتُ إلى بيته ، وطرقتُ الباب ، فخرجتُ إلى جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيّدك . فدخلتُ وخرجتُ ، وقالت : باسم الله ؛ فدخلتُ إليه ، وإذا به جالس . فقلت : عظم الله أجرك ؛ لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة . كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ؛ فعليك بالصبر .

ثم قلتُ له : هذا الذي توفى ولدك ؟ قال : لا . قلت : فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : فمن هو ؟ قال : حبيبتي . فقلت في نفسي : هذه أولى العجائب . فقلت : سبحان الله ! النساء كثير ، ومستجد غيرها . فقال : أنظن أني رأيتها ؟ قلت : وهذه الثانية .

* المستطرف : ١ - ٢٤٢ .

(١) الكتب والكتاب : موضع التعليم .

ثم قلت : وكيف عشقتَ من لم تر؟ فقال : اعلم أنى كنت جالساً في هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق^(١) ، إذ رأيت رجلاً عليه بُرْد ، وهو يقول :
يا أمَّ عمرو جزاكِ الله مكرمةً رُدِّي عَلَى فَوَادِي أَيْنَا كَانَا
فقلت في نفسي : لولا أن أمَّ عمرو هذه ما في الدنيا أحسنُ منها ما قيل فيها هذا الشعر ؛ فعشَّتها .

فلما كان منذ يومين مرَّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول :
لقد ذهب الحمارُ بأمَّ عمرو فلا رجعتُ ولا رَجَعَ الحمارُ
فعلتُ أنها ماتت ، فحزنتُ عليها ، وأغلقتُ المكتب ، وجلستُ في الدار !
فقلت : يا هذا ؛ إني كنت قد ألَّفتُ كتاباً في نوادركم معشر العلماء ،
وكنت حين مصاحبتك عزمْتُ على تقطيعه ، والآن قد قوَّيتَ عزمي على إبقائه ،
وأول ما أبدأ بك إن شاء الله .

(١) الطاق : ما عقد من الأبنية .

١٥٣- أَعْجَبَ مَا رَأَيْتَ مِنَ الْمَجَانِينِ*

حدث المبرد^(١) قال : قال لى المازنى : بلغنى أنك تنصرف من مجلسنا إلى مواضع المجانين والمعالجين^(٢) فما معنى ذلك ؟ فقلت : أعزك الله تعالى ؛ إن لهم طرائف من الكلام ! قال : فأخبرنى بأعجب ما رأيت من المجانين ! فقلت : صرت يوماً إليهم فمررت على شيخٍ منهم ، وهو جالسٌ على حصيرٍ قصبٍ ، فجاوزته إلى غيره ، فقال : سبحان الله ! أين السلام ؟ من المجنون ؟ أنا أم أنت ؟ فاستحييتُ منه ، وقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقال : لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حُسنَ الردِّ ، على أنا نصرفُ سوءَ أدبك إلى أحسنِ جهاته من العذر ، لأنه كان يقال : إن للداخل على القوم دهشةً ، اجلس - أعزك الله - عندنا ، وأوماً إلى موضعٍ من الحصير ، فجلستُ إلى ناحية منه ، فقال لى - وقد رأى معى مخبرتى : أرى معك آلة رجلين أرجو ألا تكون أحدهما : أصحاب الحديث الأغثاء ، أو الأدباء أصحاب النحو والشعر ؟ قلت : الأدباء ! قال : أتعرفُ أبا عثمان المازنى ؟ قلت : نعم ! قال : أتعرف الذى يقول فيه القائل :

وفتى من مازن أستاذ أهل البصرة
أمه معرفة وأبوه نكرة

* مهجم الأدباء : ١٩ - ١١٦

(١) هو محمد بن يزيد ، المعروف بالمبرد إمام العربية فى زمنه ببغداد وأحد أئمة الأدب والأخبار .
مولده ببغداد وتوفى بها سنة ٢٨٦ هـ (٢) المدخولون فى عقولهم ، والتعاطين للعلاج .

فقلت : لا أعرفه ، فقال : أنعرفُ غلاماً له قد نبغَ في هذا العصر ، له ذهنٌ وحفظٌ وقد برزَ في النحو ، يعرفُ بالمُبرِّد ؟ فقلت : أنا والله الخبير به ! قال : فهل أنشدك شيئاً من شعره ؟ قلت : لا أحسبُه يُحسِنُ قول الشعر ! فقال : ياسبحان الله ! أليس هو القائل :

حَبْدًا ماء العناقيدِ بريقِ الغانِيَاتِ
بِهَا يَنْبِتُ لَحْمِي وَدَمِي أَيْ نَبَاتِ

قلت : قد سمعته ينشد هذا في مجلس أنس ؛ فقال : ياسبحان الله ! ألا يستحي أن ينشد مثل هذا الشعر حول الكعبة ؟ ثم قال : ألم تسمع ما يقولون في نسبِه ؟ قلت : يقولون : إنه من الأزْد أزد شنوءة ، ثم من ثُمالة ! قال : أنعرفُ القائل في ذلك :

سَأَلْنَا عَنْ ثُمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ فَقَالَ الْقَائِلُونَ : وَمَا ثُمَالَةُ ؟
فَقُلْتُ : مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدٍ مَسْهُمٍ فَقَالُوا : زِدْنَا بِهِمْ جَهَالَةَ !
فَقَالَ لِي الْمُبَرِّدُ : خَلَّ قَوْمِي فَقَوْمِي مَعْشَرٌ فِيهِمْ نَذَالَةُ !

فقلت : أعرفه ! هذا عبدُ الصمدِ بن المزدَلِ يقولها فيه ! فقال : كذب فيما ادَّعاه ! هذا كلامُ رجلٍ لا نسبَ له ، يريد أن يُثبتَ له بهذا الشعر نسباً ، فقلت له : أنت أعلم ! فقال : يا هذا ، قد غابت خفَّةُ روحك على قلبي ، وقد أخَّرتُ ما كان يجب تقديمه ، ما الكنية ؟ أصلحك الله ! فقلت : أبو العباس ، قال : فما الاسم ؟ قلت : محمد ، قال : فالأب ؟ قلت يزيد . قال : قبَّجَكَ الله ! أحوجتني إلى الاعتذار بما قدمتُ ذكره ، ثم وثب وبسط يده فصاحني ؛ فرأيتُ القيدَ في

رجله ، فأمنتُ غائلته ، فقال : يا أبا العباس ، صُنْ نفسك من الدخول في هذه
المواضع ؛ فليس يتهياً في كل وقتٍ أن تصادفِ مثلي على مثلِ حالي ، ثم قال :
أنت المبرّد ! أنت المبرّد ! وجعل يصفقُ ، وانقلبت عيناها ، واحمرت وتغيّرت
حالته ، فبادرت مسرعاً خوفَ أن تبدرَ إلى منه بادرة ؛ وقبلتُ منه والله نُصحه ،
ولم أعاودُ بعدها إلى تلك المواضع أبداً !

١٥٤- مَجْنُونٌ أَدِيبٌ*

قال أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بشَعَلَب^(١) : كان ببغداد فتى يُجَنِّ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، فاستقبلني يوماً ببعض السكك فقال : ثعلب ا قلت : نعم ، قال : فأنشدني ، فأنشدته :

وإذا سررتَ بقبره فاعقِر به كُومَ^(٢) المِيجان وكلَّ طِرْفِ^(٣) سابعٍ
وانضَحْ جوانبَ قبره بدمائِها فكذا يكونُ أخادِمٌ وذبابُحِ
فضحك ثم سكت ساعة ؛ وقال : ألا قال :

أذهباً بي إن لم يكن لي كما عقرتُ على ترُبِ قبره فاعقِراني
وانضَحْ من دمي عليه فقد كا نَ دَمِي من نَدَاهِ لو تعلمانِ
ثم رآني يوماً بعد ذلك فتألمني ، وقال : ثعلب ا قلت : نعم ؛ قال : أنشدني ، فأنشدته :

أَعَارَ الْجَوْدَ^(٤) نَائِلُهُ إِذَا مَا مَالُهُ نَقَدَا
وإنْ أَسَدٌ شَكَا جُبْنًا أَعَارَ فَوَادَهُ الْأَسَدَا

فضحك وقال : ألا قال :

عَلَّمَ الْجَوْدَ النَّدَى حَتَّى إِذَا مَا حَكَاهُ عِلْمُ الْبَاسِ الْأَسَدُ
فَلَهُ الْجَوْدُ مُقَرَّرٌ بِالنَّدَى وَلَهُ اللَّيْثُ مُقَسَّرٌ بِالْجَلَدِ

* عقلاء المجانين : ١٣٥ ، نهاية الأرب : ٣ - ٢١٣

(١) أحمد بن يحيى إمام الكوفيين في النحو واللغة كاذباً رواية للشعر مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة ، ثقة حجة ، توفي سنة ٢٩١ هـ (٢) الكوم : القطعة من الإبل (٣) الطرف : الكريم من الجبل (٤) الجود : المطر الغزير .

١٥٥ كَدَّرَ اللَّهُ مَنْ كَدَّرَ الْعَيْشَ *

قال الحمدوني : بعث إلى أحمد بن حرب المهدي في غداة ، السماء فيها مغيمة ،
فأتيتُه ، والمائدة موضوعة مُغَطَّاةً ، وقد وافت « عجاب » المغنيّة ؛ فأكلنا جميعاً ،
وجلسنا على شرابنا ؛ فما راعنا إلا داقٌ يدقُّ الباب فأتاه الغلام ؛ فقال : بالباب
فلان ! فقال لي : هوفتي من آل المهلب ، ظريف نظيف ! فقلت : ما نريد غيرَ
ما نحن فيه !

فأذن له ؛ فجاء يتبختر ، وقد أوى قدحُ شراب فكسره ، فإذا رجل آدم^(١)
ضخم ! وتكلم ؛ فإذا هو أغيا الناس .

فجلس بيني وبين « عجاب » ؛ فدعوت بدواة ، وكتبت إلى أحمد
ابن حرب :

كَدَّرَ اللهُ عَيْشَ مَنْ كَدَّرَ الْعَيْدَ شَ ؛ فقد كان صافياً مُسْتَطَاباً
جاءنا والسماء تهطل بالغيثِ شِ وقد طابق السماعُ الشرابا
كسر الكأس وهي كالكوكب اللؤلؤ^(٢) رِي ضُمَّتْ مِنَ الْمَدَامِ^(٣) رُضَاباً^(٤)
قلت لَمَّا رُمِيتُ مِنْهُ بِمَا أَكْرَمَهُ ، والدهرُ ما أفاد أصاباً !

* زهر الآداب : ٤ - ١٧٧

(١) آدم : الأسمر (٢) الكواكب الدرر : الثاقب المضيء ، نسب إلى الدر لبياضه

(٣) المدام : الخمر (٤) الرضاب : العسل ، أو رغوبه .

عَجَّلَ اللهُ نِقْمَةً لَابْنِ حَرْبٍ تَدْعُ الدَّارَ بَعْدَ شَهْرِ خَرَابًا !
وَدَفَعْتُ الرِّقْعَةَ لَهُ ؛ فَقَالَ : أَلَا نَفَّسْتُ^(١) ؛ قُلْتَ : بَعْدَ حَوْلٍ^(٢) ؟ فَقُلْتُ :
أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ بَعْدَ يَوْمٍ ؛ فَخِفْتُ أَنْ يَصِيبَنِي مَضْرَةٌ ذَلِكَ !
وَفِطْنِ الثَّقِيلِ ؛ فَهَض ، فَقَالَ : آذَيْتَهُ ؛ قُلْتَ : هُوَ آذَانِي !

(١) هَس تَنْفِيسًا : فَرَجٌ ، يُرِيدُ أَلَا فَرَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ وَصَبَرْتَ (٢) يُرِيدُ : بَدَلَ شَهْرٍ إِلَى
وَرَدَتْ فِي الْبَيْتِ .

١٥٦ - يضيف أهل الصفة ثم يضربهم*

كان زيادُ بنُ عبد الله الحارثي والياً على المدينة ، وكان فيه بُخلٌ وجفاء ؛ فأهدى إليه كاتبٌ سِلَالاً فيها أطعمة ، وقد تنوّق^(١) فيها ، فوافقته وقد تَفَدَّى ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : غداء بعثه فلان الكاتب ! فغضب ، وقال : يبعثُ أحدهم الشيء في غير وقته ! ياخيّم بن مالك - يريد صاحبَ شرطته : ادعُ لى أهلَ الصُّفّة^(٢) يا كلون هذا !

فبعث خيّم الحرسَ يدعونهم ، فقال الرسول الذي جاء بالسلال : أصّح الله الأمير ! لو أمرت بهذه السلال تفتّح وينظر ما فيها ! قال : اكشِفُوها ، فإذا طعام حسن من دجاج وجِداء^(٣) وسمك وأخبَصَة^(٤) وحلواء ! فقال : ارفعُوا هذه السلال .

وجاء أهل الصُّفّة ؛ فأخبر بهم ، فأمر بإخضارهم ، وقال : ياخيّم ، اضربهم عشرة أسواط ، فإنه بلغني أنهم يحدثون في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم !

* نهاية الأرب : ٣ - ٣٠٥ .

(١) تنوّق في الأمر : تأنق فيه . (٢) أهل الصفة : كانوا أضياف الإسلام ، وكانوا يبيتون في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . (٣) الجداء : جمع الجدي ، وهو ولد المزم (٤) الخبّص : طعام من التمر والسمن .

١٥٧ - ابن المدبر وطفيلى *

كان ابن المدبر قليل الجلوس للمُنادمة ، وكان له سبعة ندماء لا يأنسُ بغيرهم ولا ينبسط إلى سوام ، قد اضطقام لعِشرته ، واختارهم لمُنادمته ، كل رجل منهم قد انفرد بنوع من العلم لا يساويه فيه غيره .

وكان طفيلى يُعرف بابن دُراج من أكمل الناس أدباً ، وأخفهم رُوحاً ، وأشدّهم في كل مليحة افتناناً ؛ فلم يزل يَحْتالُ إلى أن عرّف وقت جلوس ابن المدبر للندماء ، فتزيّاً في زى ندمائه ، ودخل في جملتهم ، وظنّ حاجبه أن ذلك يعلم من صاحبه ومعرفة من أولئك الندماء ، ولم ينكر شيئاً من حاله .

وخرج ابن المدبر ، فنظر إليه بين القوم ، فقال لحاجبه : اذهب إلى ذلك الرجل ، فقل له : ألك حاجة ؟ فسقط في يد الحاجب ، وعلم أن الحيلة قد تمت عليه ، وأن ابن المدبر لا يرضى في عقوبته إلا بقتله ، فذهب إليه ، فقال له : الأستاذ يقول لك : ألك حاجة ؟ فقال : قل له : لا . فقال له : ارجع إليه فقل له : أى شيء أنت ؟ فقال : قل له : طفيلى يرحمك الله !

فقال له ابن المدبر : أنت طفيلى ؟ قال : نعم ! أعزّك الله ! قال : إن الطفيلى يُحتملُ دخوله بيوت الناس وإفساده عليهم ما يريدونه من الخلوة بندمائهم والخوض في أسرارهم لخصال ، منها أن يكون لاعباً بالشطرنج ، أو بالترّد ، أو ضارباً بالعود أو الطنبور !

فقال : أَيْدِكَ اللهُ ! أنا أحسنُ هذه الأشياء كلها ، قال : وفي أى وظيفة أنتَ منها ؟ قال : فى العُلَيَّا من جميعها !

فقال لبعض ندمائه : لا عبه بالشُّطرنج ، فقال الطفيلُ : أصلح اللهُ الأستاذ ! فإن قَمِرْتُ^(١) ؟ قال : أخرجناك من ديارنا . قال : فإن قَمِرْتُ ؟ قال : أعطيناك ألفَ درهم . قال : فإن رأيت - أيدك اللهُ - أن تحضر الألف ؛ فإن فى حضورها قوة للنفس والإيقان بالظفر .

فأحضرت ؛ فلعبا فغلب الطفيلُ ، ومدَّ يده لياخذَ الدراهم ، فقال الحاجب لينفى عن نفسه بعضَ ما وقع فيه : أعزَّ اللهُ الأستاذ ؛ إنه زعم أنه فى الطبقة العُلَيَّا ، وابنُ فلان غلامك يَغْلِبُه .

فأحضر الغلام ، فغلبَ الطفيلُ ، فقال له : انصرف ، فقال : أحضروا الترد ، فأحضرت فلوعب فغلب ، فقال الحاجب : ولا هذا - يا سيدى - فى الطبقة العليا من الترد ، ولكن بَوَّابُنَا فلان يَغْلِبُه ، فأحضر البواب فغلب الطفيلُ ، فقال له : اخرج ، فقال : يا سيدى ، فالعود ؟

فأتى بالعود ، فضرب فأصاب ، وغنَّى فأطرب ، فقال الحاجب : يا سيدى ؛ فى جوارنا شيخ هاشمى يُعَلِّمُ القِيَّانَ أحذقُ منه ، فأحضر الشيخ ، فكان أطربَ منه ، فقال له : اخرج ، قال : فالطنبُور ، فأعطى طنبوراً فضرب ضرباً لم يَرَ الناسُ أحسنَ منه ، وغنَّى غناءً فى النهاية ، فقال الحاجب : أعزَّ اللهُ الأستاذ ؛ فلان فى جوارنا أحذقُ منه ، فأحضر فكان أحذقُ منه وأطيب ، فقال له ابن المدبر :

(١) قرت : غلبت فى اللعب .

قد تقصينا لك بكل جهد ، فأبت حِرْفَتُكَ إلا طردك عن منزلنا .

فقال : ياسيدى ، بقى شيء ! قال : ما هو ؟ قال : تأمر لى بقوس بُنْدُق^(١) مع خمسين بُنْدُقَة رصاص ، ويقام هذا الحاجب على أربع وأرميه بها ، وإن أخطأتُ بواحدة منها ضربت رقبتى . فضجّ الحاجب من ذلك ، ووجد ابنُ المدير فى ذلك شفاءً لنفسه وعقوبة له على ما فرط منه فى إدخال الطفيلَى إلى مجلسه . فأمر بإكافين^(٢) فأحضرا ، وجعل أحدهما فوق الآخر ، وشدّ الحاجب فوقهما ، وأمر بالقوس والبندق فدفعما إلى الطفيلَى ، فرمى به ؛ فما أخطأه ؛ وخلّى عن الحاجب وهو يتأوه لما به ، فقال له الطفيلَى : أعلى باب الأستاذ من يُحسن مثل هذا ؟ فقال : ما دام البرجاس^(٣) استنى فلا !

(١) البندق : الذى يرمى به ، الواحدة بهاء (٢) الإكاف : البرذعة (٣) البرجاس : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه .

١٥٨- صناعاتهم التطفيل*

قال دراج : قدمت من بغداد ، فررتُ بباب قومٍ وعندهم وليمة ، وإذا بصاحب الدار يدخلُ ويضع سَلَمًا فكُلما رأى إنسانًا لا يعرفه قال : اصعدْ يا أباي ؛ فصعدتُ إلى غرفةٍ مفروشة حتى وافيتُ فيها ثلاثة عشر طفيليا ، ثم رُفِع السُّلَمُ ، ووُضِعَت الموائد ، فبقى أصحابي قد تحيروا وقالوا : مامرَّ بنا مثل ذا قط ؛ قلت : يافتيان ، ما صناعتكم ؟ قالوا : التطفيل ، قلت : فما عندكم في هذا الأمر الذي وقعنا فيه ؟ قالوا : ما عندنا فيه حيلة ، قلت : فإذا احتلتُ لكم حتى تأكلوا وتنزلوا تُقرءون أنى أعلمكم بالتطفيل ؟ قالوا : ومن تكون بالله ؟ قلت : أنا ابن دراج . قالوا : قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا . قال : فجئتُ إلى صاحب الدار فاطلمتُ عليه والناس يأكلون وقلت : يا صاحب الدار ؛ قال : مالك ؟ قلت : أيما أحبُّ إليك : تصعدُ إلينا بخوانٍ كبير ، نأكلُ وننزلُ أو أُرْزى بنفسى ، فيخرج من دارك قتيل ؛ وبصير عُرْسُكَ مَاتَمًا ؟ وجعلتُ أُرِيه كَأَنى أُرْزى بنفسى ، فصاح وقال : اصبر ويحك لا تفعل ! وجعل بعجَلٍ ويقول : هذا مجنون . وأصعدوا إلينا خوانًا ، فأكلنا ونزلنا .

١٥٩- اَصْبِرُوا عَلَىٰ إِلَىٰ غَدٍ*

ادّعى مُدّيع النبوة ، فطُلب ودُعي له بالسيف والنّطع ؛ فقال : ما تصنعون ؟
قالوا : نقتلك ، قال : ولم تقتلونني ؟ قالوا : لأنك ادّعت النبوة ، قال : فلستُ
ادّعيها ، قيل له : فأى شيء أنت ؟ قال : أنا صديق ، فدُعي له بالسيّاط ، فقال :
لم تضربونني ؟ قالوا : لادّعائك أنك صديق ، قال : لا ادّعى ذلك ، قالوا : فمن
أنت ؟ قال : من التابعين لهم بإحسان ، فدُعي له بالدّرة^(١) ، قال : ولم ذلك ؟
قالوا : لادّعائك ما ليس فيك ، فقال : ويحكم ! أدخل إليكم وأنا نبي تريدون أن
تخطّوني في ساعة واحدة إلى مرتبة العوام ! اصبروا علىّ إلى غدٍ حتى أصيرَ لكم
ما شئتم !

* نهاية الأرب : ٤ - ١٦ .

(١) الدرة بالكسر : التي يضرب بها .

١٦٠- هُوَ خَيْرُ النَّاسِ مَهْمَا يَفْعَلُ*

حدّث رجلٌ من عامر بن لؤي ، قال : كان صبيٌّ منا ترك له أبوه غنماً وعبيداً ؛ فخرج يوماً ، فنظر إلى جاريةٍ في خبائها فهويها ، ومال إلى أمها ، وسألها أن تزوجه منه ، فقالت : حتى أسأل عن أخلاقك .

فسأل عن أقرب الناس إليها ، فدُلَّ على شيخٍ كان معروفاً بحُسن المخَضَر . فأتاه وسلّم عليه ، وقال : ما جاء بك ؟ فأخبره ! فقال : لا عليك ! فإنَّ العجوزَ غيرُ خارجةٍ من رأيي ، فامضِ إلى منزلك ، وأقم يوماً أو يومين ، ومُرْ بغيرك أن تُساقَ ، ونادِني أهلك : أمّا من أراد أن يحلبَ فليأتنا ! ودعني والأمر !

فشاع الخبرُ ، فخرجت العجوز مع مَنْ خرج ، والشيخُ مع القوم ، فنظر إلى الشاب ، وقد كانت العجوز قد أخبرته بشأنه ، فقال : هو هو ! فقالت : نعم ! قال : لقد حرّمت حظّك ! قالت : إني أريد أن أسألَ عن أخلاقه . قال : أنا ربيته . قالت : فكيف لسانه ؟ قال : خطيبُ أهله ، والمتكلمُ عنهم . قالت : فكيف سماحته ؟ قال : ثَمَالٌ^(١) في قومه ، وريعهم ! قالت : فكيف شجاعته ؟ قال : حامى قومه والمدافعُ عنهم !

قال : فطلّع الفتى ، فقال : أما ترين ما أحسن ما أقبل ! ما انحنى ولا اثنى !

* المحاسن والمساوي : ٦٤٣ (طبع ليزج) .

(١) الثمال : النيات الذي يقوم بأمر قومه .

فلما قرب سلم ، فقال : ما أحسن ماسلم ! ما حار ولا ثار . ثم استوى جالساً ،
فقال : ما أحسن ما جلس ! ما ركع ولا عجز . قالت : أجل ! فذهب يتحرك
فضرط ، فقال الشيخ : ما أحسن والله ما ضرط ، ما أطنأ ولا أغنأ ولا نفخأ
ولا ترتررها^(١) . فنهض الفتى خجلاً ، فقال الشيخ : ما أحسن والله ما نهض !
قالت العجوز : أجل والله ! فصيح به ورؤده ، فوالله لزوجناه ولو فعل أكثر
مما فعل !

(١) التتر : التزلزل والتقلقل .

١٦١- طفيلي في عرس*

دخل طفيلي عرساً فلم يقدر على الدخول ، فأخذ قرطاساً وأذرجه^(١) ، ولم يكتب فيه شيئاً ، وسأل عن العروس : هل له قريب غائب ؟ فقيل : أخوه . فكتب عنوان الكتاب من فلان ابن فلان أخيه . وجاء فدق الباب ، وقال : معي كتاب من أخي العروس . فخرج العروس مبادراً فأدخله وأحضره له الطعام ؛ فلما قرأ العنوان قال : سبحان الله ! تراه نسي اسمي إذ لم يكتبه على الكتاب ! فقال الطفيلي : وأعجب من هذا أنه لم يكتب داخله شيئاً من العجلة ! فلم مراده وأدخله !

* ذيل زهر الآداب : ٢٨٠ .
(١) أدرج الكتاب : طواه .

١٦٢- طفيلي محدث*

قال أبو عمرو نصر بن علي : كان لي جار طفيلي ، وكان من أحسن الناس مَنظراً ، وأعذبهم منطقاً ، وأطيبهم رائحة ، وأجملهم لباساً ، وكان من شأنه معي أني إذا دعيتُ إلى مَدْعاة^(١) تبعني ، فيكرمه الناس من أجلي ، ويظنون أنه صاحب لي ؛ فاتفق يوماً أن جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يَخْتَن بعض أولاده ، فقلت في نفسي : كَأَنِّي برسول الأمير قد جاء ، وكَأَنِّي بهذا الرجل قد تبعني ، والله لئن تبعني لأفضحنه !

فأنا على ذلك إذ جاء رسوله يدعوني ، فإزدتُ أن لبستُ ثيابي وخرجت ، وإذا أنا بالطفيلي واقفٌ على باب داره ، وسبقني بالتأهب فتقدمتُ وتبعني ؛ فلما دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة ، ودعا بالطعام ، وأحضرت الموائد وكان كلُّ جماعة على مائدة لكثرة الناس ، فقدمتُ إلى مائدة الطفيلي معي ، فلما مَدَّ يده ، وشرع في تناول الطعام قلت : حدثنا نافع عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دخل دار قومٍ بغير إذنهم فأكل طعامهم دخل سارقاً ، وخرج مُغيراً » . فلما سمع ذلك قال : أُنِفْتُ لك والله أبا عمرو من هذا الكلام ! فإنه ما مِن أحدٍ من الجماعة إلا وهو يظنُّ أنك تعرض به دُونَ صاحبه ، أو لا تَسْتَحِي أن تتكلم بهذا الكلام على مائدة سيّد من أطعم الطعام ، وتبخل بطعام غيرك على مَنْ سواك !

* التطفيل للبغدادى : ٦٦ .

(١) المدعاة : الدعوة

ثم لا تستحي أن تحدث بهذا الحديث وهو ضعيف ، وتحكم برفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون على خلافه ! لأن حكم السارق القطع ، وحكم المفير أن يُعزَّر على ما يراه الإمام ، وأين أنت عن حديث حدثناه أبو عاصم النبيل عن ابن جريج عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية » . وهو إسنادٌ صحيح ومُتَنٌ صحيح !

قال نصر : فأفحمني فلم يحضرني له جواب ، فلما خرجنا من الموضع للانصراف فارقني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي ، وسمعته يقول :

ومن ظن يَمُنَّ يلاقى الحروب بالأبواب فقد ظنَّ عَجْزًا

١٦٣ - غِنَى وَغَفْلَةٌ

كان بمصر شريف من وَلَدِ العباس يعرف بأبي جعفر ؛ شبيه بابن الجصاص في الغفلة والجَدِّ والذممة .

قال أبو القاسم بن محمد التنوخي : بعثني أبي إليه من قرية تعرف بتلا يستقرضه عشرة أَرادب قمحاً وثلاثين زوج بقر ، وكتب معي بذلك رقعة ، فأتيتُ إليه وسلمت عليه ، ودفعت إليه الرقعة ؛ فقال : ذكرتُ أباك ، فهو صاحبي وصديقي وخليطي ! وابن هو الآن ؟ قلت : بقرية تلا - أعزَّ الله سيدي الشريف ! قال : نعم ! حفظه الله ! هو بالقسطاط معنا ، وقد انقطع عنا كذا ! ما كنت أظنه إلا غائباً !

قلت : لا سيدي هو بتلا ! قال : فمالك ما قلت لي ؟ فما كان سبيله أن يؤنسني برقعة من قبله ؟ قلت : يا سيدي ، قد دفعت إليك رُقعتَه ! قال : وابن هي ؟ قلت : تحت البساط ! فأخذها وقرأها ، وقال : قل لي الآن ، أكان لك أخٌ أعرفه حاد الذهن يحسن النحو والعروض والشعر ؛ فما فعلَ الله به ؟ قلت : أنا هو - أعزَّك الله ! قال : كبرتَ كذا ! وعهدي بك تأتيني معه ؛ قلت : نعم ! أيَّد الله الشريف !

قال : وما الذي جئتَ فيه ؟ قلت له : والدي بعثني إليك برقعة يسألك فيها قرض عشرة أَرادب قمحاً وثلاثين زوج بقر . قال : وهو الآن بالقسطاط ؟ !

قلت : لا يا سيدى هو بتلا ! قال : نعم ! وإنما ذاك الفتى أخوك ؟ قلت : لا ! أنا هو .

فصار يراجعنى فى الكلام وقد ضجرتُ من شدَّة غفلته ، وكثرة نسيانه لما أقول له ، حتى أقبل كاتبه أبو الحسين ، فقال له : سَلْ هذا الفتى ما يريد ؟ فسألنى فعرفته فأخبره ، فقال له : نفَّذْ له حاجته . فوقع لى الكتاب بما أراد ، وقال : تَأْتَانِى للقبضِ بالديوان ، فشكرت الشريف ونهضت ! فقال : اصبر يا بنى فقد حضر طعامنا ؛ وقدم الطعام ، وفيه طعام غير جيد ، فرفع يده ، وقال : مثل مطبخى يكون فيه مثل هذا ! على بالطباخ ! فأتى ، فقال له : ما هذا العمل ! فقال : يا سيدى ؛ إنما أنا صانع ، وعلى قدر ما أُعطى أعمل ! وقد سألت المُنْفِق أن يشتري لى ما أحتاج إليه فتأخر عني ، فعملتُ على غير تمكّن ؛ فجاء التقصير كما ترى .

فقال : على بالمُنْفِق فأحضر ، فقال : مَالِي قليل ؟ قال : لا ، يا سيدى إنما أنفق ما أُعطى ، وقد سألت الجِهْدَ^(١) أن يدفع لى فتأخر عني ؛ فقال : على بالجِهْدِ ! فأتى به . فقال : مالك لم تدفع للمُنْفِق شيئاً ؟ قال : لم يوقع لى الكاتب ! فقال للكاتب : لِمَ لَمْ تدفع إليه شيئاً ؟ فتلعثم فى الكلام ، ولم يكن عنده جواب ؛ فقال للكاتب : قف ها هنا ، فوقف ، ووقف خلفه الجِهْدُ ، ووقف خاف الجِهْدُ المنفق ، وخلف المنفق الطباخ ، وقال : ليصنع كلُّ واحد منكم بمن يليه بأكثر ما يقدر عليه فتصافعوا .

قال : فخرجت وأنا متعجب من غباوته وغفلته !

(١) الجِهْدُ : النقاد الحبير ، ويريد القائم بالإففاق وحفظ الأموال .

١٦٤ - حِذَاءُ أَبِي الْقَاسِمِ*

كان في بغداد رجلٌ اسمه أبو القاسم الطُّشْبُورِي ، وكان له مَدَاسٌ^(١) ، وهو يَلْبَسُهُ - بَعْدَ سَنِينَ ، وكان كلما تقطع منه موضعٌ جعل مكانه رقعةً إلى أن صار في ظاية الثَّقل ، وصار الناسُ يضربون به المثل .

فاتفق أنه دخل يوماً سوق الزجاج ، فقال له سِمْسَارٌ^(٢) : يا أبا القاسم ، قد قدِم إلينا اليوم تاجر من حَلَب ، ومعه خِملٌ زجاجٌ مُذهَّبٌ قد كسَدَ ، فاشترِه منه ، وأنا أبيعُه لك بعد هذه المدة ؛ فَتَكْسِبُ به المثلَ مِثْلَيْنِ ! فمضى واشتراه بستين ديناراً .

ثم إنه دخل إلى سوق العطارين ؛ فصادفه سِمْسَارٌ آخر ، وقال له : يا أبا القاسم ؛ قد قدِم إلينا اليوم من نَصِيبِينَ^(٣) تاجرٌ ، ومعه ماء وَرْد ، وَلِعَجَلَةٌ سفره ، يمكن أن تشتريه منه رخيصةً ، وأنا أبيعُه لك فيما بعد ، بأقرب مدة ؛ فَتَكْسِبُ به المثلَ مِثْلَيْنِ !

فمضى أبو القاسم ، واشتراه أيضاً بستين ديناراً أخرى ، وملاً به الزجاج المذهب وحمله ، وجاء به فوضعه على رَافٍ من رفوف بيته في الصُّدْر !

ثم إن أبا القاسم دخل الحمام يفتسل ؛ فقال له بعض أصدقائه : يا أبا القاسم ؛

* مجازي الأدب : ٣ - ٢٣٢ .

(١) المداس كسحاب : الذي يلبس في الرجل (٢) السمسار : المتوسط بين البائع والمشتري

(٣) قاعدة ديار ربيعة .

أشهى أن تغير مداسك هذا ! فإنه في غاية الشناعة ! وأنت ذو مال بحمد الله ! فقال له أبو القاسم : الحق معك ؛ فالسمع والطاعة .

ثم إنه خرج من الحمام ، ولبس ثيابه ، فرأى بجانب مداسه مداساً آخر جديداً ؛ فظن أن الرجل من كرمه اشتراه له ؛ فلبسه ، ومضى إلى بيته !

وكان ذلك المداس الجديد للقاضي ، وقد جاء في ذلك اليوم إلى الحمام ، ووضع مداسه هناك ، ودخل يستجم !

فلما خرج فتش عن مداسه ؛ فلم يجده ؛ فقال : أمن لبس حذائي لم يترك عوضه شيئاً ؟ ففتشوا ؛ فلم يجدوا سوى مداس أبي القاسم ! فعرفوه ؛ لأنه كان يضر به المثل !

فأرسل القاضي خدمه ، فكسبوا^(١) بيته ، فوجدوا مداس القاضي عنده ؛ فأحضره القاضي ، وضربه تأديباً له ، وحبسه مدة ، وغرمه بعض المال وأطلقه !

فخرج أبو القاسم من الحبس ، وأخذ حذاه ، وهو غضبان عليه ، ومضى إلى دجلة ، فألقاه فيها ؛ ففاص في الماء !

فأتى بعض الصيادين ورمى شبكته ، فطام فيها ! فلما رآه الصياد عرفه ، وظن أنه وقع منه في دجلة ! فحمله وأتى به بيت أبي القاسم ؛ فلم يجده ! فنظر فرأى نافذة إلى صدر البيت ، فرماه منها إلى البيت ، فسقط على الرف الذي فيه الزجاج ، فوقع ، وتكسر الزجاج وتبدد ماء الورد !

(١) كبس داره : هجم عليها واحتاط بها .

فجاء أبو القاسم ونظر إلى ذلك فعرف الأمر ، فلطم وجهه ، وصاح يبكي ،
وقال : واققرّاه ! أققرّنى هذا المداس الملعون !

ثم إنه قام : ليحفّر له فى الليل حفرة ، ويدفنه فيها ، ويرتاح منه ؛ فسمع
الجيران حسّ الحفر ؛ فظنوا أن أحداً ينقب عليهم ؛ فرفعوا الأمر إلى الحاكم ؛
فأرسل إليه ، وأحضره ، وقال له : كيف تستحل أن تنقب على جيرانك حائطهم ؟
وحبسّه ، ولم يُطلقه ، حتى غريم بعض المال !

ثم خرج من السجن ومضى وهو حرّ دان^(١) من المداس ، وحمله إلى كنيف
الخان ، ورماه فيه ، فسدّ قصبه الكنيف ؛ ففاض وضجر الناس من الرائحة
الكريهة ! ومحنوا عن السبب ؛ فوجدوا مداساً فتأملوه ؛ فإذا هو مداسُ أبى القاسم !
فحملوه إلى الوالى ، وأخبروه بما وقع ؛ فأحضره الوالى ، ووبخه وحبسّه ، وقال
له : عليك تصليح الكنيف ! فغرم بجملة مال ، وأخذ منه الوالى مقدار ما غرم
تأديباً له وأطلقه .

فخرج أبو القاسم والمداسُ معه ، وقال - وهو مفتاظ منه : والله ما عدتُ
أفارقُ هذا المدس !

ثم إنه غسّله وجعله على سطح بيته حتى يجف ؛ فراه كلب ؛ فظنه رميةً فجعله
وعبر به إلى سطح آخر ؛ فسقط من الكلب على رأس رجل ، فألكه وجرحه جرحاً
بليغاً ، فنظروا وفتشوا لمن المداس ، فعرفوا أنه لأبى القاسم !

(١) حران : غضبان (٢) الرمة بالكسر : العظام البالية .

فرفعوا الأمر إلى الحاكم ؛ فالزّمه بالعِوض ، والقيام بلوازم المجروح مُدّة
مرضه ! فنفّذَ عند ذلك جميعُ ما كان له ، ولم يبقَ عنده شيء !
ثم إن أبا القاسم أخذ المداس ، ومضى به إلى القاضي ، وقال له : أريد من
مولانا القاضي أن يكتب بيني وبين هذا المداس مبارأة شرعية على أنه ليس مني
ولستُ منه ! وأن كلاً منا برىء من صاحبه ، وأنه مهما فعله هذا المداس لا أوْأخذ
أنا به ! وأخبره بجميع ما جرى عليه منه !
فضحك القاضي منه ووصله ومضى !

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

فَهْرَسُ الْقَصَصِ

الباب الأول

فى القصص التى تصف ما عقده من مجالس الطرب ، وحفلات الفناء ، وما
أثاروه من أسباب المنافسة بين المغنين ، قاصدين الترفيه عن النفوس ، وجلاء الهم ،
وتهذيب المشاعر ، وترقيق الوجدان :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١	١٠	الشعر والفناء
٢	١٢	قل للكرام بيا بنا يلجوا
٣	١٣	عبد الله بن جعفر ضيف طويس
٤	١٥	سقونى وقالوا لا تنن
٥	١٨	عبد الله بن جعفر عند جميلة
٦	٢٠	بيتان من الشعر
٧	٢٣	ماذا فعلت بزاهد متعبد ؟
٨	٢٤	دُعَابَةُ بن أبى عتيق
٩	٢٦	لحن لجميلة
١٠	٣٠	فى أيام الحج
١١	٣٥	فى وادى العتيق

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١٢	٣٧	من أين صبتك الله على !
١٣	٣٩	ارجع إلى عملك راشداً
١٤	٤١	الأحوص يحتال حتى تسمع سلامة غناء الفريض .
١٥	٤٤	غناء في ختان
١٦	٤٧	يضطرب حين يسمع الغناء
١٧	٤٩	في قصر الوليد بن يزيد
١٨	٥١	معبد في مكة
١٩	٥٣	معبد في السفينة
٢٠	٥٧	وفاء مالك بن أبي السمع لمعبد
٢١	٦١	مالك بن أنس يغنى
٢٢	٦٢	أفسد آخر ما أصلح أولاً
٢٣	٦٣	ابن جامع في دار الخلافة
٢٤	٧٢	ابن جامع وأبو يوسف القاضي
٢٥	٧٤	سرقة الغناء
٢٦	٧٨	أنا والصبح كفرسي زهان
٢٧	٨٠	ما هذا بجزائي منك !
٢٨	٨٢	مانعني الغناء إلا ذلك اليوم
٢٩	٨٤	طفيلي ولكنه ظريف
٣٠	٨٨	زرياب وإسحاق الموصلي
٣١	٩٢	في مسجد رسول الله تتغنى !

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٣٢	٩٥	شعر رقيق
٣٣	٩٦	صوت بدرهمين
٣٤	٩٨	أم جعفر تنوح على الرشيد
٣٥	١٠٠	أما إليك سبيل غير مسدود ؟
٣٦	١٠١	عند مخارق
٣٧	١٠٤	مخارق يغنى لأبي العتاهية في شعره
٣٨	١٠٦	المفنون عند الواثق
٣٩	١٠٩	في دار الواثق
٤٠	١١٣	محبوبة جارية المتوكل
٤١	١١٥	قينة تحن إلى بغداد

الباب الثاني

في القصص التي تفصح عن رقة قلوب العرب ، ورفاهة عواطفهم وسمو نفوسهم بالإخبار عن وقع الحب في قلبه وامتزج العفاف والشرف بحبه ، ولكن امتنع عليه أمله ، فبقى معذباً في سبيل مَنْ أحب ؛ وراح شهيداً الرقة والعفاف :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٤٢	١١٨	جنى الجمال على نصر فغربه
		عن المدينة تبكيه ويبكيها
٤٣	١٢١	عروة وغفراء

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٤٤	١٢٨	قتيل الحب
٤٥	١٢٩	قيس ولبنى
٤٦	١٤٤	ما أبالي مانيل من شَعرى ومن بشرى
٤٧	١٤٦	فى القلبين ثم هو دفين
٤٨	١٤٨	أخبرنى عن ليلة الغيل
٤٩	١٥٠	أياشبه ليلى لا تراعى
٥٠	١٥١	استبكاني السيل إذ جرى
٥١	١٥٢	عهود جبل التَّوبَّاد
٥٢	١٥٣	حديث المجنون عن ليلى
٥٣	١٥٤	حلال لليلى شتمنا
٥٤	١٥٥	إن دأى ودوائى أنتِ
٥٥	١٥٧	مارأيت مثل حزنها ووجدما عليه قط
٥٦	١٥٩	عند الكعبة
٥٧	١٦١	ذهول !
٥٨	١٦٣	خاتمة المجنون
٥٩	١٦٧	اليوم يحمنا فى بطنها الكفن
٦٠	١٧١	العفة فى الحب
٦١	١٧٣	حديث جميل و بثينة
٦٢	١٨١	عتاب بين بثينة وجميل
٦٣	١٨٢	يتذاكران الشعر والهوى
٦٤	١٨٣	لا أزال أبكيه حتى الممات

العنوان	الصفحة	رقم القصة
حتى ويحك من حياك يا جل	١٨٥	٦٥
إلى الخلوات يأنس فيك قلبي	١٨٨	٦٦
من لم يقيد جوارحه أنعب قلبه	١٩٠	٦٧
غداً يكثر الباكون منا ومنكم	١٩٢	٦٨
وذو الشوق القديم وإن تعزى	١٩٤	٦٩
مشوق حين يلقى العاشقين		
قضى كل ذي دين فوفى غريمه	١٩٦	٧٠
وعزة ممطول معنى غريمها		
تغنيه فيموت	١٩٨	٧١
فاضت نفسها عليه	٢٠١	٧٢
يموتان في وقت واحد	٢٠٤	٧٣
رحلت مية ولم يبق إلا الديار	٢٠٧	٧٤
صباية بن الطنّرية	٢١٠	٧٥
معبد الصغير وأحد العشاق	٢١٦	٧٦
نعم الغراب بفراقهما	٢٢٠	٧٧
نخلتا حلوان	٢٢٤	٧٨
وارحمنا للعاشقين	٢٢٦	٧٩
الله يعلم أنني كمد	٢٢٩	٨٠
في دار المجانين	٢٣١	٨١
عتاب	٢٣٦	٨٢
يا غريب الدار عن وطنه	٢٤٠	٨٣

الباب الثالث

في القصص التي تحتج لما اتصفوا به من شديد الغيرة على الحرم ، وبالفج المحافة
من التهمة ؛ إغلاء بالشرف ، وضماناً لوفرة العرض ، وما جره بعد ذلك من إزهاق
الأرواح وسفك الدماء ، درءاً للفتنة ، واتقاء للسمعة :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٨٤	٢٤٢	لا أحد أذل من جديس
٨٥	٢٤٥	أبي للذل
٨٦	٢٤٧	أجبن الناس وأحيل الناس وأشجع الناس
٨٧	٢٥٤	خل سبيل الحرية المنيمة
٨٨	٢٥٨	عند الموت
٨٩	٢٦٢	تعدو الذئاب على من لا كلاب له
٩٠	٢٦٣	الأحوص وابن حزم الأنصاري

الباب الرابع

في القصص التي أراد بها الكتاب تصوير حالة ، أو شخص أو مجلس ،
واخترعوا لها من الكلام ما يبلغ إرادتهم ، ويدخل في ذلك الباب ما وضعوه على
أسنة الطير والبهايم ، وأنواع الحيوان من محاورات وأحاديث تحمل في أنشائها العبرة
والعظة والنصح :

العنوان	الصفحة	رقم القصة
أكلت يوم أكل الثور الأبيض	٢٦٨	٩١
حديث السقيفة	٢٦٩	٩٢
بمن أستجير من جورك ؟	٢٨٥	٩٣
خدعة لمعاوية	٢٩١	٩٤
من صدق الله نجا	٢٩٩	٩٥
عمر بن أبي ربيعة في مضرب فاطمة بنت عبد الملك	٣٠١	٩٦
عمارة	٣٠٥	٩٧
عمر بن أبي ربيعة في لبسة أعرابي	٣١١	٩٨
حديث يوم الدّوحة	٣١٥	٩٩
لولا فصاحتهم لضربت أعناقهم	٣٢٢	١٠٠
يوم دارة جلجل	٣٢٤	١٠١
دعني وربّي الذي لا يبخل ولا يذهل	٣٢٧	١٠٢
أبو جعفر المنصور في المرأة	٣٣٥	١٠٣
واعظ أبي جعفر المنصور	٣٤١	١٠٤
لماذا سلبوا الملك ؟	٣٤٥	١٠٥
جعفر البرمكي والرشيد	٣٤٧	١٠٦
إخوان الصفا	٣٥٠	١٠٧
لا أحبّ تخديش وجه الصاحب	٣٥٦	١٠٨
حكومة الضب	٣٥٧	١٠٩
أعلمك ثلاث خصال	٣٥٨	١١٠
مجير أم عامر	٣٥٩	١١١
كيف أعادوك وهذا أثر فأسك !	٣٦٠	١١٢
حكيم	٣٦١	١١٣

البسبب الخامس

في القصص التي يعرف بها مذهبهم في شياطين الشر ، وأصوات الجن في
الغياف وأحاديثهم عن الغول ، ورؤية من رآها منهم ، وما إلى ذلك مما يصور سعة
أخيلتهم ، وسعيهم وراء المجهول بأجنحة التفكير والتصوير :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١١٤	٣٦٤	تأبط شرأ يقتل الغول
١١٥	٣٦٦	رئي الأعشى
١١٦	٣٦٧	هاجس الأعشى
١١٧	٣٦٩	عبيد بن الأبرص الشجاع
١١٨	٣٧٢	ومن عبيد لولا هبيد
١١٩	٣٧٥	لافظ بن لاحظ
١٢٠	٣٧٧	تابع زهير بن أبي سلمى
١٢١	٣٨٠	حاتم يقرى الضيف بعد موته
١٢٢	٣٨٢	جار مالك بن حريم
١٢٣	٣٨٤	الجن وابن الجمارس
١٢٤	٣٨٧	حارس مال ابن الخشرم
١٢٥	٣٨٩	في موت أمية بن أبي الصلت
١٢٦	٣٩٠	في بحر الخزر
١٢٧	٣٩٢	نجى سواد بن قارب
١٢٨	٣٩٥	ليلي الأخيلية على قبر توبة
١٢٩	٣٩٦	جان يختطف فتاة

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١٣٠	٣٩٨	لا بقاء للإنسان
١٣١	٣٩٩	الفريض يتلقى غناءه عن الجن
١٣٢	٤٠١	شيطان أبي نواس
١٣٣	٤٠٣	إبليس في ضيافة إبراهيم بن المهدي
١٣٤	٤٠٧	دعبل بن علي ورجل من الجن

الباب السادس

في القصص التي تسرد بارع الملح التي أثرت عن الحمقى والمجانين ، وتفصل
روائع النوادر التي فاضت بها قرائح الطفيليين والمتنبئين ؛ وما يشبه ذلك مما فيه راحة
للفؤوس ونشاط للخواطر :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١٣٥	٤١٠	أنفك منك وإن كان أجدع
١٣٦	٤١٢	أبورافع لا يكذب في نوم ولا يقظة
١٣٧	٤١٤	أهلك أعلم بك
١٣٨	٤١٥	المقادير تصير العبيّ خطيباً
١٣٩	٤١٦	لئن شكرتم لأزيدنكم
١٤٠	٤١٧	الحمد لله الذي مسخك كلباً
١٤١	٤١٨	يوم الحساب
١٤٢	٤٢١	إن أعطوا رَضُوا
١٤٣	٤٢٢	ما اختار غير عبد الله بن طاهر

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١٤٤	٤٢٤	أترى الله يمطيك وينسانى ؟
١٤٥	٤٢٥	طفيلي في حضرة المأمون
١٤٦	٤٣٠	أنا أول من آمن بك
١٤٧	٤٣١	أبودلف وجعفران الموسوس
١٤٨	٤٣٤	رمىته به في بطنك !
١٤٩	٤٣٥	لوعلمت بحاله لولجت عليه
١٥٠	٤٣٧	وعلى أيضاً !
١٥١	٤٣٩	كذب بكذب
١٥٢	٤٤١	ذهب الحمار بأم عمرو
١٥٣	٤٤٣	أعجب ما رأيت من المجانين
١٥٤	٤٤٧	مجنون أديب
١٥٥	٤٤٧	كدر الله من كدر العيش
١٥٦	٤٤٩	يضيف أهل الصفة ثم يضربهم
١٥٧	٤٥٠	ابن المدبر وطفيلي
١٥٨	٤٥٣	صناعتهم التطفيل
١٥٩	٤٥٤	اصبروا على إلى الغد
١٦٠	٤٥٤	هو خير الناس مهما يفعل ؟
١٦١	٤٥٧	طفيلي في عرس
١٦٢	٤٥٨	طفيلي يحدث
١٦٣	٤٦٠	غنى وغفلة
١٦٤	٤٦٢	حذاء أبي القاسم

فهرست الأعلام

ابن المدبر : ٤٥١	(١)
أبو الأسود الدؤلى : ٢٦٢ ، ٤١٤	إبراهيم الحرانى : ٩٢
أبو بكر بن أبى قحافة الصديق : ٢٦٩	إبراهيم بن عبد الملك بن صالح : ٣٤٩
أبو الحسن البیضاء : ٢٣٦	إبراهيم بن المهدي : ٨٢ ، ٣٤٧ ، ٤٢٥
أبو حية النخیری : ٤١٧	إبراهيم الموصلى : ٢٦ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٤٠٣ ، ٩٦
أبو الخیبرى : ٣٨٠	ابن أبى عتيق : ١٥ ، ٢٤ ، ١٣٠
أبو الدرداء : ٢٩٢	ابن بُسْخُر : ١٠٩
أبورافع (مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم) : ٤١٢	ابن جامع : ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٩٦
أبوریحانة (حاجب عبد الملك بن مروان) : ١٩٢	ابن دراج : ٤٥٣
أبو صالح الفزارى : ٢٠٧	ابن سريج : ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٣٩٩
أبو عبدة عامر بن الجراح : ٢٦٩	ابن صياد (مفن) : ١٥
أبو العتاهية : ١٠٤	ابن مكحول (عراف اليمامة) : ١٢٥
أبو على بن الأسكرى : ١١٥	
أبو العنيس الصيمرى : ٢٢٢ ، ٢٣٣	

أبو نواس : ٤٠١

أبو هريرة : ٢٨٤ ، ٢٩٢

أبو يوسف القاضي : ٧٢

أحمد بن بشر : ٢٦٩

أحمد بن حرب المهلبى : ٤٤٧

أحمد بن يحيى (ثعلب) : ٤٤٦

إسحاق بن إبراهيم الموصلى : ٢٦ ،

٨٤ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠

إسماعيل بن المربد : ٩٦

الأصمى : ٨٠

أعشى قيس : ٣٦٦ ، ٣٦٧

امروء القيس : ٢١ ، ٣٢٤

أم جحدر (معشوقة ابن ميادة) : ٢٢٠

أمية بن أبى الصلت : ٣٨٩

(ب)

بثينة (معشوقة جميل) : ١٧١ ، ١٧٣

١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣

البحترى : ٢٣٣

البرامكة : ٢١٦

بشر بن مروان : ١٤٤

بلى (قبيلة) : ١٢٧

بنو تغلب : ٢٨١

بنو الحريش : ١٥٧ ، ١٦٣

بنو حمزة : ١٩٦

بنو حنظلة : ١٣٥ ، ٢٠٤

بنو عامر : ١٥٢ ، ١٥٧

بنو قشير : ٢١٠

بنو كعب : ١٢٩

بنو نهد : ١٨٦

بهلول (المجنون) : ٤٢٤

(ت)

تأبط شرا : ٣٦٤

تميم بن أبى تميم : ١١٥

توبة بن الحمير : ٣٩٥

(ج)

الجاحظ : ٢٢٦ ، ٤٥١

جديس (قبيلة) : ٢٤٢

جرم (قبيلة) : ٢١٠

جرير بن عبد البجلى : ٣٦٦

الجعد بن مهجع : ٣١٥

جعفر بن يحيى : ٦٩ ، ٧٤ ، ٣١٩ ،

٣٤٧

خليفة بن بوزل : ٢١٤

خالد بن يزيد بن معاوية : ١٩٠

خالد بن الحكم : ١٣٧

خالد الخريت : ٣١٢

(خ)

حمزة بن عبد الله بن الزبير : ٥٧

حمزة الزيات : ٣٧٨

الحسين بن علي : ١٣٠ ، ٢٩٥

الحسين بن دحمان : ٦١

الحسن بن الحسن بن علي : ٣٥

الحجاج الثقفي : ٣٢٢ ، ٤١٥ ، ٤١٦

حبي المدينة : ٢٥٩

الحارث بن سعد : ٢٤٨

حاتم الطائي : ٣٨٠

(ح)

جميل بن عبد الله بن معمر : ١٧١ ،

١٧٣ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣

جميلة المغنية : ١٨ ، ٢٠ ، ٢٦

جناه (مولى عمر بن أبي ربيعة) :

٣٠

(د)

دريد بن الصمة : ٥٢٤

دعبل بن علي : ٤٠٧ ، ٤٣٤

(ذ)

ذو الرمة : ٢٠٧

(ر)

الربيع بن كعب المازني : ٤١٠

ربيعة بن مكدم : ٢٥٥

رزين الكاتب : ٤٠١

الرماح بن أبرد : ٢٢٠

رملة بنت الزبير : ١٩٠

ريطة بنت جذل : ٢٥٧

(ز)

زرياب المغني : ٨٨

زفر بن الحارث : ٣٢٠

زلزل المغني : ١٠٦

زياد بن عبد الله الحارثي : ٤٤٩

زياد بن عثمان النطفاني : ٢٢٠

زياد بن النضر الحارثي : ٣٩٦

زياد بن زيد العذري : ٢٥٨

زينب بنت إسحاق : ١٩١

(س)

سالم بن قتيبة : ٣٢٤

سبيعة (من ولد عبد الرحمن بن

بكرة) : ٢٨

سعد بن خشرم : ٣٨٧

سعيد بن العاص : ٢٥٩

سفيان بن عيينة : ٦٢

سلام الأبرش : ٦٤

سلامة الزرقاء (المغنية) : ٢٤ ، ٤١

سليمان بن عبد الملك : ٣٩٨

سهل بن هارون : ٤٣٤

سواد بن قارب : ٣٩٢

سوار القاضي : ٤٢١

سياط المغنى : ٢٦

(ش)

شبيب بن شيبه : ٣٣٥

شرحبيل بن يعقوب الخزرجي : ٢٨٢

شميلة (زوج مجاشع بن مسعود) :

١٢٠

(ص)

صالح بن علي : ٣٤٥

(ط)

طسم (قبيلة) : ٢٤٢

طفيل بن عامر العمري : ١٦٧

طويس المغنى : ١٣

(ظ)

ظبيان بن عامر : ٤٠٧

ظبية (مغنية) : ٥٣

(ع)

العباس بن الأحنف : ٢٣٩ ، ٣٥١

عبثر المغنى : ٩٥

عبد الرحمن بن إبراهيم الخزومي : ٤٤٠

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : ١٤

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : ١٣ ، ٢٦٠

عبد الرحمن بن الحكم : ٩١

عبد الرحمن بن زيد العذري : ٢٥٨

عبد قيس (قبيلة) : ٣٨٠

عبد الله بن جعفر : ١٠ ، ١٢ ، ١٣

١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٣٠٠

عقيلة بنت الضحاك : ٢٠٦
 علويه المغنى : ١٠٠
 على بن أبى طالب : ٢٦٨ ، ٢٦٩
 على بن الجهم : ١١٣ ، ٢٧٧
 على بن الخليل : ٤٠١
 على بن محمد التوحيدى : ٢٦٩
 عمارة (مغنية عبد الله بن جعفر) :
 ٣٠٥
 عمر بن أبى ربيعة : ٢٨ ، ٣٠ ، ١٩٢ ،
 ٣٠١ ، ٣١١ ، ٣١٥
 عمر بن الخطاب : ١١٨ ، ٢٤٧ ،
 ٢٦٩ ، ٣٩٢
 عمرو بن سعيد بن العاص : ٣٢٨
 عمر بن عبد العزيز : ٤٠
 عمرو بن كلثوم : ٢٤٥
 عمرو بن مالك : ٣٩٦
 عمرو بن معد يكرب : ٢٤٧
 عمرو بن هند : ٢٤٥
 (غ)
 الغريض (المغنى) : ٤١ ، ٤٤ ،
 ١٧٣ ، ٣٩٩

عبد الله بن الزبير : ٣٢٨
 عبد الله بن سلام : ٢٩١
 عبد الله بن طاهر : ١١٣ ، ٤٢٣
 عبد الله بن مروان : ٣٤٥
 عبد الملك بن صالح : ٣٤٧
 عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج :
 ٩٣
 عبد الملك بن مروان : ١٥ ، ١٩٠ ،
 ١٩٢ ، ٣٢٨
 عبيد بن الأبرص : ٣٦٩ ، ٣٧٢
 عبيد بن الحمارس : ٣٨٢
 عثمان بن إبراهيم الخاطبي : ٣١١
 عثمان بن حيان المرمى : ٢٤
 عدى بن حاتم : ٣٨١
 عذرة (قبيلة) : ١٢٨
 عروة بن حزام : ١٢١ ، ١٢٨
 عزة (معشوقة كثير) : ١٨٥ ، ١٩٦
 عصمة بن مالك : ٥٧
 عطاء بن أبى رباح : ٤٤ ، ٤٧
 عفراء بنت عقال : ١٢٨
 عقال بن مالك : ١٢٨
 عقيل بن زياد الخارجي : ٢٨٢

(ف)

فارعة بنت ثابت : ١٤

فاطمة بنت عبد الملك بن مروان :

٣٠١

الفتح بن خاقان : ٣٧٧

الفرزدق : ١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٣٢٤

فريدة (مغنية الواثق والمتوكل) : ١١٠

فزارة (قبيلة) : ١٣٦

الفضل بن الربيع : ٦٤ ، ٦٩

فليح (المغنى) : ٩٦

فهم (قبيلة) : ٣٦٤

(ق)

القاسم بن عيسى العجلي : ٤٣١

قراد بن جرم : ٤١٠

قنفذ بن جمونة : ٤١١

قيس بن ذريح : ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٦

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٨

قيس بن معد يكرب : ٣٦٧

قيس بن الملوح : ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،

١٦٣

(ك)

كثير بن الصلت : ١٤١

كثير بن عبد الرحمن : ١٨٢ ، ١٨٥

١٩٦

(ل)

لبنى بنت الحباب الكعبية : ١٢٩ ،

١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٤٨

ليلي الأخيلية : ٣٨٧

ليلي العامرية : ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،

١٦٣

ليلي بنت مهمل : ٣٩٥

(م)

مالك بن أبي السمح : ٥٧

مالك بن أنس : ٦١

مالك بن حريم : ٣٨٢

مسكين الدارمي : ٢٣
 مطيع بن إياس : ٢٢٤
 معاوية بن أبي سفيان : ١٠ ، ١٢٧ ،
 ١٢٨ ، ١٣٨ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ ،
 ٢٩١ ، ٣٠٥
 معبد الصغير : ٢١٦
 معبد بن وهب : ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ،
 ٥٧ ، ١٧٣
 ملاحظ (المغني) : ١٠٦
 الملوح (أبو المجنون) : ١٥٤ ، ١٥٩
 المنصور (الخليفة العباسي) : ٢٦٤ ،
 ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٥
 المهلب بن أبي صفرة : ١٤٤
 مي بنت مقاتل المنقرية : ٢٠٧
 مياد الجرمي : ٢١٠
 (ن)
 نجيح اليربوعي : ٣٨٧
 نصر بن حجاج : ١٠٩
 نصر بن ذبيان : ٢٨٨
 النعمان بن بشير : ١٢٨ ، ٣٢٩
 نوفل بن مساحق : ١٦١

المأمون (الخليفة العباسي) : ٨٦ ،
 ١٠٠ ، ٤٢٢ ، ٤٣٥ ، ٤٣٠
 المتوكل (الخليفة العباسي) : ١١١ ،
 ١١٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣١
 مجاشع بن مسعود السلمي : ١١٨
 محبوب (بجارية المتوكل) : ١١٣
 محمد بن إبراهيم : ٢٢٦
 محمد بن سليمان : ٤٢١
 محمد بن عائشة : ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٧
 محمد بن عبد الله (الرسول صلى الله
 عليه وسلم) : ٢٩٩
 محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري :
 ٢٦٣
 محمد بن عمرو الزف (المغني) : ٧٥
 محمد بن القاسم : ٢٣١
 محمد بن قيس : ٢٠١
 محمد بن يزيد (المبرد) : ٢٢٩ ، ٢٣١ ،
 ٤٤٣
 مخارق (المغني) : ١٠١ ، ١٠٤
 مروان بن الحكم : ١٣٧ ، ٢٨٥
 مسحل بن أثاية (شيطان الأعشى) :
 ٣٦٦ ، ٣٦٨

(هـ)

هاذر (شيطان النابغة الذبياني) ٣٧٦

هارون بن أحمد بن هشام : ١٠١

هارون الرشيد : ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٤ ،

٧٨ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٨ ، ٢١٩ ، ٣٥٢ ، ٣٦٩ ،

٤٠٣ ، ٤٢٤

هبيد (شيطان عبيد بن الأبرص) :

٣٦٨

هدبة بن خشرم : ٢٥٨

هشام بن عبد الملك : ١٨٦

هند بنت الحارث (أم عمرو بن هند) :

٢٤٥

هند بنت الحارث المريّة : ٣١٢

(و)

الوائق (الخليفة العباسي) : ١٠٦ ، ١٠٩

الوليد بن عبد الملك : ٣٧ ، ٢٦٣

الوليد بن يزيد : ٤٩ ، ٣٢٧

(لا)

لا فظ بن لا حظ (شيطان امرئ)

القيس : ٣٧٥

(ي)

يحيى بن أكثم : ٣٦٩ ، ٤٣٠

يحيى بن خالد : ٧٢ ، ٣٥٢

يحيى بن المبارك : ٤٢٢

يزيد بن الطثرية : ٢١٠

يزيد بن عبد الملك : ٣٤ ، ٤١ ،

١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٢٧

يزيد بن مسهر : ٣٦٨

يزيد بن معاوية : ٢٩١ ، ٣٠٥

يزيد بن الوليد بن عبد الملك : ٣٢٧

يونس بن محمد الكاتب : ٢٦ ، ١٨٨

فهرست الأماكن

(ع)	(١)
العقيق : ٣٥ ، ١٨٨ ، ٢١٧	الأبلة : ٥٣
(ق)	إضم : ٥٣
القاطول (نهر) : ٢٢٦	الأهواز : ٥٣
قرطبة : ٩١	(ب)
قميقتان : ٩١	باب محول : ٦٤
(ك)	بحر الخزر : ٣٩٠
كثيب أبي شحوة : ٣٢	البصرة : ١١٩
(م)	(ت)
المدينة : ١ ، ٢٤	التوباد : ١٥٢
مصر : ٣٤٨	(ح)
(ن)	حلوان : ٢٢٤
النوبة : ٣٤٥	(ذ)
(ي)	ذو طوى : ٤٧
الياسرية : ١١٦	(س)
اليمين : ١٥٢ ، ٢٠٤	سامرا : ٢٢٦

مراجع هذا الجزء

الأغاني	: لأبي الفرج الأصفهاني
الأمالى	: لأبي على القالى
الأمالى	: للزجاجى
البخلاء	: للجاحظ
بلوغ الأرب	: للألوسى
تزيين الأسواق	: لداود الأنطاكي
التطفيل	: للبغدادى
ثمرات الأوراق	: للحموى
جمهرة أشعار العرب	: لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشى
الحيوان	: للجاحظ
خزانة الأدب	: للبغدادى
ذيل الأمالى	: لأبي على القالى
ذيل زهر الآداب	: للحمصرى
رغبة الآمل	: للمرصنى
زهر الآداب	: للحمصرى
شرح الأمالى	: للبكرى

شرح مقامات الحريري	: للشريشي
شرح نهج البلاغة	: لابن أبي الحديد
صبح الأعشى	: للقلقشندي
عصر المأمون	: للدكتور فريد رفاعي
العقد الفريد	: لابن عبد ربه
عيون الأخبار	: لابن قتيبة
غرر الخصاص الواضحة	: لأبي إسحاق الوطواط
الكامل في التاريخ	: لابن الأثير
الكامل في الأدب	: للمبرد
مجانى الأدب	: للأب لويس شيخو
مجمع الأمثال	: الميداني
الحاسن والأضداد	: للجاحظ
الحاسن والمساوي	: للبيهقي
محاضرات الأبرار	: لابن عربي
المختار من نواد الأخبار (مخطوط)	: لمحمد بن أحمد الأنباري
مروج الذهب	: للمسعودي
المستظرف في كل فن مستظرف	: للأبشيبي
مصارع العشاق	: لأبي جعفر بن أحمد السراج
معجم الأدباء	: لياقوت الحموي
معجم البلدان	: لياقوت الحموي

المنتقى من أخبار الأصمعي

: للمرحوم الخضرى بك

مهذب الأغاني

: المقرئ

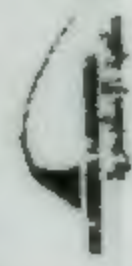
نفع الطيب

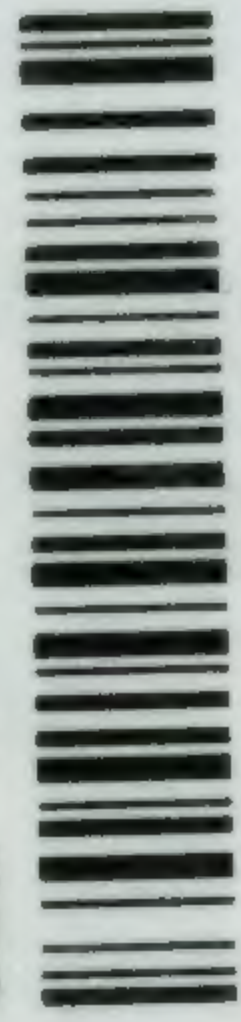
: للنويرى

نهاية الأرب

مراجع الضبط والشرح والتحقيق والتراجم

أساس البلاغة	: للزمخشري
الأعلام	: للزركلي
تاريخ آداب اللغة العربية	: لجورجي زيدان
تاريخ الأمم الإسلامية	: للمرحوم الحضري بك
رغبة الأمل من كتاب الكامل.	: للمرصفي
شرح ديوان الحماسة	: للتبريزي
شرح الأمالي	: للبكري
شرح الفضائيات	: لابن الأنباري
طبقات الشعراء	: لابن سلام
طبقات الشعراء	: لابن قتيبة
الفاخر في الأمثال	: للضبي
فهرس خريطة الممالك الإسلامية	: لأمين بك واصف
القاموس المحيط	: للفيروزابادي
لسان العرب	: لابن منظور
المعارف	: لابن قتيبة
معجم البلدان	: لياقوت الحموي
وفيات الأعيان	: لابن خلكان

 Bibliotheca Alexandrina



1030190